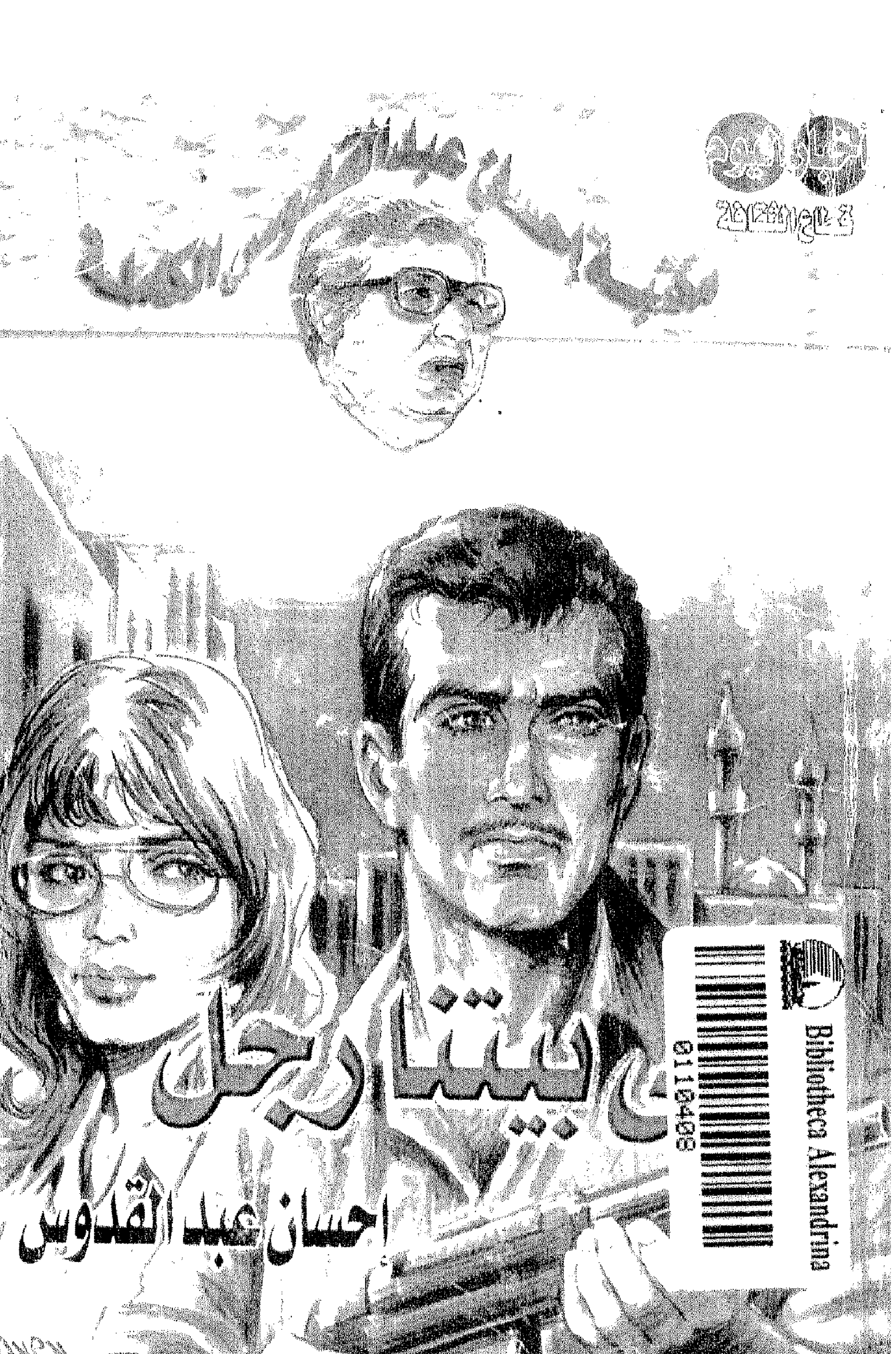
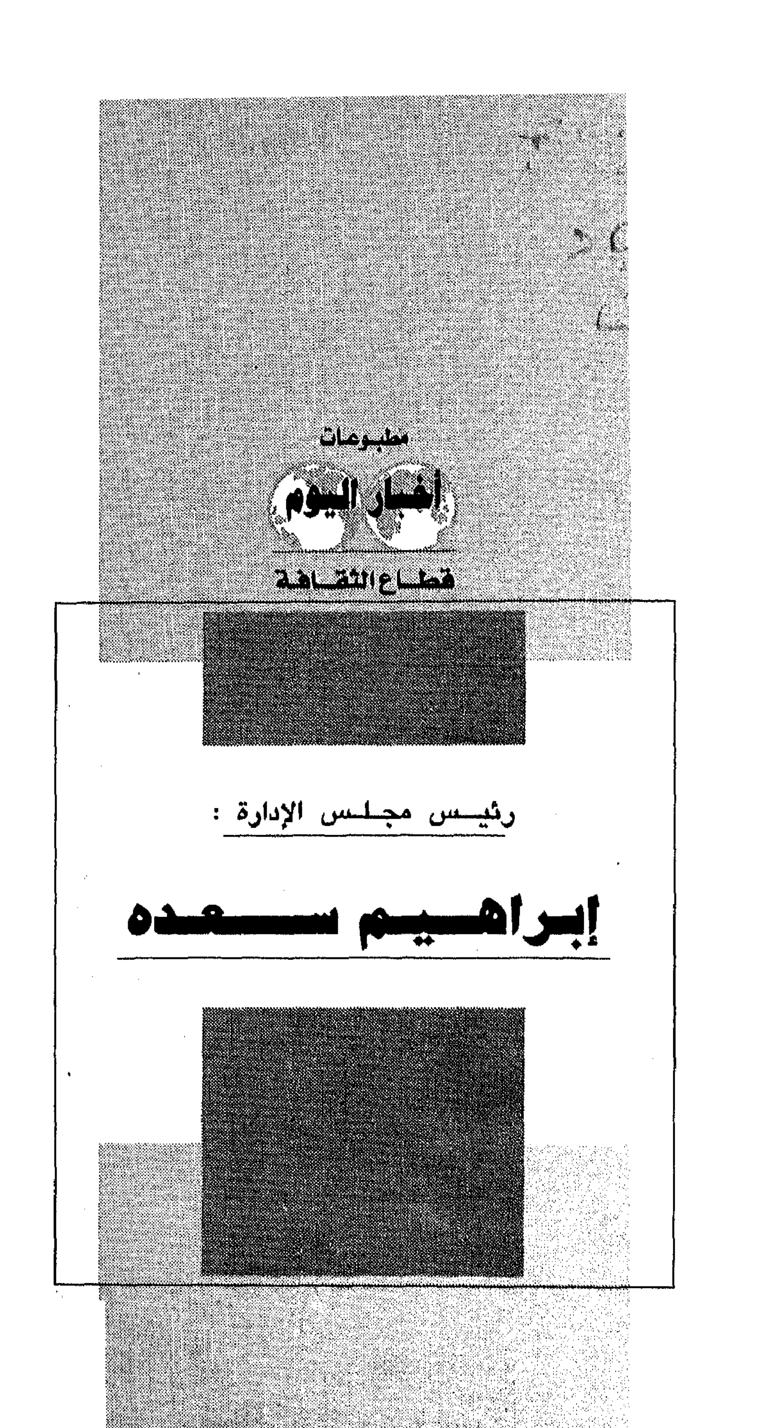


في بيتنا رجل

إحسان عبد القدوس



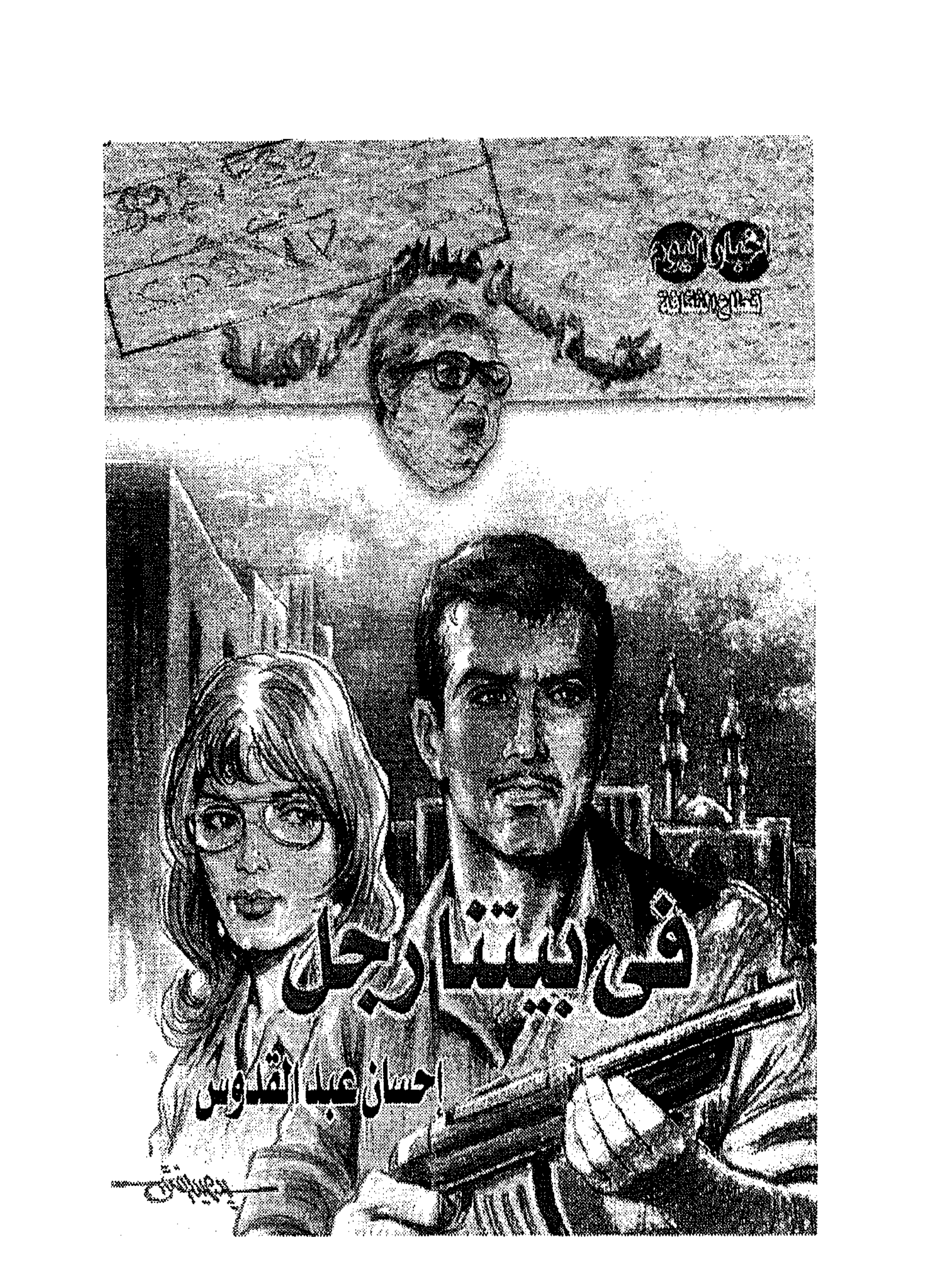
رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس: ٥٧٩٠٩٣٠


أخبار اليوم
قطاع الثقافة
فى بيتنا رجل
إحسان عبد القدوس

الإخــــراج الفـــنى :

مجـــدى حجـــازى

الغلاف بريشة الفنان :

ســيد عـبـد الفـتـاح



إنّ البطل لا يصنع نفسه ..
ولكن تصنعه أمته ..

إحسان



أحد أيام شهر رمضان.. والساعة الخامسة مساء، قبل الإفطار بساعة ونصف.. وكان راقدا فى فراشه بإحدى غرف مستشفى القصر العينى.. غرفة خاصة يقف على بابها جنديان من جنود البوليس يحمل كل منهما بندقية.

واعتدل فوق الفراش، وبدأ يجمع الصحف اليومية المتناثرة حوله، ويرتبها الواحدة فوق الأخرى.. وسقطت عيناه للمرة الألف فوق السطور العريضة الحمراء المنشورة فى صدر الصفحة الأولى: « قرار الاتهام فى قضية.... »

ولم يتم قراءة السطر العريض، إنما طوى الجريدة بسرعة كما طوى غيرها.. وقام واقفا واتجه إلى الحنفية المثبتة فى جانب من الغرفة.. وبدأ يغسل وجهه.. وأحنى رأسه وترك الماء ينصب فوقها بقوة كأنما يحاول أن يطفئ نارا تندلع فيها.. ثم عاد وهو يدفن وجهه فى المنشفة كأنه لا يريد أن يرى هذه النار.. لا يريد أن يرى شيئا..

وبدأ يبدل ثيابه.. خلع «البيجاما» وارتدى القميص والبنطلون.. ثم جلس فوق الفراش وأخذ يلبس حذاءه.. ثم دس يده تحت «مرتبة» السرير وتسلل بأصابعه داخل شق صغير فيها وأخذ يتحسس قطع القطن المندوف حتى اصطدمت أصابعه بشئ صلب صغير، جذبه إليه، ووضعه فى كفه وأخذ ينظر إليه برهة فى حنو تشوبه سخرية كأنه ينظر إلى طفل صغير.. إنه مسدس «براوننج».. وقد أصبح يسخر من المسدسات الصغيرة.. إنه

لا يحس بها فى يده.. يخيل إليه أنها أقرب إلى لعب الأطفال.. إن أول مسدس حمله فى يده كان مثل هذا المسدس.. صغيرا ضعيفا.. وقد كان أيامها صبيا.. كان لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره.. وقد كبر بعد ذلك.. أصبح رجلا.. وكبر معه المسدس.. أصبح مسدسا كبيرا.. «برتا».. ولكنه مضطر اليوم أن يعود إلى المسدس الصغير.. وأحس أنه يعود صبيا!!

ودس المسدس فى جيب البنطلون كأنه يخفى ذكرى عزيزة.. وقام يسير فى غرفته جيئة وذهابا.. ثم ألقى بنفسه فوق المقعد الوحيد.. ونظر إلى ساعته وتنهد.. وكأنه خشى أن يتنهد مرة ثانية. فجذب إحدى المجلات من جانبه وأخذ يقرأ فيها أخبار نجوم السينما..

إن مصر لا تزال تهتم بأخبار نجوم السينما .. كل هذا يحدث له، وفاتن حمامة لا تزال تظهر على الشاشة، وعماد حمدى يبدو فى صورته مبتسما سعيدا كأنه لا يدرى.. كأن مصر كلها لا تدرى أن أحد أبنائها سيموت فى سبيلها.. سيعدم.. سيشنق..

وألقى بالمجلة على الأرض فى عصبية وتمتم بينه وبين نفسه:

ـ لن أموت.. لن أمكنهم منى!!

ولم يبد شئ من ثورته على وجهه.. إن لم تنظر إلى عينيه فلن تجد شيئا مما فى نفسه، بل ربما اعتقدت أنه سعيد.. سعيد جدا لأن فاتن تمثل فيلما جديدا، وعماد حمدى يبتسم فى صورته..

وكانت هذه طبيعته.. أن لا يبدو شئ من أحاسيسه إلا فى عينيه، ويبقى باقى وجهه خاليا إلا من تعبير واحد لا يتغير.. تعبير مريح هادئ يجذبك إليه، ويسلب منك قلبك وعقلك.. فتحبه وتثق به، دون أن يخطر ببالك أن صاحب هذا الوجه يمكن أن يكون بطلا..

وربما هو نفسه لم يتعمد أبدا أن يكون بطلا.. ولم يتصور أبدا أن صورته ستحتل يوما الصفحات الأولى.. وأن الناس كلهم سيتحدثون عنه، وأن الدولة كلها ستقصر اهتمامها عليه.. لم يحس أبدا بدوافع البطولة.. بل لم يعتقد فى نفسه أنه أجرأ من غيره من الشباب، ولا أكثر منهم تطرفا فى وطنيته.. كانت تصرفاته كلها

تبدو طبيعية بالنسبة له.. لم يكن يحس فيها بشئ من التفوق، ولا بشئ من الشذوذ.. بل إنه كان يحس بمواطن ضعفه أكثر مما يحس بمواطن قوته، كان يحس مثلا أنه لا يستطيع أن يواجه الجماهير ويخطب فيهم.. وكان هذا الإحساس يصاحبه منذ بدأ يشترك فى الثورات الوطنية التى يقوم بها زملاؤه طلبة المدارس الثانوية.. فكان لا يتقدم الصفوف.. ولا يهتف.. ولا يلقى خطبا حماسية.. بل كان يتولى الجانب العملى فى الثورة.. ويتولاه صامتا بلا ضجة ولا صراخ..

كان إذا حاصر البوليس مدرسته تولى هو تركيب خراطيم الحريق ليسلط ماءها على رجال البوليس.. ثم يتولى جمع الزجاجات وملأها بالرمال ويفرقها على الطلبة كسلاح يقابلون به الرصاص الذى ينصب عليه.. ثم كان يبتكر أسلحة صغيرة ينبهر لها زملاؤه الطلبة.. زجاجات مولوتوف.. وكرات من القماش مغموسة فى الجاز يشعلها ويلقى بها على سيارات البوليس.. والطاسات التى يقدم فيها طعام المدرسة يقلبها إلى خوذات يضعها الطلبة فوق رؤوسهم ليحموها من عصى الجنود.. وشيئا فشيئا بدأ الطلبة يلتفون حوله ويثقون به وينتظرون منه دائما أن يفعل شيئا، ولكنهم ظلوا يعتبرونه زعيما صامتا.. لا يتقدم الصفوف، ولا يهتف ، ولا يخطب فيهم..

وقد أشاع صمته من حوله جوا مثيرا.. وتناقل الطلبة عنه عدة شائعات.. أن فى بيته عشرة صناديق مليئة بالديناميت وأن والده يخفى فى بلده مدفعا رشاشا.. إن أخاه ضابط فى الجيش وهو الذى يضع له خطط الهجوم والدفاع.. إنه يشترك فى الاجتماعات السرية التى يعقدها طلبة الجامعة ... و... و... ونسجت هذه الشائعات من حوله صورة مثيرة لبطل مثير يبهر زملاءه..

ولم تكن هذه الشائعات صحيحة.. كان والده مجرد موظف فى الدرجة الخامسة بوزارة الاشغال.. موظف كبقية الموظفين، يتحدث عن الدرجات، ويحذر ابنه من الاشتغال بالسياسة.. ولم يكن له شقيق ضابط فى الجيش.. ليس له شقيق على الإطلاق.. وليس فى

بيته صناديق مليئة بالديناميت ، ولم يشترك أبدا ـ حتى ذلك الحين ـ فى اجتماعات سرية يعقدها طلبة الجامعة..

وأكثر من ذلك أنه لا يشتغل بالسياسة.. لم يحاول أن يتعب رأسه بمناقشة المسائل السياسية.. لم يختر لنفسه مبدأ سياسيا معينا.. ولم ينضم لحزب من الاحزاب.. كانت وطنيته مجرد إحساس عاطفى قوى يدفعه مع المجموع، وينعكس فى رأسه كخطط لمقاومة رجال البوليس والتفوق عليهم. هذه الخطط التى تبهر الطلبة!!

كان يكره الإنجليز.. يمقتهم.. يحس بجرح فى كبريائه كلما رأى أحدا منهم.. لكنه لم يكن يعى حقيقة الاستعمار، ولم يكن يعى مدى ما يستنزفه الإنجليز من دم بلده.

وكان يكره الملك، ويكره الزعماء والوزراء.. وكان يطالب بإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦، وبرفع الأحكام العرفية.. كل ذلك دون فهم عميق للأسباب التى تحرك عواطفه.. مجرد إحساس مرهف بمطالب المجموع.. مطالب الشعب..

وكان فى السابعة عشرة من عمره، طالب فى مدرسة السعيدية الثانوية، عندما حمل إليه أحد زملائه المؤمنين به أول مسدس يقع عليه نظره.. مسدس «براوننج» صغير، وعلبة رصاص.. ولم ينظر زميله فى عينيه ليرى مدى الدهشة التى انتابته وهو يقلب المسدس فى يده.. بل ربما اعتقد الزميل أنه حمل إليه شيئا عاديا لا يليق ببطولته!

وأخذ المسدس وذهب به إلى بيته.. وأحس أنه قوى.. قوى جدا.. إنه يستطيع الآن، بهذا الشئ الصغير، أن يتخلص من كل أعدائه.. أعداء وطنه..

ولكن كيف؟!

إن إحساسه بهذه القوة الجديدة التى أصبحت بين يديه، صحبه إحساس آخر.. جديد أيضا.. إحساس بالمسئولية.. مسئولية استعمال هذه القوة.. إنه لا يستطيع أن يقتل من يشاء لأنه ليس قاتلا، ولا يريد أن يكون قاتلا.. ورغم ذلك فهو يحس أنه يستطيع أن

يستعمل هذا الشئ الصغير ليقوم به بدور كبير.

وحمل المسدس وعلبة الرصاص.. وخرج من بيته فى خطى محترسة كأنه يخشى أن ينطلق المسدس من تلقاء نفسه فى أى وجه عابر يمر به.. وركب الترام إلى نهاية شارع الهرم، ثم سار على قدميه حتى وصل إلى مكان قصى من الصحراء الممتدة خلف الأهرام.. وأخرج المسدس وعبأه بالرصاص.. ثم صوبه إلى حجر منتصب أمامه.. وارتعشت يده.. وجمد أصبعه فوق الزناد.. سيسمع دويا هائلا يصم أذنيه ويجمع الناس من حوله.. شئ هائل سيحدث لو ضغط على الزناد.. وخاف.. واحتاج إلى كل إرادته ليتغلب على الخوف.. ثم أغمض عينيه وضغط على جفنيه بشدة حتى يحكم إغماضهما، وخيل إليه أنه يضغط أيضا على أذنيه ليسدهما من سماع الصوت الرهيب..

واستطاع أخيرا أن يحرك أصبعه ويضغط على الزناد.. ولم يحدث شئ.. انطلقت الرصاصة فى طرقعة خافتة.. كأنه كسر بندقية بأسنانه، ومرت فى الهواء تئز أزيزا خافتا كأنه أزيز بعوضة.. لا دوى.. ولا شئ رهيب؟

وفتح عينيه وهو لا يصدق نفسه.

وابتسم ابتسامة واسعة، كأنه اكتشف عالما جديدا.. ثم أطلق الرصاصة الثانية. والثالثة.. والرابعة.. والخامسة.. و.. و.. وعبأ المسدس من جديد، وأخذ يطلقه وهو يحاول فى هذه المرة أن يصيب الهدف.. يحاول فى صبر وحرص، كأنه اشترى كلبا أصيلا يدربه على طاعته..

وأحب المسدس..

كان يضعه تحت رأسه قبل أن ينام ويفتح عليه عينيه أول ما يصحو، وكان يخفيه فى دولاب ملابسه قبل أن يذهب إلى المدرسة ثم يفكر فيه طول يومه.. ويتلهف عليه.. ويهيم فى خياله كأنه عاشق.. ثم يعود إلى البيت آخر النهار مسرع الخطى، ويدخل غرفته مباشرة ويغلق على نفسه الباب، ويخرج المسدس من الدولاب ويضمه بأصابعه فى شوق وفرحة.. ثم يعبث به كأنه

يداعب حبيبته.. ويفك أجزاءه كأنه يخلع عن حبيبته ثيابها!!

وكما يقبل العاشق على قراءة القصص الغرامية، بدأ يقبل على قراءة القصص البوليسية، وعلى مشاهدة أفلام رعاة البقر. وكانت عيناه دائما على المسدس وما يستطيع المسدس أن يفعله!

وكان بينه وبين مسدسه موعد عصر كل يوم خميس، وصباح كل يوم جمعة فيصحبه إلى الصحراء الواقعة خلف الاهرام ويطلقه.. وتصل أصوات الطلقات إلى أذنيه كأنها طرقعة القبلات.

وأجاد إصابه الهدف.. كان يصيب الهدف بمجرد أن يشير إليه بمسدسه، وأجاد جميع الحيل التى رآها فى أفلام رعاة البقر وقرأ عنها فى القصص البوليسية.. كان يصيب الهدف وهو مغمض العينين، ويصيبه وهو مدير ظهره إليه ناظرا فى مرآة.. وصغر حجم الهدف.. بعد أن كان حجرا كبيرا، أصبح قرشا، ثم أصبح قطعا فضية صغيرة من ذات القرشين.. وفى المرات القليلة التى كان يخطئ فيها إصابة الهدف، كان ينظر إلى المسدس فى لوم وعتاب ويقول له:

ـ كده برضه يا عزيزة!

ثم يبتسم، وكأن المسدس يرد عليه:

ـ معلهش الدور ده يا إبراهيم!

إلى هذا الحد أحب المسدس.. عزيزة!

ولكنه كان يخاف هذا الحب..

كانت فى صباه رجولة مبكرة تحذره من هذا الحب.. تحذره من هذه القوة الضخمة التى تنطلق فى قلبه كلما ضم المسدس بين أصابعه.. فأخفى هذا الحب، وكبت هذه القوة.. وحمل مسئولية المسدس بأمانة فلم يبد به أبدا أمام أحد، ولم يخرج به فى المظاهرات التى يشترك فيها مع زملائه الطلبة.. كان يخشى أن يفقد أعصابه يوما، فيطلقه.. بل إنه لم يتحدث أبدا عن مسدسه أمام الناس.. كان يحمل حبه فى صمت، كالعاشق الشريف.

وظل هكذا.. ليس فى قلبه إلا عواطفه الوطنية، وليس له هواية إلا «مسدسه» إلى أن انتهى من دراسته الثانوية، والتحق بكلية

الحقوق، واحتل بين زمـلائه الجدد نفس المكانة التى كانت له دائما. مكانة الزعيم الصامت الذى لا يفرض زعامـته ولكنه يجذبك إليها.. حتى الذين حاولوا الاستهانة به، ومعظمهم من الطلبة المنضمين إلى اللجان الحـزبية، لم يستطيعـوا أن يكرهوه فهو لا يدع لهم سـبيلا إلى كراهيـته.. إنه لا يعـارضهم فى آرائهم بل يسـتمع إليـهم كأنه يتلقى منهم دروسـا، ولا يشترك فـى جدالهم الحزبى لأنه لا يـنتمى إلى حزب من الأحـزاب، ولا ينافسـهم فى مـواقفهم، لأنه لا يتـقدم الصـفوف، ولا يقـود الهتـافات، ولا يـلقى خطبا، إنما يقـوم بدوره خلف الصفوف وإن امتد أثره إلى الصف الأول..

كل مـا كانـوا يأخذونه علـيه.. أنه جـاد أكـثر مـن عمـره.. إنه لا يتكلم إلا إذا كانت هناك حـاجة ماسة إلى كـلامه.. وهو لا يلعب الطاولة فى النادى، ولا البوكر ولا الـكونكان.. بل إنه لا يتقرب إلى الطالبـات.. ولا يلاحقـهن كـبقـيـة زملائه، ويبـدو أنه يحـتقـرهن ويتجاهل وجودهن..

ولم يكن هذا تزمتـا منه.. كانت هذه هى طبـيعتـه.. لا يستطيع الكلام الكثير، ولا يحب أن يلعـب الطاولة، ويكره أن يشاهد زملاءه يلعبـونها لأن صوت نقل أحجارهـا يذكره بصوت طلقات مـسدسه الحـبـيب.. ولا يحب أيـضـا أن يجلس إلى مـائدة ليـلعب البـوكـر والكونكان.. أمـا البنات، فـهو لا يكرهـهـن، ولكن ليس لهن أثر فى حيـاته.. كانت دنياه خـالية دائمـا منهن.. لم يكن له أخت، ولم يكن يعتبر أمه امرأة كبقية النساء.. كانت فى نظره انسانا كاملا ليس له مثيل فى الوجود.. انسانا لم يكن أبدا بنتا..

لم يكن متزمـتا.. ولم يكن يغضبـه أن يلعب زملاؤه الطاولة أو الكتشـينة أو يلاحقون البنات.. كثـيرا ما كان اصـدقاؤه يروون له مغامراتهم الغرامية فيسـتمع إليها بانتباه شديد.. ولكن هذا الانتباه كان ينصب على تتبع أحوال اصدقائه أكثر مما ينصب على المغامرة نفسـها أو على بطلة هذه المغامرة.

وقد كان يحب أصدقاءه كثيـرا.. كما يحب مسدسه.. وكان فى حبه لـهم رجولة عارمة وشـهامة وافتـداء.. لم يكن يبخل بشئ فى

سبيل أصدقائه.. لم يكن يبخل حتى بحياته.. ومرة أو مرتين كاد يقتل أثناء المظاهرات، وهو يحاول أن ينقذ أحد أصدقائه من القتل.. بل كاد يقتل مرة فى سبيل كل الطلبة، عندما ألقى بنفسه فى النيل اثناء سير المظاهرات، وتعلق بقارب صغير وجدف حتى وصل إلى قاعدة كوبرى عباس، وصعد إليها ليغلق الكوبرى الذى كان البوليس قد فتحه ليحول دون وصول الطلبة المتظاهرين إلى القاهرة.. ولم يستطع أن يغلق الكوبرى، فقد تصدى له البوليس وانهالوا عليه بالعصى، فاضطر أن يلقى بنفسه ثانيا فى النيل ويسبح حتى الشاطئ..

إلى هذا الحد كان يحب أصدقاءه وزملاءه.. حبا ليس فيه تكلف ولا ادعاء إنما ينبعث من طبيعته.. وربما كان هذا الحب هو سر انجذابهم إليه.. وسر الشعاع المريح الهادئ الذى يحيط بوجهه الأسمر.. سمرة القمح فى موسم الحصاد!!

ولم يكن ينتظر له أن يكون أكثر من ذلك.. طالب يهب عواطفه لوطنه وزملائه.. ويحب مسدسه حبا خفيا مكتوما..

هو نفسه لم يكن يعتقد أن دوره فى الحياة، فى هذه الفترة من شبابه، سيتعدى هذا الدور الشريف الذى يقوم به..

إلى أن كان يوم..

وكان خارجا من السينما مارا بشارع عدلى باشا.. ولمح أمام إحدى الحانات زحاما شديدا.. جنودا إنجليز وباعة متجولين مصريين.. وصراخا.. ومعركة..

واقترب ووقف يتتبع المعركة، ضمن جمهور المتفرجين وبدأ مقته للانجليز يتحرك فى صدره.. واشتد إحساسه بالمقت حتى أصبح ثورة.. ثار دمه الحار.. وبدأت أعصابه ترتعش.. وتمنى أن ينتصر الباعة المتجولون على الانجليز.. يجب أن ينتصروا.. ولكن الجنود الإنجليز تكاثروا. ثم لمح واحدا منهم يخرج مطواة ويشهرها فى الهواء ثم يغمدها فى جبهة أحد الباعة.. وسال الدم.. دم مصرى..

ولم يعد يحتمل.. لم يعد يرى شيئا.. وفى لحظة واحدة قفز وألقى بنفسه فى وجه الإنجليز.. قبضاته.. ورأسه.. وكتفاه

وساقـاه.. كل قطعة منـه كانت تنقذف فـى وجوه أعدائه من تـلقاء نفسها.. ولم يكن يدرى كيف يسدد ضرباته.. كنت تصرفاته أسرع من تفكيره..

وبدأ يحس بضـربات مقـابلة تنهال عليـه.. كل الضربات تنـهال عليه.. إنهم يلكمونه.. يصفعونه.. يركلونه..

ووقع على ركبتيه..

وفجـأة تذكر شيـئا.. المسدس.. لو كـانت «عزيزة» معـه لقتلهم جميعا.. الكلاب.. كانت عزيزة تستطيع أن تصونه من هذه الاهانة.. تحفظ له كرامته.. سأقتلهم جميعا.

ورفع رأسه وهو لا يزال راكعا على ركبتيه فلمح المطواة فى يد الجندى الإنجليـزى مشـهـرة فى الهواء، ثم لمحـهـا تشق الفضـاء كالقذيفة متجهة إلى رأسـه.. وما برأسه بسرعة، وهب على قدميه.. وأخذ يعـدو.. بعيدا عن المعـركة. ثم تعلق بسيـارة أجرة وطلب إلى السائق أن يتـجه به إلى بيتـه.. فى المنيرة.. وهو يتعـجله.. أسرع.. أرجوك أن تسـرع.. والسائق ينظر إليـه مبـتسمـا كأنه فـيلسوف، ويتفحص الكمدات التى تبرز من خديه، وفوق عينيه، ثم يقول وهو يضحك وكأنه يخفف عنه:

ـ تعيش وتاخد غيرها!!

ولم يرد على السائق.. ظل يردد كالمجنون.. أسرع.. أرجوك أن تسرع.. إلى أن وصل إلى البيت.. وقال للسائق.. انتظرنى.. وصعد السلم كـأنه أسرع من سـاقـيه.. واقـتحـم غرفـته دون أن يسـمع صرخة أمـه عندما فتحت لـه الباب.. وأخرج مسدسـه.. وعاد ينزل السلم كـأن ساقـيـه أسرع منه.. وألقى بنفـسـه فى السيـارة التى تنتظره، وهو يقول من بين أنفاسه المبهورة:

ـ رجعنى شارع عدلى باشا.. قوام وحياة أبوك!!

وأنطلق الـسـائق بسـيـارته، ثم التـفت إلى الـوراء، ونظر إلى الراكب.. نظرة الفيلسوف، وعاد يقول فى ابتسامة حانية:

ـ بس لو كنت تهدى نفسك شوية يا سيدنا لافندى!!

ولم يرد عليه..

كانت يده تقبض على المسدس وهو فى جيب سترته.. وكأنه وضع فى جيبه ـ مع المسدس ـ كل قلبه، وكل عقله، وكل شبابه.

ووصل إلى شارع عدلى باشا.. ولم يجد شيئا.. كانت المعركة قد انفضت ولم يبق منها سوى بقع متناثرة من الدماء فوق الأرض السوداء.

وتلفت حوله يبحث عن أى واحد منهم.. عن أى إنجليزى.. وكان الطريق خاليا منهم..

وهدأت رعشته..

وانفرجت أصابعه عن المسدس المختفى فى جيب سترته.. ثم تذكر شيئا.. تذكر أنه لم يدفع أجرة السيارة.. والتفت إلى السائق فإذا به ينظر إليه نفس النظرة.. نظرة الفيلسوف.. وبين شفتيه نفس الابتسامة.. ابتسامة حانية فيها طيبة وفيها يأس!

وأخذ يدخل كفه فى جيب، ويخرجها من جيب، باحثا عن النقود فلم يجد.. لم يكن معه سوى خمسة قروش.. وكان يعلم أن ليس معه سوى هذه الخمسة قروش، ولكنه فى خلال ثورته نسى..

وقال السائق وهو يرى ارتباكه:

ـ معلهش يا سيدنا لافندى.. خللى عنك.. ولا يكون عندك هم.. الجماعة يدفعوا بدالك!

وقال فى دهشة:

ـ الجماعة مين؟

قال السائق وهو يضحك:

ـ جونى.. هوه فيه جماعة عندنا غيرهم.. سلامو عليكو!

وانطلقت السيارة.. كأنها تشارك سائقها فى قهقهته..

وسار على قدميه، والهواء البارد يضمد جراح وجهه.. سار حتى بيته فى المنيرة.. وكان يفكر.. واكتشف أثناء تفكيره أشياء جديدة.. خطيرة.. اكتشف أن دوره لا يمكن أن يكون مقصورا على تدبير المظاهرات الوطنية والاشتراك فيها..

لماذا يقذف البوليس بالطوب.. ولماذا يحطم الفوانيس ويحرق عربات الترام؟!

لماذا؟

لأنه يؤمن بحق وطنه فى الحرية..

والدستور، وإلغاء المعاهدة، ورفع الأحكام العرفية.. كل هذه مطالب تهدف إلى تحقيق الحرية..

ومن الذى اغتصب حريته .. حرية وطنه ؟!

ليس البوليس، ولا شركة النور ولا شركة الترام، ولا زعماء الأحزاب!

إنهم الإنجليز!

إذن لماذا لا يضرب الإنجليز مباشرة..لماذا لا يوجه المعركة إليهم، بدل أن يوجهها إلى البوليس؟

وكان هذا هو بدء تفتق وعيه السياسى..

وكان هذا اليوم، هو اليوم الذى اتجه فيه تفكيره إلى تكوين جمعية سرية لاغتيال الجنود الإنجليز!

وقضى أياما كثيرة مترددا..

إنه ليس قاتلا.. لا يريد أن يقتل

ولكنه لن يقتل.. إنه يحارب.. حربا شريفة.. هم يقابلونه بأساطيلهم ومدافعهم، وألوف من جنودهم.. وهو سيقابلهم وحده، ومسدسه الصغير!

وقضى ليلة مفتح العينين.. لم يكن يشعر بجراحه ولا بالكدمات التى تغطى وجهه، كأنها آثار أقدام ثقيلة داست فوقه. وإنما كان ينظر فى العالم الجديد الذى تفتح أمامه.. عالم ملئ بالجثث والدماء.. جثث الإنجليز ودماء الإنجليز.. وجثة الإنجليزى الذى ضربه على وجهه وشهر المطواة فوق رأسه!

ولم يكن هذا العالم يخيفه أو يزعجه.. كان ينظر إليه فاحصا مدققا وفى عينيه عزم وتصميم..

وخرج فى اليوم التالى ومسدسه معه.. لم تعد «عزيزة» تفارقه منذ ذلك الحين.. أصبحت دائما فى جيبه..

وبدأ يدرس خططه.. عرف جميع الطرق المتطرفة التى تؤدى إلى معسكرات الإنجليز.. العباسية.. المعادى.. ألماظة.. طريق

الاسكندرية.. وعرف موعد عودة الجنود إلى ثكناتهم وعرف أن التعليمات تحتم عليهم ألا يخرجوا إلى القاهرة فرادى..دائما فى جماعات.. وعرف الأسلحة التى يحملونها، عرف كل شئ وتجمعت لديه كل المعلومات التى يحتاج إليها..

وأختار مكان المعركة الأولى.. فى مصر الجديدة، عند نهاية خط الترام.

وعندما بدأ يضع خطة التنفيذ، اكتشف أنه لا يستطيع أن يقوم بها وحده.. إنه فى حاجة - على الأقل - إلى شريك يملك سيارة، ليهرب فيها بعد أن يطلق رصاصته..

وبدأ يبحث عن الشريك الأول.. واختار نفس الصديق الذى أهداه المسدس.. كان أبوه يملك سيارة، وكان شابا نظيفا صادقا فى عواطفه الوطنية، وكان سهل الانقياد له.. ولكنه لم يعرض عليه ابتداء فكرة اغتيال الإنجليز بل أخذ يتردد عليه كل يوم ويحدثه بأسلوبه الهادئ وكلماته القليلة عن الإنجليز.. عن جرائمهم وفظائعهم.. إلى أن أوحى إليه بالفكرة فعرضها هو.. عرضها صديقه كأنها من أفكاره وصاح فى حماس:

- لماذا لا نقتلهم؟!

وتعلق إبراهيم بهذه الصيحة، وبدأ يبحث مع صديقه خطة التنفيذ!

ومرت اسابيع طويلة قبل أن يحدد اليوم والساعة.. كان يحسب حساب كل شئ بدقة وحرص.. كأنه يخدع الموت!

ووقفت سيارة فى الساعة الثانية عشرة قبل منتصف الليل، عند نهاية خط ترام ألماظة.. كل شئ حولها هادئ، كأن الليل أصيب بالهلع فكتم أنفاسه..

ولم يتكلما.. مضت مدة طويلة دون أن يتكلما.. لقد اتفقا على الخطة.. واتفقا على أنه إذا قبض على ابراهيم أو سقط صريعا، سيفر الآخر بالسيارة وحده..

وجاء جنديان إنجليزيان.. سكارى.. ووضع إبراهيم يده على مقبض باب السيارة.. ونظر إلى صديقه نظرة حائرة كأنها نظرة

وداع.. وتردد قليلا، ولكنه وجد صديقه أكثر منه ترددا.. كانت شفتاه ترتعشان، وكان فى عينيه نظرة اختلط فيها الخوف بالرجاء، كأنه يتوسل إليه أن يعدل عن التنفيذ.

واستمد من ضعف صديقه قوة.. شد ظهره، وزم شفتيه، ثم ابتسم له ابتسامة صغيرة كأنه يشجعه ويطمئنه، ثم فتح الباب بسرعة ووقف منتصبا فى الطريق فى وجه الجنديين الإنجليزيين، ويده قابضة على « عزيزة » داخل جيب سترته..

ومرة ثانية أحس بالتردد، وأحس أن تردده قد طال إنه لا يستطيع أن يخرج عزيزة من جيب سترته، كأنها فتاة تتمنع.. إنه لا يستطيع أن يضغط على الزناد.. لا يستطيع أن يقتل..

وأحس أن قلبه يختنق، وأن ركبتيه لم تعودا تحملانه، كأنه أصبح معلقا فى الهواء..

وكاد يعود إلى السيارة ويهرب.. يفر، ويعترف لعزيزة ولصديقه بضعفه..

ولكن..

فجأة هجم عليه الجنديان وقبضاتهما موجهة إلى صدره..

وفى لمح البصر خطا خطوة إلى الوراء ونزع عزيزة من جيبه.. وأطلقها..

وصرخت عزيزة صرخة مكتومة.. وأزت الرصاصة كأزيز ناموسة.. وسقط جندى إنجليزى على الأرض قتيلا..

وكان آخر ما رآه نظرة هلع تملأ وجه الجندى الآخر..

وقفز إلى السيارة، وقادها صاحبه بجنون كأنه يريد أن يشق الأرض ويختبئ فيها.. وعندما وصلا إلى المدينة هدأ من سرعته.. وأصبح يقود السيارة كأنه يتنزه هو وصديقه، أو كأنهما يبحثان عن فتاة يلاحقانها.. هكذا كانت تقضى الخطة!

ولم يتكلما.. لم يستطع أى منهما أن يتكلم.. حتى عندما وصلت السيارة إلى بيت ابراهيم ونزل منها لم يستطع أن يحيى زميله، ولم يستطع زميله أن يحييه.

وبات مفتح العينين.. وجثة القتيل ماثلة أمامه.. ولكن هذه الجثة

لم تكن مدار تفكيره.. لم تكن تثيره.. إنما كان يناقش نفسه: هل هو على حق؟

ودقات الساعة تطرق على رأسه كأنها تؤكد له: أنه على حق!!

وعندما فتح عينيه فى الصباح.. وأمسك بالجريدة بيد تكاد ترتعش.. لم يجد خبرا عن قتيل الأمس.. لقد منعت الرقابة نشر الخبر حرصا على هدوء الناس..

وكان هذه هى المرة الأولى..

وتوالت بعدها المرات.. وكبرت الجمعية.. أصبح عددها سبعة شبان وكبرت المسدسات.. استطاعوا أن يشتروا مسدسات أكبر.. وأصبح له مسدس كبير.. أكبر من حجم كفه.. «برتا».. وكان يحس وهو يقبض عليه أنه يخون «عزيزة».. ولكن ما ذنبه؟ إن عزيزة لا تريد أن تكبر معه.. تركته يكبر وحده.. إنها كالحب الأول.. يظل دائما فى عمر الصبا..

وكان السبعة يذهبون كل أسبوع إلى الجبل ويتدربون على إطلاق مسدساتهم ثم يجتمعون لوضع خططهم.. كانوا كلهم يتكلمون كثيرا، ثم يلتفتون إليه ليقول الكلمة الأخيرة.. لم يكن أكبرهم فلم يكن قد تعدى العشرين من عمره، وبينهم من وصل إلى الثانية والعشرين، ولم يكن زعيمهم، فقد اتفق السبعة على أن لا يكون لهم زعيم، ولكن كانت هذه طبيعته.. أن يقول الكلمة الأخيرة.. ولم يتهوروا.. أو على الأقل لم يدعهم يتهورون.. كان يقول كلمته فى حرص شديد.. وكان يترك فترة طويلة من الزمن بين كل عملية وأخرى.. وفى خلال عامين لم تتم أكثر من ثمانى عمليات.. وتمت كلها بنجاح.. لم يستطع البوليس أن يعثر على أثر يتتبعه. ولم تستطع الاجراءات الكثيرة التى وضعت لحماية الإنجليز أن تحول دون العملية التالية.. كان دائما يجد منفذا، ودائما يجد خطة..

وأجتمعوا، ووضعوا خطة العملية التاسعة..

وقبل التنفيذ بيوم واحد ألغى العملية..

ودهش زملاؤه.. ووصلت دهشتهم إلى حد الاحتجاج، ولم يجد

عذرا يقوله لهم إلا أنه غير مطمئن إلى الخطة..
ولم يكن هذا عذره..
كانت قد مرت به أسابيع وهو يحاسب نفسه ويراجعها..
ما جدوى هذه العمليات التي يقوم بها؟
إنه لا يستطع أن يقضي على الجنود الانجليز كلهم.. إنهم آلاف.. والاغتيال قد ينقصهم واحدا أو اثنين أو عشرة أو مائة.. ولكنهم لن يخرجوا من مصر.. سيظلون دائما على قلبها..
ثم إن هذه «العمليات» ليس لها صدى بين الناس بعد أن منعت الرقابة نشر أنبائها.. أنهم لا يحسون بها.. لا تثيرهم ولا تحمسهم ولا تجمعهم في عمل واحد.. إنها تبدو كأنها هواية شخصية.. وهو لا يهوى القتل.. إنه يريد أن يؤدي عملا وطنيا إيجابيا يثير الناس، وينبههم، ويكتلهم، ويفتح أبواب معركة يخوضونها جميعا..
كيف استطاع الإنجليز أن يضغطوا على الناس كل هذا الضغط.. وأن يتمكنوا من قلب مصر إلى حد لم يعد يجدي معه قتل أفراد من جنودهم!؟
ليس الجنود الانجليز هم الذين يفرضون الرقابة.. وليسوا هم الذين يتولون تنفيذ الأحكام العرفية.. وليسوا هم الذين يجمعون الوطنيين ويغلقون عليهم أبواب المعتقلات.. إنها سياسة متفق عليها.. بل سياسة يفرضونها.. ومن الذين يقومون بتطبيق هذه السياسة.. سياسة حماية الاحتلال البريطاني؟!
إنهم العملاء.. الخونة!
وبدأ يشعر برعشة!
إنه يعلم إلى أين يقوده تفكيره.. ويعلم أنه عندما يتمكن منه هذا التفكير، فلن يستطيع أن يقاومه، وسيدفعه إلى القتل.. وسيقتل هذه المرة مصريا.. أو مصريين.. وقد حرص منذ وقع في يده أول مسدس، ألا يصوبه إلى صدر مصري.. لم يخرج به في مظاهرة من المظاهرات.. تحمل الكثير من عصى رجال البوليس ومطاردتهم، ولم يفكر مرة واحدة في استعمال مسدسه.. لم يكن يستطيع أن يرفع مسدسه في وجه مصري!

ولكنه لا يفكر الآن فى رجال البوليس.

إنه يفكر فى فئة أخرى.. فى العملاء.. الخونة.. إن رجال البوليس شرفاء، إنهم أداة لتنفيذ سياسة لا ذنب لهم فيها ولكن هؤلاء العملاء.. الخونة.. إن عليهم الذنب كله.. ولو استطاع أن يقضى عليهم، لما وجد الانجليز من ينفذ سياستهم.

ولن يستطيعوا هذه المرة إخفاء الخبر.. إن مقتل عميل كبير لا يمكن أن يخفى.. وسيثور الشعب فرحا لمصرعه.. وسيخاف بقية العملاء.. و..

وقضى أسابيع أخرى يتعذب بفكرته، ومنطقه الجديد يوقظه من نومه، ويلح على رأسه..

ولكن كيف يتأكد من أن هذا أو ذاك عميل للإنجليز، خائن لمصر!

هناك واحد أجمع الناس كلهم على خيانته.. هو نفسه يتباهى بأنه عميل.. وعقاب الخيانة القتل.. لقد حكم الناس بخيانته، وبقى أن ينفذ الحكم..

وهو الذى سيتولى التنفيذ..

وكعادته بدأ يسوق أفكاره إلى زملائه، ويوجههم إليها، ويدعهم يسبقونه إلى ما يريده.. حتى قرروا أن يحولوا نشاطهم إلى العملاء.. واقتنعوا أنهم لن يتخلصوا من الإنجليز إلا إذا تخلصوا من عملائهم أولا..

ووضعت الخطة..

خطة اغتيال عبدالرحيم باشا شكرى.. رجل الانجليز فى مصر!

وتم كل شىء كما رسمه على الورق ، وكأنه إله صغير يسيطر على القدر.

وأطلق رصاصته، التى لا تخيب.. وأطلق بعدها رصاصتين كأنه يطارد بها الروح الصاعدة فى طريقها إلى الجحيم.. وجرى نحو السيارة التى تنتظره.. وكان المفروض أن تتحرك قبل أن يصل إليها، وأن يتعلق بها ثم تنطلق به.. ولكن السيارة لم تتحرك.. شىء أصابها.. وهو يسمع من وائه صياحا وصراخا وأقداما تهرول..

وصاحبه يضغط على مفتاح السيارة فتزفر أنينا كشهقات الموت، دون أن تتحرك..

واجتاز السيارة وأخذ يعدو بكل ما في ساقيه من قوة، وبكل ما في صدره من أنفاس.. كان يعدو بلا تفكير.. لا يدرى إلى أين.. ولكنه يعدو.. والصياح والصراخ يعدوان وراءه.. وسمع صفارات رجال البوليس.. وسمع من يهتف «حرامى.. حرامى».. والناس تتكاثر وراءه.. كلهم يعدون خلفه.. ولا يدرون لماذا يعدون.. بعضهم يعتقد أنه فعلا «حرامى»!

لماذا لا يطلق مسدسه عليهم..

إن رصاصة واحدة كافية لتشتيتهم.. لو سقط منهم قتيل واحد لفر الباقون!!

وقبض على مسدسه.. وأدار رأسه إلى الخلف، وهو لا يزال يعدو..

ولكنه لا يستطيع..

إنه ليس قاتلا..

إن هؤلاء الناس أبرياء.. إنهم ليسوا خونة.. وليسوا عملاء للإنجليز.. ولن يقتل منهم أحدا حتى لو قتلوه!

ولكنهم يقتربون.. وأفواج جديدة تنضم إليهم، وتعدو معهم، وقد بدأت أنفاسه تتخلى عنه.. وبدأت ساقاه تتصلبان.. وبدأ يشعر بجفاف حاد في حلقه كأن فيه سكينا.. ويبست شفتاه كأنهما استحالتا إلى قطعتين من خشب.

وفجأة.. توقف عن العدو..

ولحق به الناس.. وتكاثرت الأيدى فوق كتفيه!!

وملأ صدره بكل ما بقى من انفاسه ثم استدار لهم.. ورأوا وجهه.. وجها خاليا إلا من تعبير واحد لا يتغير.. تعبير مريح هادئ يجذبك إليه ويسلب منك قلبك وعقلك.. والذين لم ينظروا إلى عينيه لم يروا مدى ما كان يعانيه من حيرة وجزع وخوف.

وتساقطت الأيدى من فوق كتفيه كأن الناس ندموا لأنهم أمسكوا به.. ولم تبق سوى كف رجل البوليس ممسكة به..

وساروا بـه إلى حيث سـقطت جثـة الخائن والناس من حـوله.. وأوقفوه أمامها إلى أن يأتى الرؤساء ورجال النيابة.
ولم ينظر إلى الجثة.. لم يستطع.. إنه يستطيع أن يواجه الخونة وهم أحياء ولكنه لا يستطيع أن ينظر إلى جثثهم.
وسـمع واحـدا من الناس يهـمس وهو ينظر فى وجـه الخـائن المقتول:
ـ يستاهل!!
وارتفعت إلى شفتيه ابتسامة ضعيفة.. كأنه سمع حكما ببراءته.. حكما أصدره الناس..
وبدأ التحـقيق فى نفس الليلة.. واسـتمر شـهورا عـديدة، قبض خلالـهـا على كل أعضاء جـمعيـته، ولم يكن هو الذى أرشـد إليهم، ولكنها نمرة السيارة التى ضبطت هى التى دلت عليهم..
وضجت مـصر كلها من حـوله.. وأصبح اسمـه على كل لسان، وصورته على الصـفحة الأولى مـن كل جريدة.. وتطوع كثـير من المحامين للدفاع عنه. بعضهم جاء عن إيمان بوطنيته، وبعضـهم جاء ليستـغل القضية فى نشـر اسمه والدعاية لنفسـه. وجاءته خطابات كثـيرة فى سـجنه.. بنات وشبـان يكتبـون له ويباركون الـيد التى أطلقت الرصاص.. ونـاس لا يعرفهم يرسلون له فى الـسجن هدايا من علب السجائر والفـاكهة.. وأمه تبكى ثم تـجفف دمـوعها وترفع رأسـهـا.. وأبوه صامت كأن ابنه قـد استشـهـد ودخل الجنة! وعرف من خلال هذه الضجة أنه قد اصبح بطلا..
لم يحس بالبطولة فى نفـسـه.. إنه لم يتغـير، لا يزال يعتـقد أن تصرفاته كانت طبيعية ليس فيها شذوذ.. الناس هم الذين يعتبرونه بطلا..
ولكن ماذا يجديه أن يعتبره الناس بطلا؟
إنه سيموت!!
سيعلق فى حبل المشنقة، ووسام البطولة معلق على صدره..
وهو لا يريد أن يموت.. لا يريد أن يشنق.. يريد أن يعيش.. إنه

يحس أن الحياة لاتريد أن تفارقه.. إن دماءه أحر من أن تجف، وقلبه أقوى من أن يتوقف..

وبدأ يفكر فى الهرب..

لم يعد ينام.. ولا يأكل.. ولم يعد يهتم بسير التحقيق معه.. لم يعد فى رأسه ولا فى نهاره وليله سوى فكرة واحدة.. الهرب.

وتعمد أن يطيل التحقيق.. كان يخرج للمحقق كل يوم باعتراف جديد ويكسب وقتا يستزيد فيه من التفكير فى الهرب..

وقرر أنه لن يستطيع الهرب من داخل السجن..

خير طريق للهرب أن ينتقل إلى مستشفى القصر العينى، كما انتقل غيره من المسجونين السياسيين..

وبدأ يتمارض..

وبحث فى نفسه عن علة قديمة.. وأدعى أنه يصاب بأزمات فى الكلى..

ونشرت الصحف أنباء مرضه.. وتتبعها الرأى العام، وبدأ يتهم الحكومة بإساءة معاملته.. وأرسلت له الحكومة طبيب السجن، وأرسل له أهله طبيبا خاصا.. وقرر الاثنان ضرورة نقله إلى مستشفى القصر العينى.. وربما اتخذ الاثنان هذا القرار قبل أن يفحصاه..

ونقل إلى القصر العينى بعد أن انتهى التحقيق وبدأت النيابة تعد تقريرها.. ووضع فى غرفة خاصة.. وعينت له حراسة.. جنديان يقفان على بابه، وضابط اتخذ له مكتبا فى الغرفة المواجهة لغرفته..

كان ذلك فى أول شهر رمضان..

ومنذ اليوم الأول بدأ فى تنفيذ خطته..

بدأ يعود حراسه على أن يروه كل مساء فى الساعة الخامسة مساء وهو يرتدى ثيابه.. القميص والبنطلون والحذاء.. ولا يخلعهما إلا قبل أن ينام فى الساعة الحادية عشرة..

وبدأ يكسب صداقة الضابط..

كان الضابط شابا لا يقل وطنية عن سجينه وإن اختلف فى واجبه.. وكان بحكم مهمته سجينا مع السجين وفى حاجة إلى من

يتحدث إليه ويقتل معه الوقت.. ووجد فى سجينه إنسانا مثقفا دمثا حلو الحديث، رزين الفكر رغم قلة كلامه..

ووقع الضابط تحت سيطرة الوجه المريح الهادئ الذى يجذبك إليه ويسلب قلبك وعقلك..

ثم بدأ يكسب ثقة الجنديين أيضا.. كان يعاملهما فى احترام.. احترام لهما واحتراما لنفسه.. وكان يغدق عليهما بكل ما يصله نقود وطعام وسجاير.

ويدأ يخرج من غرفته ويجلس فى غرفة الضابط..

وبدأ بعد أيام يخرج من غرفته - وهو مرتد ثيابه - ويذهب ليجلس فى غرفة الأطباء. ثم يعود من تلقاء نفسه إلى سجنه..

ثم بدأ يغيب عن حجرته طويلا.. ويدع الشك يتسرب إلى نفس حارسه، وقبل أن ينقلب الشك إلى يقين يعود إلى غرفته، ويلمح علامات الراحة والاطمئنان على وجه الضابط والجنديين.

وكان يطيل مدة غيابه يوما بعد يوم.. ربع ساعة، ثم نصف ساعة، ثم ساعة، ثم ساعتين.. ثم يعود بعدهما إلى غرفته..

وفى خلال هذه الأيام كان أحد محاميه الشبان قد هرب إليه هذا المسدس الصغير الذى أخفاه فى مرتبة سريره..

إلى أن تأكد أن الضابط والجنديين قد أطمأنوا إليه، وأنهم اقتنعوا بأنه لا يفكر فى الهرب.. وزاد فى اطمئنانهم أنهم أحبوه..

وحدد يوم التنفيذ.. سيخرج ولن يعود.. ولن يعلن الضابط عن هربه لرؤسائه إلا بعد مضى ثلاث ساعات على الأقل، يكون خلالها قد وصل إلى..

إلى أين؟!

لقد أجهد ذهنه فى تحديد المكان الذى يلجأ إليه عقب هربه مباشرة.. إنه فى حاجة إلى قضاء بضعة أيام فى القاهرة إلى حين يستطيع أن يتصل بأصدقائه ليدبروا له خطة خروجه من مصر.. أيام قد تمتد إلى اسبوع أو أسبوعين، فأين يقضى هذه المدة؟!

إنه لن يستطيع أن يلجأ إلى بيته، أو إلى أحد اصدقائه

فالبوليس سيبحث عنه هناك، ولن يستطيع أن يذهب إلى أحد الفنادق.. مستحيل..

ومن خلال تفكيره، تذكر محيى..

محيى الدين مصطفى أحمد زاهر.. كما يصمم على أن يذكر اسمه دائما..

وابتسم وهو يتذكر محيى.. إنه طالب معه فى كليه الحقوق. فى السنة الرابعة.. ليس له قيمة بين الطلبة إلا أنه كان دائما أول دفعته فى ترتيب النجاح.. وفيه كل ما فى أوائل الطلبة.. الانطواء.. والبعد عن الاشتغال بالسياسة.. والإيمان بأن المظاهرات مضيعة للوقت.. والخوف الذى يبدو أحيانا عجزا..

وكان محيى يبدو أكثر عجزا من غيره من أوائل الطلبة، وخصوصا كلما وقعت عيناه على ابراهيم.. كان ينظر إليه كأنه يقف بين يدى الله.. يرتعش وتقف الكلمات فى حلقه.. كان ينظر إليه كأنه شئ كبير ضخم لا يستطيع أبدا أن يكون مثله.

إن محيى خير من يستطيع أن يختبئ عنده.. لن يخطر على بال البوليس أبدا أن مثل هذا الطالب يمكن أن يلجأ إليه قاتل هارب..

وابتسم إبراهيم مرة ثانية، وهو يتخيل محيى عندما يلتقى به.. تخيل وجهه المستدير.. وأنفه المستدير.. وفمه المستدير.. وعينيه المستديرتين.. وفوقهما نظارة أمريكانى حلقتاها مستديرتان. إن كل شى فيه مستدير حتى جسده القصير لو امتلأ قليلاً لأصبح مستديرا..

ولكن..

هل من العدل أن يفرض نفسه على زميله محيى؟!

إنه مضطر.. ولو رفض محيى إيواءه فلن يفرض نفسه عليه.. ولكن محيى لن يرفض.. إنه يعرف هذا النوع من الطلبة.. إنه نوع عاجز عن تجسيم عواطفه فى عمل إيجابى.. قد يحب ولكنه لا يستطيع أن يعبر عن حبه ، أو يقنع به الفتاة التى يحبها.. وقد يكون وطنيا ولكنه لا يستطيع أن يطلق وطنيته أو يندفع وراءها.. إن هذا النوع لا يستطيع أن يكون بطلا، ولكنه لا يرفض أن يساهم

في بطولة، إذا ما اضطر للمساهمة فيها..

ومحيى إنسان يزخر قلبه بالوطنية، وإن كانت وطنية جافة ليس لها صدى في تصرفاته..

ولكن ماذا يحدث لو رفض محيى إيواءه.. لو أنه كان مخدوعا في تقدير وطنيته، أو لو تدخل أبوه وحال دون دخوله البيت..

لا شئ..

سيبحث عن مكان آخر..

وهو لن يموت مرتين!!

● ● ●

وسمع نقرا على باب غرفته، ثم أطل أحد الجنديين برأسه، وهو يقول.. وابتسامته الواسعة تختفي وراء شاربه كأنها تصل من وراء كومة من القش:

ـ مش لازمك حاجة يا استاذ إبراهيم؟!

واعتدل إبراهيم في جلسته، قائلا:

ـ كتر خيرك يا باشاويش.. بس خد البطيخة دي تحلوا بيها بعد الفطار..

وأشار ابراهيم إلى بطيخة موضوعة فوق الدولاب..

ودخل الباشاويش إلى الغرفة متجها إلى البطيخة وهو يقول:

ـ لا والله.. لا يمكن!!

وقام إبراهيم من على مقعده، كأنه يؤدي عملا روتينيا، واتجه إلى الدولاب وحمل البطيخة، وقال وهو يناولها للباشاويش:

ـ والله أنتم أحق بيها مني.. على الأقل أنتم صايمين.. خد يا شيخ، مافيش تكليف!!

وتلقف الجندي البطيخة قائلا:

ـ يا سلام عليك يا سي ابراهيم.. كلك كرم!

وخرج بالبطيخة، وأغلق الباب وراءه.. وأخذ ابراهيم يروح ويجيء في الغرفة وهو يشعر بهواء بارد يملأ صدره..

إن هذا الهواء البارد لم يهب عليه من قبل عندما كان يقدم على مغامراته الوطنية.. إنه أيامها لم يكن يهرب، كان يهجم.. وكان

الهجوم يحصر كل عقله وكل إحساسه في الخطة التى يضعها.. لم يكن يشعر بالتردد ولا باحتمال الفشل.. لم يكن يحس بشئ اطلاقاء كان ينقلب إلى آلة دقيقة تدور حسب خطة وضعت لها.. ولكنه الآن.. وهو يهرب.. يحس بالهواد البارد.. ويخاف احتمال الفشل..

إن الهروب هو أقسى وأشق من الهجوم.. شئ لم يكن يعلمه.. وتنبه على طلقة مدفع الإفطار..

وانتظر حتى انتهى المؤذن من آآن المغرب.. ثم فتح باب غرفته، والتقى بالجنديين وقد جلس كل منهما على مقعد وركن بندقيته على الحائط، وتوسطهما مقعد ثالث وضعا عليه طعام افطارهما، وصاح أحد الجنديين بمجرد أن رآه:

ـ اتفضل يا سى إبراهيم بيه!

وقال إبراهيم، وهو يضغط على كلماته كأنه يخشى أن تفر منه وتكشف عن نياته:

ـ عشت.. أما أروح أدور على واحد من الدكاترة يكون فاطر زيى!!

ثم اتجه إلى الغرفة التي يجلس فيها الضابط وكان هو الآخر يتناول إفطاره، وصاح فى لهجة حلوة بريئة، فيها من الحلاوة والبراءة أكثر من اللازم.. صاح وهو واقف على بابها:

ـ بالهنا والشفا!

وصاح الضابط:

ـ تعالى يا إبراهيم.. تعالى أقعد معايا!

ووضع ابراهيم ضحكة بين شفتيه وقال:

ـ لا.. أنا ما اقعدش مع صايمين زى حضرتك!!

وانحرف عن باب الغرفة، وسار فى الممر الطويل.. كان يسير فى بطء.. ولكنه كان لا يريد أن يكون بطيئا أكثرمما تعود فى مشيته ولا أن يكون سريعا أكثر مما تعود.. فجاءت خطواته بعضها بطئ وبعضها سريع..

وانتهى من الممر الطويل.. وقبل أن يصل إلى السلم.. فتح غرفة لم يكن فيها أحد، ونزع من فوق المشجب معطفا أبيض مما يرتديه

الأطباء.. وخرج وأغلق الباب وراءه ثم نزل السلم، وقبل أن يصل إلى نهايته أرتدى المعطف.. وسار فى ممر طويل اخر.. لم يكن هناك أحد.. كلهم مشغولون فى تناول طعام الإفطار.

وقل أن يصل إلى الباب المؤدى إلى الفناء.. لمح طبيبا واقفا.. طبيبا لا يعرفه.. وتردد.. فكر فى أن يخلع المعطف ويعود إلى غرفته.. واستدار إليه الطبيب قبل أن يخلع المعطف.. ونظر فى وجهه.. وخيل إليه أنه عرفه.. ولكن الطبيب عاد واستدار إلى الناحية الأخرى، وهو يبتسم ابتسامة تبدو فى عينيه ولا تبدو على شفتيه..

وعدل إبراهيم عن خلع معطفه.. وتقدم، وحاذى الطبيب.. ثم جاوره.. واعتقد أنه سيسمع صيحة.. صيحة الطبيب وهو ينبه إلى هربه.. ولكنه لم يسمع شيئا..

واستمر فى طريقه..

سار فى الفناء الخارجى.. وجاوره دون أن يحدث شئ.. وعندما وصل إلى الشارع خلع المعطف.. وسار فى نفس خطواته التى تسرع حينا وتبطئ حينا.. إلى أن وصل إلى موقف سيارات الأجرة، وألقى نفسه فى إحداها، وقال للسائق فى صوت تعمد أن يكون هادئا:

ـ ميدان سليمان باشا يا أوسطى!!

ونظر إليه السائق، ولم يعرفه..

لم يكن متنكرا.. ولم يكن يخفى وجهه.. كان يعتمد على أن أحدا لا يعلم بهربه ولا ينتظر أن يلتقى به هاربا، وكان يؤمن بالنظرية التى تقول «إن خير طريقة للتنكر، هى ألا تتنكر».. لو أنه وضع على عينيه نظارات سوداء وأطلق شاربه، مثلا.. لأصبح منظره مريبا، ودقق فيه الناس، وربما عرفوه.

ونزل من السيارة فى ميدان سليمان باشا.. ثم انتظر قليلا حتى ابتعدت عنه السيارة التى نزل منها، وسار على قدميه حتى شارع معروف، وهناك ركب سيارة أخرى، وقال للسائق:

ـ الجيزة يا أوسطى..

ونظر إليه السائق ولم يعرفه أيضا..

وقبل أن يصل إلى ميدان الجيزة، أوقف السائق عند باب إحدى العمارات.. عمارة لم يجد لها بوابا.. ثم انتظر قليلا.. وخرج من العمارة، وسار على قدميه، حتى وصل إلى شارع همذان ووقف أمام باب بيت من ثلاثة أدوار. إنه يعرف البيت. لقد جاء إلى محيى مرة فى العام الماضى ليقترض منه مذكراته.. وصعد السلم فى خطى تكاد تكون ثابتة، وضغط على جرس الباب وجذب من صدره نفسا طويلا واستعاد فى رأسه الكلمات التى أعدها ليقولها لمحيى عندما يفتح له الباب..

وفتح الباب وبرزت منه فتاة..

ووقفت الكلمات فوق شفتيه قبل أن ينطق بها.. واتسعت عيناه كأنه مشدوه.. وظل يبحلق فيها صامتا كأنه أخرس.. ولم يكن يرى فيها شيئا.. لم ير إلا أنها فتاة..

ولم ير شعرها الأسود الناعم الذى يتدلى خلف ظهرها فى ضفيرة كأنها جدلتها من أطياف الليل..

ولم ير شفتيها البريئتين.. لم تدنسهما أصباغ ولا قبل، بل خافت عليهما ابتسامتها فتعلقت بينهما دون أن تمسهما..

ولم ير عينيها.. سود، فيهما وحشة، وفيهما سر، وفيهما رهبة وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة.. وهناك فى أعماقهما نور يدلك إلى الطريق..

ولم ير وجنتيها.. مكتنزتان، مشدودتان، مصهورتان كأنها ورثتهما عن جدود من الهنود الحمر، تتراقص فوقهما غمازتان كأنما تزغردان فى فرح لا ينتهى..

ولم ير قوامها.. قوام السادسة عشرة وكأن ستة عشر فنانا اشتركوا فى رسمه..

لم ير شيئا منها.. كل ما رآه أنها فتاة. بنت.. وقد حسب حساب كل شئ فى خطته إلا البنات.. لقد عاش طول حياته وهو لا يحسب حساب البنات!

وسمع صوتها رقيقا ناعما كأنها توقظه برفق من ذهوله:

ـ مين يا افندم!!

ونظر إليها، ثم عاد وخفض عينيه سريعا، وقال في صوت أجش:

ـ محيي موجود، من فضلك؟

وعادت تسأله.. برفق.. وهي تدقق في وجهه هذه المرة:

ـ نقول له مين؟

وكان ينوى أن يقول لها اسما غير اسمه.. اسما مستعارا.. فهكذا كانت تقضي خطته في حالة التقائه بغريب، ولكنه وجد نفسه يرفع رأسه إليها وفي عينيه نظرة يائسة، ويقول كأنه يزفر اسمه من أعماقه:

ـ إبراهيم.. إبراهيم حمدي!!

واهتزت رموش الفتاة فوق عينيها، وأطبقت شفتيها وكأنها تبتلع صرختها.. وأبتعدت عن الباب قليلا.. ثم قالت كأنها تكاد تبكي فزعا:

ـ دقيقة واحدة.. أما أشوفه!

وقبل أن تغلق الباب.. تنبه إلى نفسه.. ووضع قدمه بين ضلفتي الباب، وقال وهو ينظر إليها في قوة كأنه يطالب بحق له:

ـ أقدر استنى جوه .. لو سمحتي؟

وتراجعت أمامه..

ودخل وأغلق الباب وراءه.. ووقف في «الصالة الصغيرة» ينظر إليها نفس النظرة القوية.. لم تكن نظرة قوية فحسب.. كان فيها تحد.. وتعلقت بنظراته كأنها فراشة لا تستطيع أن تبتعد عن النار.. ثم نزعت نفسها من بين عينيه، واختفت داخل الشقة..

وأراح عينيه من نظرته القوية المتحدية.. وبدا كأنه مهموم بائس.. كأنه يشعر بالفشل..

وهز رأسه كأنه يقول لنفسه: لماذا يلد الناس بنات!

٢

كانت العائلة مجتمعة كعادتها عقب الإفطار ، فى حجرة « القُعاد » والراديو يلقى إليهم أغانيه .

كان الأب فى جلبابه الأبيض الفضفاض ، وفوق رأسه الطاقية الخفيفة التى لا يخلعها إلا ليضع مكانها الطربوش .. وقد جلس على الأريكة« الاستامبوللى » ووضع ساقه تحته واتكأ على أحد مرفقيه ، وبين يديه جريدة « الأهرام » يطل فيها من وراء نظارته الذهبية ويعيد قراءة مقال سبق أن قرأه عقب عودته من الديوان ، وأمامه مائدة صغيرة عليها كوب شاى فارغ ، بقى فى قعره بعض التفل الأسود .

وكانت الأم الطيبة .. مكتنزة ، وبين شفتيها ابتسامة هادئة كأنها قطعة من فمها .. جالسة على الطرف الآخر من الأريكة وبجانبها « علبة الخياطة » وبين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها .

وكانت سامية جالسة على مقعد خيزران ، وأصابعها تتحرك بسرعة بين خيوط التريكو .. ليست جميلة كأختها الصغرى .. أو على الأقل ، لا تستطيع أن تلمح جمالها من النظرة الأولى .. إنه نوع من الجمال يكشف لك عن نفسه كلما نظرت له أكثر .

وكان محيى جالسا على مقعد « أسيوطى » ، كبير ، حتى ليتسع لشخص آخر بجانبه .. وكان يقرأ فى كتاب ، ويرفع أصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظارته الأمريكانى ، دون أن يكون فى حاجة إلى الضغط عليها .. مجرد حركة تعودها .

وكانوا كلهم صامتين .. صمتا هادئا مريحا ، كل منهم متفان فى هضم طعام إفطاره بعد صيام يوم طويل .. وكأن معداتهم

تبتسم وهى تقوم بعملية الهضم وترسل ابتسامتها إلى شفاههم ليحمدوا بها الله .

وعندما سمعوا صوت جرس الباب ، لم يتحرك واحد منهم ولم يخرج عن صمته .. لم يرفع الأب عينيه عن الجريدة ، ولم ترفع الأم رأسها عن الجوارب التى ترتقها ، ولم تتوقف أصابع الابنة الكبرى بين خيوط التريكو ، ولم يقطع الابن قراءته فى الكتاب .. فقط تحركت نوال وألقت المجلة التى كانت فى يدها وقامت .. فهى تعلم أنها المكلفة بفتح الباب إذا دق الجرس باعتبارها صغرى البنتين ، ولأن الخادمة لا تزال مشغولة فى المطبخ بغسل الصحون.

ولم يكن واحد من أفراد العائلة السعيدة ، ينتظر شيئا من وراء جرس الباب .. غاية ما كانوا ينتظرونه أن يكون الطارق هو الكواء ، أو يكون البواب يعيد الأطباق التى أرسلوا له فيها طعام إفطاره كعادتهم فى أيام رمضان .

وعادت إليهم نوال بعد أن فتحت الباب وأجابت الطارق ..

ولم يتحرك أحد أيضا .. لم يرفع واحد منهم عينيه إليها .. إنما مالوا إليها بآذانهم منتظرين أن يسمعوا صوتها وهى تحادث أمها وتبلغها عمن طرق الباب .

ولكنهم لم يسمعوا شيئا !

أحسوا بها واقفة بينهم ، لا تتكلم .. ورفعوا رؤوسهم إليها فى حركة واحدة ، كأن خيطا واحدا قد شدها .. ونظروا بعيون متسائلة، تساؤلا طبيعيا هادئا ، كأن كل ما حدث هو أنها نسيت أن تتكلم .

ولكنهم رأوا وجهها ممتقعا وشفتيها ترتعشان .. وانقلب التساؤل فى عيونهم إلى جزع ولهفة .

وقال الأب فى صوت غليظ كأنه يؤنبها :

ـ مين ؟ !

وأدارت عينيها بينهم ، ثم ركزتهما فوق شقيقها محيى ، وقد زدادت شفتاها ارتعاشا كأنها فقدت لسانها .

وعادت الأم تقول فى صوت حنون كأنها تتوسل :

ـ مين يا نوال اللى ضرب الجرس !
وقالت وهى ترتفع عينيها عن أخيها وتهيم بهما فى الفضاء :
ـ إبراهيم ...
وارتفع صوت الأب .. وقال فى حدة :
ـ ما تتكلمى كويس .. جرالك إيه .. إبراهيم مين ؟!
وأدارت عينيها إلى أبيها وقالت فى صوت خفيف كأنها تشفق عليه:
ـ إبراهيم حمدى ..
وقفز محيى إلى مقدمة المقعد الكبير الذى يجلس عليه ، وصاح:
ـ بتقولى إيه .. إبراهيم حمدى ؟!
وعاد الأب يصرخ .
ـ إبراهيم حمدى مين .. ما تتكلمى !؟!
وقالت وهى تتنهد كأنها تلقى إليهم بكل ما فى صدرها :
ـ إبراهيم حمدى اللى قتل عبد الرحيم باشا شكرى !!
وتوقفت أصابع سامية بين خيوط التريكو .. وألقت يديها فى حجرها ، واتسعت عيناها وقد ملأتهما نظرات فزعة .
وارتفع صوت محيى رفيعا حادا :
ـ مش معقول . ده فى السجن !
وقال الأب وهو ينزل ساقه التى كان يضعها تحته ويعتدل فى جلسته ويثبت نظارته فوق عينيه :
ـ ما يمكن إبراهيم حمدى تانى .. إيه عرفك ؟!
وقالت فى صوتها المتنهد :
ـ أنا عرفاه من صورته .
ونظرت الأم إلى زوجها كأنها تستغيث به ، وقالت وهى تضع يدها على صدرها كأنها تمنع قلبها من أن يشقه :
ـ وده عايز إيه الجدع ده ؟!
وأجابتها نوال :
ـ بيسأل على محيى !!

ووقف محيى ، وقال مرتبكا حائرا وهو يتلفت حوله يبحث عن مكان يهرب منه :

ـ عايز منى إيه .. مش معقول .. ده عمره ما عاز منى حاجة !

ونظر إليه والده بعينين واسعتين كأنه يتهمه ، ثم عاد وأرخى عينيه عنه .. وأطرق مفكرا .

وساد الصمت .. كلهم ينظرون إلى الأب منتظرين كلمته .

وتكلم بعد فترة .. تكلم فى صوت هادئ كأنه يعرف ما يقول :

ـ أظن تروح تشوفه عايز إيه يا محيى !!

وعاد محيى يتلفت حوله وينظر فى وجوه أفراد عائلته واحدا بعد واحد ، كأنه يسألهم رأيهم .. ثم تحرك من وقفته ، وقبل أن يخرج من الغرفة ، قالت نوال وهى تلمس كتفه بأطراف أصابعها :

ـ آجى معاك يا محيى ..

وقال الأب فى حزم :

ـ لأ .. خليكى انتى هنا ..

وخرج محيى وكلهم يتبعونه بعيون مشفقة كأنهم يودعونه إلى ميدان القتال ، أو كأن أباه ألقى عليه عبئا لا يحتمله ، وسار وهو يشد قامته القصيرة ، ويحاول أن يتزن فى خطواته ، ويضغط على أعصابه ليبدو هادئا ، ويبذل فى ذلك مجهودا نفسيا كبيرا حتى يخنق دماءه فى عروقه فيزدرد وجهه ويبدو كقطعة النحاس المحمى ..

●●●

ووجد إبراهيم واقفا فى الصالة .. إنه كما تعود أن يراه فى الكلية .. الوجه الهادئ المريح الذى يجذبك إليه ويسلب منك قلبك وعقلك .. وكان يبتسم .. وكان فى ابتسامته اضطراب .

ومد إبراهيم يده فى لهفة كأنه يمدها إلى منقذه .

ومد محيى يدا قصيرة مترددة وهو لا يتكلم .. فالتقط إبراهيم يده كأنه يجذبها منه ، وقال فى صوت خافت لا يخلو من حشرجة، وكأنه يهمس :

ـ أنا آسف يا محيى .. أنا عارف إنى أزعجتكم .. كل اللى

أرجوه أنك تسمع لى .. وبعدين تقرر اللى تشوفه .

وابتلع محيى ريقه كأنه يسترد روحه ، وأخذ ينظر إلى إبراهيم كأنه ينظر إلى وهم أو إلى مارد انشقت عنه الأرض .. ثم قال وقد بدأت صدمة المفاجأة تخف عنه :

ـ اتفضل ..

وأشار إلى مقعد من القش موضوع فى الصالة .

وجلس إبراهيم ، وهو يقول :

ـ أنا أكرر أسفى .. تأكد إنى مش حاضايقك .

وجلس محيى على مقعد آخر .. وقال كأنه يبحث عن أى شىء يقوله :

ـ انت فطرت يا أستاذ إبراهيم ؟!

وابتسم إبراهيم ، ابتسامة مجاملة .. كان السؤال قطع عليه حبل أفكاره .

ـ أنا فاطر ..

ثم اعتدل فى جلسته ومال بوجهه ناحية محيى وقال فى لهجة خطيرة :

ـ اسمع يا محيى ... أنا هربت من مدة ثلاث أرباع ساعة بس .. والبوليس حيبتدى يدور على بعد ساعة على الأقل .. مش ممكن قبل كده .. أنا عامل حسابى كويس .. وجيتلك علشان استخبى عندك .. واخترتك أنت بالذات لأنى عارف أن مالكش دعوة بالمسائل السياسية ، وما حدش يخطر على باله أنه يدور علىّ عندك .. وأنا مش محتاج أقعد هنا كتير .. غايته أربع أو خمس أيام لغاية ما أعرف اتصل بناس معينين وأنفذ بقية خطتى .. واللى عايز أعرفه حالا دلوقت .. تقبل تخبينى عندك ، ولا لأ ؟

وكان محيى يستمع إليه بأنفاس مبهورة كأنه يستمع إلى قصة خرافية مثيرة ، وهو يرفع إصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظارته .

وعندما سكت إبراهيم .. لم يرد عليه محيى .. إنما أبعد عينيه عنه وظل صامتا فترة .

وعاد إبراهيم يسأل فى الحاج :

ـ إيه رأيك ؟!

ورفع محيى إصبعه وضغط على قنطرة نظارته مرة أخرى ، وقال فى صوت عميق كأنه كبر عشرة أعوام :

ـ والله ما أقدرش أقولك يا أستاذ إبراهيم .. أنت عارف إنى مؤمن بيك .. كل الناس مؤمنة بيك وبوطنيتك .. كل واحد كان يتمنى أنه يقوم بالعمل اللى قمت بيه ، لو يقدر عليه .. لكن أنا مش لوحدى فى البيت .. أنا قاعد مع عيلتى زى ما أنت عارف .. ولازم اسأل والدى قبل ما أقولك رأيى ..

وقال إبراهيم كأنه يتعجله :

ـ اسأله .. ولو مارضيش ، تأكد إنى حاسيب البيت حالا !

وقام محيى واقفا ، وهو يقول :

ـ تسمح .. دقيقة واحدة !

وقال إبراهيم كأنه يستوقفه :

ـ أنتم عندكم تليفون هنا ؟!

وأجاب محيى فى دهشة :

ـ لأ ..

وعاد إبراهيم يقول فى لهجة حازمة لا تخلو من قوة :

ـ أنا واثق منك يا محيى .. إنما أنت عارف إنى فى ظروف حرجة .. ممكن اطلب منك أن ماحدش ينزل من البيت طول ما أنا هنا!!

وقال محيى كأنه يلومه :

ـ حاضر .

وعاد إبراهيم يقول قبل أن يستدير له محيى :

ـ وعلشان ابقى صريح معاك .. أحب أقولك إنى معايا مسدس !

ونظر إليه محيى برهة كأنه لا يفهم ما يعنيه ، ثم قال وكأنه يتكلم بلا وعى :

ـ تحب اعملك قهوة ؟!

وقال إبراهيم كأنه يعتذر له :

ـ لو سمحت .. متشكر ..

واستدار محيى واتجه إلى داخل الشقة ، وهو يسير دون أن يرى شيئا .. لا يرى الجدران ولا المقاعد .. كل ما يراه هو صورة إبراهيم مجسمة فى رأسه ..

●●●

وكانت العائلة لا تزال مجتمعة فى غرفة « القعاد » على الصمت كأنها أصيبت بنكبة أذهلتها .. لم يتكلم أحد منها ، ولم ينظر أحد منها إلى الآخر ، ولم يرتفع بينها إلا همهمات الأم وهى تقرأ لنفسها آية الكرسى .

واستقبلوا محيى بعيون ملهوفة جاحظة تكاد تشد لسانه من فمه ، وبدا على الأم بعض الارتياح لمجرد أن ابنها قد عاد إليها .. وتنحنح الأب فى عصبية كأنه يعد نفسه لأمر هام .. وجذبت نوال ضفيرتها إلى صدرها وأخذت تعبث بها كأنها تربت على قلبها حتى لا يبكى ولا يصرخ .. وظلت سامية معلقة العينين فى الفضاء .. واجمة .. كأن يدا سحرية مستها وأحالتها إلى تمثال من الشمع .

واتجه محيى بعينيه إلى والده دون أن يلتفت إلى أحد غيره ، وأطرق برأسه برهة ، ثم رفعها وقال وهو يحاول أن يسيطر على لسانه حتى لا يخونه عن الكلام :

ـ هوه .. إبراهيم حمدى !!

وصمت قليلا .. فاستعجله الأب :

ـ وعايز إيه ؟

وقال فى بطء كأنه يعد كلماته .

ـ هرب من السجن ، وجاى يستخبى عندنا .

وزاد اتساع عيون أفراد العائلة ، وصاحت نوال تقاطعه كأنها تتلهف إلى سماع قصة من قصص البطولة :

ـ هرب ؟ هرب إزاى !!

ونظر إليها والدها نظرة اسكتتها .. فمالت فى مقعدها كأنها تختبيء من هذه النظرة .. وقال الأب فى هدوء مفتعل :

ـ واشمعنى اختارنا احنا ؟

وقال محيى وهو يتنهد كأنه يتحسر :
ـ لأنى بعيد عن السياسة ، والبوليس مش ممكن يخطر على باله أنه يدور عليه عندنا .
وسكت الأب برهة كأنه يفكر ، ثم قال :
ـ ما يمكن البوليس تتبعه ، وزمانه محاصر البيت !
وخبطت الأم على صدرها وهى تسمع كلام زوجها ، وقفزت نوال وأطلت من الشباك ثم صاحت ورأسها لا يزال خارج الشباك :
ـ مافيش حد ..
وقال محيى فى هدوء :
ـ هوه بيقول إن البوليس مش حيبتدى يدور عليه إلا بعد ساعة .. وعايز يعرف رأينا بسرعة .. إذا مارضيناش نخبيه حايسيب البيت حالا..
وتقلص وجه الأب كأنه يشعر بألم لا يدرى مصدره ، وظل صامتا.
وتعجل محيى والده :
ـ إيه رأيك يا بابا ؟!
وظل الأب صامتا ، وقد زاد تقلص وجهه حتى سقطت نظارته الذهبية فوق أرنبة أنفه .
وقالت الأم كأنها تساعد زوجها فى تفكيره :
ـ يا كبدى عليه .. يا ترى أمه عاملة إيه دلوقت ؟!
وقالت سامية ، وهى تحاول أن تحرك أصابعها من جديد بين خيوط التريكو :
ـ الحقيقة .. يصعب على الكافر !
والأب لا يزال صامتا ..
وقالت نوال وكأنها تتابع فى خيالها فيلما سينمائيا من أفلام رعاة القرة :
ـ إنما هرب إزاى ؟!
وتنحنح الأب كأنه يطلب من عائلته السكوت ..وقال كأنه على أهبة أن يصدر حكما :

- الواقع إن .. إن ..
وكأنما غير فكره ، فصرخ بغتة :
- العيال دول ما فيش حد قادر يلمهم .. أنا مش فاهم ، بأى حق يفرضوا نفسهم على الناس بالشكل ده .. ده مش ..
ولم يتم كلامه ، والتفت فجأة إلى زوجته وقال فى صوت مبهور :
- إيه رأيك يا تحية ؟!
ووضعت الأم أصبعها فوق خدها ، وقالت وهى تدارى عينيها كأنها لا تريد أن تؤثر عليه بهما :
- أنا عارفه يا أخويا .. الرأى رأيك .. إنما هوه لا حرامى ولا مجرم ، غيرشى انهم ضحكوا عليه بالسخامة اللى اسمها السياسة وخلوه عمل اللى عمله .. إنما .. أصل احنا كمان مالناش دعوه !!
وانطلقت نوال بلا سبب :
- ماضحكوش عليه يا ماما .. و ..
وصرخت فيها أمها كأنها كانت تريد أن تصرخ فى أى إنسان :
- اسكتى انتى يا مسحوبة اللسان .
وقام الأب واقفا ، وهو يعدل الطاقية فوق رأسه ويتلمس بأصابع قدمه مكان الشبشب ، ونظر إلى ولده قائلا فى لهجة جدية:
- أظن الأحسن أقابله بنفسى .. تعال ..
واتجه إلى الباب ، وقبل أن يصل إليه قال محيى وهو لم يتحرك بعد من وقفته .. قال وكأنه يهمه أن يسمع كلامه كل أفراد العائلة :
- إبراهيم بيقول مش عايز حد يخرج من البيت طول ما هو موجود فيه .. وبيقول إن معاه مسدس !!
وتوقف الأب عند الباب وكأنه كرامته أهينت ..
وخبطت الأم على صدرها وقالت مذعورة :
- مسدس .. مابقاش ناقص إلا المسدسات تدخل بيتنا ..
وقالت نوال وعيناها تلمعان :

ـ مسدس بصحيح !!

وقالت سامية وهى لا ترفع رأسها عن خيوط التريكو :

ـ دى حكاية كبيرة .. دى مصيبة ووقعت علينا !

وتحرك الأب من جديد دون أن يعلق بشىء ، وخرج وابنه يتبعه.. وتنحنح ـ كعادته ـ قبل أن يصل إلى « الصالة » .. وقام إبراهيم واقفا بمجرد أن رآه .. وظل لا يمد يده إليه كأنه يخشى إن مدها إليه أن يرفضها .. ولكن الأب مد يده إليه وهو يحاول أن يضع على شفتيه ابتسامة باهتة ، وصافحه إبراهيم فى احترام كبير ، وقال محيى يقدم والده :

ـ والدى ..

وكان إبراهيم يبدو مضطربا .. كان الانتظار قد أتعبه ، وكان يعلم أن الوقت يمر ، وأن كل دقيقة محسوبة عليه .. إنه لم يكن يضطرب هذا الاضطراب وهو فى انتظار أعدائه الذين يقتلهم .. ولكنه الآن يضطرب .. يخاف .. يحس أنه فى حاجة إلى حماية .. إنه ليس قويا يحتمى أعداؤه منه .. إنه ضعيف يطلب حماية الأصدقاء .. وهو يريد أن يهدأ .. يريد أن يرى والدته فيهدأ بين أحضانها .. أو يرى أباه ويهدأ إلى جواره ..

ورفع عينيه إلى الرجل الذى يصافحه .. وتمنى أن يكون هذا الرجل أباه ..

ثم قاوم اضطراب نفسه الذى لا يبدو على وجهه ، وقال فى كلمات يحاول أن يرتبها حتى لا تتعثر :

ـ أنا آسف يا أفندم .. آسف جدا .. إنما أنا مضطر .. ادينى ساعة واحدة بعد ما اخرج من هنا ، واعمل اللى أنت عايزه ..

وقال الأب وهو يدعى الهدوء :

ـ اتفضل يا ابنى .. اتفضل هنا !!

وسار أمامه ، وفتح بابا جانبيا يؤدى إلى غرفة « الضيوف » .. أثاث على الطراز العربى .. وآيات قرآنية فوق مساند المقاعد المكسوة بقماش عتيق مضى عليه سنين .

وجلس الوالد .. وعاد يكرر :

ـ اتفضل يا ابنى .. اتفضل !
وقبل أن يجلس إبراهيم ، عاد الأب يسأل :
ـ أنت فطرت ؟
وقال إبراهيم :
ـ متشكر .. ما كنتش باقدر أصوم فى السجن ..
ثم استطرد كأنه يعتذر عن عدم صيامه :
ـ أصلى انتقلت للمستشفى ..
وسادت فترة صمت قصيرة ، قال الأب بعدها :
ـ أقدر اسألك كام سؤال ؟
وقال إبراهيم وهو يضغط بيد على يد ، كأنه يريد أن يوقف الدماء فى عروقه حتى لا يشعر بمرور الوقت :
ـ اتفضل ..
ونكس الأب رأسه وقال وهو ينظر إلى شبشبه :
ـ حد عارف إنك هربت ؟
وقال إبراهيم بسرعة :
ـ البوليس حيعرف بعد ساعة على الأقل ..
وصحح الأب السؤال :
ـ قصدى حد من أصدقائك ؟!
وأجاب إبراهيم :
ـ فيه تلاتة عارفين إنى حاهرب ، إنما ما يعرفوش حاهرب امتى.. كان تحديد ميعاد الهرب متروك لى .. حسب الظروف !
وعاد الأب يسأل :
ـ وحد منهم عارف أن يوم ما تهرب حاتيجى هنا ؟!
وقال إبراهيم وهو يختصر فى الجواب :
ـ لا .. لأنى مش متأكد أنكم حتقبلونى عندكم .. ما رضتش أصرح باسم محيى من غير لازمة .. إنما اتفقت معاهم إنى حاتصل بيهم بمجرد أن استقر فى مكان ..
وابتسم الوالد كأنه يحيى شهامة إبراهيم ، وعاد يسأل وقد بدا أكثر هدوءاً :

ـ ولو خرجت من هنا دلوقت حاتروح فين ؟
وقال إبراهيم وهو لا يزال يتكلم بلهجة سريعة ليشعر محدثه بأهمية الوقت :
ـ ما اعرفش .. أظن إني حاضطر أروح لواحد من التلاتة دول ، ومن هناك ندور على حتة تانية ..
وقال الأب في حماس كأنه أشرك نفسه في مؤامرة وطنية :
ـ لكن لازم البوليس عارف إن التلاتة دول أصدقاءك ، وحايدور عليك عندهم !
وقال إبراهيم وهو يتنهد :
ـ فعلا .. إنما مضطر !!
وعاد الأب ينكس رأسه كأن حملا ثقيلا قد أسقطه من فوق رقبته .. وسكت .. كأنه لن يتكلم أبدا .
واتسعت عينا إبراهيم كأنه نزع جفنيه عنهما ، وبدا فيهما قلق عنيف .. واضطراب .. وتحفز .. كأنه ينتظر حكم القدر .
ولم يتكلم محيي .. أخذ ينقل عينيه بين أبيه وإبراهيم دون أن تستقر عيناه على أحد منهما .. وهو يرفع يده أحيانا ويمسح بها على شعره .. ثم ينزلها ويعبث بأزرار « بيجامته » ثم يرفعها مرة أخرى ويضغط بأصبعه على قنطرة نظارته .. ويبتلع ريقه بين كل لحظة وأخرى .. كأنه عطشان .. تائه .
ورفع الأب رأسه .. وركز عينيه على وجه إبراهيم .. وقال في لهجة أب غاضب على ولده :
ـ تعرف إني لغاية دلوقت مش موافق على اللي عملته .. ده نوع من الوطنية لا أقره .
واكفهر وجه إبراهيم وقفز إلى مقدمة مقعده كأنه يهم بالقيام .. لم يعد وجهه الهادئ المريح يستطيع أن يخفي اضطرابه ..
وامتقع وجه محيي كأنه يرى فرخة تذبح ..
وعاد الأب يتكلم وقد بدا أكثر حزما :
ـ أنا مش موافق كمان على أنك كنت تيجي هنا .. احنا ناس مالناش دعوة بالسياسة .. لما كنت في سنك عمري ما اشتغلت في

السياسة .. عمرى ما مشيت فى مظاهرة .. وما أظنش إنى حاغير حياتى علشان خاطرك بعد ما كبرت وأصبحت مسئول عن عيلة .

وانتفض إبراهيم واقفا ..

ورفع الأب رأسه إليه وسكت عن كلامه ..

وتحرك إبراهيم فى بطء كأنه لم يفقد الأمل بعد.. وظل صامتا..

ثم خطا خطوتين نحو الباب وهو يقول :

ـ أنا آسف يا أفندم .. آسف جدا .

ولم يرد الأب ولم ينظر إليه ، إنما عاد وجهه يتقلص مرة أخرى وكأنه فى هذه المرة يعانى ألما عنيفا .

وخطا إبراهيم خطوة ثالثة ..

وقبل أن يصل إلى الباب ... رفع الأب رأسه بغتة ، وقال فى صوت عميق كأنه يستسلم إلى شىء أقوى منه .. إلى قوة تنطلق من صدره ولا يستطيع مقاومتها بعقله :

ـ تعال يا ابنى .. تعال .. اقعد ، أقدر اسألك سؤال كمان ؟

وأجاب إبراهيم فى استسلام كأنه يكاد يبكى :

ـ اتفضل ..

ـ أنت قتلت عبد الرحيم باشا .. ليه ؟

وقال إبراهيم كأنه لا يزال مصرا على جريمته مقتنعا بها :

ـ لأنه إنجليزى .. خدم الإنجليز .. كل الناس عارفه إنه خاين وعميل للإنجليز .

وقال الأب :

ـ مش كنت تسيب الحكومة تعرف شغلها معاه ..

وقال إبراهيم وهو يحاول ألا يحتد :

ـ ما كانش فيه حكومة تقدر تكلمه .. كان أقوى من الحكومات كلها .. كان هوه اللى بيشيل حكومة ويحط حكومة .. فيه أحكام كتير الحكومة ماتقدرش تصدرها ولا تنفذها .. لازم الناس هى اللى تصدرها وتنفذها .. والناس كلها حكمت إن الراجل ده خاين ، وأنا نفذت الحكم .

وسكت الأب قليلا ثم عاد يسأل :

ـ أنت منضم لحزب من الأحزاب ؟
ـ لا ..
ـ ولا للحزب الوطنى ؟
ـ لا ..
وسكت الأب .. سكت طويلا ..
ثم التفت إليه ابنه وقال كأنه كان قد نسى شيئا :
ـ أظن تقوم تنده لوالدتك وإخواتك ، علشان يتعرفوا بالأستاذ إبراهيم ..
والتفت إبراهيم ومحيى إليه فى دهشة وحيرة ، كأنهما لا يفهمان .. ثم لمحا بين شفتيه ظل ابتسامة خافتة مسكينة ، كأنه يحاول بها أن يساعدهما على الفهم ..
وفهم إبراهيم .. وحرك شفتيه كأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه لم يقل شيئا ، إنما عاد وجهه مريحا هادئا ، وزادت عليه ابتسامته أكثر راحة وهدوءا كأنها تنهيدة زفرها قلبه بعد شقاء طويل ..
وقام محيى واتجه إلى خارج الغرفة فى خطى سريعة جادة وكأنه يقوم بأخطر عمل فى حياته .
وساد الصمت فى الغرفة ..
وتنحنح الأب ..
وعاد وتنحنح مرة أخرى ...
ثم قال دون أن ينظر إلى إبراهيم :
ـ وازاى الوالد ؟!
وقال إبراهيم وهو يعتدل فى جلسته ويتخذ وضعا أكثر أدبا :
ـ الحمد لله .. كويس يا أفندم
وقال الأب كأنه يحاول أن يتكلم فى أى موضوع يلهى به نفسه:
ـ أظن هو فى الدرجة الرابعة دلوقت ..
ـ أظن كده ..
قال فى لهجة روتينية :

ـ أنا لى ابن عم موظف فى وزارة الأشغال .. ودايما يمتدح والدك جدا ..

وسكت برهة ثم عاد يقول :

ـ يا ترى انتم تقربوا لعبد العزيز بك حامد مدير القلم بتاعنا سمعت ان فيه صلة قرابة !

ـ أظن إنه صديق والدى ..

ـ ده كمان راجل كويس ..

ـ أيوه يا افندم ..

وعاد الصمت ، كأن الأب اكتشف أن كلامه ليس مناسبا ، وكأنه لم يجد كلاما آخر يقوله ..

وقال إبراهيم بعد فترة ..

ـ أنا مش قادر أشكر حضرتك إزاى .. أنا كنت ..

وقاطعه الوالد بسرعة كأنه لا يريد أن يذكر نفسه بما فعله :

ـ مافيش لازمة .. أنت زى ابنى محيى .. كل ما هنالك إن دورك فى الحياة مختلف عن دوره .

وعاد محيى وجلس فى مقعده .. وخيم الصمت الثقيل .. كان كل من الثلاثة يبدو محرجا مرتبكا لا يدرى ما يجب أن يقوله .. كان الأب يسدل جفنيه فوق عينيه فيبدو وجهه من خلف نظارته الذهبية كأن ليس له عينان .. كان يغيب فى تفكير عميق كأنه يحاول أن يقيس المستقبل .. ثم فجأة يرفع جفنيه وتبدو عيناه وهما تلمعان خلف نظارته كأنه يهم بأن يلقى خطابا سياسيا يبين به رأيه فى وطنية الجيل الجديد .. ثم يكتشف أن الوقت ليس مناسبا لإلقاء الخطب السياسية .. فيطفىء لمعة عينيه ويعود إلى التفكير العميق .

وكان محيى يبدو كأن فى رأسه ألف سؤال .. ولا يدرى بأى سؤال يبدأ .. فإذا وجد سؤالا يبدأ به رفع عينيه إلى إبراهيم .. ثم التفت بهما إلى والده .. ثم كأنه لا يجد الجرأة ليلقى سؤاله .. فيسكت ..

وكان إبراهيم فى جلسته المهذبة ، يفكر أحيانا فى خطته ثم يجد

ى الوالد كأنه يعتذر له ، ثم ينظر إلى الابن كأنه يشجعه .
وأخيرا تزاحمت الأسئلة فى رأس محيى ، فانطلق واحد منها من
ن شفتيه ، وكأنه انطلق رغم إرادته ، فخرج فى صوت رفيع
رتعش :
ـ إنما قدرت تهرب إزاى يا أستاذ إبراهيم ؟!
وأجاب إبراهيم فى اختصار وهو يبتسم ابتسامة صغيرة
تواضعة .. كأنه يجيب على سؤال بديهى :
ـ ولا حاجة .. كانوا سمحوا لى فى المستشفى إنى أتمشى
وية .. النهارده أتمشيت لغاية عندكم !!
وظهرت خيبة الأمل على وجه محيى .. كان ينتظر أن يسمع
صة مثيرة .. قصة شاب يتسلق الجدار العالى .. وينزلق فوق
واسير المياه بينما رصاص الجنود يطارده .. لم يكن ينتظر أن
كون الهرب من السجن بهذه البساطة التى يتحدث بها محيى !!

●●●

ودخلت الأم ووراءها البنتان .. لم يزد عليهما شىء ، إلا أن الأم
لت ثوبها .. وسامية ونوال كل منهما لبست حذاءها .. حذاء بكعب
توسط الطول .
وقام إبراهيم واقفا .. والتقط يد الأم وانحنى يقبلها ويرفعها
ى جبينه .. كما تعود أن يقبل يد أمه .. وعندما التقت عيناه
جهها الطيب الساذج المكتنز ، وابتسامتها التى تبدو كقطعة من
سها ، تمنى أن يلقى نفسه فوق صدرها .. ويستريح .. كما كان
عل وهو طفل عندما يعود إلى أمه عقب يوم متعب قضاه فى
وارع المنيرة .
وضغط على أعصابه حتى يقاوم هذه العاطفة الضعيفة التى
رت به .. ثم مد يده يصافح كبرى البنتين ، وسمع صوت الوالد
ول :
ـ بنتى سامية ..
ثم مد يده إلى الصغرى ، وسمع صوت الوالد :

ـ نوال ..

ولم يرفع عينيه إلى سامية أو إلى نوال .. لم يرهما وهما تنظران إليه فى لمحات خاطفة ، كأنهما تنظران إلى مخلوق عجيب ليس من حقهما أن تنظرا إليه .

وأحس بحرج شديد ، بلغ حد الضيق .. ليست بنتا واحدة ، إنهما بنتان .. وهو لم يدخل فى حسابه البنات .. كيف يعيش فى بيت فيه بنات .. إنه لم يعش أبدا فى بيت فيه بنات .. وأحس كأنه ينتهك عرضا .. كأنه يجرح شعور صديقه ووالد صديقه ..

وعاد يضغط على أعصابه حتى لا يبدو شىء مما فى نفسه ..

وظل واقفا إلى أن سمع صوت الأم تقول :

ـ اقعد يا بنى .. اقعد يا حبيبى ..

وجلس ، والأم الطيبة لا تزال تتكلم فى أسلوبها الساذج :

ـ إزيك يا ضناى .. ازى صحتك ؟

وقال وهو منكس العينين :

ـ الحمد لله .. الله يسلمك !

وعادت تقول :

ـ وازاى الست والدتك .. يا ترى كنت بتشوفها ؟

قال وهو لا يزال ينظر إلى قدميه :

ـ سمحوا بالزيارة من مدة عشرة أيام .. صحتها كويسة .. الحمد لله ..

قالت وهى تمصمص شفتيها :

ـ يا كبدى عليها .. ده زمان قلبها متشحطط عليك .. ما هو ماحدش بيشيل الهم إلا الأم .. يا ترى هيه عارفة أنت فين دلوقت؟!

قال فى صوت خافت وقد بدأ الحديث عن أمه يعصر قلبه :

ـ لأ ..

وتنحنح الأب كأنه يطلب من زوجته أن تسكت ، ثم قال فى صوت رزين ؟

ـ الأستاذ إبراهيم حيقعد معانا كام يوم .. طبعا من غير ماحد يعرف ..

وسكت ..

وسكت معه الجميع كأن أحدا منهم لم يفاجأ بهذا القرار ..

ثم قالت الأم وهى تضع أصبعيها تحت ذقنها :

ـ طيب افرض ياخويا حد جالنا ؟!

وقالت سامية كأنها تحادث أمها وحدها :

ـ أحسن حاجة نقفل الباب علينا ونعمل نفسنا مسافرين !!

ورفع إبراهيم عينيه إليها بغتة كأنه صعق لهذه الفكرة .. ورآها.. رأى هذا النوع من الجمال الذى يكشف لك عن نفسه كلما نظرت إليه أكثر .. وكأنه أراد أن ينتهز الفرصة ويتعرف إلى باقى وجوه العائلة .. فتسلل بعينيه إلى نوال ، وما كاد يرفعهما إليها حتى التقى بعينيها تمتصانه كله فخفض عينيه سريعا كأنه يخشى أن يغرق فى عينيها ، وخفضت عينيها كأنها تفر منه .. ولم ير منها شيئا .. لم ير إلا هاتين العينين .. سود .. فيهما وحشة ، وسر ، وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة ، وهناك فى أعماقهما نور يدلك إلى الطريق ..

وسمع صوت محيى يرد على أخته :

ـ بأه ده اسمه كلام .. طيب وناكل ونشرب إزاى .. وبابا يروح الديوان ازاى ؟!!

وقال الأب :

ـ على كل حال أنا حاتعمد إنى أخرج كل ليلة بعد الفطار ، ولما ييجى حد تقولوا له إنى مش هنا !!

وقالت الأم وهى تشوح بيدها ، وتدير عينيها عن إبراهيم كأنها تخشى أن تحرجه بكلامها :

ـ وأنت ذنبك إيه يا أخويا تدور فى السكك كل ليلة ؟!

وتكلم إبراهيم ، وانتبه الجميع إليه كأنه إله يتكلم :

ـ أظن يا أفندم أحسن طريقة أن كل حاجة تمشى طبيعى .. كل واحد يعمل اللى كان بيعمله ، علشان ما نلفتش نظر حد ..

وقالت نوال كأنها تتم حديثه :

ـ ولو حد جه يبقى الأستاذ إبراهيم يستخبى فى أى حته !!

وابتسم إبراهيم دون أن يلتفت إليها كأن المفروض أن تعبر عن أفكاره ..

وقال الأب كأنه لا يستطيع أن يتخذ قرارا :

ـ أهو نبقى ساعتها نتصرف .. وربنا يستر ..

وصاحت نوال كأنها اكتشفت أمرا هاما :

ـ والبت سنية ؟!

وقالت الأم :

ـ مالها سنية كمان !

وقال محيى كأنه التقط بذكائه ما تقصده أخته :

ـ فعلا سنية مايصحش تعرف .. دى بنت صغيرة ولسانها فالت !

وقالت سامية :

ـ طيب وحاتعمل فيها إيه ؟!

وتجهم وجه إبراهيم كأنه اكتشف شيئا آخر لم يحسب حسابه عندما وضع خطته .. وسكت الأب كأنه ينتظر أن يقول آخر كلمة .. ولمعت عينا نوال كأنهما تكشفان عن سر من أسرارهما ، وصاحت فى صوت خافت :

ـ أقولكم نعمل إيه .. أقوم أنا دلوقت أدب معاها خناقة .. وبعدين نده على البواب يروحها لأمها ..

وقالت الأم :

ـ والنبى ده انتى جبارة .. يا شيخة حرام عليكى !

والتفت إليها إبراهيم كأنه يهنئها ، والتقى بعينيها مرة أخرى تنظران إليه كأنهما تشهدانه على ذكائها ..

وقال الأب :

ـ يظهر مافيش قدامنا إلا الطريقة دى ..

وقامت نوال وخرجت من الغرفة ، وبعد قليل ارتفع صوتها وهى تنهر الخادمة .. ثم ارتفع الصوت أكثر حتى أصبح صراخا حادا ، يصحبه صوت صفعات وبكاء .. ثم عادت نوال وهى منفعلة كأنها كانت فى خناقة حقيقية ، وكأن الخادمة كانت تستحق فعلا

هذه الصفحات .. وقالت وهى فى انفعالها تكاد تبكى :
ـ قومى انتى بأه يا ماما اطرديها ..
وقالت الأم وهى لا تقوم :
ـ والله ما تهنش على .. ده حرام عليكم .. ده احنا فى رمضان!
وقال الأب متأثرا :
ـ معلهش يا تحية ، ما احنا حنرجعها بعد تلات أربع أيام ..
وقالت الأم :
ـ قوم أنت يا محيى اطردها ..
وقال محيى وهو يتمسك بمقعده :
ـ وأنا مالى ومال طرد الخدامين كمان .. دى عمرها ما كانت شغلتى !
وقالت نوال :
ـ قومى انتى يا ماما ، واديها نص ريال من فلوسى ..
وقامت الأم وهى تنظر إلى إبراهيم نظرة عتاب كأنها تحمله ذنب الخادمة الصغيرة ، وقالت وهى تخطو خطواتها الثقيلة :
ـ أقل من خمسين قرش فوق ماهيتها ، ربنا ما يسامحناش .. دى غلبانة ويتيمة !
وخرجت ، وقالت سامية وهى تقلب شفتيها :
ـ دلوقت شغل البيت كله حيقع على دماغنا .. ومين يا ترى اللى حايجيب حاجة السوق .. أنا وإلا نوال ؟
وقالت نوال :
ـ يا ستى ما تحمليش هم .. عم على يجيب حاجة السوق ، وأنا ادخل المطبخ مع ماما يوم وانتى يوم ..
وارتفع صوت الأم من الداخل .. ثم سمع الباب يفتح وصوت البواب يتحدث .. ثم اغلق الباب .. ثم عادت الأم إليهم وهى تقول :
ـ ربنا يسامحنا ..
وتحرك إبراهيم فى جلسته دون أن يقول شيئا ، كأنه يتألم لهذا لارتباك الذى أحدثه فى العائلة ..
وقال الأب :

ـ أظن الأستاذ إبراهيم تعبان .. اتفضل فى اودة محيى .. وبكره الصبح بإذن الله نكمل كلامنا .

وقام إبراهيم ووقف مرتبكا بين أفراد العائلة ، ثم قال دون أن ينظر إلى أحد منهم :

ـ تصبحوا على خير !!

وهمهم الجميع ولم يتضح إلا صوت نوال وهى ترد عليه :

ـ وأنت من أهل الخير ..

وقام معه محيى ، وقبل أن يصلا إلى نهاية الغرفة ، قال الأب :

ـ يا أستاذ إبراهيم ..

وتوقف إبراهيم ، والتفت إليه مستسلما ، واستطرد الأب :

ـ أنا سمعت ان معاك مسدس .. من فضلك تشيله من جيبك وتحطه فى أى درج من أدراج محيى .. إنما ما تمسكوش فى أيدك أبدا طول ما انت معانا .. أنا ماحبش المسدسات .

وبحركة لا إرادية .. وببساطة .. اخرج إبراهيم المسدس من جيبه وهو يقول :

ـ تحب أشيله عند حضرتك ؟

واتسعت عينا الأب فى فزع .. وخبطت الأم على صدرها وهى تصيح :

ـ ابعد البتاع ده عن وشنا الله يخليك .

وانكمشت سامية فى مقعدها ، وابتعد محيى خطوتين وقد فغر فاه كأنه يبحث عن أنفاسه .. وأطلت نوال بعينين مستطلعتين كأنها ترى شيئا سمعت عنه طويلا ولم تره .

وازداد ارتباك إبراهيم ، وقال متلعثما وهو يعيد المسدس إلى جيبه كأنه يخفى عارا :

ـ أنا آسف .. ما كنش قصدى ..

ثم وقف بينهم برهة ، واستدار ، وخرج وبجانبه محيى .

●●●

وأغلق محيى وراءهما الباب .. وتلفت إبراهيم يدقق فى محتويات الغرفة .. دولاب .. ومكتب .. ومقعدين .. وشماعة معلقة

فى الحائط .. كل شىء نظيف .. مرتب ..

وجلس على أحد المقعدين ، وجلس محيى على حافة السرير ينظر إليه كأنه يطالبه بالكلام ..

وتكلم إبراهيم ... ولكنه لم يتكلم فى السياسة ولا فى القضية التى سجن من أجلها .. بل أخذ يسأل محيى عن زملائهما فى الكلية وعن الأساتذة ويروى لـه نوادر عن كل منهما .. كـان يعلم أنه فى حاجة إلى كسب اطمئنان صديقه وثقته ، وفى حاجة إلى أن يخفف عنه الخوف والرهبة ، ويرفع من بينهما « الكلفة » .. واستطاع أن يحقق كل ذلك بسهولة .. وبدأ محيى يحس بإبراهيم كصديق له .. وبدأ يحس بالزهو لصداقته ببطل .. هذا البطل الذى كان ينظر إليه من بعيد كإله لا يستطيع أن يرقى إلى بطولته ، أصبح اليوم صديقه ، وفى بيته وسينام معه على سرير واحد .

وبعد قليل أصبح محيى هو الذى يتكلم أكثر من إبراهيم ..

وسمعا نقراً على الباب ..

وقام محيى ، وخطا خارج الغرفة ، ثم عاد يحمل صينية تحمل أطباق طعام .. وضعها على المكتب ، وهو يقول :

ـ اتفضل يا إبراهيم !!

وابتسم إبراهيم وهو يسمع صديقه يناديه باسمه مجردا دون لقب « أستاذ » .. تأكد أنه كسب ثقته واطمئنانه .. وقام إلى طعامه وأكل بشهية .. إنه منذ أن سجن لم يجد فى نفسه مثل هذه الشهية.. وكان محيى لا يزال يتكلم ..

وسمعا نقرا آخر على الباب ..

ولم يتحرك محيى ، بل صاح وهو فى جلسته على حافة السرير :

ـ خش ..

ودخلت نوال ، تحمل بين يديها جلبابا « مكويا » وقالت وهى تنظر إلى إبراهيم فى تردد :

ـ ما أظنش بيجامات محيى تيجى على أدك .. جيبتلك جلابية من بتوع بابا !!

ووقفت يد إبراهيم التى تحمل الشوكة بين الطبق وفمه ..
وأحس بشيء فى نفسه ينكمش كأنه يحاول الاختباء .. وازدرد وجهه كأن اللقمة قد وقفت فى زوره .. وسقطت عيناه فوق نوال ولم يستطع أن يرفعهما عنها .. ورأى هذه المرة وجنتيها المكتنزتين المشدودتين كأنها ورثتهما عن جدود من الهنود الحمر .. وغمازتيها اللتين تزغردان فوق الوجنتين .. ورأى شفتيها البريئتين من الأصباغ ، وابتسامتها المعلقة بين الشفتين .. وخيل إليه أن كل ذلك يراه من بعيد .. من بعيد جدا .. وكان يعانى دهشة وفزعا ، فلم يكن يدرى أن « البنات » سيصلن إلى الغرفة التى ينام فيها .

ونظرت نوال إليه بتعجب ، وقالت وهى تستدير لأخيها :

ـ مش عايزين حاجة كمان ؟

وقال لها أخوها :

ـ متشكرين ..

وقال إبراهيم وهو يتكلم من بعيد :

ـ متشكر ..

وخرجت نوال ..

وأتم إبراهيم طعامه ، وهو لا يزال يفكر فى « البنات » اللاتي لم يحسب حسابهن فى خطته .. ثم صحبه محيى إلى الحمام ، ثم عاد وخلع القميص والبنطلون ، ووضع المسدس فى درج من أدراج المكتب ، وارتدى الجلابية ونام بجانب محيى على السرير ، وأحكم الغطاء من حوله كأنه يخشى أن تدخل عليه « البنات » وهو نائم .

وكان محيى لا يزال يتكلم .. ويروى ذكرياته فى الجامعة ،.. وفجأة .. تنبه إبراهيم إلى أن الأغنية التى يذيعها الراديو من الغرفة قد توقفت ، وانطلق صوت المذيع قائلا :

« سيداتى وسادتى .. نذيع عليكم أخبارا هامة .. جاءنا البيان التالى من وزارة الداخلية .. استطاع إبراهيم حمدى المتهم الأول فى قضية مقتل المرحوم عبد الرحيم باشا شكرى ، الهرب هذا المساء . وكان قد نقل من سجنه إلى مستشفى القصر العينى للعلاج منذ ثلاثة وعشرين يوما .. ويعلن وزير الداخلية عن مكافأة قدرها

خمسة آلاف جنيه لكل من يقبض عليه أو يدلى بمعلومات تساعد على القبض على المتهم المذكور ، كما أصدر الحاكم العسكرى أمرا بمعاقبة كل من يساعد المتهم فى هربه أو يمتنع عن الإدلاء بما لديه من المعلومات ، بالسجن مدة لا تزيد على ثلاث سنوات .. وإليكم نص الأمر العسكرى.. »

وامتدت يد وأقفلت الراديو ..

ونظر محيى إلى إبراهيم ثم عاد وابتعد بعينيه عنه ..

ولم ينظر إبراهيم إلى محيى .. ظل معلقا عينيه فى سقف الغرفة ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

ـ أنا ماكنتش فاكر إنى غالى كده !!

وسكت إبراهيم ..

ولم يتكلم محيى ..

ظل كل منهما معلقا عينيه فى سقف الغرفة دون أن ينظر إلى الآخر .

لم يجد إبراهيم ما يقوله تعقيبا على البيان الذى إذاعته الحكومة. . إنه لا يستطيع أن يهون وقعه على صديقه ، فإن وقعه لا يمكن أن يهون .. ولا يستطيع أن يطلب من صديقه أن يعده بألا يشى به ، فليس من حقه أن يطالب بمثل هذا الوعد .. وإن كان فى نية صديقه أن يشى به فلن يجديه وعده .

سكت إبراهيم وهو يحس بالغيظ .. غيظ حاد يمزق أعصابه ويصهر أنفاسه .. لماذا لا يتركونه فى حاله .. لماذا لا يثور الناس ويسقطون هذه الحكومة التى تطارده .. لماذا لا يحدث أى شىء .. أى شىء ينقذ حياته ويعيد إليه مستقبله واطمئنانه .. لقد قتل الخائن من أجل وطنه .. من أجل الناس .. فلماذا لا يتحرك الناس من أجله .

وشعر بموجة من اليأس الأسود تجتاح رأسه .. إن الناس لن يتحركوا .. سيتركونه يقع كما يقع الفأر فى المصيدة .. وربما كان منهم من يمنى نفسه الآن بالخمسة آلاف جنيه مكافأة الإرشاد عنه.. وشعر بأنه يتخبط فعلا داخل مصيدة .. وإن رأسه يرتطم

بقضبان من الحديد .. وإنه فعلا فأر .. يختبىء ويتوارى .. ويفر .. والناس تجرى خلفه .

ثم تذكر العائلة التى أقحم نفسه عليها .. هل ترشد عنه وأحس بالخجل من نفسه لهذا الخاطر .. أحس كأنه ناكر للجميل .. لا ، لن يرشد عنه أحد من أفراد هذه العائلة .. إنه متأكد .

ولكن هذا البيان الذى أذاعته الحكومة زاده إحساسا بثقله على هذا البيت الهادىء الوديع الذى طرق بابه ودخله وهو يحمل جريمته فوق كتفيه .. يجب أن يرحل .. سيترك هذا البيت .. غدا .. فى أقرب وقت يستطيعه .. لن يبقى فيه .. حرام أن يحمل الناس وزرا لا ذنب لهم فيه .

وكانت كل هذه الخواطر تزدحم أمام عينيه وترتسم صورها فى سقف الحجرة .. وصديقه راقد بجانبه .. صامت هو الآخر .. كان قد زايله الزهو الذى أحس به لأنه يضم فى بيته بطلا .. لم يعد يفكر فى البطل .. أصبح يفكر فى نفسه .. فى مصيره .. وأحس أنه واقف على باب دنيا لا يعرفها .. دنيا مخيفة .. تندلع فى جوانبها نيران ، وتضج فى أرجائها أصوات مزعجة .. صرخات .. وهتافات .. وطلقات رصاص .. وهناك ، على مدى البصر ، كان يلمح فى هذه الدنيا قضبانا غلاظا من الحديد .. وخلفها شبان من زملائه الطلبة .. كلهم فى رداء السجن .. وهو .. إنه معهم .. فى رداء السجن أيضا .. وشعر بالخوف .. وامتقع وجهه دون أن يدرى .. وسحب جسده بعيدا عن صديقه إلى الجانب الآخر من الفراش .. كأنه يتبرأ منه .. وكأن البوليس إذا دخل ليقبض على صديقه ورآه بعيدا عنه فلن يقبض عليه .

وهو بعد أن سمع بيان الحكومة يذيعه الراديو لم يفكر فى المكافأة التى وضعت للقبض على السجين الهارب .. لم يفكر فى هذه المكافأة إطلاقا .. لم تخطر له على بال .. إنما كان يفكر فى الأمر العسكرى الذى ينص على سجن كل من يساعد الهارب فى هربه .. إنه يخاف السجن .. لا يريد أن يسجن .. وأحس بقطرات من العرق البارد تتفصد من جبينه .. وأحس كأنه يرتعش .. كل

خلجة فى جسده ترتعش .. كأنه محموم !

ولا يدرى أحدهما كم مضى من الليل قبل أن يسمعا طرقا خافتا على بابهما .. وأدار إبراهيم رأسه ناحية الباب فى حدة .. ثم أدارها ناحية محيى وقد اتسعت عيناه وارتسمت فيهما نظرات متسائلة جزعة .

وتكرر الطرق على الباب .. وصاح محيى :

ـ حاضر

ثم التفت إلى إبراهيم وهو يقوم من رقدته ، وقال كأنه يوقظه :

ـ يا إبراهيم .. يا أستاذ إبراهيم !

والتقى بعينيه المتسائلتين ، فاستطرد :

ـ اتفضل .. السحور !!

وهدأت عينا إبراهيم ، وقال كأنه يتنهد :

ـ متشكر .. ما أظنش حاقدر أصوم بكره !

وقام محيى وأضاء النور ، ووضع نظارته فوق عينيه ، وخرج من الغرفة وهو يقول :

ـ تحب اسيبلك النور والع ؟ ..

وقال إبراهيم :

ـ اطفيه لو سمحت !

واطفأ محيى النور .. وخرج !

واستطرد إبراهيم فى تفكيره .. ثم أحس أن عينيه تضعفان شيئا فشيئا ، حتى لم يعد يقوى على رؤية أفكاره .. وسقطت جفونه .. ونام .. كأنه أغمى عليه !

٣

وتسلل شعاع حاد من النافذة ولسع جفنى إبراهيم، ففتح عينيه وأدارهما حوله فى ذهول كأنه لا يدرى أين هو!!

كانت الغرفة قد غمرها ضوء النهار. والتفت بجانبه فلم يجد صديقه محيى.. ونظر فى «المنبه» الموضوع أمامه.. كانت الساعة التاسعة والثلث.

وتعجب أين ذهب صديقه.. ولماذا لم يوقظه..

وظل فى فراشه منتظرا أن يعود محيى ..

ولكن محيى لم يعد..

وقام من الفراش، ووقف فى الغرفة، وهو يتعمد أن يبتعد عن النوافذ حتى لا يلمحه أحد من الجيران..

ثم جلس على المقعد.. وبدأ يفكر فى خطته.. وكان النوم العميق قد أعاد إليه كل قواه، وأحس أنه يفكر تفكيرا سليما.. وأنه يرى المستقبل بوضوح.. وأحس بالتفاؤل، ولم يقلل من تفاؤله ما إذاعته الحكومة من تهديد وإغراء للقبض عليه.. إن الناس سينقسمون إلى أفاضل وأشرار.. ولن يغير التهديد والإغراء من الناس.. سيبقى الفاضل فاضلا، والشرير شريرا.

وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يهزأ من الحكومة ومن الحاكم العسكرى ومن الأحكام العرفية.. ومن المشنقة!!

ولكن محيى لم يعد..

وفكر أن يقوم وينادى من داخل البيت ، ولكنه أحس بالحرج .. إن فى البيت بنات ولا يجب أن يشعرهن بوجوده ، ولا أن يثقل

على البيت بأن يفرض عليه شيئا .. سيبقى صامتا إلى أن يعود محيى ..

ولم يعد محيى وبدأ يحس بالضيق.. إنه يريد أن يغسل وجهه، يريد أن يبلل شفتيه بالماء.. يريد أن يبدأ يومه..

وقام وبدأ يرتدى ملابسه.. القميص والبنطلون.. ثم توقف فجأة، والتمعت فى عينيه نظرة شك وريبة، كأن خاطرا مسموما قد انتفض فى عقله.. أين ذهب محيى.. ولماذا لم يعد.. ربما أغلقوا عليه الباب وحبسوه إلى أن يأتى البوليس للقبض عليه؟!!

وجمع طرفى البنطلون بين يديه ـ ولم يكن قد ربطه بعد إلى وسطه ـ وسار على أطراف أصابعه إلى الباب، وأمسك بالأكرة فى حذر، وجذب الباب إليه جذبة خفيفة، تأكد بعدها أن الباب ليس مغلقا..

وأطمأن..

وأعاد إغلاق الباب كما كان، ثم ربط بنطلونه حول وسطه، وجلس وبدأ يلبس حذاءه.. ثم رفع رأسه من جديد، وعادت نظرات الشك تلمع فى عينيه.. ربما خرج كل أهل البيت وتركوه وحيدا، وأغلقوا الباب الخارجى عليه.. أو ربما لم يغلقوه، بل تعمدوا أن يتركوه مفتوحا حتى يحس بأنهم لا يريدون إيواءه بعد البيان الذى اذاعته الحكومة، ويرجونه، رجاء صامتا، أن ينصرف عنهم.. المهم.. أنه لم يعد يستطيع أن يبقى فى هذه الغرفة.. يجب أن يخرج منها حالا.. الآن.. وقفز من جلسته وتقدم ناحية المكتب، وفتح الدرج وأخرج مسدسه، وقبل أن يدسه فى جيبه سمع طرقا خافتا على الباب.. وأعاد المسدس إلى الدرج ولكنه تركه مفتوحا.. والتفت ناحيه الباب، وهو يقول:

ـ مين..

قالها بلهجة جافة، ثم تنبه إلى جفافها فعاد يقول فى لهجة مهذبة قبل أن يسمع ردا:

ـ اتفضل..

وسمع صوتا رقيقا من خلف الباب:

ـ حضرتك صحيت يا استاذ ابراهيم؟!

وخمن أنهـا نوال.. الأخت الصغرى.. إنه صـوتها.. عجيـبة.. إنه يعرف صوتها.. إنه متأكد أنها هى..

وأجاب فى أدب:

ـ أيوة يا افندم.. اتفضلى!

وانفـتح البـاب فى بطء، وأطلت نوال بـرأسهـا، وأطلت مـعـهـا ابتسامة حائرة لا تدرى على أى جانب من شفتيها تضعها.. واحتار مع ابتسـامتـها.. وجد نـفسه مـوزع الخاطر بين لهـفته عـلى لقاء صديقـه محـيى وبين ارتباكـه وهو يواجه نوال.. وقـال فى صوت تلقائى كأن إنسانا آخر يتكلم فى صدره:

ـ فين محيى؟

ثم استدرك قائلا وهو يحاول أن يكون رقيقا:

ـ صباح الخير!

وقالت نوال وهى تسلط كل عينيها عليه:

ـ يسعد صباحك.. محيى راح الجامعة من الصبح.. و.. وقاطعها وهو يبذل مجهودا كبيرا حتى لا يحتد، ويخفض عينيه حتى لا ترى فيها حدته:

ـ راح الجامعة إزاى.. مش كان لازم يكلمنى قبل ما يخرج؟!

وقالت نوال وقد أحست بغضبه الذى لا يبدو على وجهه:

ـ إحنا عملنـا مؤتمر الصبح.. وبابا قـرر إننا نسيـبك نايم لغاية ماتستريح.. اتهيأ لنا إنك ما نمتش بقالك سنة من يوم ما اتسجنت!

ورفع عينيه إليهـا كانه يتعجب من طيبة العائلة وسـذاجتها، ثم عاد وخفضـهما وهو يقول:

ـ وانا أقدر أنام فى ليلة زى دى!

وقالت كأنها تعاتبه وهى ترفع حاجبيها كأنها تتحداه:

ـ الحقيقة إنك كنت نايم.. ولو إنك ما كنتش بتشخر!

وأبتسم ابراهيم كانه يعتذر لها عن مغالاته، وفاق:

ـ فعلا .. أنا كنت تعبان .. إنمـا كـان لازم أشـوف محيى قبـل

ما يخرج.. فيه حاجة كان لازم أقولها له.. بالشكل ده ضاع منا يوم بحاله!

وقالت كأنها تخفف عنه:

ـ الأيام كتير بإذن الله.. تحب تغسل وشك!

وتنهد أسفا كأنه لا يؤمن بأن أيامه كثيرة، واتجه نحو الباب وهو لا ينظر إليها.. بينما كانت تنظر إلى كل شئ فيه.. إلى وجهه الأسمر كأنه وجه فلاح عاش طول عمره فى الحقل، ولم ينسحب عليه يوما ظل المدينة.. وإلى عينيه العسليتين الكبيرتين اللتين لا يرفعهما خوفا من أن يفضحا أحاسيس نفسه.. وإلى أنفه الكبير كأنه رأس سهم يتجه إلى صدر أعدائه.. وإلى شفتيه الرقيقتين الصامتتين اللتين تطلان من فوق ذقن عريض قوى كأنه يختزن فيه كل إرادته.

وما كاد يتعدى باب الحجرة وهو منكس الرأس، حتى سمع شهقة خافتة، ورفع عينيه، فرأى سامية واقفة قبالته مبهورة الأنفاس..

كانت لا تزال فى جلباب نومها.. جلباب أزرق من الباتستا، مشمر الأكمام.. وكانت قد فوجئت برؤية ابراهيم فرفعت يديها تضم طرفى ثوبها فوق صدرها، ثم كأنها تذكرت أنها لم تساوى شعرها، فمدت إحدى كفيها إلى رأسها تساوى بعض خصلات الشعر المنثور فوق جبهتها..

وارتبك كلاهما حتى لم يستطيعا تبادل تحية الصباح.. وظلت عيناها المبهورتان معلقتين بعينيه المرتبكتين، ثم كأنها تغلبت على نفسها، ففرت من أمامه واختبأت خلف أحد الأبواب..

ونظر إبراهيم إلى نوال كأنه يعتذر لها ويحتمى بها.. وابتسمت نوال وتقدمته إلى الحمام، وهى تقول:

ـ أصل أختى سامية مشهورة بالكسل.. تقوم من النوم وتفضل تلف من أوده لأوده.. ما تغيرش هدومها إلا يدويك قبل ما بابا ما ييجى!!

وابتسم ابراهيم دون أن يرد.. ثم دخل الحمام وأغلق على نفسه

الباب.. ثم عاد وتأكد من أنه أغلقه جيدا.. ووقف برهة فى وسط الحمام دون أن يتحرك.. إنه يحس بالضيق.. ويحس أنه مقيد فى هذا البيت أكثر مما كان فى السجن.. لقد كان حرا فى السجن.. كان كل من فى السجن رجالا.. أما هنا فحوله قضبان من البنات.. وقضبان فى نفسه من الحياء، ومن إحساسه بأنه يعتدى ـ بمجرد وجوده ـ على عفاف بيت كريم..

ولوى شفتيه، وبدأ يغسل وجهه.. وعندما انتهى وقف حائرا أمام الباب.. هل يفتحه.. أم ينقر عليه قبل أن يفتحه حتى ينبه البنات ؟

وفضل أن ينقر على الباب قبل أن يفتح .. ونقر نقرات خفيفة.. ثم اشتد النقر.. ثم سمع صوت نوال:

ـ اتفضل..

دائما نوال.. كأن ليس فى البيت غيرها..

ولم يحس بالضيق لسماع صوتها.. بل أحس بالراحة، كأنها صديقته الوحيدة فى هذه الدنيا التى أقحم نفسه عليها.. أو كأنه قرر أن يضمها إلى اصدقائه السبعة الذين كانوا يشتركون معه فى عمليات الاغتيال.. ثم تعجب من نفسه لهذه الراحة التى يحس بها!!

وفتح الباب ووجدها أمامه، تبتسم ابتسامة كبيرة.. وجد نفسه يبتسم ابتسامة أكبر منها.. ثم اتجه إلى الغرفة وهى وراءه..

وقبل أن يدخل ـ إلى الغرفة ـ عاد والتفت إليها قائلا وهو يشير برأسه إلى النوافذ:

ـ تسمحى تقفلى الشيش..

وبرقت عيناها كأنها فهمت بذكائها ما يقصده، وكأنها تذكرت أنها فى حضرة بطل.. فتقدمته إلى الغرفة وهى تسير فى خطوات خفيفة نشطة، كأنها تؤدى عملا وطنيا خطيرا.. وبدأت تنحنى فوق حافة النافذة لتجذب «شيش» النوافذ وتغلقه..

ودخل وراءها وهو يتعمد ألا ينظر إليها.. وأمسك بمشط محيى ووقف أمام المرآة، وهم أن يمشط شعره.. ثم تذكر وجود نوال، فأحس بالخجل من أن يقف أمام المرآة.. كأن مما يعيب الرجولة أن

يقف الرجال أمام المرآة.. فاستدار وطأطأ برأسه ومشط شعره فى حركة سريعة، بلا مبالاة.. بينما كانت نوال تقول له وقد انتهت من إغلاق النوافذ:

ـ اتفضل افطر فى أودة السفرة بأه، على بال أنا ما أساوى الأودة!!

وتمتم فى صوت خافت:

ـ متشكر..

وخرج من الغرفة.. وما كاد يخطو خطوات حتى التقى بالأم بوجهها المكتنز الصبوح، وابتسامتها الطيبة.. وقالت أول ما رأته:

ـ صباح الخير يا ابنى.. ياللا يا ضنايا أفطر..

وقبل أن تسمع ردا لتحيتها، قالت وقد علا صوتها:

ـ سامية.. يا أختى راحت فين البت دى.. مافيش جنس حاجة اتعملت فى المطبخ..

ثم استطردت وكأنها تخاطب ابراهيم ونوال معا:

ـ علشان تعرفوا قيمة البت سنية، كانت شايلة البيت كله على دماغها، وما كانش حيلتكم غير الإمارة..

ثم وجت كلامها إلى ابراهيم:

ـ اتفضل افطر يا ابنى..

ثم إلى نوال:

ـ تعالى انت معايا المطبخ..

وردت نوال معترضة:

ـ أنا النهاردة على تنظيف الأود.. وسامية هيه اللى عليها المطبخ..

وقالت أمها:

ـ تعالى بس.. واسمعى الكلام..

وسارت نوال وراء أمها وهى تهز رأسها فى حركة غيظ.. وسار إبراهيم متحسسا طريقه إلى حجرة الطعام.. وجلس إلى المائدة وأمامه طبق الفول، وقطعة الجبن، وحبات الزيتون.. وبدأ يأكل منكس الرأس، مثبتا عينيه أمامه، لا يرفعهما حوله، وكأنه يخشى

إن رفعهما أن يرى حوله بنات عرايا..
وكان يحاول أن يركز تفكيره فى خططه..
كان يريد أن يتصل بأصدقائه فى الخارج، وكانت وسيلة الاتصال بهم هى محيى.. إنه مضطر أن يزج بمحيى فى خططه.. ليس أمامه وسيلة أخرى..
وكان يريد أن يقرأ صحف الصباح، لقد تعود منذ قبض عليه أن يفهم من قراءة الصحف أكثر مما يفهمه القارئ العادى. كانت قراءة الصحف أمرا هاما بالنسبة له، وقد أقام ثورة فى السجن عندما منعوا عنه قراءة الصحف.. ولكن هنا ـ فى هذا البيت ـ هل يستطيع أن يطلب الصحف.. بأى حق، وبأى وجه..
وهو يريد أيضا أن يعرف تأثير البلاغ الذى أذاعته الحكومة.. إن نوال لم تشر إليه ولا أختها ولا أمها.. ويبدو أنهن تعمدن عدم الإشارة إليه ـ إلى البلاغ ـ حتى لا يجرحن شعوره، أو يشعرنه بخطورة وجوده بينهن واختبائه فى البيت.. وهن لطيبتهن، لا يدرين أنهن بذلك يزدن فى إحراجه ويعقدن الأمور أمامه.. إنه يفضل أن يعاملوه على أنه إنسان هارب.. إنسان تطارده الحكومة.. حتى يستطيع أن يناقش خططه معهن بصراحة ولكنهن بنات.. وهو مضطر أن ينتظر إلى أن يعود الرجال.
وظل يلقى الطعام فى جوفه دون أن يحس له طعما.. وهو تائه فى خيالاته وخططه، ويحس بالدقائق التى تمر به كأنها ساعات.. ولم يكن يحسب الدقائق التى تمر به فحسب، بل كان يحسب الدقائق التى ستمر به حتى صباح اليوم التالى.. حتى يستطيع أن يفعل شيئا لإتمام خطة هربه..
وأنتهى من طعامه.. ومر وقت طويل بعد أن أنتهى منه، وهو لا يزال جالسا فى مكانه لا يرفع رأسه ولا عينيه، كأنه أعمى ينتظر من يقوده خلال الطريق..
وسمع صوت نوال بجانبه:
ـ تحب تتفضل فى الأوده؟!
ورفع عينيه إليها كأنه وجدها أخيرا.. وقام وهو يتمتم:

ـ متشكر..

ودخل الغرفة، والتفت إليها يريد أن يقول لها شيئا.. كان يريد أن يسألها عن صحف الصباح.. ولكنه عاد وسكت.. إنه لا يستطيع أن يسألها.. لا يستطيع أن يزيد عبئه على أحد..

وقالت نوال وهى تبتسم:

ـ لو عزت حاجة، اندهلى..

وهمت أن تخطو، ثم توقفت لتقول:

ـ الجرنال بابا بيجيبه معاه.. تحب انزل اشتريلك واحد دلوقت؟

وقال وهو ينظر إليها فى دهشة، كأنه يعجب كيف قرأت أفكاره:

ـ متشكر.. مافيش لازمة.. بس لو سمحتى تفتحى الراديو!

وقالت فى تردد:

ـ الراديو اليومين دول دمه تقيل.. ما فيش حاجة تتسمع!

وقال وهو يبتسم:

ـ على الأقل نسمع الأخبار.

وقالت فى يأس:

ـ حاضر..

وانصرفت عنه..

وجلس وهو يحاول ألا يفكر فيها.. ولكنه كان يجد نفسه مضطرا للتفكير فيها.. إنه مضطر أن يفكر فى كل من حوله، ليستفيد من كل منهم فى خططه.. وهذه فتاة ذكية جريئة يمكنه أن يعتمد عليها، ربما أكثر مما يعتمد على أخيها.. ولكن.. لا إنها بنت.. هو لا يؤمن بالبنات.. أو يشفق عليهن من أن يتحملن مسئوليات الرجال.. ثم إنه لا يستطيع أن يزج فى خططه بابنة الرجل الكريم الذى آواه فى بيته.. لا يمكن.. إن شهامته تمنعه.. ورغم ذلك فكلما قلّب فى ذهنه عشرات الخطط التى يضعها لنفسه، وجد فى كل منها مكانا لنوال..

وارتفع صوت الراديو..

وكان المذيع يعلن نهاية نشرة الأخبار.

وهز رأسه آسفا ..

●●●

ظل إبراهيم جالسا وحده فى الغرفة.. ساهما حينا، ويقلب فى كتب محيى حينا آخر.. والزمن يمر به بطيئا ويزداد ثقله فوق صدره، إلى أن سمع جرس الباب الخارجى يدق.. وانتبهت كل أعصابه.. وسمع قلبه يدق فى صدره كأنه يرتعش.. هذه الرعشة التى لم يتعودها إلا منذ أمس.. منذ بدأ فى تنفيذ خطة الهرب.. رعشة التوتر والخوف!!

واستراح قليلا وهو يسمع صوت محيى يحادث أخته.. وبدأ يستعد لملاقاة صديقه.. علق على شفتيه ابتسامة، وكسا وجهه بالهدوء.. ولكن محيى تلكأ قبل أن يدخل إليه.. وخيل إليه أنه تلكأ طويلا حتى كادت ابتسامته تسقط من بين شفتيه، ثم سمع نقرا على الباب.. وقال فى صوت بدا هادئا ليس فيه أثر لاضطراب نفسه:

ـ اتفضل..

ودخل محيى.. اصفر الوجه كالليمونة الناضجة، وكأنه عائد من رحلة شاقة استنزفت كل قواه وكل أنفاسه، وكل دمه.. وكانت عيناه مضطربتين لا يريد أن ينظر بهما إلى إبراهيم.. وخطواته عصبية، يسير كأنه يترنح...

وفحصه إبراهيم بعينيه، واستنتج مدى الاضطراب الذى يعانيه، ثم قال دون أن يقف ليحييه متعمدا أن يرفع الكلفة بينهما، وكأنهما أصدقاء قدماء:

ـ أهلا..

ورد محيى وهو يلقى بكراسة محاضراته فوق المكتب، ويضغط بأصبعه على قنطرة نظارته:

ـ إزيك دلوقت يا استاذ ابراهيم؟

قالها كأنه يؤدى واجبا.. ورنت كلمة «أستاذ» فى أذنى إبراهيم رنينا شاذا، اضطر بعده أن يصمت كأنه يتدبر أمرا.

كان يعتقد أن الكلفة قد رفعت بينه وبين صديقه من أمس.. ماذا

حدث.. لعل السبب مجرد اضطراب أعصاب..

وقام من مقعده وقد اتسعت ابتسامته، كأنه يتودد بها إلى صديقه، ثم اقترب منه وهو يقول:

ـ وازى الحال؟

وقال محيي، دون أن ينظر إليه أيضا:

ـ الجامعة كلها بتتكلم عنك..

وسأله ابراهيم فى اهتمام كأنه بدأ يعمل:

ـ بيقولوا إيه؟..

ونظر إليه، ثم عاد وأدار عينيه، وهو يقول:

ـ والله ما سمعتش حاجة .. الحقيقة إنى تعمدت أنى ما اسمعش حاجة.. كان متهيأ لى انى لو ابديت أى اهتمام كل الطلبة حيعرفوا إنك عندنا.. فضلت عامل نفسى كأنى ما عنديش خبر.. كأن ما حصلش حاجة فى البلد.. واضطريت أحضر كل المحاضرات رغم أنى ما كنتش سامع ولا كلمة منها، إنما لمجرد إنى ما غيرش عادتى.. أتهيأ لى لو ما حضرتش محاضرة واحدة الطلبة كلهم حيخرجوا يدوروا على وييجوا ورايا البيت..

ونظر إليه ابراهيم نظرة عطف، ثم قال كأنه يسأل عن شئ لا يعنيه:

ـ وكانوا بيقولوا اية عن البلاغ اللى طلعته الحكومة..

وسكت محيي قليلا، كأنه ظن أن ابراهيم يسأله عن رأيه هو لا عما يقوله الطلبة.. ثم قال:

ـ سمعتهم بينكتوا.. واحد قاعد ورايا فى المحاضرة كان بيقول للى جنبه.. زمان ابوك داير فى السكك بيدور على ابراهيم حمدى علشان يسلمه ويأخذ الخمستلاف جنيه..

وضحك إبراهيم كأنه يضحك من قلبه.. وبددت ضحكته بعض الاضطراب الذى يعانيه مخيى، فعاد يقول:

ـ وواحد صاحبى جه يسألنى.. يا ترى لو إبراهيم حمدى سلم نفسه يستحق، من الناحية القانونية المحضة، الخمستلاف جنيه!!

قالها وهو يقلد زميله فى التحدث بلهجة فقهاء القانون..

وضحك إبراهيم وهو يقول:
ـ لو ضمنت لى الخمستلاف جنيه مستعد أسلم نفسى!
وضحك محيى، ثم قال بحماس:
ـ والله ولا ميت ألف جنيه..
وأحس ابراهيم أن الاضطراب قد زايل صديقه، وأنه نجح فى رفع الكلفة بينهما مرة ثانية..
وسادت بينهما فترة صمت.. ثم قال ابراهيم كأنه أختار موضوعا بلا تعمد:
ـ ما شفتش فهمى عبد العزيز..
وقال محيى وهو لا يحس للسؤال بأى أهمية:
ـ لأ. يمكن كان قاعد فى البوفيه زى عوايده.. وأنا بارحش ناحية البوفية ابدا..
وعاد إبراهيم يسأل بلا مبالاة :
ـ وأيه رأيك فيه؟
وقال محيى وهو لا يزال يتكلم بإهمال:
ـ ما أحبوش.. شكله ما يريحنيش.. عامل كده زى الفتوات.. وكلامه كتير.. والخطب اللى بيقولها أيام الاضراب كلها كلام فاضى..
وقطب إبراهيم ما بين حاجبيه، ثم عاد وأراح وجهه سريعا قبل أن يلحظ محيى تقطيبته، وقال وهو ينظر إلى الارض كأنه يحادث نفسه:
ـ إنما ده شاب كويس.. قام بأدوار مهمة كتير..
وتنبه محيى فجأة إلى أن ابراهيم يتعمد إطالة الحديث عن فهمى عبدالعزيز فقال فى تعجب:
ـ أنت تعرفه؟
وقال إبراهيم:
ـ أعرفه كويس!
قال محيى:
ـ قصدى.. كان.. كان بيشتغل معاك!

وقال إبراهيم فى اختصار:

ـ تقريبا!!

وكأن إبراهيم أراد أن يدفع محيى دفعة قوية ليفهم قصده فقال:

ـ ده واحد من اللى كانوا عارفين إنى حاهرب!

وفغر محيى فاه، وارتفع حاجباه حتى جاوزا نظارته.. وقال وقد عاد يضغط بأصبعه على قنطرة النظارة:

ـ وعارف إنك هنا؟

وأجاب ابراهيم فى هدوء:

ـ لأ.. إنما لازم اتصل بيه!

وقال محيى بسرعة:

ـ وحانتصل بيه إزاى؟!

ورفع ابراهيم عينيه إلى محيى، ثم عاد وخفضهما قبل أن يكشفا عن قصده، وقال فى لهجة حاول أن تخلو من خبث:

ـ أهو ده اللى لسه بافكر فيه!!

ولم يرد محيى.. ساد بينهما الصمت كأن الاثنين يشتركان فى تفكير واحد، إلى أن رفع محيى رأسه قائلا:

ـ أنت متأكد من فهمى؟

قال إبراهيم فى تأكيد:

ـ جدا.. زى ما أنا متأكد من نفسى!

وساد الصمت فترة أخرى، دون أن يحاول ابراهيم أن يتكلم، وكأنه يترك لصاحبه فرصة التفكير واتخاذ قرار، وهو يرفع إليه عينيه بين برهة وأخرى فى نظرات مختلسة:

ثم قال محيى فجأة، وكأنه تعب من التفكير دون أن يصل إلا إلى قرار واحد لابد منه:

ـ يظهر إن ما فيش طريقة إلا إنى أكلمه بنفسى!

وابتسم إبراهيم بينه وبين نفسه كأنه يهنئها بالانتصار. كان هذا ما يريده.. وكانت هذه هى عادته، ألا يملى قراراته على زملائه ولا يطلب منهم شيئا، ولكنه يقودهم بسياسته إلى القرار الذى

يريده وإلى ما يطلبه منهم.. ويتركهم مقتنعين بأنهم أصحاب القرار وأصحاب الطلب..

وسكت إبراهيم قليلا كأنه يفكر جديا فيما يقوله زميله، ثم قال كأنه خضع للأمر الواقع:

ـ أظن هيه دى الطريقة الوحيدة!

وتردد محيى كأنه كان يرجو أن يرفض زميله فكرته، ثم قال في حيرة واضطراب:

ـ إنما حاقول له إيه؟

وعاد إبراهيم يتظاهر بالتفكير وهو فى قرارة نفسه يشفق من سذاجة صديقه:

ـ قول له.. «الأمانة عندنا».. أو أى كلمة يفهم منها إنك عارف أنا فين.. بس بلاش تنطق اسمى..

وقال محيى فى عصبية:

ـ إنما أنا ما أعرفوش.. وما حدش من الطلبة شافنى بكلمه أبدا.. ويمكن لما يشوفونى يشكوا فى الموضوع..

وقال إبراهيم وهو لا يزال هادئا:

ـ اعمل نفسك بتديله كراسة محاضرات.. ولا كلمه وانت ماشى جنبه.. إنما أنا متأكد أن ما حدش حيشك فيك حتى لو كلمته من غير أى احتياط.

وأحس محيى إنه أهين عندما قال إبراهيم أن أحدا لن يشك فيه.. أحس أنه إنسان ليس جديرا بالبطولة. ولكنه قال كأنه استسلم لقدره:

ـ وبعدين..

وقال إبراهيم:

ـ ولا حاجة.. سيبه هوه يتصرف بعد كده.. هوه حيعمل كل حاجة.. وحياخد الاحتياطات كلها..

وسكت محيى كأنه جرى بخياله إلى الغد.. إلى فناء الجامعة.. إلى زملائه الطلبة.. وإلى فهمى عبد العزيز بالذات.

وقال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ أنا آسف يا محيى اللى باتعبك.. مش عارف أشكرك إزاى!
وقال محيى فى اختصار رباتر:
ـ العفو..
ثم قام وجلس إلى مكتبه، وفتح كتابا من كتب القانون، وأمسك بيده قلم رصاص، وبدأ يستذكر..
وقال إبراهيم كأنه يحاول أن يغير الموضوع قبل أن يبدأ صديقه فى المذاكرة:
ـ هوه الامتحان أمتى؟
ورد محيى دون أن يرفع عينيه عن الكتاب:
ـ بعد شهر ونصف!
وسكت إبراهيم قليلا، ثم قال:
ـ كان حقك جبت لنا الجرنال معاك!
وقال محيى ورأسه لا يزال فى الكتاب :
ـ رمان بابا جاى وجايبه معاه!
وسكت الأثنان.. وأمسك إبراهيم بكتاب آخر وأخذ يحاول أن يقرأ فيه.. وفجأة رفع محيى رأسه، وقال فى صوت أجش كأنه يتعثر بأفكاره المزدحمة فى رأسه:
ـ لكن دول بيقولوا على فهمى عبد العزيز أنه جاسوس السراى!
ورفع إبراهيم رأسه عن الكتاب فى هدوء، وقال فى صوت أكثر هدوءا:
ـ يا شيخ.. ما تصدقش؟
وعاد محيى يتكلم وكأنه يلح أن يصدقه زميله:
ـ وبيقولوا أن الحكومة بتعتقله علشان يتجسس على بقية المعتقلين!
وقال إبراهيم وهو لم يفقد هدوءه:
ـ يا شيخ حرام عليك.. ده من أشرف الطلبة!
وظل محيى قاذفا بعنقه نحو زميله، وكأنه يبحث عن حجة أخرى يقولها.. وقبل أن يثنى رأسه ويعود بها إلى كتابه، قال له ابراهيم وهو يبتسم كأنه يشجعه:

ـ لو ما كنتش متأكد من فـهمى ما كنتش أمنت له على نفسى.. وعليك!

وكأنما اطمأن محيى لسماعه كلام زميله، واكتشف فيه شيئا كان قد نسيه.. فعاد إلى كتابه مطمئنا..

وسمع الاثنان جرس الباب..

وانتبهت أعصاب ابراهيم.. وسمع مع جرس الباب دقات قلبه.. هذه الدقات المرتعشة التى تتعبه، وتهز ثقته بنفسه..

وقال محيى:

ـ ده لازم بابا..

وسمعا فعلا صوت الأب.. وقال محيى:

ـ عن إذنك.. دقيقة واحدة!

وخرج..

وجلس إبراهيم ينتظر.. وكان ينتظر بلهفة أن يدعوه الأب إليه، أو أن يدخل عليه.. وكان تلهفه لا على سماع الأخبار فحسب، بل كان يريد أن يطمئن على الأب نفسه.. على حالته العصبية.. وعلى شعوره نحوه.. وعلى قدرته على تحمله فى بيته بعد البيان الذى أذاعته الحكومة..

وعاد محيى وحده وفى يده جريدة الاهرام، وقال وهو يناولها لإبراهيم:

ـ بابا بيطمئن عليك..

وقال إبراهيم فى عجلة:

ـ متشكر.. أخباره ايه؟

وقال محيى دون اهتمام:

ـ والله ما تكلمش.. أصل من عادته فى رمضان أنه يرجع تعبان، وينام على طول..

وأحس إبراهيم كأن لهفته سقطت فى ثلاجة، ولكنه أقنع نفسه أنها «بشرة خير» ما دام الأب لم يغير عادته..

وأخذ الجريدة بين يديه وأخذ يقرأ اسمه فى العناوين الضخمة

وبين شفتيه بسمة ساخرة، كأنه يسخر من الناس كلهم الذين يقيمون له كل هذه الضجة.

ولم يبدأ بقراءة البيان الرسمى، بل أخذ يقرأ فى نهم التفاصيل التى جمعتها الصحيفة..

وأخذت ابتسامته تزداد اتساعا..

ليس فى المنشور أثر بأن هناك من يتبعه.. ولم يتقدم واحد من سائقى سيارتى الأجرة اللتين استقلهما فى هروبه، لأداء الشهادة، حتى الطبيب الذى لمحه وهو يهرب، لم يرد اسمه.

واكفهر وجهه فجأة وهو يقرأ خبرا على جانب الصفحة بعنوان:

«التحقيق مع حارس إبراهيم حمدى».. إن وزير الداخلية أمر بتكوين مجلس تحقيق للضابط الذى كان يقوم على حراسته.. هذا الشاب الطيب المهذب.. ما ذنبه؟.... ذنبه أنه وثق به.. وقد خان ثقته.. غرر به.. ضيع مستقبله.. مستقبل شاب مصرى لا ذنب له..

وارتفعت صرخات فى نفس إبراهيم، كأنه يصفع نفسه.. إنه أنانى.. إنه مجرم.. إنه يؤذى كل من يقترب منه.. كل من يثق به.. إن هذا الشاب ليس خائنا.. وليس عميلا للإنجليز.. فلماذا يؤذيه؟ ورغم ذلك فقد كاد ينساه!!

واشتد به الكرب.. أحس أن أنفاسه احتبست فى صدره وتكاد تخنقه.. وحاول أن يخفف عن نفسه.. أخذ يقول لنفسه : «إنى أهرب من حكم الإعدام.. أما هو فلن يصيبه إلا قرار بالنقل.. أو تأخير ترقيته».

ولكنه لم يقتنع..

أخذ إحساسه بأنه خان ثقة شاب لا ذنب له، تتجسم فى مخيلته..

وهب واقفا، وهو يقول لمحيى فى لهجة آمرة، لم يتفوه بها من قبل:

ـ ادينى ورقة وقلم!

وناوله محيى ورقة قطعها من كراسة ثم أعطاه القلم وهو ينظر إليه فى دهشة كأنه مبهوت..

وجلس إبراهيم يكتب:

«عزيزى الملازم أول جميل عزت..»

وتوقف عن الكتابة قليلا.. إنه يريد أن يكتب له خطاب اعتذار.. يريد أن يفسر له لماذا هرب منه، ولماذا خان ثقته.. يريد أن يدافع عن نفسه..

وبدأ يكتب مرة ثانية:

«بعد التحية.. كان يجب على أن أكتب لك لأبرر ما فعلته و.. و..»

وتوقف عن الكتابة..

إنه لا يستطيع أن يكتب له.. إن إرسال خطاب قد يفسد خطته.. بل قد يسئ إلى موقف الضابط أثناء التحقيق الذي تجريه له وزارة الداخلية.

وألقى القلم من يده..

وألقى رأسه بين يديه، وقد أحس أنه يقسو على نفسه، أكثر مما يقسو على الضابط الذى لن يعتذر له..

وسمع محيى يسأله فى لهفة:

ـ مالك يا إبراهيم..

ورفع إبراهيم رأسه وقد استعاد قناعه، وقال فى هدوئه المفتعل:

ـ ولا حاجة..

ونسى ـ بين عواطفه المضطربة ـ أن يمزق الورقة التى كتب عليها اسم الضابط!!

٤

وأطلت نوال من الباب.. لم يعد باقيا على موعد الإفطار سوى نصف ساعة.. وقالت وهى تتحرك فى الغرفة كأن ليس فيها شخص غريب:

- بابا بيقول لكم اتفضلوا فى أودة القعاد..

وطوى محيى كتابه فى حركة سريعة كأن الملل من القراءة كان يأكل صدره منذ ساعات..

واعتدل إبراهيم فى جلسته وأسقط جريدة الاهرام من يده، وبدأ يتابع نوال فى نظرات مختلسة..

عجيبة.. إنه يكره البنات.. ليس إلى الحد الذى كان يعتقده.. إنه على الأقل لا يكره نوال، ولا يتجاهلها.. بل يشعر براحة كلما سمع صوتها، وكلما أحس بها بجانبه.. راحة كالتى يحس بها إنسان حر.. إنسان لم يقتل، ولم يسجن، ولم يفر، ولا تطارده الحكومة.. راحة كالتى كان يحس بها فى بيته، عندما كان يغلق على نفسه باب حجرته، ويهدأ كل شئ حوله، ويبقى وحده ساعات طويلة، بينما يحس فى قرارة نفسه أنه ليس وحده، إنما هناك شخص آخر.. أمه فى الغرفة المجاورة، وأنفاسها فى البيت كله.. إن نوال تذكره بأمه.. لا، إنها تذكره بالهدوء والراحة.. لا، إنها تذكره بالحرية..

الحرية..

إنه يحس الآن فى هذا البيت بحاجته إلى الحرية أكثر مما كان يحس بها فى السجن.. إنه يحس كأنه ازداد تشبثا بالحياة.. أسباب جديدة لا يتبينها جعلت الحياة أثمن لديه مما كانت، وأثمن مما كان يعتقد. ربما كان هذا البيت الذى لجأ إليه، والطيبة التى تحوطه،

والحياة البسيطة الساذجة التى تجرى فيه.. ربما كان هذا هو السبب الذى يزيده تشبثا بالحياة.. إنه لا يحس هنا أن فى مصر انجليز، أو خونة، أو ثورة، أو حكومة ظالمة.. إنه يحس أن مصر كلها كهذا البيت.. طيبة بسيطة، يحوطها الهدوء والسلام..

طافت بذهنه كل هذه الخواطر فى لحظة واحدة، وهو يقوم من على مقعده ويساوى قميصه وسرواله..

وقال محيى وهو يتقدمه نحو الباب:

ـ اتفضل.. يا استاذ ابراهيم!

وأبتسم عندما سمع كلمة « أستاذ ».. إنه كلما سكت عن صديقه فترة، عاد ووضع التكليف بينهما!!

وقالت نوال وهما متجهان إلى الباب:

ـ أنت يا محيى ما تقعدش على المكتب إلا لما تلخبط كيانه.

وقال محيى دون أن يلتفت إليها:

ـ علشان تلاقى حاجة تعمليها.. يعنى حتعملى ايه إذا مالقتيش حاجة تساويها!

وانحنت نوال تجمع جريدة الاهرام من فوق المقعد حيث تركها إبراهيم، ثم بدأت تجمع الكتب والكراسات والأوراق المتناثرة من فوق المكتب وترتبها فى نظام جميل.. ولم تعرف إنها دست بين أوراق وكتب أخيها، الورقة التى نسى ابراهيم أن يمزقها.. الورقة التى كتب عليها ابراهيم بخط يده، اسم الضابط الذى كان يقوم بحراسته..

●●●

ودخلا إلى حجرة «القعاد»..

وانحنى محيى يقبل يد أبيه.. ثم قام الأب من جلسته فوق الأريكة «الاستامبللى» نصف قومة وهو يصافح ابراهيم..

وجلس كل منهما على مقعد فى مواجهة الأب.. محيى فى المقعد «الاسيوطى» العريض الذى يبدو فيه صغيرا إلى حد أن يتسع لشخص آخر بجانبه.. وإبراهيم على مقعد خيزران.. وقد جلس فى أدب وصمت، وهو يعانى بينه وبين نفسه نوعا من القلق، فلم يكن

حتى هذه الساعة قد حدد بالضبط الدور الذى يجب أن يقوم به أمام الأب.. هل يقوم بدور الابن المهذب المطيع المسكين، أم يقوم بدور الرجل الكامل الذى يناقش ويضع الخطط ويجر إليها الأب نفسه؟؟ هل يبدو بكل شخصيته أمام الأب، أم يخفى جزءا منها احتراما له؟!

ورفع عينيه إلى الأب فى لمحة خاطفة.. ورآه كأن لون وجهه قد تغير عن الأمس، وكأنه قد ازداد نحولا وهزالا عن الأمس..

ومرت فترة صمت..

ثم تنحنح الأب، كأنه ينفض بعض همه، وقال فى صوت مجامل:

ـ ازيك دلوقت يا ابنى.. على الله تكون نمت كويس امبارح!

وقال إبراهيم:

ـ الحمد لله يا عمى..

ثم كأنه أراد أن يخفف من حدة التكليف الذى يحيط بهم، فاستطرد قائلا:

ـ الحقيقة أنا نمت أمبارح أكثر من اللازم!

ولم يعلق الأب.. لم يتكلم ولم يبتسم..

ومرت فترة صمت أخرى.. تبادل خلالها محيى وإبراهيم النظرات.. ثم قال الأب كأنه يحادث نفسه:

ـ أنا النهارده شفت والدك خارج من باب وزارة الاشغال.. كنت حانسى نفسى واروح اسلم عليه.. إنما كان باين عليه إنه مهموم خالص..

وتنهد الأب كأنه يعنى نفسه بذكر الهموم..

وقال إبراهيم كأنه لا يزال يحاول أن يخفف التوتر الذى يحيط بهم:

ـ أظن والدى خد خلاص على الحاجات دى..

ونظر إليه الأب نظرة غاضبة كأنه ينهره، وقال بصوت غاضب:

ـ الأب أب مهما كان.. عمره ما يرضى لابنه لا بالضيم ولا بضياع مستقبله!

وسكت إبراهيم.. وأرخى عينيه وهو يبتلع ريقه..

وكأن غضبة الأب قد زودته بجرأة كان يبحث عنها، فعاد يقول وهو يحاول أن يبدو صوته هادئا:

ـ يا ترى عرفت تتصل باصدقاءك النهار ده..

وقال إبراهيم بعد أن نظر إلى محيى نظرة خاطفة كأنه يوصيه ألا يتكلم:

ـ بكره بإذن الله.. كان لازم أفوت يوم علشان البوليس ما يخدش باله..

وسكت الأب كأنه اقتنع، ثم قال بعد فترة:

ـ ويا ترى حتتصل بيهم ازاى!

واحتار إبراهيم بماذا يجيب.. وعاد ينظر إلى محيى كأنه يسأله: «هل والده يقر الخطة التى اتفقا عليها».. ولكن محيى كان قد غاص فى مقعده أكثر، وغاص وجهه فى سحابة صفراء..

واستبدت الحيرة بإبراهيم.. إنه لم يكن يحتار أبدا أمام أى سؤال يسأله زملاؤه الشبان.. الثائرون مثله.. وكان فى حيرته يحادث نفسه: «إنه لم يتعود فى حياته أن يطلع اباه على خططه الوطنية.. فهل يطلع عليها هذا الأب.. هل يقول له إنه قرر أن يتولى ابنه مهمة الاتصال بأصدقائه.. وإنه سيزج بابنه فى خططه ويعرضه لكل ما تصبه الحكومة على الوطنيين من عذاب.. وهل يرضى الأب بذلك.. هل يسكت وهو يرى ابنه يسير بقدميه نحو الحقل الملغم. إنه رجل وطنى، مخلص فى وطنيته، وإلا لما قبله فى بيته.. ولكن أى نوع من الوطنية.. وما قدرتها وطاقتها على الاحتمال.. إنها على الأرجح وطنية سلبية.. وهى تدافع عن سلبيتها بعنف وقسوة.. والسيد مصطفى أحمد زاهر سيدافع عن سلبيته.. سيثور عندما يعلم أن ابنه سيقوم بدور إيجابى.. وقد تنتهى ثورته بأن يطرده من البيت.. أن يضحى بشهامته فى سبيل سلامته ويطرد ضيفه الخطير الذى فر إليه والحكومة كلها وراءه.. لا، لن يقول له شيئا، يجب أن يبقيه بعيدا عن خططه، كما أبقى والده بعيدا عنها.. وكما يقف كل الآباء بعيدا عن خطط أبنائهم»..

والتفت إلى محيى لفتة سريعة ونظر إليه بكل عينيه كأنه يسلط إرادته عليه حتى يشل لسانه، لئلا يتكلم ويقول شيئا لأبيه.. ولكنه كان فى الوقت نفسه لا يزال يحادث نفسه: «لماذا لا أقول له الحقيقة.. إنه رب البيت الذى يؤوينى، ويجب أن أثق به.. لماذا لا أثق فى عقلية الشيوخ.. ربما كان عنده رأى ينفعنى، وينقذنى.. رأى يستمده من تجاربه وحرصه وحماسه الهادئ.. ثم.. الأمانة.. يجب أن أكون أمينا معه.. أقل ما يجب على.. الأمانة.. وكفاه ما عرضته له».

وطال تردده.. إلى أن سمع الأب يقول:

ـ مش ضرورى.. أنا مش عايزك تقول إلا الحاجات اللى تمسنى وتمس بيتى!

وقال إبراهيم، والكلمات تكاد تتعثر فوق لسانه كأنها ترتطم بتردده:

ـ الحقيقة لسه ما قررتش اتصل بيهم إزاى.. إنما بكره حيتم كل شئ بإذن الله!

وقال الأب كأنه ينصحه:

ـ أنا شايف أن ظروفك بقت صعبة جدا بعد البلاغ اللى اذاعته الحكومة.. الناس البطالة كتير، وخمستلاف جنيه مش شوية.. لازم تعمل حسابك على كده..

وقال إبراهيم فى استسلام:

ـ ربنا يستر.. اطمئن يا عمى.. بكره كل حاجة حتنتهى على خير!

ونظر إليه الأب وفى عينيه دهشة وفيها تأنيب، كأنه يتهمه بالوقاحة إذ يتكلم عن الاطمئنان..

يطمئن!! كيف؟

وهل يعلم مثل هذا الشاب مدى حاجته اليوم إلى الاطمئنان؟ وكيف يعلم وليس له زوجة ولا أولاد وليس وراءه هذا الماضى الطويل الذى قطعه خطوة خطوة، وكل خطوة بحساب.. وليس أمامه مثل هذا المستقبل القصير الذى يحتاج إلى كل دقيقة فيه ليصنع

لزوجه وابنائه ما يطمئنه عليهم من بعده.. وليدفع الحياة فيهم بعد أن يتركهم وحدهم..

وأعتدل فى جلسته وألقى بأذنيه إلى الراديو كأنه يتابع تلاوة القرآن..

وعاد الصمت.. لا يقطعه إلا صوت القارئ، وإلا نظرات قليلة مختلسة يتبادلها ابراهيم ومحيى، وإلا نحنحة الأب بين الحين والحين..

وفجأة، واجه الأب ابراهيم مرة ثانية، وقال فى حدة كأنه ينفس عن بخار اختزنه طويلا فى صدره:

ـ أنا اللى عايز اعرفه، أنتم عايزين ايه.. ما فيش حد فى البلد عاجبكم.. ما فيش راجل ماشيين وراه.. النحاس مش عاجبكم، النقراشى مش عاجبكم، الملك مش عاجبكم.. تبقوا عايزين مين.. مين اللى حضرتك عايزه يحكم البلد.. حتقولى كلهم ما ينفعوش.. كويس.. موافقين.. إنما مين.. هايجين ومهيجين البلد علشان ايه.. ما تسكتوا وتوفروا تعبكم لغاية ما تلاقوا الراجل الكويس اللى انتم عايزينه..

وبوغت إبراهيم بهذه الثورة، والتفت إلى محيى كأنه يسأله عن اللغة التى يمكن أن يحادث بها أباه.. وقبل أن يتكلم، كان الأب قد استطرد قائلا كأنه يدافع عن نفسه.. عن نظريته فى الحياة:

ـ زمان فى ثورة تسعتاشر كان فيه زعيم.. البلد كلها ماشية وراه.. كان فيه سعد زغلول.. وكانوا الناس عارفين هم بيعملوا ايه.. عارفين عايزين ايه.. عايزين سعد زغلول يتفاوض ويحقق الاستقلال إنما دلوقت مين يحل محل سعد زغلول، ومين يفاوض الإنكليز والا يحاربهم؟!

والتفت الأب إلى ابنه كأنه يعنيه بكل هذا الكلام، ويتعمد أن يقنعه به ليحميه من مبادئ صديقه..

وكان فى لهجة الأب لون من التحدى وكان كأنه يتعمد هذا التحدى.. ويتعمده أمام ابنه بالذات، حتى يقنعه بأنه هو ايضا ـ الابن ـ يستطيع ان يتحدى إبراهيم فى آرائه..

ولم يقبل ابراهيم ان يناقش الاب.. لم يقبل التحدى.. وكان يعرف كيف يرد عليه.. كان يستطيع أن يقول انه لا يسير وراء زعيم، ولكنه يسير وراء مبدأ.. وانه لا يبحث عن شخص يحكم مصر، ولكن يبحث عن الحرية، والمساواة، والرخاء لمصر.. ولكنه لم يرد.. لم يناقش، ربما لطبيعته التى كانت تتسع لسماع كل الآراء دون أن يثار، وربما لأن الاحترام المفروض عليه تجاه الأب يمنعه من مناقشته، وربما لأن ذكاءه دله على انه ليس فى موقف يستطيع فيه أن يدخل فى أية مناقشة سياسية..

وقال فى صوته الهادئ وهو يتعمد أن يغير مجرى الحديث:

ـ حضرتك اشتركت فى ثورة تسعتاشر؟؟

وتنازل الأب عن تحديه بسرعة.. كأن هذا التحدى لم يكن سوى زفرة دخان.. وسرح بعينيه وعلت شفتيه ابتسامة خفيفة كأنه يترحم بها على ذكرى سعيدة.. وقال فى هدوء:

ـ كل البلد اشتركت فيها.. كان عمرى أيامها خمستاشر سنة. ما كنتش أقدر أروح اسمع سعد زغلول لما يخطب وماكنتش باشترك فى المظاهرات.. إنما كنت حافظ خطب سعد صم، وكان والدى الله يرحمه يوقفنى قدامه ويسمعلى الخطب، واحدة واحدة..

وابتسم إبراهيم ابتسامة حانية كأنه يرى أمامه صبيا فى الخامسة عشرة من عمره، يعيش بقلبه، وخياله، وكل ما يتسع له ذهنه، مع سعد..

واستطرد الأب قائلا:

ـ كانت ثورة بصحيح.. وكانت البلد كلها يد واحدة!

ودخلت الأم..

كانت خارجة من المطبخ، وصهد «وابور الجاز» يصهر وجهها المكتنز، فيبدو كأنه وجه عروسة كبيرة من عرائس الاطفال..

وبددت ابتسامتها الطيبة الجو القلق الذى يحيط بالرجال الثلاثة، وكأنها جاءت تحمل إليهم رسالة الحياة والسلام.. فتحرك فى الثلاثة أجمل ما فيهم.. ابتسم الأب ابتسامة حاول عبثا أن يخفيها تحت قناع الحزم والصرامة الذى يصر على أن يبدو به.. ورفع

محيى رأسه إلى أمه كأنه يرفع إليها قلبه، ونظر إليها من خلال نظارته بعينين والهتين كأنه يلجأ إليها لتحميه تحت جناحيها.. وقام إبراهيم واقفا كأنه التقى بإيمانه.. الإيمان الذى لا يداخله شك فيه.. إيمان يزوده بالحياة كلها.. الأيمان بالأم..

وقالت الأم فى لهجتها المتعجلة، وكأنها دائما مشغولة.. ودائما لا تستطيع أن تقف حتى لا تقف الحياة نفسها:

ـ فاضل أد ايه على المدفع يا جماعة؟

ثم التفتت إلى ابراهيم وهى تضع يدها على كتفه:

ـ اتفضل يا بنى.. اقعد.. اقعد يا ضناى.. ربنا يحميك.. ويحرسك!

وقال محيى بعد أن نظر إلى الساعة.. قال بسرعة وكأنه يعلم أن أمه لا تنتظر أبدا جوابا على اسئلتها:

ـ فاضل خمس دقايق..

وقالت الأم، كأنها تلومه لأنه أجابها:

ـ طيب اتفضل حضرتك افرش سجادة الصلا لبابا.. ما هو كل واحد لازم يعمل حاجة، البنتين هلكوا النهاردة يا حبة عينى..

ثم التفتت إلى زوجها قائلة دون أن تغير نغمة صوتها:

ـ اسمع يا زاهر.. أول البت سنية ما ترجع، بإذن الله، من غير مقاطعة، أنا حزود ماهيتها ريال.. دى اتاريها كانت شايلة البيت شيل!

وقال الأب، وهو يتنهد، كأن عودة سنية بمثابة ازاحة الهم عن البيت:

ـ بإذن الله!

وقام محيى واعتلى حافة المقعد «الأسيوطى» وجذب من فوق الدولاب سجادة الصلاة..

واعتدل إبراهيم على حافة مقعده كأنه يهم بالقيام، وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:

ـ أقدر أساعد فى حاجة يا افندم..

والتفتت إليه الأم وقالت بلهجتها السريعة:

ـ يا ابنى كفاية الهم اللى انت فيه.. ده احنا كلنا نخدمك بعنينا!
وانكمشت ابتسامة ابراهيم فوق فمه، كأنها تغرق فى ذكرى همه.. أو كأنه يتذكر شيئا كان قد نسيه.. تذكر أنه ليس عضوا فى هذه العائلة.. وليست هذه الأم أمه.. وأنه ليس كمحيى.. لم يكن مثله أبدا.. حتى فى بيته.. لم يتمتع بهذا الهدوء، وهذه الطيبة، ولم تكلفه أمه يوما بشئ من أعمال البيت..
وخرجت الأم، وهى تقول كأنها تحادث نفسها:
ـ أما أروح اغرف الأكل.. زمان البنات محتاسين!
وخرجت، وهى تسير فى خطوات نشطة كأن اكتناز جسدها حشو من ريش النعام..
وانطلق صوت مدفع الإفطار، بينما كان مقرئ الإذاعة لم يختم التلاوة بعد.
وقال محيى وهو يقوم من على مقعده:
ـ أظن المدفع ضرب..
وقال والده دون أن يتحرك:
ـ استنى لما نسمع الأذان..
وأرتفع صوت المؤذن.. وظل الوالد لا يتحرك إلى أن انتهى الأذان. ثم قام وهو يعدل الطاقية فوق رأسه.. ووقف للصلاة بينما قفز محيى من على مقعده، وقال وهو يدفع إبراهيم أمامه تأدبا:
ـ أتفضل يا إبراهيم..
ثم همس فى أذنه بصوت لا يكاد يتجاوز شفتيه:
ـ أوعى تكون زعلت من كلام بابا..
وقال إبراهيم بلا مبالاة:
ـ أبدا..
وخرج الأثنان، والتقيا فى الممر المؤدى إلى حجرة المائدة، بسامية ونوال خارجتين من المطبخ وكل منهما تحمل طبقا من أطباق الطعام..
وابتسمت سامية لابراهيم ابتسامة خجلة كأنها تؤدى بها واجبا

مفروضًا عليها.. ومالت نوال برأسها إليه، وقالت فى صوت خفيض كأنها تحاول أن تخفف عنه:

ـ أبقى قوللى رأيك فى المسقعة.. أنا اللى عملاها!!

وابتسم إبراهيم ابتسامة كبيرة.. كأنه بدأ يحس من جديد أنه فى بيته.

والتفوا وقوفا حول المائدة.. ثم جاءت الأم تحمل طبقا كبيرا من الارز، ناولته لسامية لتضعه على المائدة، وهى تقول:

ـ اقعدوا يا ولاد على بال بابا ما يصلى.

ثم لمحت محيى وهو يمد يده إلى سلطانية المخلل، فنهرته قائلة:

ـ ما تفطرش على مخلل.. خاف على معدتك يا ابنى.. ده حتى حرام عليك.. السنة بتقول إننا نفطر على بلح!!

وقال محيى ضاحكا:

ـ أصل أيامها ما كنش فيه مخلل!!

وتجاهلته الأم الطيبة، وقالت لإبراهيم وهو حائر أين يجلس:

ـ اقعد يا ابنى هنا جنب محيى.. نورتنا..

وجلس إبراهيم وهو يقول فى صوت خفيض:

ـ متشكر..

وعادت تقول له وهى تملأ له كوبا من شراب القمر الدين:

ـ والنبى يا ابنى انا مش صعبان على إلا الست والدتك.. دى عمرها ما تقدر تتهنى على لقمة وانت بعيد عنها..

وأحس إبراهيم بأن قلبه ينقبض حتى تكاد الدماء تختنق فيه.. إنه يعلم أن السيدة الطيبة لاتتعمد تذكيره بأمه.. لا تتعمد أن تثير شجونه، أو تثير عواطفه التى يخفيها فى أعماق نفسه حتى كاد ينساها.. أنها سيدة طيبة، ورغم ذلك فهى تؤلمه.. تعذبه.. بلا تعمد!

ومد يده يتناول كوب الشراب، ونكس عينيه فى طبقة لا يرفعهما..

وجاء الأب وجلس دون أن يلتفت إلى أحد، ثم رفع الملعقة

وأسقطها فى طبق الشوربة، وهو يتمتم «اللهم إنى لك صمت، وعلى رزقك أفطرت»!

وانهمكت العائلة فى تناول طعام الأفطار.. الأب صامت دائما.. والأم تنقل عينيها بين الوجوه، ولا تكف عن اصدار التعليمات، كأنها قائد ماهر يدير معركة حياة أو موت.. «ما تلكش عيش كتير يا محيى.. اعمل حسابك على الكنافة».. «سامية.. قربى طبق الرز من الاستاذ ابراهيم».. « ما تاكل يا خويا.. انت عايز عزومة ولا ايه».

ورفعت نوال رأسها ، وقالت :

ـ ايه رأيكم فى المسقعة..

وتذكر إبراهيم انه يجب أن يقول رأيه.. ولكنه أحس بحرج شديد كأنه يهم بأن يقول كلمة غزل لا يصح أن تقال.. وانتظر أن يبدأ أحد من افراد العائلة بإبداء رأيه فى المسقعة.. ولكن واحدا منهم لم يتكلم، وكأنه هو وحده الذى سمع سؤال نوال.. وأحس أنه يجب أن لا يتخلى عنها.. يجب أن يشعرها باهتمامه.. وأن يشعرها بأن «المسقعة» عمل رائع تهنأ عليه.. فقال بصوت خفيض دون أن يرفع عينيه إليها، وقد ازداد وجهه حياء:

ـ مدهشة!!

والتقطت نوال كلمته فرحة، وقالت كأنها تخاطب أفراد العائلة كلها:

ـ أنا اللى عاملاها!

وردت سامية وهى تنظر إليها بتحد:

ـ بذمتك انتى اللى عملاها.. هو اللى يقشر بدنجان يبقى اسمه عمل مسقعة!!

وصاحت نوال كأنها تدافع عن نفسها:

ـ لا يا شيخة.. باه كل اللى عملته تقشير بدنجان..

ثم التفتت إلى أمها قائلة:

ـ والنبى يا ماما، مش انا اللى قليت البدنجان وعملت كل حاجة.. وقالت أمها دون أن تنظر إليها:

ـ أيوه.. إسكتى بأه.. بس يا سامية!
ونظرت نوال إلى ابراهيم كأنها تشهده على انتصارها..
وقال محيى ساخرا:
ـ وأنا قاعد اقول يا ترى ايه الغلط اللى فى المسقعة دى!
وردت نوال بسرعة:
ـ طب حاسب على صوابعك..
ورفع الأب عينيه وفيهما نظرة متبرمة، ودار بهما دورة سريعة بين وجوه المجتمعين، كأنه يأمرهم بالسكوت..
وسكتوا جميعا.. حتى الأم سكتت، ولم تتكلم من جديد إلا بعد أن جاء دور الكنافة..
وانتهى الإفطار.
وانتقل الرجال إلى حجرة «القعاد».. وبقيت الأم وابنتاها يجمعن الأطباق من فوق المائدة وينقلنها إلى المطبخ..
وساد الصمت فى حجرة القعاد.. الأب صامت فى تبرم، كأنه يعانى عسر الهضم، وكأن تزاحم الأفكار على رأسه قد اجتذب كل دمائه ولم يبق شئ منها يحرك به معدته.. وإبراهيم صامت فى قلق، كأنه يتربص فرصة ينتقل فيها إلى الغرفة الاخرى ليخلو إلى نفسه بعيدا عن الأب، ويعيدا عن فروض المجاملة والتأدب التى يفرضها عليه وجود الأب أمامه.. ومحيى صامت، يحاول أن يسلى نفسه بشئ.. فينقر بأصابعه على المقعد، ويضغط على قنطرة نظارته، ويتلفت إلى الباب كأنه يتعجل عودة أمه وأختيه..
وبعد قليل دخلت سامية تحمل صينية عليها براد وأكواب الشاى، وضعتها على مائدة أمام الأب.. ثم التفتت إلى محيى وقالت كأنها تعنى بقولها لكل الحاضرين:
ـ اللى حيقوللى أعمل حاجة بعد كده.. حارمى نفسى من الشباك!
ثم ألقت نفسها على مقعد، وهى تغالى فى إبداء اعيائها..
وقال محيى وكأنه انتهز الفرصة ليخفف عن نفسه:
ـ الخوف انك تقعى على حد..

ورد عليه الأب كأنه يؤيد ابنته، وهو يملأ أكواب الشاى:
ـ قوم يا محيى هات الجرنال..
وقام محيى، وعاد بالجرنال.. ودخلت الأم وخلفها نوال.. وقالت نوال وهى تجلس:
ـ احنا حقنا نعمل زى أمريكا.. كل واحد بعد ما يأكل يغسل طبقه!
ورفع إبراهيم عينيه إليها كأنه يقول:
ـ يا ريت!!
وقال محيى:
ـ فى أمريكا ما بيكلوش مسقعة.. وإلا ما كنوش غسلوا الأطباق. ده غسيل أطباق المسقعة عايز واحد اختصاصى.. زى حضرتك كده!
وردت نوال بسرعة:
ـ خلاص.. من هنا ورايح حضرتك تبقى تأكل خضار مسلوق، علشان تقدر تغسل طبقك!
ووزعت أكواب الشاى .. وبدأ كل منهم يحاول أن يرشف كوبه ويتمتع به فى هدوء..
وفجأة.. رن جرس الباب!
والتفتوا جميعا فى حركة واحدة.. لا إلى الباب ولكن إلى بعضهم البعض.. ووضع الأب كوب الشاى على المائدة وأسقط الجريدة من يده الاخرى.. ونظر صامتا.. كأنه ينتظر أن يتكلم أحد..
وقالت الأم وهى تحاول أن تخفى أنفاسها المبهورة:
ـ ياترى ده مين ده.. سترك يا رب!
وقالت سامية:
ـ بلاش نفتح!!
وقال محيى:
ـ مش ممكن.. إحنا مولعين النور واللى بره عارف اننا وجودين!

وقالت نوال:

ـ يمكن عم علي البواب.. ولا أم البت سنية جية تترجى نرجعها..

وعادت الأم تقول وكأنها لم تعد تحتمل:

ـ دى مش عيشة يا خواتى.. إحنا عمرنا لاكنا حرامية، ولا كان يدخلنا شر.. افتحوا الباب، وزى ماتكون بأه..

وظل الأب وابراهيم صامتين.. الأب ينظر إلى ابراهيم كأنه يسأله فى غيظ : «ما تفعلون فى مثل هذه الأحوال يا حضرات الشبان الثوار»! وابراهيم يحس بقلبه يدق هذه الدقات المرتعشة التى تعودها منذ بدأ يهرب، والتى لا يبدو أثر لها على وجهه ما لم تنظر إلى عينيه، ويحس أكثر بالحرج أمام العائلة.. يحس بنفسه كأنه يزن ستين طنا من الحديد، ويجلس على صدور كل هؤلاء الأبرياء الطيبين.. وبذل مجهودا كبيرا للاحتفاظ باتزانه.. اتزان أعصابه واتزان تفكيره.. قبل أن يقول موجها كلامه للأب:

ـ أظن يا أفندم.. حد يفتح شراعة الباب، ويشوف مين اللى جه.. إذا كان حد غريب يعمل إن الباب مقفول بالمفتاح، ويرجع لنا بحجة أنه حيجيب المفتاح ونبتدى نتصرف..

وتلقت نوال الفكرة كأنها بهرت بها.. ونظر محيى إلى إبراهيم كأنه يشك فى نجاح فكرته.. وتململت سامية فى مقعدها كأن هذا الحال لا يعجبها..

وهزت الأم رأسها ورفعت كفها إلى صدرها كأنها تطرد من حولها شر العفاريت..

وقال الأب، وهو يلوى شفتيه، كأنه يحتقر هذا النوع من التفكير ولكنه لا يجد مفرا منه:

ـ قومى يا نوال اعملى اللى بيقوله ابراهيم..

وخرجت نوال وهى تتلفت إليهم كأنها تستمد منهم شجاعتها، وودعوها بنظرات متكسرة كأنهم يبتهلون ألا تعود إليهم بشر.

وعادت نوال بسرعة، وقالت وهى ترتجف:

ـ عبدالحميد، ابن عمى!!

وقال الأب ، كأن الألفاظ انطلقت رغما عنه:
ـ أعوذ بالله.. يا حفيظ يا رب..
وقال إبراهيم كأنه يخاف ضياع الوقت:
ـ أظن أروح أنا أقعد فى أوده محيى.
وقال محيى بسرعة:
ـ ده عبدالحميد لما بييجى ما بيخليش أوده ما يخشهاش.. عامل نفسه واحد من العيلة!
والأم تهز جسمها الضخم يمنة ويسرة وتدق على صدرها بيدها دقات منتظمة، وهى تقول: يارب.. يارب.. يارب!
وقالت سامية:
ـ أقول لكم. يدخل البلكونة ونقفل عليه..
وقال الأب:
ـ والجيران!
وقالت نوال:
ـ أحسن طريقة إننا نخش أنا وسامية فى أودة الضيوف ونعمل أن فيه بنات بيزورونا، والاستاذ ابراهيم يخش يقعد معانا.. و..
وقاطعتها سامية بسرعة:
ـ والله يا اختى، حيقعد يلف ويدور لغاية ما يخش علينا!
واشتد القلق فى العيون، وبدأ كأن فى رأس كل منهم الف اقتراح، ليس بينها اقتراح نافع.. واضطرب كل شئ.. كان كل واحد منهم يهم أن يتحرك ثم لا يتحرك.. والأم لا تزال تهز جسدها المكتنز وتخبط على صدرها وتردد «يارب.. يارب» .. والأب تقلصت عضلات وجهه حتى اصبح كقطعة الاسفنج لا يبدو منه أنف ولا فم ولا عينان.. وابراهيم انقلب اضطرابه إلى ثورة.. ثورة على هذه العائلة المرتبكة التى لا تستطيع أن تدبر أمره.. ولاحت له من خلال ثورته المكبوتة صورة مسدسه.. لما لا يأخذ مسدسه ويشهره فى وجه القادم، ثم يفر إلى الخارج.. إلى أى مكان.. وليكن ما يكون..
وقال فى عصبية وصورة المسدس لا تزال تهتز أمام عينيه:
ـ يعنى ما فيش ولا حته فى البيت أقدر استخبى فيها.

وانطلق محيى وهو يرفع رأسه كأنه مستغرق فى تفكير عميق:

ـ أحسن مكان هو السندرة.. يطلع ابراهيم يستخبى فيها، واظن مش ممكن عبدالحميد حيطلع وراه..

ومرت لحظة صمت، نظر خلالها كل من فى الحجرة إلى الآخر ثم التفتوا جميعا إلى الأب..

وقال الأب فى صوت أجش:

ـ أظن ما فيش غير كده..

ونظر إلى ابراهيم نظرة حادة كأنه يطعنه بعينيه.. ثم التفت إلى نوال قائلا:

ـ روحى انتى يا نوال طلعى ابراهيم فى السندرة، وأنت يا محيى روح افتح الباب..

وقال محيى:

ـ طيب فين المفتاح علشان أعمل نفسى إنى بافتح الباب بيه!

ومدت الأم يدها تحت وسادة «الكنبة» لتخرج مجموعة المفاتيح التى تحتفظ بها دائما بجانبها..

وقالت نوال وهى تشير إلى إبراهيم:

ـ تعال..

ثم تقدمته بخطى سريعة نحو المطبخ.

كانت «السندرة» عبارة عن سقف معلق فى أحد الأركان تحت سقف المطبخ.. ورفعت نوال سلما خشبيا وأسندته إلى الجدار وهى تقول لابراهيم:

ـ اطلع..

ووضع ابراهيم قدمه على السلم وهو يسأل نوال:

ـ هو بيشتغل ايه ابن عمك؟

وكان يسألها بأنفاس مبهورة وكأنه يريد أن يطمئن إلى أن ابن عمها ليس ضابط بوليس.. ليس عدوا يتعقبه..

وقالت نوال هامسة:

ـ ده واد صايع ما كملش تعليمه.. وبيشتغل فى شركة، وبقاله سنة رايح جاى عايز يتجوز سامية اختى.. ده بعده!

وصعد إبراهيم درجات السلم، وكأنه اطمأن.. واضطر ان يقوس ظهره حتى يصبح رأسه بين ركبتيه ليستطيع أن يجلس داخل السندرة..

ورفعت نوال السلم واعادته إلى مكانه، وأطفأت النور وخرجت لتشترك فى استقبال الضيف..

ومد إبراهيم يده بصعوبة، وازاح من تحته حبات البصل والثوم التى جلس عليها.. وسمع محيى من الخارج يقول للقادم:

ـ أصل من يوم سنيه ما خرجت، ومما بتقفل الباب بالمفتاح بعد الفطار على طول!!

وابتسم إبراهيم، كأنه يهنئ صديقه على ذكائه.. وحاول أن يظل محتفظا بابتسامته ليؤنس بها نفسه فى الظلام الذى يحيط به.. ولكنه لم يستطع.. أن رائحة الثوم والبصل المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود بدأت تتسلل إلى أنفه.. وشئ لزج يلامس صفحة وجهه وجانب عنقه.. لعلها صفيحة زيت.. وأشياء تتحرك عند قدميه.. لعلها فئران.. ولعلها ستقرضه بعد قليل.. وظهره المقوس بدأ يؤلمه.. وانفاسه بدأت تتململ فى صدره.. وعيناه تؤلمانه.. تكادان تدمعان، ليس من تأثير رائحة البصل ولكنه يريد أن يبكى.. نعم، انه يحس كأنه على وشك البكاء.. بل إنه يتمنى أن يبكى ليفرج عن هذا الضيق الذى يخنق قلبه.. يبكى حاله.. يبكى احساسه بالاضطهاد.. انه لم يكن يبكى فى السجن لأنه كان يعرف من يضطهده، ويصب حقده عليه.. ولكنه هنا ليس فى السجن.. إن الدنيا كلها تضطهده هنا.. ظروفه نفسها هى التى تضطهده.. الظروف التى اختارها بنفسه..

ومضت ساعة.. قاوم كل دقيقة منها بكل إرادته.. قاوم ثورته على نفسه، وقاوم إحساسه بالاضطهاد.. وقاوم رغبته فى البكاء.. وقاوم رائحة البصل والثوم المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود..

وأفاق على صوت أقدام تتجه نحو الباب الخارجى.. ثم سمع صوت الباب الخارجى يفتح، وفى نفس اللحظة دخلت نوال،

وأضاءت نور المطبخ، ووضعت له السلم وهى تهمس:

ـ أنزل.. خلاص..خرج!!

وقبل أن ينزل سمع صوت الباب الخارجى يغلق.. إنه يذكر تماما أنه سمعه يغلق.. ونزل وكل عضلة فى جسده تئن.. وتقدم نوال نحو باب المطبخ كأنه ينطلق إلى الحرية..

وقبل أن يخطو فى الممر الذى يفصل المطبخ عن باقى الحجرات، سمع الباب الخارجى يفتح مرة ثانية.. ربما خيل إليه أنه وهم.. ولكنه يذكر أنه سمع شيئا كأن الباب الخارجى يفتح..

وفجأة رآه أمامه..

شخص غريب.. يبحلق فيه بعينين دهشتين.. ومن خلفه محيى واقف كالصنم..

وتحرك إبراهيم حركة تلقائية وخطى خطوة سريعة داخل المطبخ كأنه يختبئ من طلقة مسدس..

وتسمر كل العائلة، لا تتحرك.. صامتة.. ذاهلة.

ثم تحرك الشخص الغريب، وقال وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة:

ـ آسف.. أصلى نسيت المجلة اللى كانت معايا!!

ثم دخل من تلقاء نفسه إلى حجرة «القعاد».. وعاد يحمل فى يده مجلة.. ثم دار بعينيه على وجوه العائلة الذاهلة، والابتسامة الخبيثة لا تزال بين شفتيه، وقال:

ـ السلام عليكم.

ولم يرد أحد تحيته، ولم ينتظر ردا.. خرج وأغلق الباب وراءه!!

٥

وخطا إبراهيم خارج المطبخ وقد امتقع وجهه وارتعشت جفونه فوق عينيه كأنها حملت دقات قلبه الواجف.. وأخذ ينظر إلى أفراد العائلة فى تساؤل جزع..

كان ينتظر أن يناقشوه فيما يجب عمله.. كان يريد أن يعرف من هو عبدالحميد.. أخلاقه، طباعه.. وهل يبلغ عنه البوليس؟ يريد أن يسمع أى شئ، حتى لو شتموه.. فقط يريد أن يسمع شيئا يبدد هذا الجزع الذى يملأ صدره.. شيئا يعينه على التفكير، وعلى تحريك ذهنه، حتى يستعين بنشاط ذهنه على إخماد رعشة قلبه.

ولكن.. لم يتكلم أحد من أفراد العائلة الذاهلة.. وعندما بدأ ذهولهم يتبدد، حولوا عيونهم إلى الأب.. كأنهم يخافون عليه.. كأنه هو الضحية.

ولم يتكلم الأب.. ولم يلتفت إلى أحد ولا إلى إبراهيم.. واتجه إلى غرفته فى خطوات ثقيلة متعبة كأنه يجرجر عمره وراءه. وسارت خلفه الأم، وعلى وجهها جزع ولهفة وخوف، وجسدها المكتنز يهتز فوق ساقيها المرتعشتين كأنه يكاد يسقط من فوقهما.

والتفتت سامية إلى إبراهيم وحدجته بنظرة حادة فيها غيظ مكتوم، كأنها أطلقت من عينيها يدا ملتهبة تصفعه بها، وتمسكه بها من قفاه وتلقى به خارج البيت، ليستريح البيت منه.. ثم سارت فى خطوات عصبية تدق بها الأرض، واختفت فى غرفتها، وصفقت باب وراءها فى عنف..

ورفعت نوال رأسها إلى إبراهيم وبين عينيها نظرة رحيمة تعتذر

بها.. تعتذر عن أختها، وعن ابن عمها، وعن أبيها، وعن الحكومة التى تطارده، وعن مصر كلها التى أتعبته بمشاكلها.. وحاولت أن تتكلم.. حركت شفتيها لتقول شيئا.. ولكنها لم تجد شيئا تقوله.. فرت كل الكلمات من رأسها، وهى تلتقى بوجه إبراهيم المتقع، وجفنيه المرتعشتين فوق عينيه، وحاولت أن تستعيض عن الكلمات بابتسامة تشجعه.. تخفف بها عن همه.. ولكن الابتسامة اصطدمت بقلبها المبهور الملتاع فلم تستطع أن تصل إلى شفتيها ونكست رأسها، وسارت على مهل كأنها لا تريد أن تبتعد عنه.. كأنها تنتظر أن يستغيث بها لتقف بجانبه ودخلت وراء أختها.. والدموع فى عينيها..

ولم يبق فى الممر الذى يفصل بين المطبخ وباقى الحجرات سوى إبراهيم ومحيى.. وهم إبراهيم ان يتكلم، ولكن محيى أدار عينيه عنه، وضغط على قنطرة نظارته فى هذه الحركة العصبية التى لا تفارقه.. واتجه إلى غرفته ووجهه جامد محتقن، اختلط فيه دمة الاحمر ببشرته السمراء فأصبح فى لون الغروب.. وكاد إبراهيم يصرخ وراءه.. أحس أنه يريد أن يصرخ فى البيت كله.. إنه لا يحتمل هذا الصمت.. لا يحتمل هذا الضعف.. إنهم ليسوا فى جنازة.. البوليس لم يأت بعد.. ويجب أن يجتمعوا ليتشاوروا فيما يجب عمله بعد أن رآه عبدالحميد.. أن يجتمعوا لوضع خطة، كما كان يجتمع بزملائه أعضاء الجمعية لوضع خطط الاغتيال.. إن الموقف لا يتسع للعواطف.. لا يتسع للخوف، ولا للندم، ولا للكمد.. يتسع فقط للتفكير.. لإجهاد الذهن.. لإعادة حساب الظروف المحيطة بهم.. لوضع الخطط..

ورغم ذلك فقد أحس أن هذا الصمت الذى أحاطته به العائلة، يحمل خطة يعرضونها عليه.. إنه ليس مجرد صمت.. إنه طلب مقدم إليه ملفوف فى الصمت.. طلب صامت.. إنهم يطلبون منه أن يغادر البيت حالا، ويريحهم من مشاكله.. هذا ما يريده الأب والأم والعائلة كلها.. حتى نوال!

وسيغادر البيت.

سيغادره حالا..

سيحمل مسدسه ويرحل..

وخطا خلف محيى نحو الغرفة، وعقله يتحرك فى رأسه بسرعة حتى طغى تفكيره على هذه الرعشة التى بدأت تنتاب قلبه منذ فر من السجن.. وبدأ يسأل نفسه:

هل خروجه من البيت سينقذ العائلة ويريحها؟

وأزدحمت سحب الشك فى رأسه وهو يبحث عن الجواب ويحاول أن يرى مصير العائلة بعد أن يغادرها..

وأجهد ذهنه كثيرا ليزيح هذه السحب ويصل من ورائها إلى الرأى الصواب، وبدأ يحادث نفسه كأنه يحل مسألة حسابية: «لنفرض أن عبدالحميد قرر أن يبلغ عنى البوليس.. فهل يذهب الآن ليبلغ عنى؟! لا.. فعبدالحميد لا يريد أن يأتى البوليس إلى بيت عمه ليقبض على فيه.. مهما بلغت سفالته ونذالته فهو لن يسلم عمه وأولاد عمه إلى البوليس.. ثم هو يحب سامية ويريد أن يتزوجها فلن يبدو امامها سافلا إلى هذا الحد.. ولكنه سينتظر إلى أن أخرج من البيت بعد أن رآنى فيه.. ويتتبعنى بعد خروجى ثم يبلغ البوليس عن مكانى، ليقبض المكافأة.. وسيحقق معه البوليس.. سيستجوبونه، ولن يستطيع أن يقاوم أسئلتهم.. إن هذا الصنف السافل من الشبان يكون عادة ضعيف الارادة ويسهل التأثير عليه باستغلال جشعه.. وسيعرف رجال البوليس منه الحقيقة الكاملة.. سيعرفون انى كنت اختبئ فى هذا البيت، ثم يقبضون على الأب والابن.. إذن فالضمان الوحيد حتى أفوت على عبدالحميد غرضه هو ألا أخرج من البيت حتى لا أعطيه فرصة التبليغ عنى.. الضمان الوحيد للعائلة هو أن أبقى معهم، لا أن أغادرهم!»

واستراح إلى هذا التفكير..

وربما استراح إليه أكثر، لأنه لا يريد أن يغادر البيت الآن.. فليس له بيت آخر يستطيع أن يلجأ إليه.

وبدأ يستعد لإقناع العائلة بهذا المنطق حتى يستريحوا لبقائه معهم، أو على الأقل، حتى لا يضطروه إلى مغادرة البيت..

ولكن، هل يقتنعون؟!
والتفت إلى محيى وقال وهو يحرص على أن يبدو هادئا:
ـ تفتكر ابن عمك شافنى؟!
وقال محيى وهو يجلس إلى مكتبه ويفتح أحب كتبه:
ـ أظن كده!!
وعاد إبراهيم يسأل وهو يضع على شفتيه ابتسامة يحاول أن يرفه بها عن صديقه:
ـ وتفتكر إنه حايبلغ عنى؟
وأجاب محيى متبرما:
ـ والله ما عرفش!
وسأل إبراهيم وهو يضغط على الكلمات كأنه يلح على صديقه أن يرفع رأسه عن الكتاب:
ـ إنما تفتكر أخلاقه تسمح له أن يبلغ البوليس؟
ورفع محيى رأسه عن الكتاب، وقال فى حدة غير مقصودة:
ـ أخلاقه زفت.. شاب بايظ حشاش.. سقط فى التوجيهية تلات سنين.. وبعدين راح اشتغل فى شركة.. وما حدش عارف عايش إزاى ولا بيجيب فلوس منين..
وقال إبراهيم وهو محتفظ بهدوئه:
ـ سمعت انه عايز يتجوز سامية!
ونظر إليه محيى نظرة فيها غضب وفيها تعجب، كأنه أهين.. واستدرك إبراهيم قائلا كأنه يعتذر:
ـ نوال هيه اللى قالت لى!
ونكس محيى رأسه إلى الكتاب وقال بصوت خافت:
ـ كان طلبها السنة اللى فاتت.. وطبعا ماحدش رضى بيه.. ثم رفع رأسه واستطرد فى صوت غاضب كأنه يريد أن ينتهى من الموضوع:
ـ اسمع يا إبراهيم.. عبد الحميد يبقى ابن عمى صحيح، إنما مافيش حد منا يطمئن له، أو يثق فيه.. كلنا عارفين أنه مستهتر وماعندوش أخلاق.

وقال إبراهيم كأنه لا يريد أن يرحم صديقه:
ـ وتفتكر نعمل إيه دلوقت؟
وقال محيى وهو يدير عينيه، كأنه واثق أن ليس هناك إلا طريق واحد يعرفه إبراهيم جيدا:
ـ والله، زى ما انت عايز!
وقال إبراهيم كأنه يفكر:
ـ تفتكر أقوم أخرج من البيت دلوقت؟
وقال محيى بصوت خافت كأن هذا القرار الوحيد:
ـ وحاتروح فين؟
ـ أروح أى حته.. المهم ما يحصلكمش حاجة بسببى!!
وصمت محيى..
وعاد إبراهيم يقول:
ـ تفتكر أن عبدالحميد يبيع عمه وابن عمه ومرات عمه وبنات عمه، بخمستلاف جنيه؟
وقال محيى وهو يحاول أن يبدو ساخرا:
ـ ده يبعنا بنص ريال!
وقال إبراهيم فى تأكيد وفى لهجة جادة:
ـ ما أظنش!!
ورفع محيى رأسه وفى عينيه نظرات دهشة، كأنه يتعجب من أن يدافع إبراهيم عن ابن عمه، وقال:
ـ ما تظنش ليه؟
وقال إبراهيم كأنه يرى الغيب بوضوح:
ـ الصنف اللى زى عبدالحميد، دايما يفتكر فى نفسه انه ذكى.. وحايحاول يبعنى لوحدى، علشان يستر وشه قدام العيلة.. حايحاول يسلمنى للبوليس من غير ما يسلم حد منكم!
وقال محيى وهو لم يفهم بعد ما يرمى إليه إبراهيم:
ـ إزاى؟
وقال إبراهيم كأنه يعرض خطته:
ـ عبدالحميد منتظر دلوقت إنى انزل من البيت، بعد ما عرفنا أنه

شافني.. وأول ما انزل حيمشي ورايا ويشوفني رايح فين، وبعدين يبلغ عني.. ويقول للبوليس انه شافني في الشارع وتتبعني.. وما يجبش سيرتكم خالص!!

وأطرق محيي مفكرا كأنه اكتشف دنيا جديدة لم تخطر بباله..

واستطرد إبراهيم:

ـ لو ما كنتش مصدقني.. قوم انزل وأراهنك إنك حتلاقيه واقف على رأس الشارع!

وقال محيي كأنه يحاول أن يقتنع:

ـ وإذا ما سبتش البيت، حايعمل إيه عبدالحميد!

وقال إبراهيم بسرعة، وكأنه يخشى أن يفقد السيطرة على تفكير زميله:

ـ حيستنى.. هوه متأكد انى حاسيب البيت.. اذا ما كنش النهارده

– حيبقى بكره !

وقال محيي ساهما:

ـ كلام معقول.. يعي طول ما أنت معانا، عبد الحميد مش حايبلغ عننا!

وقال إبراهيم:

ـ انا ما بفكرش في نفسي بس.. انا بفكر فيكم.. لو عبدالحميد بلغ عني، البوليس حيفضل وراه لغاية ما يعرف انى كنت هنا.. في بيتكم!

وتقلص وجه محيي جزعا، وقال وهو يلتقط انفاسه:

ـ والعمل؟

وأجاب إبراهيم في ثبات:

ـ زي ما باهرب من البوليس، لازم أهرب من عبدالحميد.. لازم اخرج من البيت من غير ما يشوفني ولا يمشي ورايا..

وسكت إبراهيم.. وسكت محيي فترة، وقد قطب ما بين حاجبيه مستغرقا في تفكير عميق، ثم قال كأنه يتوسل إلى زميله:

ـ أظن بلاش تسـيب البيت الليـلة.. نسـتنى كـام يـوم لغـاية عبدالحميد ما يتعب من الانتظار.

وابتسم إبراهـيم ابتسامـة لم تخرج إلى شفـتيـه.. أحس أنه قد وصل إلى غرضـه.. ثم قال وهو محتفظ بلهجته الجادة:

ـ أنا متأكد إنى بكره حاسـيب البيت.. المهم إنك تقـابل فهـمى عبدالعزيز فى الجامعة وتقـول له الكلمتين اللى اتفقنا عليهم.. وبعد ما حاترجع بنص ساعة حاكون انا بره!

وابتسم محـيى كأنه يقول فى سره: «إن شـاء الله».. واستطرد إبراهيم قائلا:

ـ يا ترى والدك موافق انى أبات فى البيت الليلة؟

وقال محيى، كأنه امتلأ ثقة بالمستقبل:

ـ أحسن حـاجة إننا نسيـبه دلوقت.. هو مش حايقـولك اخرج.. وأنا حاطمنه ساعة السحور.

وعاد محيى إلى كتابه، واستطرد قائلا:

ـ أما أذاكـر لى كلمتين.. الامتحـان قرب ومن امبارح مـاقرتش ولا كلمة..

وساد الصمت بين الصديقين، ليكمل الصمت فى البيت كله..

وكـان صمـتا ضـاجـا.. كانت الضـجـة فى رؤوس كل من فى البيت.. ضجـة تنفس عن نفسـها فى همـسات متقطعـة تتجاوب بين جدران البيت..

كـانت الأم تهمس للأب وهى جـالسـة فوق الفـراش وساقـاها تحتـها، لا تريـد ان تستلقى.. والأب مـستلق على جنبـه مديرا لـها ظهره وهو مفتح العينين:

ـ والعمل يا زاهر؟!

وأجاب الأب كأنه يجيب على نفسه:

ـ والله ما انا عارف يا تحية!

وقالت الأم وهى تلقى برأسها فوق كفها:

ـ أنا مش مطمنة للواد عبدالحميد ده!

وقال الأب وهو يتنهد كأن انفاسه تخرج من بين قضبان ضيقة:

ـ ربنا يستر..

وقالت الأم وهى تتردد كأنها تقاوم شيئا فى نفسها:

ـ والنبى حق الاستاذ إبراهيم يدور له على حتة تانية.. إذا كان مش خايف علينا يخاف على نفسه!

وقال الأب:

ـ يعمل اللى هوه عايزه.. يقعد، يخرج.. أنا خلاص.. سلمت أمرى لله.

وقالت الأم وهى تمصمص شفتيها:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

ومدت ساقيها تحتها، وازاحت جسدها المكتنز ورقدت على جنبها ووجهها مواجه للحائط وظلت مفتحة العينين، وفى رأسها أشباح تنعكس على الحائط وتكاد تراها بعينيها فى الظلام كأنها أشباح عفاريت.. وأغلقت عينيها حتى لا ترى العفاريت.. ولكن العفاريت تكاثرت عليها بمجرد أن أغلقت عينيها، فعادت وفتحتهما واستدارت بجسدها ناحية زوجها فى حركة سريعة هزت السرير كله، ثم ألقت ذراعها حوله، قائلة:

ـ زاهر.. أنا خايفة يا خويا!

ومد الزوج يده وضغط على الذراع التى ألقيت حوله، وفى رفق وحنان، وقال:

ـ ما تخافيش يا تحية.. ربنا معانا.

وقالت الزوجة وهى ترتجف:

ـ أنا عارفة ربنا بعت لنا سى إبراهيم ده ليه.. إحنا عمرنا ما كنا وش الحاجات دى!

واستدار لها الزوج وهو يرفع ذراعها عنه برفق، وقال:

ـ تعرفى أنا بفكر فى ايه.. بافكر لو كان إبراهيم ده ابنى كنت عملت ايه؟

وقالت الأم بسرعة:

ـ يا اخويا بعد الشر.. تف من بقك!

واستطرد الأب قائلا:

ـ ولا لو كان محيى هو اللى هرب من السجن، وراح استخبى فى بيت إبراهيم.. كان أبوه عمل ايه!

وقالت الأم، كأنها تلوم زوجها:

ـ وما فكرتش فى عبدالحميد حيعمل ايه.. ده يقدر دلوقت يودينا كلنا فى داهية.. انا كل حتة فىّ بتفرفر.. متهيأ لى أن البوليس حيخش علينا دلوقت حالا..

وقال الأب فى صوت حزين:

ـ مش عايز أفكر لا فى عبدالحميد ولا فى غيره.. التفكير مالوش نتيجة.. الأول بافكر انى أقول لإبراهيم يسيب البيت. ما جاليش قلب.. انا اللى قلت له يقعد عندنا.. كان لازم من الاول ما اقبلوش فى بيتنا.. دلوقت خلاص.. لازم اتحمل النتيجة.. وإذا كان عبدالحميد يقدر يودينا فى داهية إبراهيم كمان يقدر يودينا فى داهية.. يبقى أحسن حاجة إننا نخليها على الله .. وما تخافيش يا تحية .. عبدالحميد برضه ابن اخويا، ومهما كان بايظ إنما من أصل طيب.. وإبراهيم كمان ابن ناس.. وراجل.. ما تخافيش أمال.. انتى طول عمرك جامدة وقوية..

وكان يتكلم كأنه يحاول أن يقنع نفسه بكلامه.. كان هوالآخر خائفا ساخطا، حائرا أمام الغد، وامام واجبه كرب عائلة، وأمام واجبه كرجل شهم.

ودفنت الزوجة رأسها فى صدر زوجها، ثم انطلقت تبكى، ودموعها تهز جسدها المكتنز كأنها تقطع دموعها من لحمها.. ثم تكتم نشيجها، فيخرج نهنهة خافتة كأنها أنات..

ولم تكن تبكى وحدها..

كانت نوال تبكى معها فى الغرفة المجاورة.. تبكى بدموع صامتة وضفيرتها ملقاة بجانب رأسها فوق الوسادة، كأنها شارة الحداد.. والتفتت إليها سامية بعد أن صبرت طويلا على دموعها، وقالت فى لهجة لاذعة، تحاول أن تخفى بها شفقتها ولهفتها على اختها:

ـ تسمحى تقوليلى انت بتعيطى ليه دلوقت؟!

وقالت نوال وهى تشد ضفيرتها بيديها كأنها تحاول أن تنزعها من رأسها:

ـ ده حرام.. حرام يا اخواتى!

وقالت سامية بضيق:

ـ ايه هو اللى حرام؟!

وردت نوال دون أن تلتفت إلى أختها:

ـ حرام يحصل له ده كله.. ذنبه ايه بس؟!

وقالت سامية وهى تتجاهل ما تقصده اختها:

ـ مين هوه؟!

وردت فى صوت حالم:

ـ إبراهيم..

وقالت سامية كأنها تنهر أختها عن ذكره:

ـ ايوه هوه له ذنب.. إنما إحنا ذنبنا ايه؟!

والتفتت إليها نوال فى عصبية وقالت وهى تضرب الوسادة بقبضة يدها:

ـ هوه مالوش ذنب.. ده كان لازم الحكومة تعمل له تمثال.. ده بطل.. قتل واحد انجليزى.. ما قتلش علشان يسرق، ولا علشان مجرم.. قتل علشان وطنه.. زى العسكرى ما يقتل عدوه فى الحرب..

وسكتت سامية برهة، وهى تبحلق فى وجه أختها كأنها تحاول أن تصل إلى قلبها من خلال عينيها، ثم قالت ساخرة:

ـ طيب بلاش سيرة القتل وحياة ابوكى، احسن العفاريت تطلع لنا..

وأدارت نوال جسدها، ورقدت على صدرها، ومدت ذراعيها فوق رأسها، وقبضت على أطراف الوسادة بأصابع مرتخية، وقالت فى صوت ضعيف:

ـ اللى يشوفه ما يصدقش انه يقدر يقتل فرخة.. ده هادى، ومؤدب وخجول.. ده بينكسف منى!

وقالت سامية كأنها توقظ اختها من احلامها:

ـ ده عنيه تخوف.. ماخدتيش بالك من عنيه.. يا أمه؟!!

وأدارت نوال جسدها مرة ثانية، ورقدت على ظهرها، وقالت وهى تنظر من خلال الظلام الباهت إلى سقف الحجرة:

ـ عنيه.. عنيه.. أيوه، شفت عنيه!؟

واغتاظت سامية، وضغطت على شفتيها كأنها تكتم غيظها، ثم أمسكت بذراع اختها وهزتها بعنف، قائلة:

ـ نوال، بصى لى هنا.. وريني خلقتك؟!

وأدارت لها نوال وجهها فى برود وهى لا تزال سادرة فى احلامها، وركزت سامية كل عينيها على الوجه المتطلع إليها، وقالت فى حدة:

ـ انتى حالك مش عاجبنى من ليلة امبارح.. شايفاكى مطيورة، ومش على بعضك.. قوليلى بالظبط، ايه الحكاية؟!

وأشاحت نوال بوجهها عنها، وقالت فى برود:

ـ مالكيش دعوة!!

وصرخت سامية.. وصرافها همس مبحوح:

ـ ليه دعوة ونص.. ماتنسيش انه مالوش مستقبل.. ده محكوم عليه بالإعدام!!

وانتفضت نوال كأنها لدغت، وقالت وعيناها تبرقان وسط الضوء الخافت المتسلل من النافذة:

ـ ما تقوليش كده.. اوعى تقولى كده تانى مرة.. سامعة!!

ثم انكفأت على وجهها، وبدأت دموعها تنهمر من جديد.. ولم تكن هذه المرة دموعا صامتة، كانت دموعا تحمل أنفاسا مبهورة ممزقة..

ومدت سامية ذراعها وأحاطت كتف أختها، ثم مالت ووضعت رأسها على الوسادة بجانب الرأس المعذب.. والصقت خدها بالخد المبلل بالدموع وقالت فى لوعة:

ـ انا خايفة عليكى يا نوال.. خايفة على البيت كله.. خايفة على بابا وعلى محيى.. انتى مش مقدرة اللى بنعمله ايه؟!!

وأدارت نوال رأسها واحتضنت أختها، وارتفع نشيجها..

وعادت سامية تقول وهى تربت على ظهر نوال كأنها طفلة فى احضانها:

ـ يعنى لو قالوا لك، بابا ولا إبراهيم تختارى مين؟!!

ولم تجب نوال.. انكمشت فى صدر اختها، وارتفع نشيجها اكثر.. وظلت سامية تربت على ظهرها وهى تردد فى حنان:

ـ بس يا نوال.. بس يا حبيبتى.. بس أحسن بابا يسمعك!!

●●●

ومضى الليل وكل من فى البيت لم ينم.. وبعضهم ظل مفتح العينين، وبعضهم سقط جفونه تحت ثقل الدموع..

وجاء الصباح..

وخرج الأب إلى عمله دون أن يرى إبراهيم.. خرج مهموما بائسا كأنه كبر عشرة أعوام.. كأنه أحيل على المعاش، ولم يعد يدرى أين يذهب عندما يخرج من البيت..

وقال إبراهيم لمحيى وهو خارج إلى الجامعة:

ـ وحياتك يا محيى، أول ما تقابل فهمى، ترجع على طول علشان تطمنى، وبلاس تكمل المحاضرات..

وهز محيى رأسه واجما، وقال وعيناه جامدتان خلف نظارته:

ـ حاضر..

وخرج وكل قطعة منه ترتعش.. أطرافه ترتعش، ووجنتاه ترتعشان، وفتحتا أنفه ترتعشان.. خرج وكأنه ذاهب إلى السجن بقدميه..

وجرت الحياة فى البيت كما كانت تجرى صباح الأمس.

دخلت نوال تدعو إبراهيم إلى الحمام ليغسل وجهه، وهى تنظر إليه فى لهفة كأنها تريد أن تطمئن عليه، أو تطمئن على نفسها به. ونظر إليها ثم حول عينيه سريعا عنها كأنه مذنب لا يستطيع أن يلتقى بوجه ضحيته.. ثم دخل الحمام وخرج منه دون أن يلتقى بالأم أو بسامية.. واعتقد أنهما تعمدتا أن تتجنباه، وألا تحييانه تحية الصباح.. ربما لم يكن هذا صحيحا.. ولكن إحساسه بمدى

الخطورة التى يعرض لها العائلة، جعله يعتقد أن العائلة بدأت تنفر منه..

ودخلت نوال بعد قليل تحمل له صينية عليها طعام إفطاره.. أنها لم تدعه إلى حجرة الطعام كما فعلت بالأمس.. لابد أن العائلة قد قررت عزله هنا حيث يأكل وينام.. ولا يخرج إلا إلى الشارع.. وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يعذر العائلة فى تصرفاتها..

وتلكأت نوال بجانبه، وهى تضمه بعينيها كأنها تحاول أن تحميه.. تحميه من الدنيا كلها، ومن نفسه، ومن أفكاره التى تجهلها..

وظل صامتا لا يرفع إليها عينيه..

وخرجت بطيئة الخطى، كأنها تبحث فى كل خطوة عن حجة تعود بها إليه.

وأكل لقمة.. ولقمتين.. ثم لم يستطع أن يأكل شيئا.. ووجد نفسه تائها فى سحب من أفكاره.. وحاول أن يركز تفكيره فى خط مستقيم يصل به إلى شئ.. حاول أن يفكر فى خططه التى يكمل بها هربه. حاول ان يفكر فى العائلة التى ألقى نفسه عليها بكل ثقله.. حاول ان يفكر فى عبدالحميد وما يمكن أن يفعله.. ولكنه لم يستطع.. لم يستطع أن يركز تفكيره فى شئ.. وانتهت محاولاته إلى أن وجد تفكيره محصورا فى نفسه.. كان يفكر فى ماضيه، فى حاضره، وفى مستقبله.. وكان تفكيره يصل إلى أعماق نفسه ليكتشفها.. إنه لم يعرف نفسه أبدا قبل أن يدخل السجن.. لم يكن يدرى أن له أعماقا.. وله احساسا.. وله عواطف..

ترى.. لو أنه حسب حساب السجن والهرب، والمشنقة، وكل هذا العذاب.. هل كان يقتل عبدالرحيم باشا شكرى؟!

إنه لم يفكر أبدا فى السجن قبل أن يدخله، ولم يتصور المشنقة إلا عندما بدأت تلتف حول عنقه.. كان يجد أمامه رجال البوليس السياسى، وكان يدرس عقلياتهم وأساليبهم، ولكنه لم يكن يرى ما وراء هؤلاء الرجال من سجون ومشانق.. وربما كان هذا هو سر انتصاره عليهم، فقد كان يحس انه ند لهم.. ند للحكومة، بل

أقوى من الحكومة.. وكان تحدى الحكومة لا يحتاج إلى أكثر من الذكاء.. كأنه يلعب الشطرنج، وليس لأحد اللاعبين سلاح لا يملكه الآخر.. ليس أحدهم يملك السجون والمعتقلات والمشانق، والآخر لا يملك إلا ذكاءه والمسدس الصغير الذى يحمله فى جيبه.

وربما كان هذا هو كل الفرق بينه وبين أى شاب آخر..

بينه وبين محيى مثلا.. أن محيى لا يقل عنه وطنية.. ولكن محيى يرى دائما السجن، والمشنقة، فيتجنبهما بأن يقف موقفا سلبيا من القضايا الوطنية.. أما هو فلم يكن يراهما فلم يتجنبهما واتخذ موقفا وطنيا ايجابيا.. ولعله لو رآهما لتجنبهما هو الآخر، وأصبح سلبيا.

لا.. ليس هذا صحيحا.. أن محيى عندما وضع أمام عينيه السجن والمشنقة خافهما، فسجن نفسه فى الخوف، وشنق نفسه به.. أما هو فقد تحرر من الخوف.. تحرر من صور السجون والمشانق ولم يخف على مستقبله منهما، بل انه تحرر ايضا من مستقبله. لم يفكر أبدا فى هذا المستقبل.. لم ير نفسه وزيرا، ولا نائبا، ولا غنيا، ولا فقيرا، ولا سجينا، ولا مشنوقا..

هذا التحرر. التحرر من الخوف.. والتحرر من المستقبل الشخصى.. هو الذى زوده بالقوة، ودفعه إلى العمل العنيف.. ورغم ذلك، فهواليوم.. الآن.. فى هذا البيت.. لا يحس بالقوة.. لا يحس أنه بطل متحرر.. أنه اليوم لا يريد إلا نفسه.. يريد أن يحرر نفسه من الاحساس بأنه هارب.. يريد أن يرتاح.. يريد أن يضحك.. نعم.. يريد أن يضحك!

وابتسم ابتسامة مسكينة وهو يتذكر انه لم يضحك منذ عام.. منذ قبض عليه.. لم يضحك أبدا من قلبه.. وقد كان فى السجن يضحك ضحكات جوفاء يجامل بها زملاءه.. ولكنه هنا.. فى هذا البيت.. لا يجد حتى الضحك الأجوف..

ودخلت نوال لتحمل صينية الإفطار، وهو لا يزال مستغرقا فى أفكاره، وأحس بوقع أقدامها، فلم يرفع رأسه.. ربما خيل إليه إنها اقدام سجانه، وهو لم يتعود أن يرفع عينيه إلى سجانه.

ونظرت إليه نوال مترددة، ثم حملت الصينية من أمامه، وهمت أن تعود بها، ولكنها عادت واستدارت له، قائلة كأنها تناديه:

- فيه حاجة مضايقاك يا أستاذ إبراهيم؟!

ورفع رأسه كأنه يفيق، وقال كأنه يتكلم من بعيد:

- لا. أبدا!!

وعادت تقول، ونظراتها الحانية تمسح على وجهه كأنها تزيل عنه آثار العذاب:

- مش عايز حاجة؟

وقال فى تهكم:

- عايز اضحك!!

واهتزت الصينية فى يدها وأحدثت الأطباق من فوقها رنينا مرتعشا كأنه رنين أجراس صغيرة معلقة فى رقبة قط هارب.. وقالت وقد أحست بمدى العذاب الذى يعانيه، وانطلق هذا العذاب إلى صدرها فشق قلبها:

- بكره حتضحك كتير يا إبراهيم.. بإذن الله..

وتنبهت إلى أنها نطقت اسمه بلا كلفة لأول مرة..

وتنبه هو أيضا..

وأحمرت وجنتاها، واهتزت الصينية فى يدها مرة ثانية وأحدثت الأصباق هذا الرنين كرنين أجراس صغيرة..

وارتبكت نظرات عينيه، وارتبكت شفتاه فلم يعد يدرى هل يضمهما أو يبتسم بهما، أو يستعملهما فى كلام.. ثم قال كأنه يعتذر عن الضعف الذى بدا به أمامها:

- أصلى افتكرت دلوقت، إنى بقالى سنة وشوية ما ضحكتش.. واتهيأ لى أنى جعان ضحك!

وابتسمت نوال، وقالت فى حياء، كأنها تحاول محاولة يائسة لإضحاكه:

- تحب اقولك نكتة..

وابتسم ابتسامة كبيرة وقال وهو يهم بالضحك قبل أن تقول نكتتها:

ـ يا ريت!!

وسرحت بعينيها لحظة ثم قالت ضاحكة من خلال حيائها:

ـ يا خسارة.. مش فاكرة ولا واحدة!

ودارت والصينية فى يدها، واتجهت إلى الباب، وقبل أن تصل إليه، التفتت وقالت وهى لا تزال فى حيائها:

ـ أول ما حافتكر نكته حارجع أقولها لك..

ولكنها وجدت وجهه وقد زايلته الابتسامة، فسقطت ابتسامتها عن شفتيها.. ونظرت إليه كأنها تتوسل له أن يرحم نفسه.. وخرجت مضطربة..

وعاد وحيدا فى الغرفة.. لا يستطيع أن يقرأ، ولا يستطيع أن يفكر، ولا يستطيع أن يحتمل الفراغ.. ومرت به الثوانى كأنها وخزات إبر فى لحمه.. إلى أن سمع صوت الباب الخارجى يفتح، ثم سمع صوت إقدام محيى.. وكانت الساعة قد قاربت الواحدة والنصف..

ودخل محيى إليه مكفهر الوجه، وحياه دون أن يصافحه.. هزة من رأسه، وتمتمة من شفتيه.. واستقبله إبراهيم بعينين مستطلعتين تكادان تقفزان من محجريهما.. وقال فى عجلة:

ـ خير، عملت ايه؟

وقال محيى، وهو يلقى كتبه على المكتب فى عنف:

ـ ولا حاجة!!

وقفز إبراهيم واقفا، وقال وهو يكاد يصرخ:

ـ ولا حاجة ازاى.. و..

وقاطعه محيى، كأنه ثائر ثورة بكاء:

ـ مالقتش فهمى عبدالعزيز.. فضلت أدور عليه، مافيش فايدة.. وبعدين سألت عليه، وعرفت إنه اعتقل.. قبضوا عليه..

وجحظت عينا إبراهيم، وقال وهو يحاول عبثا أن يتمسك بهدوئه الذى أعتاد عليه:

ـ اعتقل إزاى؟ امتى؟

وقال محيى، وهو يجلس على الفراش ويسقط رأسه بين كفيه:

ـ امبارح فى الفجر.. بيقولوا إنه ساعدك على الهرب!!

وسكت إبراهيم.. بدأ يجمع إرادته ليستعيد هدوءه، حتى يبدأ التفكير من جديد.. وطال سكوته إلى أن رفع محيى رأسه وقال فى لهجة لا تخلو من حدة:

ـ دلوقت حنعمل ايه؟

وقال إبراهيم وهو ينظر إليه فى ثبات:

ـ نبتدى نفكر من جديد!!

وقال محيى كأنه يائس من التفكير:

ـ أظن لازم تفكر بسرعة.. ما فيش وقت.. البلد كلها قايمة على رجل.. البوليس مش مخلى ولا حته ما بيفتشهاش.

وبيقولوا إنهم قبضوا على خمسين واحد!

وقال إبراهيم دون أن يتأثر:

ـ المهم إننا نفكر كويس..

وتعمد أن يضغط على كلمة «إننا» حتى يشعر محيى بأنه شريكه فى التفكير.. ثم أخذ يروح ويجئ فى الغرفة.. ومحيى ينظر إليه بين الحين والحين نظرات حائرة.. فيها شفقة، وفيها خوف، وفيها كراهية، وفيها توسل..

٦

وسمع صوت الباب الخارجى يفتح من جديد.. وصوت أقدام الأب.. ثم سمع الأب وهو يقول لسامية فى عجلة:

- فين مامتك؟!

وقفز محيى وخرج من الغرفة ليستقبل والده، ولكن والده لم يلتفت إليه، مد له يده دون أن ينظر إلى وجهه، وعاد يردد:

- فين مامتك؟!

وخرجت الأم من المطبخ مهرولة، ثم دخلت وراء زوجها إلى غرفتهما، وتعمد الأب أن يغلق الباب وراءهما، ثم قال قبل أن يخلع طربوشه، ودون أن يجلس.. قال وهو مبهور الأنفاس:

- عبدالحميد فات على فى المكتب..

وقالت الأم كأنها تتأهب لسماع قصة طويلة:

- فيه، وقالك ايه؟!

وقال الأب ساخرا وكأنه يسخر من نفسه:

- قال لى أنى راجل وطنى عظيم..

وقالت الأم وهى لا تزال تتأهب لسماع قصة طويلة:

- كتر خيره.. وإيه كمان؟

وقال الأب ووجهه يتقلص فى ألم:

- وعايز يتجوز سامية!!

وفتحت الأم عينيها وكأنها لا تستطيع أن تفهم، وقالت:

- ما طلبها السنة اللى فاتت وقلنا له لأ!!

وسقطت الأم جالسة على الأريكة، وهى مبحلقة العينين، فاغرة

فاها، كأنها صفعت.. ثم تمتمت فى صوت خفيض:

ـ وذنب سامية ايه كمان؟

وسكت الأب..

كان قد قرر بينه وبين نفسه أن يعطى ابنته لعبدالحميد.. كان مرغما.. أو، هكذا كان يظن.

وكان يتصور نفسه كربان مركب على وشك الغرق، فيضطر أن يلقى ببعض حملها فى البحر لينقذ البعض الآخر.. وقد قرر أن يلقى بسامية لينقذ باقى العائلة.. ورغم ذلك فهو لن يلقى بها قبل أن يعد لها قارب النجاة..

وعادت الأم تردد وهى لا تزال مبهوتة، تنظر أمامها كأنها لا ترى شيئا:

ـ ذنب سامية ايه ياربى.. ذنبها ايه بس ياخواتى!

وقال الأب وهو لا يحس بما يقوله:

ـ ربنا عايز كده.. هذه إرادة الله!

وعاد يتذكر كلام عبدالحميد له عندما زاره فى الصباح فى مكتبه.. كان يتكلم همسا.. كان يفح كالثعبان.. وقال انه واحد من العائلة، لا يقل عن باقى أفرادها وطنية.. تحدث كثيرا عن وطنيته، وعن المظاهرات التى اشترك فيها عندما كان طالبا..

ثم تحدث ـ بالمناسبة ـ عن رغبته فى الزواج من سامية.. وكان يتحدث بنغمة خاصة، كأنه يقول أن شرط اعتباره فردا من العائلة هو أن يتزوج سامية، وأن وطنيته متعلقة بتحقيق هذا الزواج..

يريد أن يتزوج بالتهديد.. السافل.. المجرم.. القذر.. لقد هم ساعتها أن يصفعه.. أن يطرده من مكتبه.. وأن يتبرأ منه ومن أبيه.. ولكنه لم يستطع.. كان فى موقف الضعيف.. كان لا يملك إلا أن يستسلم.. وقد فكر ساعتها فى كل الحلول التى تنقذ سامية..

وكان أول ما فكر فيه أن يعود إلى البيت حالا ويطرد ابراهيم.. إنه لا يستطيع أن يتمادى فى تحمل عبئه إلى هذا الحد.. ولكن طرد ابراهيم لن يغير الموقف.. سيظل عبد الحميد يهدده، حتى يتزوج سامية..

وأفاق على صوت زوجته وهى تقـول كأنها تولول.. كأنها تنعى ابنتها..

ـ مش ممكن.. مش ممكن ابدا.. دى أول فـرحتى.. ده مـا كانش عاجبنا الدكتور اللى طالبها، نقوم نرميها للواد عبدالحميد..

وأزاح الأب نظارته من فوق عينيه وقال وهو يضغط على ارنبة أنفه كأنه يحبس دموعا تكاد تنهار:

ـ خليكى عاقلة أمـال يا تحية.. فهمـينى.. بصراحة.. عبدالحـميد بيهددنا.. إذا مـا كنش حيتجـوز سامية حيـبلغ عننا.. وصاحت الأم كأنها أعلنت الثورة:

ـ يبلغ زى مــا يبلغ.. إنما انا مـــاارمـيش بنتى الرمـــيـة دى.. ما موتـهاش بالحيا.. يروح ابراهيم وزفت الطين فى سـتين داهية.. إنما بنتى ما تتجوزش الجوازة دى أبدا..

وقال الأب فى أسـى:

ـ لوكان ابراهيم هو اللى حيروح فى داهية لوحده، كانت هانت.. إنما محيى.. وانا..

وفغرت الأم فاها.. ثم سقط رأسها فوق صدرها واخذت تنتفض بكاء، وهى تقول من خلال دموعها كأنها طفلة تائهة:

ـ يا مصيبتى.. يا خـرابى.. ماليش دعوة.. ما يحصليش ده كله ابدا.. ده ما يرضيش ربنا.. شوف لى حل يا زاهر.. ما ترميش بنتك بأيديك يا خويا..

ومد الأب ذراعه وأخذ يربت على ظهر زوجـته، وينظر إليها فى حنان قائلا:

ـ بس يا تحية.. انا لسه ما كملتش كلامى.. اسمعى أمال؟

وأخذ يربت على ظهرها حتى هدأت انتفاضتها، ثم استطرد قائلا وفى عينيه نظرات خبث ساذج، كأنه يجرب ذكاءه لأول مرة:

ـ شوفى يا سـتى.. دلوقت إحنا حنوافق على الجوازه دى.. إنما حنوافق كده وكده.. وطبعا من حنقدر دلوقت نكتب كتاب، ولا نعزم معازيم.. وحتى مش حنقـدر نلبس الدبل، ولا نعزم اخويا.. إنما هو بس كلام بينى وبين عـبدالحميد.. وحـجتنا معانا.. مش ممـكن عبد

الحميد يطلب اننا نعمل حاجة وابراهيم قاعد فى البيت.. وبعد كام يوم.. ولا كام شهر، يبقى يحلها ربنا.

وكانت الأم تستمع إليه وهى مبحلقة العينين، ورموشها ترتعش، كأنها دهشة.. كأنها تشد ذكاءها من رأسها برموش عينيها..

واستطرد الأب قائلا:

ـ فهمتى بأه يا ستى..

وقالت الأم كأنها تحاول أن تقنعه انها ليست أقل منه ذكاء:

ـ قصدك اننا حنعمل جوازه بالكذب!

وقال الأب كأنه يلومها على غبائها:

ـ مش جوازه.. مجرد كلام.. مجرد موافقة مبدئية!

وقالت بسرعة:

ـ وبعدين نرجع فى كلامنا..

قال وهو يبتسم ابتسامة مرة:

ـ مظبوط..

وسكتت الأم قليلا، ثم عادت تقول كأنها تهم بالبكاء ثانية:

ـ والنبى ده حرام.. يعنى حنخسر سمعة البنت، ويقولوا اتخطبت وانفسخت خطوبتها.. والبطال والكويس يبتدى يتكلم علينا..

وقال فى ضيق. كأنه عجز عن ارضائها:

ـ يا ستى ماحدش حيتكلم.. ما حدش حيعرف بالحكاية دى إلا احنا، بيننا وبين بعضنا.. وعبدالحميد حيخش ويخرج على انه ابن اخويا.. ويبتدى يشيل الهم معانا.. تبقى رجله جت.. إذا حب يبلغ عننا بعد كده. حيسألوه وكنت ساكت ليه من الأول..

وقالت الأم كأنها لا ترضى عن كل هذا، ولا تطيقه:

ـ ربنا يستر.. ما حدش عارف بكره فيه ايه.. هو حد كان يصدق أن ده كله حيحصل لنا..

وقال الأب كأنه يحادث نفسه، وكأنه لم يسمع تعليق زوجته:

ـ وحتى لو الناس اتكلموا عن سامية.. حيقولوا ايه يعنى.. ما فيه مية بنت اتخطبت وانفسخت خطوبتها .. مش أحسن

ما يقولوا عليها ابوها واخوها فى السجن..

وصرخت الأم كأن ابنتها هانت عليها فى سبيل زواجها وابنها :

ـ ما تجبش السيرة دى.. ما تقولش كده.. انا خلاص ما بقاش فيه روح.. ولا اقوم والنبى وأحرق نفسى بالجاز..

وقال الأب وهو يحاول أن يرفه عنها:

ـ انا بقول يعنى ان..

وقاطعته زوجته قائلة:

ـ ما تقولش.. كفايه كده!

وساد الصمت بينهما فترة.. ثم قال الأب:

ـ مش ننده لسامية ونقولها على الحكاية!

وقالت وهى تدير وجهها عنه وتشيح بيدها، كأنها تحمله المسئولية كلها وحده:

ـ انده لها.. وقول لها أنت!

قال وهو يهم بالقيام:

ـ انا حانده للولاد كلهم..

وفتح باب الغرفة، ونادى بصوت خفيض مبحوح:

ـ سامية.. سامية..

وخرجت إليه سامية من المطبخ، نظر إليها مليا فى حنان كأنه ينظر إلى شهيدة:

ـ اندهى لأخوكى وأختك.. وتعالوا.

وأطلت نوال من خلف اختها.. ثم اسرعت بمجرد أن سمعت كلام أبيها.

ونقرت على باب غرفة محيى، ثم فتحت الباب وأدخلت رأسها وهى تقول بينما كانت تبحث بعينيها عن ابراهيم:

ـ محيى.. تعال، بابا عايزك!

وقام محيى خارجا، وابراهيم ينظر خلفه، وفى عينيه تساؤل حاد.. لقد تذكر بسرعة أن الأب من عادته أن ينام بمجرد أوبته من عمله.. فلماذا لم ينم.. لا بد أن هناك شيئا خطيرا قد حدث وحال بينه وبين النوم.. وقبل أن يبدأ فى التخمين كان محيى قد خرج

وهو يزيح اخته من أمامه.. وأغلق الباب وراءه..

واجتمعت العائلة كلها فى حجرة نوم الزوجين.. ووقفت سامية ونوال مستندتين إلى حاجز السرير ووقف محيى مستندا إلى الحائط بجوار الباب.. والأم والأب جالسان على الأريكة وكلاهما يتحاشى النظر إلى أحد من الأبناء..

وتنحنح الأب مرة ومرتين كأنه يطرد شيئا من صدره، ثم قال وهو ينظر إلى كفيه:

ـ عبدالحميد حيبجى يزورنا النهارده بعد الفطار..

وقاطعه محيى قائلا فى قرف:

ـ تانى!!

ونظر الأب إليه كأنه يلومه على مقاطعته ثم أستطرد:

ـ النهارده جالى فى المصلحة، وفهمت منه أنه شاف ابراهيم عندنا..

وقالت نوال بسرعة:

ـ وعايز ايه يعنى..

وحول إليها الأب عينيه وفيهما نظرة غاضبة، ينهرها بها.. وعاد يتابع كلامه:

ـ طبعا انتم عارفين أن ظروفنا وحشه.. وفى الظروف دى الواحد بيستحمل كتير، وكلنا لازم نستحمل بعض..

ونظر إلى أولاده كأنه يحاول أن يرى تأثير كلامه عليهم، ويحاول أن يكشف عن أعماقهم ليرى مدى احتمالهم لما سيقوله.. ورآهم كلهم صامتين، وقد بدأت نفوسهم تميل إلى القلق.. فتنحنح مرة ثانية، ثم قال:

ـ انتم عارفين أن عبد الحميد ولد وحش.. والصنف اللى زيه لازم نأخذه بالسياسة.. علشان نتجنب اذيته..

وقاطعته الأم وهى تلفت إليه مشفقة عليه:

ـ يا اخويا ما تقول لهم اللى عايز تقول وتخلص.. ما احنا شايلين الهم مع بعض..

وقال الأب:

ـ صبرك عليّ يا تحية..

وجذب نفسا عميقا من صدره، يستجمع به شجاعته واستطرد وهو لا ينظر إلى أحد:

ـ عبدالحميد السنة اللى فاتت كان طلب سامية.. طبعا عارفين إننا رفضناه..النهارده جه يطلبها تانى، وطبعا حنرفضه برضه.

وقالت سامية وهى تهز كتفيها:

ـ ايه التلقيحة دى.. ما البنات ماليه البلد!!

وقال الأب دون أن ينظر إليها:

ـ إنما حنرفضه بالسياسة.. يعنى حنفهمه اننا قبلنا، وبعدين نرفضه.

وقال محيى فى حدة وهو يرفع نظره عن الحائط المستند عليه.

ـ يعنى عايز يتجوز بالتهديد.. المجرم.. انا عمرى ما شفت سفالة بالشكل ده!

وقالت سامية، وفى عينيها نظرات مذعورة، وهى تدق الأرض بقدمها:

ـ أنا ما اقبلوش ولا يوم واحد.. ولا ساعة واحدة.. مش ممكن.. مستحيل.. يهدد ما يهددش، انا ماليش دعوة..

وخطت نوال خطوة إلى جانب اختها، والصقت بها كتفها، كأنها تحميها..

وعاد الأب يقول:

ـ إذا كنتى انتى ما تقبلهوش ساعة.. انا ما اقبلوش دقيقة. إنما مضطرين.. وكل اللى اقدر أوعدك بيه إنه مش حيتجوزك، ولو ضربنى بالرصاص مش حيكتب عليكى كتاب..

وقالت سامية، وقد بدأت دموعها تنهمر:

ـ يعنى عايزنى أعمل إيه يا بابا..

قال:

ـ عايزك تسايريه.. تاخذيه على عقله لغاية ما ربنا يحلها..

وقالت سامية كأنها لا تصدق أن والدها يطلب منها مثل هذا الأمر:

- أسايره.. أسايره إزاى؟!

ورد الأب وهو لا ينظر إليها كأنه يخجل أن يواجهها:

- قصدى إنك تسيبيه يعتقد اننا قبلناه..

قالت كأنها تتعمد إحراج والدها:

- إزاى؟!

وصرخ فيها والدها، وكأنه يدافع عن نفسه بصراخه:

- ما أعرفش إزاى.. إنما لازم تفهمى إن الكلام ده مش معناه أن عبدالحميد بيقاله حق عليكى.. تقطعى إيده لو مدها.. فاهمه!

ثم خفت صوته، وقال كأنه يتوسل:

- انا استحملت كتير.. استحملت كتير قوى.. ساعدونى!

وقالت سامية وهى تمسح بكفها دموعا على خدها:

- كل ده علشان سى بتاع اللى قاعد جوه.. أنا خلاص، طهقت.. مش قادرة اسكت.. انا هاخرج من البيت ده.. حاروح أقعد عند خالتى.. مش عايزة أقعد هنا دقيقة واحدة.. ما تشوفوا لكم حل.. احنا حانروح كلنا فى داهية..

وقامت الأم وأخذت ابنتها بين ذراعيها وهى تربت على ظهرها..

وأحنت نوال رأسها كأنها تقصدها هى بكلامها..

وقال محيى ووجهه مكفهر، موجها الكلام لأبيه:

- وتفتكر حضرتك أن عبدالحميد مش عامل حسابه اننا يمكن نلعب بيه..

وقال الأب فى ضعف:

- والله يا ابنى ما انا عارف.. ادينى باعمل اللى بيقدرنى عليه ربنا..

وصمت محيى قليلا يفكر فى طريقة اخرى، يبعد بها شر عبدالحميد عنهم، ثم كأنه لم يجد فى رأسه شيئا، فتحرك ليخرج من هذه الحجرة التى يملأها نشيج أخته سامية..

واستوقفه والده قائلا:

- بلاش تقول لابراهيم على حكاية الجوازه دى.. خلينا احنا بس اللى عارفين..

وقـال محـيى فى اكتـئاب وهو يضـغط بأصـبعـه على قنطرة نظارته:

ـ حاضر..

وهم أن يتحرك مرة ثانية، فعاد الأب يقول:

ـ قول لـه بس أن عبد الحـميـد حيـجى الليلة، وانـه حيقـابله.. علشان يعمل حسابه!

وقال محيى فى استسلام:

ـ حاضر!

وعاد الأب يستوقفه قائلا:

ـ هو ابراهيم ما عرفش يتصل بأصحابه لسه!

وقال محيى وهو يزفر الكلمة فى ضيق:

ـ لسه !

ونكس الأب رأسه كأنه يتمادى فى الاستسلام..

وخرج محيى فى خطوات غاضبة كأنه ذاهب ليقتل ابراهيم، أو عبدالحميد..

●●●

واستقبله ابراهـيم رافعا إليه عينيه، ولكن محـيى تفادى العينين حتى لا يلتقى بتساؤلهما..

وجلس مكفهر الوجه، ممطوط الشفتين، وأصـابعه تعبث بعضها ببعض..

وقال ابراهيم وهو يـرسم بين شفتـيه ابتسـامة يخـفف بها عن صديقه:

ـ خير انشا الله.. حصل حاجة؟!

وقال محيى وهو يزفر ساخطا:

ـ ما حصلش.. بس عبدالحميد حيشرف هنا الليلة!!

وأحس ابراهيم بالرعشة التى تنتاب قلبه، ولكنه كتمها، وقال فى بساطة وهو لا يزال يدعى الهدوء:

ـ ليه؟

وقال محيى بسرعة، وهو يهب واقفا:

ـ علشان يشوفك كمان مرة.. علشان يتعرف بيك.. ووالدى بيشوف انك لازم تقابله.. كده أحسن.. بدل ما نخاف منه، نخليه يخاف معانا!!

وقال ابراهيم وهو يطأطئ رأسه:

ـ خلاص!!

وأغتاظ محيى وقال فى حدة:

ـ خلاص ايه ؟

وقال ابراهيم دون ان يتأثر بحدة صديقه:

ـ قصدى ما دام عمى موافق انى اقابله.. حاقبله..

وقال محيى وهو يحاول أن يفتح كتابا يدفن فيه غيظه:

ـ وبابا سألنى إذا كنت قدرت تتصل بأصدقائك ولا لسه؟

وقال ابراهيم وقد رفع عينيه إلى صديقه كأنه بدأ يعمل:

ـ فيه واحد نقدر نتصل بيه دلوقت حالاً!!

وقال محيى:

ـ مين؟!!

وقال ابراهيم:

ـ واحد اسمه فتحى المليجى..

وقال محيى كأنه يحاول أن يسخر من كل اصدقاء ابراهيم:

ـ ما أعرفوش..

وقال ابراهيم فى هدوء

ـ ده مش معانا فى الكلية.. طالب فى كلية الآداب..

وقال محيى وهو لا ينظر إلى صديقه:

ـ زمانهم أعتقلوه!!

وفقد ابراهيم هدوءه لأول مرة منذ دخل البيت، وقال وهو يواجه محيى، كأنه يحاول أن يسيطر عليه بالقوة:

ـ اسمع يا محيى.. احنا كل اللى نقدر نعمله اننا نجرب كل طريقة.. فى الظروف اللى زى دى ما حدش بيتأكد من حاجة.. يجوز فتحى المليجى أعتقل إنما يجوز برضه انه ما أعتقلش.. المهم اننا نحاول نتصل بيه.. وإذا ما قدرناش نحاول حاجة تانيه..

وقال محيى وهو يتحدى غضب صديقه:
ـ وحانفضل نحاول كده لغاية امتى بإذن الله؟!!
وقال ابراهيم وهو يخفف من حدته:
ـ انا عارف انكم تعبانين منى.. انا بقالى هنا يوم واحد وده التانى، إنما حاسس انكم مش قادرين تستحملونى اكثر من كده.. ووالدك وعدنى انه يخبينى مدة اقصاها اربعة ايام.. إذا كان لسه عند وعده، انا مستعد اخرج من هنا فى اليوم الرابع حتى لو سلمت نفسى للبوليس!!
ولانت نظرات محيى، ونظر إلى صديقه فى عطف كأنه تذكر موقفه، وقال وهو يعتذر:
ـ انا آسف يا ابراهيم.. ما كنش قصدى.. إنما انت عارف اننا مش واخدين على الظروف دى!!
وسكت ابراهيم كأنه يتعمد أن يزيد محيى أسفا.. وعاد محيى يقول بعد فترة:
ـ وحانتصل بصاحبك ده إزاى؟!
وقال ابراهيم وهو يدعى التفكير:
ـ مش عارف.. ايه رأيك؟!
وابتسم محيى ابتسامة خبيثة كأنه كشف اسلوب ابراهيم فى تنفيذ خططه.. ثم قال:
ـ طبعا ما فيش إلا انا؟!!
ونظر إليه ابراهيم نظرته القوية، وقال فى هدوء:
ـ لا.. ما تنفعش!
قال محيى وهو لا يزال ساخرا:
ـ أمال مين.. بابا؟!!
وتكلم ابراهيم فى جد، كأنه ليس لديه وقت للمناقشة، ولا وقت لاتباع اسلوبه القديم فى التلويح بخططه:
ـ لا.. نوال!!
وبهت محيى، وقال فى دهشة:
ـ نوال اختى!! إشمعنى!!

وقال ابراهيم فى حزم:

ـ لأنى خايف أن يكون فتحى مراقب.. لو رحت انت البوليس حيراقبك انت كمان.. إنما نوال تقدر تروح على انها واحدة صاحبة اخته..

وسكت محيى يفكر.. ثم قال وهو يضرب حافة مكتبه بقبضة يده:

ـ إنما انا ما اسمحش لاختى انها تتدخل فى المواضيع اللى زى دى.. كفايه انا..

وقال ابراهيم وهو ينظر إلى محيى كأنه يمده بالقوة:

ـ كلنا دخلنا فى موضوع واحد..

وقال محيى كأنه طفل عنيد:

ـ مش ممكن.. اخواتى البنات ما لهمش دعوة بالحاجات دى.. دور على فكرة تانيه!!

وقال ابراهيم كأنه يعلن يأسه:

ـ تفتكر لو كان عندى فكرة تانيه، كنت فكرت فى نوال.. انا عمرى ما اعتمدت على بنت.. ولا وثقت فى بنت.. إنما الشغلانة دى مش ممكن تقوم بيها إلا بنت!!

وقال محيى فى حدة:

ـ ومش ممكن البنت دى تبقى اختى.. كفايه اللى حصل لنا!!

ونظر إليه ابراهيم كأنه يستهين به وقال:

ـ طيب قوللى فكرة تانيه؟!

وسكت محيى..

وطالت فترة سكوته..

وسكت معه ابراهيم..

سكوتا عصبيا، يثير ضجة فى رأس كل منهما..

ثم انطلق محيى فجأة كأنه يتم حديثا كان يدور بينه وبين نفسه:

ـ وانا ايه عرفنى بفتحى ده.. ازاى اسمح لاختى تروح له لغاية

بيتـه.. ما يمكن يكون سـافل، ويدور بعد كـده يتكلم عليهـا فى كل حته!!

وقال إبراهيم وقد انفرجت اسـاريره وبدأ يشعر بأنه على وشك النجاح فى خطته:

ـ دى حـتروح له فى وسـط عيلتـه.. وحـاتقابـل اختـه.. ومش حاتقول اسمها ولا اسـمك، ولا حتقول انا فين.. والمواضيع اللى زى دى ما حدش بيـتكلم فيها.. فتحى يمكن مـا يخافش على اختك من الكلام، إنما حيخاف على نفسه!

وقال محيى:

إنما بابا مش ممكن يرضـى.. ده يذبحنا كلنا.. ولا ينْشَلّ!

وقال ابراهيم كأنه يصدر أمرا لا يناقش:

ـ باباك مش حيعرف!!

ولم يناقشـه محيى فى هذا الأمـر كأنه اقـتنع به.. وسكت مرة تانيه.. وطال سكوته.. ثم عاد وانطلق فجأة قائلا:

ـ وحاتروح له امتى.. اظن فى نصف الليل!

وقال ابراهيم فى لهجة جدية كـأنه يدعو صديقه لأن ينتهى من وساوسه، ويبدأ فى العمل:

ـ حاتروح دلوقت.. احنا الـساعة تلاتة ونص لسـه.. تقدر تروح وترجع قبل الفطار.. بيته قرب مننا.. فى الدقى!

وأغلق محيى الكتاب الذى كان قد فتحه.. طواه فى عصبية كأنه يصفع به القدر، ثم اتجه إلى الباب وفتحه، وصاح بأعلى صوته:

ـ نوال.. نوال!

وخرجت نوال من حجرتها فى خطوات بطيـئة كأنها تحمل فوق كتفيها دموع اختها.. وقالت فى كمد :

ـ عايز ايه.. مالك بتزعق كده!!

وقال محيى بلا ابتسام:

ـ تعالى.. دقيقة واحدة..

وانسحب إلى داخل الغرفة، ودخلت وراءه، وسقطت عيناها على ابراهيم، ونظرت إليه نظرة مـسكينة، كأنها تتوسل إليـه أن يأخذها

فوق صدره لتبكى حظها وحظه، وحظ البيت كله معهما.
وأدار ابراهيم عينيه عنها، وهو يخجل أن يواجهها بما يدور فى رأسه..
وقال محيى وهو يغلق الباب:
ـ ابراهيم عايز يقول لك حاجة!!
ورفع إليه ابراهيم عينيه كأنه يلومه لأنه ألقى هذه المهمة عليه، ثم حول عينيه إلى نوال ونظر إليها نظرة سريعة ثم خفضهما، وهو لا يزال اضعف من أن يواجهها..
والتفتت نوال إلى اخيها ثم إلى ابراهيم، وهى دهشة.. لا تستطيع أن تتصور شيئا يقوله لها ابراهيم.. إلا شيئا واحدا لا يستطيع أن يقوله!!
وتنهد ابراهيم.. جذب نفسا عميقا من صدره يستعين به لإطلاق لسانه، ثم قال:
ـ الحقيقة أن فيه واحد صاحبى لازم اتصل بيه دلوقت حالا. وما فيش حد يقدر يروح له إلا انتى..
قالها بسرعة، كأنه يريد ان يزيح عن صدره شيئا ثقيلا.. وقفزت من صدر نوال ابتسامة ضعيفة، بلغ من ضعفها أن عجزت عن الوصول إلى شفتيها.. ثم التفتت إلى اخيها صامتة، كأنها تسأله بصمتها عن حقيقة ما يقوله ابراهيم..
وأحس ابراهيم بالتفاتتها، فاستطرد:
ـ محيى وأنا ما لقيناش طريقة تانيه.
وبدأ احساس نوال ينشط ويطرد من قلبها الهم الذى تركته فيه دموع اختها.. احست انها مقبلة على عمل خطير.. ولم تحس أن هذا العمل من أجل مصر.. ولا من أجل بطل.. ولكن من أجل ابراهيم.. الرجل الذى التقت به.. أحست انها تقترب منه أكثر.. تقترب منه جدا حتى لتشعر بأنفاسه، وقالت بسرعة:
ـ وحاروح له ازاى!
وقال ابراهيم وهو لا يزال يرفض أن ينظر إليها، كأنه يحاول أن يقنع نفسه انها ليست نوال التى يشركها فى خططه.. إنما مجرد

زميل من أعضاء جمعيته:

ـ بيته في الدقي.. شارع اسماعيل نمرة ١٥.. إذا فتح لك حد تاني قولي انك زميلة له في كلية الآداب وجايه تاخدى منه كراسة المذكرات.. ولما يقابلك.. ما تقوليش له انتي مين.. ولا انا فين.. قوليله بس اني عايز بدلة ظابط.. وعايز عربية تستناني في شارع النيل قبل نادي التجديف من ناحية الجيزة.. تستناني بعد مدفع الفطار بعشر دقايق.. ولازم كل ده يتم بكره، يا بعده بالكتير. فهميه اني مش حاقدر اقعد مطرح ما أنا، اكتر من كده!

وكانت نوال تستمع إليه وقد تجمع ذكاؤها كله في عينيها.. وشفتاها ترتعشان كأنها تشرب بهما كلامه.. والغمازتان فوق خديها تلوحان حينا وتختفيان حينا كأنهما نجمتان من نجوم الفجر الجديد..

وقالت في صوت حنون ليس ليه اثر للانفعال، إنما فيه استسلام وكأنها تسأله «وعايز ايه كمان».. كأن رجلها يأمرها فتسعد بأمره، وتسعد بالخضوع له:

ـ وحاقول لماما ايه علشان تسيبني اخرج؟

قال محيي:

ـ قوليلها انك رايحه تزوري فوزيه ، ولا واحدة من صاحباتك!

قالت نوال وهي هادئة أيضا:

ـ مش حترضى!!

وقال ابراهيم بعد لحظة صمت:

ـ قوليلها انك لازم تزوريها قبل ما تيجي هيه تزورك وتطب علينا!!

ونظرت إليه باعجاب كثير وقالت:

ـ فكرة!!

ثم استطردت:

ـ هوه اسمه ايه؟!

وقال ابراهيم وهو يرفع إليها عينيه في دهشة:

ـ مين؟!

قالت مبتسمة:

ـ اللى حاروح له؟

قال وهو يكاد يضحك من نفسه:

ـ فتحى المليجى!!

قالت:

ـ أروح له دلوقت؟

قال وهو ينظر إليها مبتسما كأنه يودع بين يديها حياته ومستقبله راضيا:

ـ حالا..

قالت وهى تقبله بعينيها:

ـ حاضر..

وهمت أن تنصرف، فاستوقفها محيى، واقترب منها، وقال كأنه يواسيها:

ـ خدى بالك من نفسك يا نوال.. ما تتهوريش زى عوايدك.. لو حسيتى بأى حاجة.. حد بيتبعك.. أو حد بيضايقك.. أرجعى حالا..

قالت وكان فرحتها لم تترك لها طاقة للكلام:

ـ حاضر..

وخرجت من الغرفة كأنها ذاهبة إلى ابراهيم، لا ذاهبة بعيدا عنه!

٧

لم تجد نـوال صعوبة فى اقنـاع والدتها لتـسـمح لها بالخـروج بحجة زيارة صـديقتها.. واخـذت تبدل ثيابها فى هدوء مفتعل..

ورغم الجهد الذى كانت تبـذله فى افتعال الهدوء، لم تستطع أن تحول دون رعشة أصابعها، حتى انها مزقت جوربها وهى تسحبه على ساقها، فرفعت أصبعها إلى فمها وبللته بريقها ثم مسحت به على الجورب حتى تحول دون اتساع الرقعة الممزقة..

فعلت ذلك وهى تبـتسم، كأنهـا تبتسم لنفـسها لتـتحايل عليـها وتقنعها بالهدوء..

ولم تكن رعشتها رعشة خوف..

كانت رعشة الأقـدام على مغامرة جديدة.. رعـشة الوقوف امام عـالم مـجـهـول، ترى نوره بعين، وترى ظلامـه بالعين الأخـرى.. وتسمع فـيه باحدى أذنيهـا تغريد الطيور، وتسـمع بالأذن الأخرى زئير الوحوش.

ولم تكن ترى فى هذا العـالم إلا انسانا واحدا.. ابراهيم.. كـأنـها ذاهبـة إليـه.. كأنـها ذاهبـة إلى أول لقـاء لأول حب.. وكـان النور والظلام اللذان تراهمـا ينبـعـثان من ابراهـيم.. والتغـريد والزئيـر تسمـعهما حـول ابراهيم.. وكانت تائهة وهى تحـاول الذهاب إليه.. تائهة فيه.. وكان احساسها بأنها تائهة يزيدها لهفة عليه.. واصرارا على العـثـور عليه.. الـعثـور على سـلامـته وأمنه.. كـأنه مـريض لا تدرى دواءه فتدور ملهوفة تبحث له عن طبيب..

إنها ذاهبة الآن إلى الطبيب..

وخرجت وضفيرتها السوداء حائرة معها خلف ظهرها..

وسارت فى الطريق نحو موقف الأوتوبيس، دون أن يخطر على بالها أنها ذاهبة فى مهمة وطنية.. لم تفكر فى البوليس، ولا فى السجن.. فقط كانت تفكر فى الطبيب الذى ينقذ ابراهيم.. وكان كل خوفها ألا تجد الطبيب.. أو أن يهز رأسه أمامها علامة اليأس.. ورغم ذلك فقد كانت احيانا تذكر نصيحة أخيها لها: «خدى بالك من نفسك يا نوال.. لو حسيتى بأى حاجة.. حد بيتبعك.. أو حد بيضايقك.. أرجعى حالا».. كانت تذكر هذا الصوت، فتنتبه إلى نفسها.. وتقفز إلى عينيها نظرات شك وريبة تديرها بين ركاب الأوتوبيس.. وكانت تمر بها لحظة تعتقد فيها أن كل هؤلاء الناس يعرفون سرها.. وسر ابراهيم.. ويخيل إليها انهم كلهم من رجال البوليس السرى، وإنهم سيقبضون عليها.. سيأخذونها إلى السجن، قبل أن تصل إلى الطبيب.. وكان قلبها يرتجف.. ولكنها كانت تطرد هذه الشكوك سريعا، فتهدأ عيناها، ويهدأ قلبها.. وتعود تفكر فى ابراهيم.. وفى الطبيب..

ونزلت من الأوتوبيس فى ميدان كوبرى الإنجليز..

وسارت فى شارع اسماعيل، تتبع بعينيها أرقام البيوت.. وعندما وصلت إلى رقم ١٣ تلفتت وراءها بلا تعمد، كأن شيئا فى أعماقها يدفعها إلى الحذر.. ولم تجد أحدا وراءها، فخطت عدة خطوات، ووقفت أمام البيت رقم ١٥.. وأشتد وجيب قلبها كأن عمرها كله يتجمع فى الخطوة التالية.. وترددت.. وترددت طويلا.. وكان فى ترددها كثير من الحياء، وكثير من الضعف.. كأنها افاقت من احلامها لتصدم بالواقع.. كأنها عرفت لأول مرة أن ابراهيم هارب من الحكومة، وأنها هنا لتساعده على الهرب.. وكأنها اكتشفت لأول مرة أنها ستدخل وحدها إلى بيت غريب، لتلتقى برجل غريب..

وقاومت ترددها بكل ارادتها.. وبدأت تقيس البيت بعينيها.. إنه بيت كبير.. فيلا.. وحديقة.. يبدو أنهم أغنياء.. وخطت إلى الداخل فى خطوات مرتبكة.. وضغطت على جرس الباب كأنها تضغط على

قلبها.. وفتح لها خادم أسمر يرتدى قفطانا أبيض.. ووقف أمامها صامتا كأنه يبشر بليل طويل.. وقالت فى صوت ضعيف متهدج:

ـ فتحى بك موجود؟!

وقال الخادم وشفتاه تتحركان بسرعة فوق أسنانه البيضاء، كأنه يحول دون انبثاق الفجر:

ـ نقول له مين حضرتك؟!

قالت وصوتها لا يزال يرتعش

ـ انا زميلته فى الكلية..

قال:

ـ اتفضلى.. دقيقة واحدة.. نديله خبر!

وقادها إلى صالون فخم.. ولكنها لم تستطع أن تلمح فخامته.. لم تستطع أن ترى المقاعد الأوبيسون، ولا التحف المتناثرة فوق الموائد المذهبة.. ووقفت حائرة كأن الحجرة فراغ، ليس فيها مقعد تجلس عليه.

وسمعت وقع خطوات سريعة.. ثم بدت امامها فتاة فى مثل سنها.. جميلة، ولكن ثوبها أجمل منها..

وتمهلت خطوات الفتاة وهى تقترب منها، ثم مدت يدها تصافحها قائلة:

ـ بونسوار..

وقالت نوال وهى مرتبكة فى حيائها:

ـ بونسوار..

وأخذت الفتاة تنظر إليها فاحصة كأنها تتحسس قماش ثوبها لتعرف نوعه ثم قالت فى برودة:

ـ حضرتك مع أبيه فتحى فى الجامعة؟

وبلعت نوال ريقها وهى تقول:

ـ أيوه..

وقالت الفتاة وهى لا تزال تطلق نظراتها الفاحصة:

ـ هوه نايم.. تحبى نبلغه حاجة؟!

واحتارت نظرات نوال فى عينيها برهة، ثم قالت كأنها صممت أمرا:

- أرجوكى تصحيه.. أنا عايزاه فى حاجة ضرورى خالص..

ونظرت إليها الفتاة فى تعجب ثم قالت:

- أصحى أبيه فتحى!! مش ممكن.. ده يدبحنى.. ياى.. كله إلا صحيان أبيه فتحى..

وقالت نوال بسرعة:

- تأكدى أنه مش حيزعل لما تصحيه.. دى مسألة تهمه خالص..

ونظرت إليها الفتاة فى سخرية، وقالت:

- وتهمك انتى كمان طبعا؟!

وفهمت نوال ما تقصده الفتاة، وازدحمت دماؤها فى وجنتيها ثم صعدت إلى رأسها، والتمعت فى عينيها نظرة كشرارة النار وقالت فى حدة تحاول أن تكتمها حتى لا تصفع الفتاة الواقفة أمامها:

- ارجوكى تروحى تصحيه.. وإذا ما رضيش يصحى تعالى قوليلى..

ونظرت إليها الفتاة فى دهشة، ثم قالت بلا مبالاة:

- دى يظهر مسألة مهمة خالص.. يا بختك!!

وقبل أن تنفجر نوال صارخة فى وجهها، استطردت قائلة:

- واقول له مين حضرتك؟

وهبطت حدة نوال، ثم قالت وهى لا تزال تفكر:

- زينب..

ثم استطردت بسرعة كأنها وجدت طريقا:

- زينب حمدى!!

وهزت الفتاة كتفيها بلا مبالاة، وخرجت.. وتركت نوال ساهمة.. كأن اسم «حمدى» الذى نطقته بلسانها لا يزال يرن بأذنيها.. إنه اسمه.. ابراهيم حمدى.. هل سطت على اسمه .. هل أصبح هذا الاسم حقا لها .. هل يكون اسمها يوما «نوال حمدى».. وأحست أنها تمادت فى أحلامها أكثر مما يجب.. انها سارت بعيدا فى العالم

المجهول.. وأحست بحيائها.. حياء لذيذ يدفئ قلبها لمجرد أن اسمها واسم ابراهيم اجتمعا فى اسم واحد..

وتلفتت حولها.. ثم جلست على مقعد.. جلست مستريحة سادرة فى احلامها. ثم تنبهت إلى مهمتها، فاعتدلت، وجلست على مقدمة المقعد، واتخذت لنفسها وضعا جديا..

وتركوها وحدها فترة طويلة..

وبدأت تتنبه إلى الفخامة التى تحيط بها.. إلى المقاعد الأوبيسون، والتحف المتناثرة على الموائد المذهبة.. هل يمكن أن يكون بين أصدقاء ابراهيم فتيان فى مثل هذا الثراء.. مرفهون إلى هذا الحد.. لقد كانت تتصورهم جميعا مجاهدين مشردين.. لا يطيقون الثراء ولا الرفاهية.. ولا يملكون شيئا إلا المسدسات..

وسمعت وقع أقدام..

ودخل شاب نحيل.. بارز الوجنتين تنفر عروقه من فوق يديه.. وكانت عيناه منتفختين من أثر النوم، وشعره مشعث.. يرتدى بيجاما ومن فوقها «روب» من الحرير.. هل هذا هو فتحى المليجى.. لقد كانت تتصوره انسانا ضخما قويا بارز العضلات.. إن الذى ينقذ ابراهيم يجب أن يكون انسانا ضخما..

واستقبلته بعينين دهشتين كأنها لا تصدقه، ومدت له يدها لمصافحته، وهو يبادلها دهشتها، وقبل أن تتكلم لمحت أخته آتية وراءه، فقالت بلهجة حاسمة:

ـ من فضلك.. أقدر أكلمك لوحدك!

ورفعت صوتها حتى تسمعه الفتاة..

وهزت الفتاة كتفيها كأنها تقول: «ياسم»! ثم خرجت..

واقتربت منه نوال وقالت هامسة:

ـ حضرتك الأستاذ فتحى المليجى؟

وقال فتحى والدهشة لا تزال تملأ وجهه:

ـ أيوه..

وقالت نوال وقد اشتد همسها خفوتا بعد أن نظرت إليه مليا كأنها تطلع على بطاقة تحقيق شخصيته:

ـ انا جايه من عند ابراهيم حمدى..
واتسعت عينا فتحى، وقاطعها قائلا فى لهفة:
ـ هوه فين؟
وقالت نوال:
ـ ما أقدرش أقولك..
قال كأنه يعتذر:
ـ قصدى اسألك صحته أزيها.. وعامل ايه؟!
وقالت وهى تحس احساسا كاملا بمهمتها الخطيرة:
ـ صحته كويسة.. وبيقولك انه عايز بدلة ظابط.. وعايز عربية تستناه فى شارع النيل، قبل نادى التجديف من ناحية الجيزة بعد مدفع الفطار بعشر دقائق.. ولازم كل ده يتم يا بكره يا بعده..
ونكس فتحى رأسه، وأخذ يفكر، بينما نوال تنظر إليه بكل عينيها كأنها تنتظر منه نتيجة امتحانها.. النتيجة التى ستقدمها لابراهيم..
ورفع رأسه وقال وقد ارتسمت على وجهه إمارات الجد:
ـ بدلة الظابط اقدر اجيبها الليلة.. لو كنتى انتى اللى حتستلميها تقدرى تاخديها من بكره الصبح..
وقالت بسرعة كأنها تتعجل بقية القرارات:
ـ الساعة كام؟
قال:
ـ زى ما يعجبك.. الساعة اتناشر مثلا..
قالت:
ـ فين.. آجى هنا؟
قال:
ـ لأ.. بلاش البيت أحسن والدى يمكن ما يخرجش بكره استنينى فى ميدان الكوبرى.. عند دكان السجاير.. وانا حافوت عليكى، وأسلمها لك.. إذا ما جتش الساعة اتناشر بالضبط.. تيجى هنا الساعة تلاته.. لأنه يمكن حد يكون مراقبنى..
قالت كأن المهمة اصبحت صعبة:

ـ يعنى اخرج مرتين فى يوم واحد.. مش معقول؟!
ونظر إليها فتحى فى تعجب كأنه لا يفهم ما تقول، وقال:
ـ مش معقول ليه؟
وكادت تهم بأن تقول له إن أمها لن تسمح لها بالخروج ولكنها تنبهت إلى أنه ليس من حقها أن تناقش فتحى فى مثل هذه المواضيع، فقالت:
ـ قصدى.. المهم.. والعربية حتعمل فيها ايه؟
قال:
ـ العربية بعد بكره.. مش ممكن قبل كده..
قالت وهى تهم بالانصراف:
ـ متشكرة!!
وسألها وهو لا يزال ممسكا بيدها:
ـ حضرتك أخت ابراهيم.. قريبته؟
قالت وهى تبتسم ابتسامة خفيفة:
ـ لا.. معارف..
وخطت نحو البهو الخارجى، ووجدت أخت فتحى تنظر إليها.. نفس النظرة الساخرة، وقالت وهى تودعها بعينيها حتى الباب:
ـ يا بخت بنات الجامعة.. احنا عندنا فى الليسيه رجعيين خالص!!
ولم ترد عليها، إنما اشاحت برأسها فطارت ضفيرتها فى الهواء كأنها تصفعها بها..
وخرجت..
عادت إلى البيت، تحمل الدواء..
وكانت فرحة..
كان صدرها ممتلئا بالثقة فى نفسها.. لقد عرفت الطريق.. أنه طريق سهل، ليس فيه ما يخيف.. ليس فيه وحوش، ولا ظلام.. الطريق إلى ابراهيم!
وانطبعت فى ذهنها صورة فتحى المليجى.. الوجه النحيل، والعروق البارزة، والعينان المنتفختان من أثر النوم.. وصورة أخته

بنظراتها الساخرة وثوبها الجميل.. اجمل منها.. وصورة البيت.. والمقاعد الأوبيسون، والتحف فوق المائدة المذهبة.. انطبعت فى ذهنها كل هذه الصور كأنها ذكريات عزيزة.. غالية.. ذكريات أول لقاء لأول حب.. وسمعت بأذن خيالها صوت أخت فتحى وهى تقول «يا بخت بنات الجامعة.. دى الليسيه بقت رجعية خالص».. ماذا كانت تقصد.. وابتسمت بينها وبين نفسها وهى تواجه هذا السؤال.. إنها بنت صغيرة هذه الفتاة.. اخت فتحى.. انها لا تدرى الحياة.. لا تدرى الحب.. لا تدرى أن فى بيتها رجلا.. بطلا.. لا تدرى شيئا.. أن تعليقها لا يعدو مجرد تنفيس عن غيرتها.. كهؤلاء الناس الذين يلقون التعبيرات الساخرة كلما رأوا فى الطريق فتى بجانب فتاة.. وقد رأتها بجانبه.. لا بجانب شقيقها فتحى.. بل بجانب ابراهيم.. كان ابراهيم دائما بجانبها، وخياله يلوح فى عينيها، وفوق شفتيها، ويتأرجح مع ضفيرتها.. فغارت منها.. ولكنها صغيرة.. صغيرة جدا هذه الفتاة.. أما هى فكبيرة.. ناضجة عرفت الحياة.. وعرفت الحب..

ودخلت البيت تحمل فرحتها وثقتها بنفسها..

وسمع محيى وقطع خطواتها، فخرج إليها، وأشار إليها من بعيد ثم قال همسا وهو يجذبها من يدها إلى داخل الغرفة:

ـ خير.. لاقيته؟!

قالت وهى تنظر إلى ابراهيم وبين شفتيها ابتسامة ملأت الغرفة كلها ابتساما:

ـ أيوه .. لاقيته!

واحتضنها ابراهيم بعينيه، ووجهه ينطلق بالفرح، كانت كل خلجة فيه تزغرد.. ولم يفرح بالخبر ولكنه كان فرحا بعودتها.. لقد قضى كل هذه الفترة منذ ذهابها ملهوفا عليها.. يفكر فيها.. وقلبه ينقبض وينفرد كأنه يجرى وراءها.. وحاول أن يقنع نفسه أنه لم يكن يفكر فيها إلا ليطمئن على خطته.. وأنه لم يكن ملهوفا عليها، إنما كان ملهوفا على نفسه.. حاول كثيرا.. وحاول أن يفسر إحساسه بأنه نفس الاحساس الذى كان يشعر به وهو يرسل

زملاءه فى الجمعية السرية لتنفيذ خططه.. حاول أن يوجه احساسه إلى هذا الاتجاه.. ولكنه لم يستطع.. أنه احساس جديد ذلك الذى يحس به.. وهو احساس مركز فى شخص واحد.. لا يشمل المجموع كله.. لا يشمل مصر كلها.. كأن الناس كلهم اصبحوا واحدا.. ومصر كلها لم يعد فيها إلا واحد..

وقد ثار على هذا الاحساس.. ثار على لهفته.. انه احساس اقوى منه.. ولهفة تكاد تنهار به.. تكاد تدفعه لأن يصرخ مناديا نوال، ثم يحطم القضبان التى يسدلها أمامه حرصه على تنفيذ خطته، ويجرى وراءها يعود بها.. يعود بها إليه حتى لا تغيب عن عينيه.. وظل يقاوم احساسه.. قاوم كثيرا.. إلى أن عادت، فكف عن المقاومة.. وانطلقت خلجات وجهه تزغرد فرحا.

ولأول مرة احتواها بعينيه دون أن يحولهما عنها.. لم يستطع أن يحولهما.. وتعلقت ابتسامته بابتسامتها.. تعلقت طويلا كأنهما لم ينتهيا من الابتسام.. وكان بينهما رسول من الشوق يرى عمره كله وعمرها كله.

وعاد محيى يقول فى لهجة سريعة وقد ضاق بتلكؤها فى الكلام:

- وقالك ايه .. ما تتكلمى!

قالت كأنها هائمة:

- قا لى إنه حيعمل كل حاجة!

وكان ابراهيم قد أفاق على صوت محيى، فاستجمع ارادته حتى استطاع أن يرخى عينيه عن نوال، وقال فى اختصار كأنه لم يعد يستطيع الكلام:

- إزاى؟!

وقالت نوال كأنها تتباهى بنجاحها:

- بكره الساعة اتناشر حيجيب البدلة.. وبعد بكره العربية حاتكون جاهزة..

وقال محيى متعجلا:

- حايجيب البدلة فين؟

قالت:

ـ حاستناه فى ميدان الكوبرى جنب بتاع السجاير، وحايفوت يسلمها لى .

وصاح محيى حتى كاد صوته يخرج من الغرفة:

ـ عال.. مش ناقص إلا إنك تقابليهم فى السكك..

وضغط بأصبعه على قنطرة نظارته، وعاد يقول غاضبا:

ـ انا مش ممكن اسمح لك بكده.. كفايه لغاية هنا.. انا اروح آخد البدلة منه..

والتفتت نوال إلى ابراهيم كأنها تستنجد به من أخيها الذى يكاد يحرمها لذة انتصارها، ويحرمها من نشوة حبها..

وسكت ابراهيم برهة.. كان هو الآخر يحس بالضيق.. يحس أن شيئا فى صدره يعارض فى أن تذهب نوال وتقابل فتحى فى الطريق.. كأنه يغار عليها.. كأن التقاءها بشاب آخر يجرح كبرياءه.

وقال فى صوت خافت وهو يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع محيى:

ـ ده حايسلمها البدلة ويمشى على طول.. المسألة مش حتاخد اكثر من دقيقة واحدة..

وقال محيى:

ـ دقيقة.. اتنين.. انا اللى حاروح بنفسى.. إنما اخواتى البنات ما يقابلوش شبان فى السكك..

وقالت نوال فى حدة كأنه تدافع عن نجاحها:

ـ إنما هو ما يعرفكش.. حيسلمك البدلة ازاى، وهو ما يعرفكش!

وسكت محيي، ورفع إليه ابراهيم عينيه كأنه يتحداه أن يجيب على هذا السؤال..

وخطا محيى عدة خطوات، ثم استدار إلى اخته قائلا كأنه وجد الجواب:

ـ أروح معاكى.. نروح احنا الاتنين!

وقال ابراهيم بلهجة الأستاذ:

ـ لو فتحى شافك جنب نوال.. حيعمل نفسه مش عارفها

ويمشى على طول.. حيفتكرك جاسـوس، ولا حيفتكر أن نوال كانت بتضحك عليه..

وقال محيى وهو لا يزال فى غضبه:

ـ ما هو مش ممكن تروح لوحدها.. فكر حضرتك فى أى فكرة.. أما نوال ما تقابلش شبان فى الشارع..

وقال ابراهيم وقد طرد من نفسه ترددها:

ـ يا محيى احنا قربنا خلاص.. ما يصحش تيجى دلوقت وتقف فى حاجة صغيرة..

وقال محيى وهو ينظر إلى ابراهيم فى حنق:

ـ دى مش حاجـة صغيـرة.. لو كان لك اخوات بـنات ما كنتش تطلب منهم اللى بتطلبه من اختي..

وسكت ابراهيم فجأة.. وفغر فاه كـأنه يهم أن يقول شيئا ولكنه لم يقل شيئا.. سكت.. وتقلص وجهه ألما كأنه يكبت جرحا فى قلبه..

وأحـست نوال بالألم الذى يعـانيـه ابراهيم.. أحسـت بجرحـه.. فالتفتت إلى شقيقها وقالت فى حدة:

ـ ايه الكلام اللى بتقوله ده يا محيي.. انا رحت لفتحى فى بيته.. شاب مؤدب.. مـا رفعش عينه فى عـينى.. وأخته استـقبلتنى.. بنت متـربية.. فى سنى.. أصغـر منى شويه.. وكانت حـاتشلنى شيل لما عرفت أنى زميلة أخوها.. خايف من أيه.. حياكلنى يعني؟!

وقال مـحيى وهو لا يزال غـاضبا دون أن يسـتطيع النظر إلى ابراهيم:

ـ طيب ما اتفقش معاكى يسلمك البدلة فى البيت ليه؟

وقالت نوال:

ـ خاف يكون باباه موجود!!

وعـاد مـحـيى يقـول، وكأن كل المـنافذ قـد سـدت فى وجهـه، ويحاول أن يفتح منفذا جديدا:

ـ لأ.. مش علشان باباه.. علشان يفوت عـليكى بالعربية، ويقول لك اركبـى جنبى لغاية مـا نروح نجيب البـدلة.. انتى ما تعـرفيش الشبان دول، أنا عارفهم كويس!!

وقالت نوال وهى تدق الأرض بقدميها:

ـ انت اتجننت يا محيى.. ازاى تقول لى كلام زى ده انت فاكرنى عبيطة، ولا اتجننت..

ورفع ابراهيم رأسه، وقال ووجهه ينضح ألما:

ـ اسمع يا محيى.. ما فيش لازمه للكلام ده.. انا حاخرج من البيت دلوقت حالا.. واللى يحصل يحصل..

واتسعت عينا نوال كأنها تصرخ بهما جزعا..

وقال محيى مرتبكا، وكأنه يتقهقر بلا انتظام:

ـ إزاى الكلام ده؟!

وقال ابراهيم فى هدوء، وهو يقوم واقفا:

ـ لو خرجت من البيت دلوقت، فيه احتمال تسعين فى الميه انهم يقبضوا على .. ولو خرجت على حسب خطتى يبقى الاحتمال خمسين بالميه.. يعنى الفرق اربعين فى الميه بس.. مش حاجة!!

وقالت نوال وهى تنظر إليه كأنها تتعلق به:

ـ لأ.. مش حاتخرج.. مش ممكن!!

ثم التفتت إلى شقيقها، وصاحت فى حدة صيحة خافتة:

ـ محيى..

ونكس محيى رأسه فى الأرض، وقال وهو يضغط على نظارته:

ـ دى مش طريقة يا ابراهيم.. مش قصدى اقولك تخرج انما لازم تقدر ظروفى.. ظروفنا كلنا..

وقال ابراهيم فى صوت رقيق كأنه يضع قلبه بجانب قلب صديقه:

ـ أنا خارج لانى مقدر ظروفكم.. مقدرها من ساعة ما دخلت البيت!

وقال محيى وهو لا يزال منكس الرأس:

ـ انا كل اللى يهمنى خوفى على نوال.. دى مش زى بنات الجامعة بتوعنا.. ده بابا قعدها فى البيت من قبل ما تاخذ التوجيهية.. و...

وقال ابراهيم كأنه يعاتب صديقه:

ـ أنا كمان خايف على نوال..
ورفعت إليه نوال عينيها وفيهما نظرة مترددة كأنها بدأت تخاف فعلا..
واستطرد ابراهيم قائلا:
ـ لو كان فيه أى خطر عليها ما كنتش طلبت منها حاجة.. تأكد يا محيى.. انا ما ليش اخوات صحيح.. انما من ساعة ما دخلت بيتكم وانا باتمنى انى اكون اخوكم..
وارتفع صوت الأم من خارج الغرفة وهى تصيح:
ـ نوال.. يا نوال.. يا خويا هيه راحت فين البت دى!
وتحركت نوال قائلة:
ـ أما أروح أشوف ماما عايزه ايه.
وخطت نحو الباب ثم استدارت قبل أن تخرج وقالت لشقيقها وبين شفتيها ابتسامة ترشوه بها:
ـ ما تخافش على يا محيى.. أنت عارفنى كويس!
وخرجت وأغلقت الباب وراءها.. واستقبلتها أمها وهى واقفة على باب المطبخ قائلة:
ـ انتى ملهيه فى ايه.. وسيبانى لوحدى فى المطبخ.. انا سمعاكى راجعه من نص ساعة واكتر..
وقالت نوال:
ـ كنت باكلم محيي..
وقالت أمها:
ـ طب روحى اقلعى جزمتك وشرابك وحصلينى .. أحسن أختك لاويه بوزها ومش راضية تتحرك..
وهزت نوال رأسها، وقالت:
ـ حاضر..
ثم دخلت إلى غرفتها، وتلفتت عيناها تبحثان عن اختها سامية..
كانت سامية جالسة فوق الفراش، فى ركن منه، مستندة بظهرها إلى الحائط وذراعاها تضمان ركبتيها إلى صدرها.. وكانت مرتدية جلباب النوم.. جلبابا أزرق من الباتستا.. وشعرها قد جمعته

فى «ايشارب» قديم.. اصفر باهت.. يبدو كمنديل الرأس.. وكان وجهها فى لون «الايشارب».. اصفر باهت ايضا.. وعيناها ذابلتين من اثر الدموع.. كل شئ فيها ذابل.. كأنها بكت كل دموعها، ثم بكت كل دمائها..

ونظرت إليها نوال فى حنان، وقالت وهى تقترب منها:

ـ مالك؟!

وردت سامية فى غضب:

ـ ماليش.. كنتى فين؟

وقالت نوال وهى تتظاهر بالبراءة:

ـ كنت عند فوزية.. أصلى خفت تيجى تزورنا، فرحت أزورها انا!

وقالت سامية وبين عينيها نظرة حادة كالشوكة فى الوردة الذابلة:

ـ لا يا شيخة.. علىَّ انا الكلام ده!

وقالت نوال وقد بدأت تعجز عن الاستمرار فى التظاهر بالبراءة:

ـ أمال يعنى كنت فين؟!

وقالت سامية وهى تتحداها:

ـ ما أعرفش.. هو حد بأه عارف حاجة فى البيت ده..

وقالت نوال وهى تتودد إليها:

ـ إيه بس اللى مزعلك ياسامية.. و..

وقاطعتها سامية فى حدة:

ـ مالكيش دعوة بيه.. كفايه عليكى سى ابراهيم بتاعك.. قال ايه اللى مزعلنى قال.. ما فيش حاجه.. مبسوطه خالص.. مبسوطه اكتر منك.. أنتى بتفكرى فى واحد محكوم عليه بالإعدام.. وانا وقع فى قسمتى واحد بايظ ما كملش تعليمه.. على الأقل انا احسن منك..

ومدت نوال يدها تحاول أن تلمس كتف شقيقتها، قائلة:

ـ ما تقوليش كده يا سامية.. ده بابا حلف انك مش حتتجوزيه.. مش ممكن يكون ده قسمتك..

وضربت سامية اليد الممدودة إليها، وصاحت:

- ابعدى عني.. سيبينى.. سيبينى لوحدى.. مش عايزه اشوف حد منكم خالص..

ثم اسقطت رأسها بين ركبتيها، كأنها تحاول البكاء، فلا تجد دموعا..

وظلت نوال ترقبها فى حنان يشوبه اشفاق وأسى، ثم اخذت تبدل ثيابها.. ثم خرجت لتلحق بأمها فى المطبخ، وتركت سامية وحدها.. وتركتها تستعيد للمرة الالف صور حياتها.. وصور عبدالحميد فى حياتها..

لقد عاش عبدالحميد فى حياتها كلها.. كان ابن العم الذى التصقت به فى طفولتها وصباها.. وكانت فى الأيام البعيدة تعجب به.. تعجب بذكائه، وجرأته.. كانت تعجب به وهو يتحدى أوامر أبيه وأمه.. وتعجب به وهو يسرق قراطيس البسكوت من بائع الدندرمه، ويعود إليها لتشاركه فى أكلها وهما يتضاحكان.. وتطور اعجابها مع عمرها إلى عاطفة أقوى من الاعجاب.. إلى نوع خاص من الحب.. هذا النوع من الحب المنظم الذى يقوم على عملية حسابية، لا تستطيع إلا أن تستسلم لنتائجها.. فقد كانت العائلة تعدها لعبد الحميد، وتعد عبدالحميد لها.. كان معروفا أنهما يتبادلان الاعجاب.. وانهما فى المستقبل، سيتزوجان..

وقد استسلمت لهذه النتيجة، كأنها ولدت لها.. لم تحاول أن تناقشها.. ومنذ أن وعت هذه النتيجة.. منذ كانت فى الحادية عشرة من عمرها، وهى تعتبر نفسها زوجة لعبدالحميد.. تخجل منه، وتطيع أوامره، وتدافع عنه فى غيبته، وتلجأ إليه لحل مشاكلها الصغيرة.. وقد خلق فيها هذا التكلف احساسا أكبر من سنها.. كانت تحس انها أكبر كثيرا من اختها نوال.. واكبر كثيرا من أخيها محيى.. وقريبة جدا من عمر امها.. وكان هذا الاحساس يدفعها إلى نوع من التعالى على بقية صديقاتها.. ويدفعها إلى الصمت، لتبدو به اكثر تعقلا واكثر اتزانا.. ويدفعها - رغم كسلها - إلى التظاهر بالاقبال على أعمال البيت واشغال الأبرة، لتبدو كزوجة ناجحة..

وكان عبدالحميد يكبرها بخمس سنوات.. وكانت ترقب بطرف

عينيها تطور شبابه، كأنها ترقب الانتهاء من خيوط «بلوفر» تصنعه بيديها لترتديه.. كانت ترقب خطوط وجهه وهى تتضح لترسم رجولته.. وقامته وهى تطول وتتسق.. وعندما لمحت الشعرات الأولى فى شاربه الذى بدأ يطلقه، أحست أنه اقترب منها جدا حتى كادت تسمع دقات دفوف «العوالم» وهن يزفونها إليه ..

ولكن عبد الحميد بدأ يغيب عنها طويلا.. ثم بدأت تسمع كلمات متناثرة من فم ابيها يصفه بأنه « ولد بايظ».. ثم تكررت هذه الكلمات، ورددتها العائلة كلها.. وأصبح معروفا أن عبدالحميد «ولد بايظ».. حقيقة لا تقبل المناقشة!

ولم تصدق هذه الحقيقة فى مبدأ ظهورها.. لم تجد فى عبدالحميد شيئا يستحق أن يصفه بأنه «بايظ».. انه جرئ.. وهو طويل اللسان.. وقد دخن يوما سيجارة أمامها وهو فى الرابعة عشرة من عمره.. وحاول مرتين أن يقبلها فصدته بعنف.. صدته لأن العملية الحسابية التى وعتها فى ذهنها كانت لا تسمح له بتقبيلها إلا بعد كتب الكتاب.. ولكن كل هذا لا يكفى لأن يكون «بايظ».. إنه صنف آخر من الشبان غير صنف شقيقها محيى.. وهى فى قرارة نفسها تميل إلى هذا الصنف.. أنه صنف يفيض بالرجولة.. والذكاء.. والجرأة على الحياة.. صنف يجعلها تقتنع اكثر بالزواج..

حتى عندما بدأت تسمع همسات عن مرافقته للراقصات.. وعن تدخينه الحشيش.. حتى فى هذه الفترة كانت لا تزال تعد نفسها له.. وإن كان تفكيرها فيه بدأ يشوبه كثير من الهم، وكثير من الخوف.. الخوف من أن تفقده.. إلى أن جاءها نبأ رسوبه فى امتحان التوجيهية..

هنا فقط بدأت العملية الحسابية تختل أرقامها فى رأسها.. فقد كان علم الحساب يفترض فى عبد الحميد أن ينجح دائما فى الامتحان، وأن يدخل الجامعة وينال شهادة الليسانس، ثم يتزوجها.

وبدأ الشك يداخلها فى مستقبلها.. وبدأت تردد بينها وبين نفسها: « بس لو كانت اخلاقه كويسه »..

ثم رسب عبدالحميد فى الامتحان مرة ثانية.. فاصبح شكها يقينا.. واعترفت مع بقية افراد العائلة بأنه «ولد بايظ».. واخذت ترقبه كأنه رجل يخرج من حياتها.. ويسير بعيدا عنها..

ولم تفاجأ عندما رسب فى الامتحان مرة ثالثة.. وعندما ترك المدرسة وعمل موظفا صغيرا باحدى الشركات.. وعندما ترك البيت وأصبح يعيش وحيدا تحوطه الشبهات.

لم تفاجأ فقد استطاعت أن تحول أحلامها مستقبلها بعيدا عنه.. وظلت العملية الحسابية معلقة فى رأسها تقيس بها كل من يتقدم إليها خاطبا..

ولكن عبدالحميد طوال هذه الفترة.. لم ينقطع عن البيت تماما.. كان يزورها.. وكانت تلمح فى عينيه نفس النظرة التى تعودتها.. وكان يعاملها نفس المعاملة.. كأنها لا تزال شريكة مستقبله.. يأمرها.. ويسألها عن مشاكلها الصغيرة.. ويعطى لنفسه حقوقا عليها.. فكانت تتجاهله صامتة.. ويتجاهله معها كل افراد العائلة.. تستقبله وتودعه كابن عم لا كزوج المستقبل..

كل هذا حدث لها دون أن يكون موضع نقاش بينها وبين أحد من العائلة.. فإن احدا لم يفاتحها فى خطبتها إليه عندما كانت هذه الخطبة مقررة، وأحدا لم يفاتحها فى فسخ الخطبة عندما اصبح فسخها مقررا.. إنما كانت الخطبة شيئا متعارفا عليه دون أن يتخذ أى مظهر رسمى صريح، وكذلك فسخها..

ومنذ عامين بدأ عبد الحميد يكثر من زيارته للبيت.. وبدأ الحديث عن رغبته فى الزواج بها يتضح ويعلو وتتناقله العائلة.. ثم تقدم بنفسه ليخطبها من ابيها.. فرفض.. رفض بشكل حاسم.. رفضته العائلة كلها.. حتى ابوه رفض أن يتوسط له للزواج من ابنة أخيه.. ورغم ذلك ظل عبدالحميد يتردد على البيت مستغلا صفته كابن عم.. ونظرته إليها لا تتغير.. النظرة التى عرفتها منه فى طفولتها وصباها، والتى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن..

وكانت العائلة كلها تضيق بزيارته وتتهمه بالوقاحة.. أما هى

فلم تكن تضيق بها.. كان إلحاحه وجرأته يرضيان غرورها الخفى.. كان يرضيها أن يظل عبدالحميد متعلقا بأحلام صباه.. أن يظل على حبها.. حتى لو كان «ولد بايظ».. وكان يرضيها أن تسمع من شقيقتها نوال قولها «اتفضلى يا ستى.. سى عبدالحميد بتاعك شرف» فتهز كتفيها وتشيح برأسها قائلة «ياسم.. هيه تلقيحه»!

ولكنه اليوم يعود إليها وفى يده سلاح يهددها به..

يهدد العائلة كلها..

هل تعذره.. لأنه انسان يحب.. يحبها؟!

هل تستسلم لغرورها، وهى ترى رجلا يرتكب جريمة بشعة ليتزوجها؟!

أم تحقد عليه.. وتكرهه؟!

إن ما يشقيها هو حيرتها.. حيرتها بين غرورها، والعملية الحسابية التى تعيش فى رأسها..

إنها ليست خائفة من عبدالحميد.. ليست خائفة من أن تضطر للزواج به.. ولكنها حائرة فيه.. بل حائرة فى نفسها.. وهى تبكى حيرتها..

بكت كثيرا..

ثم وجدت بقية من دموع، فعادت تبكى من جديد..

وانطلق مدفع الإفطار.. وانتفض قلبها كأن الطلقة أصابته.. وفتح الباب وأطلت أمها وقالت وهى ممسكة بيدها طبق طعام، فى طريقها لتضعه على المائدة:

- ياللا يا سامية.. ياللا يا حبيبتى.. المدفع ضرب!!



كان إفطارا صامتا حزينا .. كان كل فرد منهم يشيع اللقمة إلى جوفه كما يشيع فقيدا عزيزا .

لم يتكلم الأب ولا الأم ولا محيى ولا سامية ولا نوال .. ولا إبراهيم .. حتى الكلمات القصيرة التى تعودوا تبادلها سكتوا عنها .. وتحاشوا جميعا النظر إلى إبراهيم .. كأنهم يخشون لو نظروا إليه أن يقتلوه بعيونهم .. ماعدا نوال .. اختلست نظرة أو نظرتين ثم كفت ، حتى لا تفضحها عيناها .

وكان إفطارا سريعا .. كأنهم يهربون بعضهم من بعض .. كأن كل منهم يريد أن ينتهى من تشييع الجنازة ليخلو لنفسه .

وقامت سامية قبل أن تمد يدها إلى طبق الكنافة ، وصاحت وراءها أمها :

ـ مش تستنى لما تحلى ..

وقالت سامية فى حدة قاسية كأنها تشتمهم جميعا :

ـ ماليش نفس !

ثم سارت إلى غرفتها فى خطوات سريعة حتى لتكاد تنكفىء على وجهها ..

وتلفتت نوال بعينيها كأنها تستأذن المجتمعين ، وقامت لتلحق بأختها .. لتواسيها .

ثم قام الأب ومحيى فى وقت واحد ، وهب إبراهيم واقفا كأنه يعتذر عن تأخره ،. وتركوا الأم وحدها على المائدة .. لا تزال تأكل ولكنها لا تنظر إلى الطبق الذى تأكل فيه .. وربما أكلت اكثر مما تعودت أن تأكل ، ولكنها لم تحس أنها أكلت شيئا .. كانت ساهمة

وعقلها يدور ، ويطحن وساوسها وخيالها .. كأنها كانت تأكل هذه الوساوس والخيالات .

ودخل الأب إلى غرفة « القعاد » .

ووقف محيى مترددا .. وقف إبراهيم بجانبه ينتظر من صديقه أن يدعوه إلى الدخول ليلحقا بالأب ، ولما وجده مترددا .. تعداه وخطا نحو غرفته ـ غرفة محيى ـ فى خطوات حزينة ..

ولحق به محيى ، وقال وهو يغلق الباب وراءه :

ـ أظن ناخد الشاى هنا أحسن !

وقال إبراهيم فى استسلام خافت :

ـ زى ما تحب !

وجلس محيى إلى مكتبه وفتح كتابا ، ثم قال بعد فترة وهو ينظر إلى السطور ولا يراها :

ـ أنا شايف إن مافيش مانع إن نوال تروح تجيب البدله بكره .. بس .. إنما ..

وتوقف محيى عن الكلام كأنه قرر أن يخفى فى نفسه شيئا .

وقال إبراهيم :

ـ بس إيه ؟

وقال محيى وهو لا ينظر إليه :

ـ ولا حاجة ..

وقال إبراهيم وهو يبتسم :

ـ أنا عايزك تطمئن يا محيى .. تأكد أن مش حيحصل لها حاجة!

وتمتم محيى :

ـ ربنا يستر !

قالها وسكت .. وبدا مقطب الجبين مكفهر الوجه متهدج الأنفاس كأنه يلهث من الصمت .. كان يجرى فى صمته وراء مخاوفه .. وراء حيرته بين لهفته على أخته من أن يصيبها مكروه ورغبته فى أن يساعد إبراهيم فى هربه حتى يخرج من البيت ، فيرتاح ويريح ـيت منه .. وقد قضى طول فترة ما قبل الإفطار وهو يحاول أن ـتقر على رأى .. وحاول إبراهيم عبثا أن يساعده فى تكوين

رأيه.. ولكنه ظل حائـرا .. وهو لا يزال حائرا حتى بعـد أن قرر أن تذهب أخته لتتسلم البدلة من فتحى المليجى ..

وانقضت فـترة طويلة من الصـمت .. محيى يتـظاهر بالقراءة ، وإبراهيم يتظاهر بـالتفكيـر .. وهو الآخـر لا يسـتـطيع أن يحصـر تفكيره فى شىء .. يفكر فى نوال ، فـيطغى عليه تفكيره فى نفـسه وفى خطة هربه ، ثم يطغى عليه تفكيره فى عبـد الحميد .. ثم يعود يحاول أن يحصـر تفكيره فى نوال ، كأنه يحاول النجـاة من نفسه ومن عـبد الحـميـد ومن الدنيا كـلها .. يحـاول أن ينسى كل شىء ولا تبقى فى رأسه إلا فكرة واحدة .. نوال .. مجرد فكرة !!

وسمـعا رنين جرس البـاب الخـارجى .. وقال مـحيى وهو يرفع رأسه عن الكتاب ويلوى شفتيه فى تقزز :

ـ ده لازم سى عبد الحميد شرّف !

وسكت إبراهيم برهة وهو يستجمع أعصـابه ليواجه بها المعركة القادمـة ، ثم قال وهو يخـفى عينيـه حتى لا يرى مـحيى فـيهـما اضطرابه :

ـ أنا عـايزك تفـهّم عبـد الحـمـيد إنى حـاقـعـد هنا على الأقل أسبوعين كمان ..

وقال محيى وقد ارتفع حاجباه فوق حافة نظارته دهشة :

ـ ليه ؟

وقال إبراهيم :

ـ علشـان يطمئن إنه حـيفضـل عارف أنا فين .. وما يـحاولش يراقبنى .. ويراقب البيت ، ويبلغ عنى أول ما اخرج من هنا واروح حته تانيه !

وقال محيى وقد أعاد حاجبيه إلى مكانهما :

ـ معقول ..

وعاد يقرأ فى كتابه ، فقال له إبراهيم :

ـ مش حتقوم تقابله ؟

ورفع محيى رأسه وفكر قليلا ، ثم قال :

ـ بلاش .. أحسن نستنى لما بابا يندهلنا ..

●●●

كان رنين جرس الباب قد سقط على أعصاب كل من فى البيت ، وأحالها إلى أسلاك تسرى فيها الكهرباء ..

وتحرك الأب فى جلسته على الأريكة « الاستانبوللى » حركة فيها ألم ، كأنه أصيب بمغص مفاجىء ، وتقلصت أصابعه فوق جريدة الأهرام حتى كادت تمزقها ثم قرب الجريدة من وجهه كأنه يهرب فيها من رؤية وجه عبد الحميد ..

وانتبهت الأم على صوت الجرس فى لفتة مفاجئة ، كأنها لم تكن تصدق أن الأجل يمكن أن يحل هكذا سريعا .. ثم أسقطت رأسها فوق كفها ، ومصمصت شفتيها فى حسرة .. ثم كأنها تذكرت شيئا ، فرفعت رأسها وقالت لزوجها فى لهجة تعبر عن التصميم :

- أنا مش حتكلم .. مش حتكلم ولا كلمة .. الكلام كله عليك أنت .. متهيأ لى لو فتحت بقى مش حاخليله .. حاجيب له القديم والجديد وأحطه فوق دماغه .. واللى يحصل بعد كده يحصل .

وقال الأب وهو يزفر كلماته :

- طيب اسكتى .. ربنا يستر .

وكانت سامية جالسة فى غرفتها ساهمة لا تلتفت إلى محاولات أختها وهى تسرى عنها ، فانتفضت عندما سمعت جرس الباب ، وجحظت عيناها والتفتت إلى أختها وأمسكت بيدها وضغطت عليها فى قسوة ، وقالت وهى ترتعش وصوتها يرتعش معها :

- أنا مش حاقابله .. قولى لبابا إنى مش حاقابله .. مش ممكن .. موتونى أحسن !

وقالت نوال وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

- ياشيخه خليكى عاقله .. إيه كمان حتة الواد ده اللى عامله له قيمة .. ده بكره ياما نضحك عليه .. حنعمل فيه فصولات تطلع من نافوخه .. أنا حاروح افتح ، وانتى ساوى شعرك .. والا أقولك خليكى كده ، علشان أما يشوفك يغير رأيه ، ولا يتجوزش !!

وجذبت يدها من يد أختها وهى تضحك ضحكة مفتعلة ، ثم ...ت ، وما كادت تخرج حتى ضاعت ضحكتها من فوق شفتيها..

وحملت الشفتان ألمًا مرا فاض به قلبها .

وفتحت الباب ، واستقبلت عبد الحميد دون أن تنظر إليه ، وأدارت له ظهرها واتجهت نحو الداخل ، وتركته يدخل وراءها ..

وقال عبد الحميد بعد أن أغلق الباب :

ـ أنتم مش قافلين الباب بالمفتاح ليه ؟!

ولم ترد عليه نوال ..

واستطرد قائلا وكان يجرى وراءها :

ـ هو عمى فين ؟

وقالت دون أن تلتفت إليه :

ـ فى أودة القعاد ..

وتركته ودخلت غرفتها ..

ووقف عبد الحميد على باب حجرة « القعاد » كأنه يستأذن فى الدخول .. ورفع الأب إليه وجها صامتا .. وعينين صامتتين .. ثم أخذ يطوى الجريدة فى بطء .. ثم قال وهو يقوم نصف قومة :

ـ اتفضل يا ابنى .. اتفضل ..

ودخل عبد الحميد وانحنى يقبل يد عمه .. ثم مد يده إلى زوجة عمه ، فمدت له يدها وهى تدير رأسها الناحية الأخرى ، ثم سحبت يدها قبل أن يقبلها كأنها تخاف من لسع شفتيه ..

وجلس صامتا يدّعى الأدب ، وهو يحاول أن يخفى ابتسامته التى تزغرد فى صدره ، ويحاول أن يهدئ من نظرات عينيه حتى لا تكشف عن ذكائه الحاد الذى يبرق فيهما .. ويحاول أن يضع رأسه فى وضع يدل على الحياء والتواضع ، فينكسها .. ثم لا يستريح إلى هذا الوضع ، فيميل بعنقه ناحية اليمين .. ثم يتصور أنه من الأفضل أن يميل به ناحية اليسار .. ثم تضايقه هذه المحاولات فيرفع رأسه ويواجه بها عمه .. ثم يعود وينكسها من جديد ..

وتنحنح الأب ، ثم قال وهو يلم ساقيه تحته ، ويفرد الجريدة من جديد :

ـ ازى والدك ؟

وقال عبد الحميد فى أدب :
ـ كويس الحمد لله ..
وفتح الأب صفحة من الجريدة وهو يقول :
ـ قلت له حاجه ؟؟
وقال عبد الحميد وهو يتمايل برأسه تعاجبا بذكائه :
ـ قصد حضرتك يعنى ..
وقاطعه الأب فى حدة وهو ينظر إليه فى تحد :
ـ أيوه .. قصدى قلت له حاجة عن وجود إبراهيم عندنا ؟!
وتراجع عبد الحميد ، وعاد إلى حالة الأدب التى يدعيها ، وقال وكأنه يبعد عن نفسه تهمة الذكاء :
ـ طبعا لأ .. مادام حضرتك ما قلتش له !
وقال الأب وهو يعود إلى الجريدة :
ـ عملت طيب ..
وتمتمت الأم دون أن يسمعها أحد :
ـ وده يعمل طيب أبدا ..
ثم مصمصت شفتيها ، وعادت تسند رأسها على كفها كأنها تخشى عليها أن تسقط من فوق عنقها ..
وقال عبد الحميد بعد فترة صمت :
ـ امال فين محيى ؟
وقال الأب وهو لا ينظر إليه :
ـ فى أودته ..
ثم استطرد كأنه يريد أن يقنع عبد الحميد بأنه لم يعد يخافه ، ولم يعد يخفى شيئا :
ـ ومعاه إبراهيم ..
وسكت عبد الحميد ، ونظر إلى الأب من تحت جفنيه ، كأنه يتسلل بهما إلى موضع يطعنه منه ، ثم قال وهو يهم بالقيام ، كأنه هوالآخر يريد أن يقنع الأب بأنه مصر على أن يتدخل فى ثونه :
ـ أما اقوم اقعد معاهم !

وقال الأب وهو يسقط الجريدة عن وجهه :

ـ لا .. خليك هنا ..

ثم استطرد ملتفتا إلى زوجته :

ـ اندهى لمحيى يا تحية .. وخلى الأستاذ إبراهيم يتفضل معاه !

وأسرع عبد الحميد قائلا كأنه يستمهل زوجة عمه :

ـ بس فى حاجه يا عمى أحب أقولها قبل ما ييجى محيى ..

وقال الأب فى قرف :

ـ قول ..

واستطرد عبد الحميد :

ـ قصدى الموضوع اللى كلمت فيه حضرتك النهارده الصبح .. موضوع سامية .. أنا عارف أن الظرف مش مناسب .. إنما كل اللى عايزه كلمة من حضرتك .

واكفهر وجه الأب وقال كأنه يصفعه بلسانه :

ـ وتفتكر أن الظرف مناسب علشان تطلب كلمة من حضرتى .. أنا ما عرفتش أكلمك النهارده الصبح فى المكتب .. إنما ..

وسكت الأب فجأة .. فقد تذكر الخطة التى رسمها لنفسه .. تذكر أنه قرر أن يتظاهر بالموافقة على مايطلبه عبد الحميد ، حتى يتجنب شره ..

وقال عبد الحميد فى صوت هادئ كأنه أعد درسا حفظه جيدا:

ـ ياعمى أنت عارف إنى عايز سامية من زمان .. من يوم ما وعيت .. وسبق طلبتها السنة اللى فاتت .. وجيت امبارح علشان أقول لحضرتك إنى اشتغلت شغلة كمان بعد الضهر .. اشتغلت مندوب شركة تأمين .. باطلع منها بخمستاشر جنيه فى الشهر ، أقله .. فوق ماهيتى يبقوا سبعة وعشرين ولسه .. إنما ماقدرتش أكلم حضرتك امبارح .. ماجتش فرصة .. رحت لك النهارده فى المكتب .. الظروف اللى جدت مالهاش دعوة بالموضوع .. وأنا مش عايز اكتر من كلمة .. يا آه ، يا لا .. حضرتك واخد عنى فكرة وحشه خالص .. أنا صحيح غلطت وأنا صغير إنما دلوقت خلاص..

عقلت .. لو سألت مدير الشركة بتعتنا يقول لك إنى أحسن موظف عنده ..

وكان الأب يستمع إليه ، كأنه يستمع إلى قرار اتهام ، لا إلى مرافعة دفاع .. واستجمع كل إرادته ليتحفظ بهدوئه ، ويريح وجهه من الألم ، ثم قال :

ـ على كل حال أنت ابن أخويا ، وسامية بنت عمك .. ما خافش عليها معاك .. وربنا يسهل لك ، ويسهل لها ..

وتهلل وجه عبد الحميد ، وقال كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه لذة انتصاره :

ـ هيه فين ؟

ونظرت الأم إليه كأنها تخنقه بعينيها ثم تمتمت :

ـ مصايب !

ولم يسمعها عبد الحميد ، وعاد يقول للأب :

ـ حضرتك قلت لها حاجة ؟

ورفع الأب عينيه ، وقال فى تقزز لا يستطيع أن يخفيه :

ـ أيوه .. قلت لها !

وقال عبد الحميد فى لهفة :

ـ وقالت إيه ؟!

وسكت الأب قليلا كأنه لا يستطيع أن يكذب على لسان ابنته ، ثم قال :

ـ والله . البنات فى الحالة دى ما بيقولش حاجة .. بيسكتوا !

وعاد عبد الحميد يسأل :

ـ إنما ..

وقاطعه الأب صارخا وكأنه لم يعد يطيق ؟

ـ أنت بتحقق معايا ولا إيه يا ولد .. اختشى ، عيب ..

وقال عبد الحميد وهو يتراجع ، وفوق شفتيه ابتسامة باهتة آسفة ، كأنه يلوم بها ذكاءه :

ـ أنا آسف .. الحقيقة فرحتى هيه اللى جرأتنى ..

وقال الأب فى لهجة حازمة وقد بدأ يستعيد هدوءه :

ـ المسألة دى مش عايزك تجيب سيرتها لغاية ما الأستاذ إبراهيم يسيب البيت .. وهوه بالذات مش عايزه يعرف بيها .. فاهم.

وقال عبد الحميد والابتسامة لم تنسحب بعد من فوق شفتيه الغليظتين :

ـ حاضر .. لك حق يا عمى ..

والتفت الأب إلى زوجته وقال كأنه يستنجد بأحد ليساعده على عبدالحميد :

– قومى اندهى لمحيى يا تحية ..

وقامت الأم كأنها تشد معها أطنانا من الحديد ، وقالت :

ـ وأقوم بالمرة أنام .. مش عارفه الليلة مالى !

وخرجت الأم وهى تسير فى خطوات ثقيلة متعبة .. ونظر الأب إلى عبد الحميد ثم عاد إلى جريدته وهو يقارن بينه وبين إبراهيم .. لا يدرى لماذا .. ولكنه تمنى ساعتها لو أن ابن أخيه هو إبراهيم .. حتى لو سجن ، وشنق .. أخف عليه أن يعطى ابنته لرجل مشنوق من أن يعطيها لعبد الحميد ..

وتنحنح عبد الحميد ، ثم قال وهو يتعمد ألا يضفى على سؤاله لهجة الاهتمام :

ـ والأستاذ إبراهيم حايقعد هنا كتير يا ترى ؟!

ورفع الأب عينيه عن سطور الجريدة كأنه يستعين بالله ، وقال وهو يغلق أبواب الحديث :

ـ ماعرفش .. ربنا يسهل له !

ودخل محيى ، وخلفه إبراهيم ..

وقام عبد الحميد واقفا .. ولم يتحرك الأب إنما اهتزت الجريدة فى يده هزة خفيفة ، ثم عادت ثابتة أمام وجهه ..

ومد محيى يدا طرية باردة إلى عبد الحميد ، كأن دماءه وأعصابه ترفض أن تشاركه فى التحية ، وقال فى قرف :

ـ إزيك يا عبد الحميد ..

ولم يرد عبد الحميد ، وسحب يده من اليد الطرية وتوجه بها

إلى إبراهيم ، وقال وهو يصافحه فى حرارة تبدو ولا تدفيء ، وبين شفتيه ابتسامة واسعة تفتح فمه ، كأنه يستقبل به طبيب أسنان :

- أهلا .. أهلا .. ده شرف كبير ..

وقال محيى وهو ينظر إليه ساخرا :

- الأستاذ إبراهيم حمدى .. طبعا تعرفه !

وقال عبد الحميد وهو لا يزال متطلعا إلى إبراهيم :

- مين ما يعرفوش .. البطل اللى أنقذ البلد من الخونة .. أهلا وسهلا !!

وقال إبراهيم فى برود :

- تشرفنا ...

وكان إبراهيم ينظر إليه بكل عينيه الواسعتين كأنه يغوص بهما فى أعماقه .. وظل ينظر إليه .. لا يخفض عينيه عنه .. حتى اضطر عبدالحميد أن يحول نظره عنه ، ويتلفت حوله باحثا عن مقعده ..

وقال عبد الحميد بعد أن جلس :

- أنا أرجوك أنك تعتبرنى زى محيى تمام .. وتعتبرنى فى خدمتك دايما .. أى حاجة تفتكر إنى أقدر أعملها قوللى عليها ..

وقال إبراهيم فى اختصار :

- متشكر ..

ومضت فترة صمت ، عاد عبد الحميد بعدها يقول :

- إنما تعرف أن ماحدش كان ممكن يظن إنك هنا .. أنا نفسى ماكنش ممكن أصدق !

وتململ الأب ثم قال فى حدة وهو يدير رأسه إلى عبد الحميد :

- إيه الكلام البايخ اللى بتقوله ده .. ماتشوف لك سيره تانيه؟!

وسكت عبد الحميد ، بعد أن نظر إلى إبراهيم كأنه يشهده على عقلية عمه ..

وقال إبراهيم بعد فترة ، وهو يحاول أن يدرس شخصية عبدالحميد أكثر :

- والأخبار إيه فى البلد !

قال عبد الحميد فى حماس وقد اشرق وجهه كأنه كسب اطمئنان إبراهيم :

ـ البلد حالتها زفت .. دول حيودوا البلد فى داهيه .. حايبيعوها بيع للإنجليز .. الواحد مش عارف يعمل إيه .. نفسى أتلم على شوية شبان . ،نعمل حاجة ننقذ بيها البلد ..

وابتسم إبراهيم كأنه عرف حقيقة عبد الحميد ..

وقال محيى ساخرا :

ـ يا سلام .. من أمتى بأه ياسى عبد الحميد الوطنية دى كلها ؟

وقال عبد الحميد كأنه غضب :

ـ أنت ماتعرفنيش يا محيى .. ماتعرفش أنا عملت إيه ولا باعمل إيه .. أرجوك تسكت !

وهز محيى كتفيه تماديا فى السخرية وسكت ..

وسكت كل من بالغرفة ..

وبدأ عبد الحميد يحس أن الثلاثة ينظرون إليه كأنهم يضربونه بعيونهم . وإنهم يحاصرونه بأنفاسهم كأنهم يبصقونها فى وجهه.. وأحس أنه أخطأ فى تقديم نفسه إلى إبراهيم .. كان يجب أن يبدو أمامه اكثر رزانة ، واكثر تعقلا ، وإن يبدو كأنه مقدر لخطورة الظروف التى تحيط بالعائلة .. وأخذ يحادث نفسه : « يجب أن أغير الاتجاه .. سأبدو صامتا .. مقطبا .. ولن اسأل عن شىء .. ساتركهم يقولون لى كل شىء بلا سؤال .. يجب أن استعمل ذكائى .. كل ذكائى» .

وكانت قسمات وجهه وهو يحادث نفسه تتغير حسب ما يقرره فاختفت ابتسامته ، وهدأت عيناه ، وبدا رزينا وقورا ، مفكرا ، كأنه يفكر فى موضوع خطير .

وفى نفس الوقت كان إبراهيم يحس بأن العائلة تخطىء فى معاملة عبد الحميد هذه المعاملة الجافة .. يجب أن يشعروه بثقتهم فيه .. يجب أن يدعوه يطمئن إليهم ، وأن يتجاهلوا نياته السيئة حتى لو بدت صريحة .. وأخذ يفكر فى كلمة يقولها تقربه من عبد الحميد ..

وقبل أن يقول شيئا ، وقف عبد الحميد وسار متجها إلى خارج الغرفة ، ولحقه صوت الأب :

ـ رايح فين ؟

والتفت إليه عبد الحميد دهشا ، كأنه يعاتبه على سوء ظنه ، وقال فى أدب ووقور :

ـ رايح اشرب يا عمى ..

وخرج عبد الحميد ..

ومال إبراهيم برأسه إلى محيى وهمس فى أذنه :

ـ حسن معاملتك له شويه ؟

ورفع الأب رأسه على صوت الهمس ، ثم عاد ووضعه ثانية فى الجريدة ..

●●●

لم يكن عبد الحميد يريد أن يشرب .. كان يريد أن يبتعد عن الغرفة ريثما يبدل شخصيته وأسلوبه ، ويعود إليها فى شخصية جديدة وأسلوب جديد .. وكان يريد أن يبحث عن سامية ليطمئن على أحلامه .. وليتزود من عينيها بالدعة والبراءة والهدوء .. كل ما لا يجده فى نفسه يجده فى عينيها ..

وسار نحو المطبخ وهو يدق الأرض بقدميه كأنه يوقظ النائمين.. وخرجت نوال من غرفتها على وقع قدميه ، ونظرت إليه كأنها تقيس طوله وعرضه ، ووقف قبالتها وهو يهمس ، بينما يطل بعينيه داخل الغرفة :

ـ فين سامية ؟!

وقالت نوال وهى تبتعد عنه كأنها تزيح نفسها من أمام عينيه :

ـ أهى قدامك !

ثم سارت إلى داخل المطبخ ، وهى تعتمد أن تترك سامية تواجهه وحدها .

وخطا عبد الحميد خطوة ووقف يسد باب الغرفة ، وقال فى صوت خافت :

ـ ازيك يا بنت عمى ؟!

وكانت سامية واقفة فى وسط الغرفة مرتكزة على حافة السرير ورأسها مدلى فوق صدرها كأنها تبحث فى قلبها عن مزيد من الدموع .. ورفعت عينيها إليه بغتة وقد فوجئت به .. وهمت أن تغضب وتثور ، ولكنها التقت بنظرته إليها .. النظرة التى تعودتها منه فى طفولتها وصباها ، والتى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن .

وضعف غضبها ، وخفت ثورتها .. واشاحت عنه بوجهها كأنها تفر منه .. تفر من طفولتها وصباها .. وتفر من غرورها وهى تواجه الرجل الذى يلهث وراءها ..

وعاد عبد الحميد يقول فى صوته الخافت ، كأنه يخفى أحلامه فى طياته :

ـ أنت مش قاعده معانا ليه ؟!

ولم ترد عليه .. إنما ارتفعت الدماء إلى وجنتيها ، كأنها عادت إليها لتحميها .. من نفسها !

وخطا عبد الحميد خطوة داخل الغرفة وهو يقول :

ـ ما بترديش ليه مالك مبوزه كده ؟!

والتفتت إليه سامية ، وقالت وهى تحاول محاولة يائسة أن تحتفظ بهدوئها :

ـ من فضلك سيبنى .. دلوقت !

وقال وهو يخطو خطوة أخرى نحوها :

ـ إيه بس اللى مزعلك ؟!

وصرخت فى وجهه كأنها لم تعد تحتمل :

ـ ابعد عنى .. اوعى تقرب لى .. أنا باقولك أهو .. أحسن والله .. والله .. انده لبابا !

وقال فى جد كأنه يستعمل حقه عليها .. حقه الذى تعوده فى طفولته وصباه :

ـ سامية . جرى لك إيه .. هوه عمى قالك إيه ؟

وقالت وهى تنكس رأسها من جديد كأنها على وشك البكاء :

ـ ياريته ما قال لى حاجة !

وقال كأنه يربت بصوته على قلبها :
ـ مش ده اللى كنا عاوزينه طول عمرنا ؟
قالت وكأنها اهينت :
ـ أنا ماكنتش عايزاك .. مين قالك إنى كنت عايزاك .. أعوز واحد ماكملش تعليمه وأخلاقه زفت وقطران !!
قال وهو يبتسم كأنه يهزأ من عقليتها :
ـ واللى كملوا تعليمهم عملوا إيه يعنى .. عمى ما هو كمل تعليمه ، وبعد تلاتين سنة لسه موظف درجة خامسة !
وقالت تقاطعه فى حدة :
ـ ضفر بابا برقبتك ..
واستطرد كأنه لا يأبه بكلامها :
ـ ومحيى عاش طول عمره يمسح عينيه فى الكتب ، وبكره يتوظف باتناشر ولا خمستاشر جنيه .. ماتبقيش عبيطه .. التعليم مش مهم ، المهم الشطارة .. والمهم أنا وأنت .. احنا طول عمرنا مكتوبين لبعض .. طول عمرى حاسس إنك ليّه ، وأنت حاسه إنى لك . .فاكره لماكنت باجيب لك البسكوت ونقعد ناكله سرا .. النهارده حاجيب لك كل حاجة .. حاجيب لك بيت بحاله .. وكل لقمة حنا كلها سوا ..
وقاطعته سامية وهى تهز رأسها فى عنف تحاول أن تسكته ، فيتأرجح شعرها خلف رأسها كأنه يقول « لا .. لا » .. قاطعته قائلة وهى تدق الأرض بقدمها :
ـ البسكوت اللى كنت بتجيبو لى كنت بتسرقه من بتاع الدندرمة .. حتسرق لى البيت منين يا ترى ؟!
وأرخى عبد الحميد عينيه كأنه يكبت جرحا انشق فى قلبه ، وقال :
ـ ماطوليش لسانك يا بنت عمى .. أنا مطول بالى عليكى ، لأنى عارف أن الكلام ده مابتقوليهوش بلسانك .. بتقوليه بلسان عمى .. لسان العيلة كلها .. العيلة اللى ظلمتنى وظلمتك معايا ..
وقالت سامية وهى لا تزال تتحداه :

ـ وكان مين ظلمك لما سبت المدرسة قبل ما تاخد الشهادة ؟!
وقال عبد الحميد وهو لا يزال صابرا :
ـ رجعنا للشهادة .. يا ستى مستعد ابتدى أذاكر من جديد وآخد لك ميت شهادة !
وسكتت سامية ، واشاحت عنه بوجهها ..
واستطرد وهو يقترب منها اكثر :
ـ بس على شرط تذاكرى معايا ، وتسمعيلى درس بدرس !
ومد يده يحاول أن يمسك بيدها ، فابتعدت عنه قائلة فى حدة :
ـ أوعي تلمسنى .. ابعد عنى .. مش عايزه اشوفك .. مش عايزه يا أخى .. هوه بالعافية !
وسكت عبد الحميد ، وارخى عينيه فترة ، ثم عاد ورفعهما وقال كأنه يتنهد :
ـ سامية ..
قالت وهى لا تزال محتدة :
ـ عايز إيه .. عاوز منى إيه .. خلصنى ؟
قال وهو يبتسم فى يأس :
ـ ولا حاجة . . عايزك تضحكى . تبتسمى على الأقل !
وفتحت سامية شفتيها عن أسنانها فى حركة مفتعلة ، وقالت :
ـ أهو .. ادينى ابتسمت .. اتفضل بأه !
وقال عبد الحميد وهو يهم بالتحرك ولا تزال النظرة فى عينيه لا تتغير .. النظرة التى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن :
ـ أنا حتفضل دلوقت .. وبكره حاتشوفينى تانى !
وقالت سامية فى صوت ضعيف كأنها تأسف لذهابه :
ـ مش عايزه أشوفك لا بكره ولا بعده ..
قال وبين شفتيه ابتسامة الواثق :
ـ حاتشوفينى بكره وبعده وكل يوم فى عمرك ..
واستدار لها وخرج من الغرفة ، وعيناها تلهثان وراءه ..
وذهب إلى غرفة « القعاد » ، وتمهل قليلا على بابها وهو يدير

عـينيـه فى الجـالـسين ثم كـأنه اكـتـشف أنه تعب مـن النظر إلى وجوههم وتعب من الجـو المضطرب الذى يحيط بهم ، فتـقدم وهو يقول :

ـ تسمح لى ياعمى ..

ومد يده ليلتقط يد الأب ، فاعطاها له دون تردد ، قائلا :

ـ سلم على والدك ..

وانحنى يقبل يد عمه ، ثم مد يده إلى إبراهيم وقال فى وقار :

ـ شد حيلك !

ورد إبراهيم وهو يبتسم له ابتسامة حاول أن تكون كبيرة :

ـ الشدة على الله ..

وقال محيى كأنه يتودد إلى عبد الحميد :

ـ ما تخليك شويه .. لسه بدرى !

وقال عبد الحميد وهو لا يزال محتفظا بوقاره :

ـ اصل ورايا ميعاد .. تصبحوا على خير ..

وخرج وراءه محيى زيادة فى التودد إليه ، وقال له عبد الحميد وهما عند الباب :

ـ اعتمد عليّ يا محيى .. أنا دلوقت بقـيت مسئول معاك .. لازم تقوللى كل حاجة أول باول .. علشان أكون جنبك .

وقال محيى وهو يفتح له الباب :

ـ طبعا .. ما انت حاتكون معانا كل يوم ..

وضغط عبد الحميد على البـاب حتى لا يفتحه محيى ، ثم همس قائلا :

ـ هوه جاى يقعد هنا اد إيه .. ماتعرفش ؟!

وقال محيى فى لهجة طبيعية :

ـ اقله أسبوعين .. هوه عامل حسابه على كده !

وهز عبد الحميد رأسه ، ثم خرج وهو يقول :

ـ ما تنساش تقفل الباب بالمفتاح ؟!

ونزل السلم وهو لا يزال متقـمصا الشخصيـة الوقور التى قرر أن يبدو بهـا أمام العائلة .. ثم مـا كاد يصل إلى الشارع حـتى عاد

إلى طبيعته .. والتمعت عينياه بالذكاء النشط .. وارتفعت إلى شفتيه ابتسامته الساخرة التى تتسلل من تحت شاربه الرفيع كأنها تتسلل من الظلام .. وأسرعت خطواته كأنه يريد أن يصل إلى نهاية الحياة قبل غيره .

وسار إلى محطة الأوتوبيس وهو يفكر فى سامية .. إنها تريده أن يأخذ شهادة .. الغبية .. ماذا تجديه أو تجديها الشهادات ؟ لقد عاش طول حياته معتمدا على ذكائه .. وأخذ كل ما يريد من الحياة بالذكاء .. الذكاء وحده ولو عاد إلى صباه وإلى مدرسته مرة ثانية لما فكر فى أن ينال شهادة .. ولما أراد أن يكون مثل أخيها محيى .. إن هؤلاء الناس من أمثال محيى لا يعيشون الحياة ، ولكنهم يوجدون فيها فقط .. إنهم لا يساوون أكثر من قصاصة الورق التى يحملونها ويسمونها شهادة .. أما هو .. فإنه يساوى الحياة كلها .. كل ملذاتها ، وكل جمالها ، وكل نشاطها .. وهو يساوى سامية أيضا .. وسيأخذها بدون شهادة .. سيأخذها بذكائه .

إنه يحبها .. وحبها يختلط بكبريائه . وباعتداده بنفسه .. فهى الشىء الوحيد الذى خسره بسبب ذكائه ، ولكنه سيستردها بالذكاء أيضا .. سيستردها وينتصر بها على عائلته كلها التى لا تؤمن بطريقته فى الحياة .. سيستردها ويأخذ معها خمسة آلاف جنيه .. إن هناك خمسة آلاف جنيه بين يدى عمه .. ولكنه يترفع عنها ؟ الغبى .. لماذا يترفع عنها ؟ الوطنية !! ولكن ما دخل الوطنية هنا .. إن إبراهيم حمدى سيقبض عليه حتما إن لم يكن اليوم فغدا .. ولن تنقذه وطنية عمه .. فالموضوع ليس موضوع وطنية .. ولكنه موضوع خمسة آلاف جنيه .. من يأخذها .. إذا لم يأخذها هو .. فسيأخذها غيره .. وهو أولى بها .. إنه يستطيع أن يبدأ بها مشروعا تجاريا ضخما .. وأن يصبح من كبار الأثرياء وأن يبنى لسامية فيلا .. ويشترى لها سيارة .. وخدم وحشم .. ومصاغ ومجوهرات .. ولن يكلفه كل ذلك أكثر من مكالمة تليفونية لضابط البوليس السياسى .. أو للنائب العام .. وبعدها يقبض المكافأة السخية .. الخمسة آلاف جنيه .. بعد أسبوعين فقط .. عندما يخرج

إبراهيم حمدى من بيت عمه ، سيرفع سماعة التليفون ويطالب بالخمسة آلاف جنيه .. ولو كان عمه أكثر ذكاء .. لو رأى الدنيا على حقيقتها ، لما احوجه إلى الانتظار هذين الأسبوعين ولاشترك معه فى تسليم إبراهيم حمدى للبوليس ثم اقتسم معه المبلغ .. ولكنه غبى .. هذا العم .. وما أكثر الأغبياء فى هذا البلد .

ونزل من الأتوبيس ، وسار متجها إلى شارع سليمان باشا ، وهو لا يزال سادرا فى أفكاره .. ثم جلس إلى مائدة فى المقهى الذى تعود التردد عليه وصفق مناديا الجرسون ، وطلب منه أن يأتى إليه بدفتر التليفون .. ثم أخذ الدفتر بين يديه فى لهفة وبدأ يقلب صفحاته فى اهتمام .. ووقف عند اسم « الأميرالاى محمد بك همام ـ رئيس البوليس السياسى » .. ثم اخرج من جيبه مفكرة صغيرة وسجل فيها نمرة تليفون الاميرالاى محمد همام .. ثم عاد يقلب الصفحات ، ووقف عند اسم « النائب العام » وسجل فى مفكرته رقم تليفونه .

وطوى دفتر التليفون .. وجاء أحد أصدقائه وخبط على كتفه قائلا :

ـ الليلة فين بإذن الله ؟!

وقال ضاحكا فى قهقهة عالية كأنه يعلن بها انتصار ذكائه :

ـ الليلة للصبح ، واللى خلقك !!

وقام يحتفل بالذكاء ..

٩

يوم آخر !!

إنه اليـوم الثـالث منذ طرق إبراهيم باب البـيت ..
اليـوم الثالث فـقط .. ورغم ذلك فكل من فى البـيت
يحس أنه عـاش عـمـره كله وسط المشـكلة .. يأكل
المشكلة ، ويشـرب المشكلة ، وينام ويصـحـو فى المشكلة ، ويتنفس
المشكلة .. كـأنهم لم يـعيـشـوا أبدا إلا وبينهـم بطل هارب تطارده
الحكومة ، وتضع للقـبض عليه مكافأة قـدرها خمسـة آلاف جنيه ،
وتهدد كل من يؤويه بالسجن ثلاث سنوات .

وجـاء الصبـاح الجـديد ، وكل فرد فى الـعائلة يعـرف دوره ،
ويعرف إحـساسـه وعواطفـه ، ويعرف ما يدور بـرأسه .. لا شـىء
جديد .. وليسوا فـى انتظار شىء جديد .. لا شىء يزيد من همهم ،
فقد تـشبعوا بالهم حـتى لم يعد فيهم منفـذ لهم جديد .. ولا شـىء
يريح .. فلن يريحهم إلا أن يخرج البطل من البيت .

وكل منهم يتحرك فى بطء كأنه يخشى إن أسرع فى حركته أن
يوقظ البـوليس .. وكل منهم قـد ارخى جـفونه فـوق عـينيه كـأنه
يتجـاهل ما حوله ومـا فى نفسه .. وكل منهم قـد تهدل كل مافـيه
كأنه استسلم للقدر .

وكانت نوال أول من استيقظ ..

ربما لم ينم أحد فـى البيت ، وربما لم تنم هى أيضـا .. ولكنها
كانت أول من فتحت عينيها . وأبقتهما مفتوحتين وكفت عن محاولة
النوم .

وكانت الساعة الخامسة صباحاً عندما فتحت عينيها .. وأخذت تستعرض العمل الذى تقرر أن تقوم به .. ستذهب لاستلام بدلة الضابط من فتحى المليجى .. ستقابله فى ميدان الكوبرى .. بجانب دكان بائع السجائر .. و .. وأخذت تستعرض كل التفاصيل .. تفاصيل كثيرة يصورها لها خيالها .. وكانت تكاد ترى بعينيها ميدان الكوبرى .. كل شبر فيه .. وترى عربات الترام والناس الجالسين فى العربات .. وعسكرى البوليس الذى يروح ويغدو هناك .. وطفلا يجمع أعقاب السجائر .. وعربة كارو محملة بالخضار .. وسيارة كاديلاك تمرق وفيها شاب .. والشاب يلتفت إليها ويطلق صفيرا يعبر به عن إعجابه .. وشحاذ يقترب منها وتنهره بشدة .. وبعض طلبة الجامعة يتسكعون حولها .

كل هذه الصور تمر أمام عينيها ، وهى تعبس حينا ، وتهدأ حينا، وترتجف حينا ، وتبتسم حينا .. ولم تكن تعبس أو تهدأ أو ترتجف أو تبتسم للصور التى تمر بخيالها ، إنما تبعا لإحساسها وكأن إحساسها غير مرتبط بخيالها .. كان إحساسها يتحرك وحده فى ناحية ، وخيالها يتحرك فى الناحية الأخرى .. وكان المجهود الذى تبذله ، وتتألم فى بذله ، هو محاولة الربط بين هذا الخيال وهذا الإحساس .. كانت تحس بالخوف بينما ترى فى خيالها صورة العربة الكارو المحملة بالخضار . ثم يخف إحساسها فجأة فتكاد تبتسم كأنها مقدمة على لعبة مسلية ، ثم ترى فى خيالها صورة عسكرى البوليس ينظر إليها شزرا .. وكانت خلال هذه الحيرة تنجح فى محاولتها الجمع بين خيالها وإحساسها لبرهة قصيرة تتساءل خلالها : « لماذا حدد لها فتحى المليجى موعدا فى هذا الميدان المزدحم بالحركة .. أما كان الأجدى أن يلتقيا فى مكان منزو أكثر هدوءا وأكثر أمنا ؟ »

ثم كانت تجيب نفسها : « لابد أن هذا المكان أكثر درءا للشبهات، وابعد عن مراقبة البوليس !! »

وكانت عندما تجد هذا الجواب تبتسم كأنها تهنىء نفسها ،

وكأنها أصبحت فعلا عضوة عاملة فى جمعية سرية وطنية !

ثم كان خيالها يعود ويفترق عن إحساسها ، وتعود ثانية إلى حيرتها وتخبطها إلى أن تنجح مرة ثانية فى السيطرة على تفكيرها فيقفز أمامها سؤال آخر : « ماذا يحدث لو طلب منها فتحى المليجى أن تركب معه فى السيارة بدعوى الذهاب لإحضار البدلة ، كما حذرها أخوها ؟ هل تطيعه وتركب معه ؟!»

وكانت تزم شفتيها وتجيب نفسها فى إصرار : « لا .. لن اركب معه .. مستحيل ! »

ثم كانت شفتاها تنفرجان وخلجات وجهها تلين وهى تقول لنفسها : « ولكن إبراهيم هو الذى أرسلنى إليه .. وإبراهيم رجل نبيل .. لا يمكن أن يرسلنى إلى شاب لا يطمئن إليه .. لا يمكن أن يعرضنى لما لا يرضاه لى .. لابد أنه واثق من فتحى المليجى ، ويجب أن أثق به أنا أيضا .. سأركب معه فى سيارته لو طلب إلى.. سأذهب معه إلى آخر الدنيا لو أراد .. فى سبيل إبراهيم » !

وظل هذا هو حالها إلى أن تركت الفراش .. وتركت فيه أختها لا تنام ولا تستيقظ .. وبدأت الحياة تدب فى أرجاء البيت .. حياة بطيئة متوترة كأن البشرية كلها تجتاز الصراط المستقيم .. وخرج الأب إلى عمله .. وأمسكت الأم بالمقشة وانحنت فى تثاقل وألم تكنس الأرض .. وهمّ محيى بالذهاب إلى الجامعة ، واقترب من نوال وهى تساوى الفراش ونظر إليها من وراء نظارته فى أسى ، وقال فى همس محشرج :

ـ خدى بالك من نفسك !

ثم استدار لها قبل أن يسمعها ترد عليه ..

واستطاعت سامية أن تترك الفراش .. وسارت كسولة متعبة إلى المطبخ لتبدأ فى إعداد الأوانى ، دون أن تغسل وجهها أو تصلح خصلات شعرها المدلاة فوق جبينها .. ولحقت بها الأم بعد قليل .. واتجهت نوال ونقرت على باب غرفة محيى لتفرج عن إبراهيم وتدعه يذهب إلى الحمام ، وقالت وبين شفتيها ابتسامة طيبة تحمل

فى طيبتها تنازع خواطرها :
ـ صباح الخير ..
ورد إبراهيم وهو ينظر إليها كأنه يرى فى وجهها نور الصباح:
ـ يسعد صباحك !
وتركته ليدخل الحمام ، ويعود .. ثم عادت إليه تحمل صينية الإفطار كعادتها منذ التقيا .. وقال لها وهو يبحث عن نفسه فى عينيها :
ـ أنا باتعبك يا نوال ..
قالت فى حياء :
ـ لا .. أبدا ..
قال كأنه يذكرها :
ـ أنا لولا إنى متأكد أن مش حيحصل لك حاجة ، ماكنش ممكن أبعتك لفتحى !
قالت كأنها تطمئنه :
ـ أنا مش خايفه ..
قال وهو يجد فى نفسه جرأة عجيبة ليظل مركزا عينيه على وجهها :
ـ تنزلى من هنا الساعة اتناشر إلا ربع .. علشان ما تقفيش فى الميدان كتير !
قالها فى صوت متنهد كأنه يحدثها عن حبه !
وقالت ولا يزال حياؤها يربكها أمام عينيه المسلطتين عليها :
ـ بس مش عارفه أقول لماما إيه علشان تخلينى انزل ؟
وقال إبراهيم وكأنه واجه مشكلة عويصة :
ـ آه صحيح .. حاتقوليلها إيه ؟
قالت بعد تفكير :
ـ مش حاقول لها حاجة .. حانزل من غير ما تعرف !
قال وهو دهش :
ـ ازاى .. مش معقول .. ما تقوليلها إنك رايحه لواحدة

صاحبتك، زى امبارح !
قالت فى هدوء كأنها تعرف جيدا ما تقول :
ـ لو قلت لهـا ، ومارضيـتش .. حتفـضل حاطانى جنبـها طول النهار .. بلاش أقول لها أحسن !
قال وكأنه يتكلم بشفتيه بينما قلبه يتكلم حديثا آخر :
ـ وبعدين ..
قالت وهى تبتسم :
ـ ما تخافش .. أنا حانزل واجى من غير هيه ما تعرف !
وانسحبت من أمـامه وقلبه ينسحب وراءها ، والتفـتت إليه قبل أن تخرج ، وقالت كأنها تبحث عن حجة لتتزود منه بنظرة أخرى :
ـ مش عايز حاجة !
وتعلقت نظرته بها كـأنه يقيدها إليه برموش عـينيه .. ولم يجب .. إنما ابتسم ابتسـامة صغيرة صامـتة ، فى صمتها رجـاء كبير .. وكأنـها تلقت رجـاءه ، فارتجـفت عيناها ، وانصـهرت وجنتـاها .. وأغلقت الباب وراءها !
وتسللت إلى حجـرتها ، وفتـحت دولابها وأخـرجت منه حذاءها وجوربهـا وحقـيبتـها و « بلوز » و « جيب » .. ثم حـملت كل ذلك وذهبت إلى حجرة « الضـيوف » وهى تسير متـسللة لا يسمع لها صوت ، ووضـعت ما حملتـه على أحد المقاعـد .. ثم عادت ودخلت المطبخ .
كانت سامـية واقفة أمام الحوض تغـسل الأوانى .. والأم واقفة مديرة لها ظهرها ترتب دولاب المطبخ وتضع كل شىء فى مكانه .
وأشارت نوال إلى أختها إشارة خفية من وراء ظهر الأم ، لتلحق بها .. وتلقت سـامية الإشارة بدهـشة ، ثم جففت يديهـا ، وخرجت وراء أختها لتلحق بها فى غرفتهما .
وقالت نوال فى همس :
ـ أنا لازم انزل دلوقت ..
وقالت سامية فى حدة وبلا همس :

ـ ليه .. رايحه فين !

وقالت نوال وهى لا تزال تهمس :

ـ ماتزعقيش .. محيى طلب منى أنى أروح مشوار علشان حاجة مهمة خالص !

وقالت سامية وقد انتقلت إليها عدوى الهمس :

ـ إيه هيه الحاجة المهمة دى ..

قالت نوال :

ـ بعدين تعـرفى .. المهم لازم انزل دلوقت .. كمان عشـر دقايق لازم أكون فى الشارع !

قالت سامية :

ـ ولما انتى مش عايزه تقوليلى .. عايزانى ليه ؟

قالت نوال :

ـ علشان مش عايزه ماما تعرف إنى نازلة !

وقالت سامية فى تحد :

ـ ليه ؟

قالت نوال :

ـ لأنها مش حترضى .. انتى عارفة ماما !

قالت سامية فى تهكم مر :

ـ وعايزه خدامة السيادة ، اللى هيّه أنا .. تعمل إيه ؟

قالت نوال كأنها تشرح خطة :

ـ أنا حاقـول لماما إنى داخله الحـمام اغسل الشـرابات والمناديل المتكومة .. وانتى عليكى تخلى ماما فى المطبخ .. ما تخليهاش تخرج منه ، ولا تدور علىّ بنفسـها أبدا .. وإذا اتأخـرت عن كده قـوليلها إنى بعد ما خلصت غسيل .. ابتديت أستحمى !!

وقالت سامية فى غيظ :

ـ لا .. مـاليش دعـوة .. أنا مش طرطورة ولا شـخـشـيـخـة . ياتقوليلى أنـت نازله رايحه فين .. يا اتفضلى انزلـى واللى يحصل يحصل .

وقالت نوال فى توسل :
ـ والنبى يا سامية .. علشان خاطرى .. ده محيى هو اللى عايزنى أنزل .. وبعد ما ارجع حاتعرفى كل حاجة .. أصلى حلفت إنى ما أقولش حاجة أبدا .. محيى حلفنى على المصحف .
وقالت سامية وقد عادت إلى تهكمها :
ـ محيى .. والا إبراهيم ؟!
وقالت نوال وقد بدأت تحتد :
ـ وحياة بابا .. وحياة ماما .. وحياة شرف النبى .. إنه محيى .
وقالت سامية :
ـ خلاص .. خلى محيى ينفعك !
وتركتها وعادت إلى المطبخ ..
وانتظرت نوال قليلا وهى تلهث من الغيظ .. ثم احتدت نظراتها كأنها صممت على شىء .. وسارت وراء أختها إلى المطبخ وقالت وهى تحاول أن تتكلم فى لهجة طبيعية :
ـ ماما .. أنا داخله اغسل شوية الشرابات والمناديل المتكومين دول !
وردت الأم دون أن تنظر إليها :
ـ طيب بس شهلى قوام .. وتعالى علشان تنضفى الفاصوليا مع أختك ..
ونظرت نوال إلى أختها كأنها تتحداها أن تفضحها ..
وردت سامية النظرة ، بنظرة ضعيفة كأنها لا تستطيع أن تفضح أختها ..
وتسللت نوال إلى « حجرة الضيوف » ، وبدأت ترتدى الثياب التى حملتها إليها .
وكانت حجرة الضيوف منعزلة تقريبا عن بقية الحجرات ، واقربها إلى الباب .. وكانت مغلقة دائما .. لا تفتح ولا تفتح نوافذها إلا إذا جاء إلى البيت ضيف غريب .. فخرجت منها نوال متجهة إلى الباب الخارجى وحذاؤها فى يدها ، دون أن يحس بها أحد .

وفتحت الباب فى حذر شديد فلم يسمع لفتحه صوت .. ثم نكرت قليلا قبل أن تخرج .. ووضعت الحذاء من يدها على لأرض.. وعادت تتسلل على أطراف أصابعها إلى داخل البيت ..

ودخلت حجرة « القعاد » والتقطت جريدة كانت ملقاة هناك .. جريدة الأمس .. وعادت ووقفت أمام الباب الخارجى .. ونزعت قصاصة ورق من الجريدة وكورتها بعد أن بللتها بشفتيها ؛ ثم حشرتها فى قفل الباب ، فحالت دون خروج لسان القفل .. ثم حملت حذاءها وتعدت الباب وهى تتلفت حولها .. ثم أغلقته وراءها.. فانغلق دون أن يقفل بالقفل .

ووضعت حذاءها فى قدميها .. ونزلت السلم ، وهى لا تزال دون وعى منها ـ تسير على أطراف أصابعها .

وأصبحت فى الشارع .. وأسرعت خطاها نحو محطة الأوتوبيس ولم تكن تفكر فى المهمة الوطنية التى تقوم بها ، وكانت تفكر فى أمها .. إنها المرة الأولى فى حياتها التى تتسلل فيها من وراء أمها .. المرة الأولى التى تخرج فيها من البيت بدون أذن .. وكانت خائفة .. خائفة من أمها .. ومن أبيها .. وكان خوفها يحمل فى طياته تأنيب ضميرها .. تأنيبا قاسيا كأنه صفعات كف ظالمة .. وحاولت كثيرا أن تقنع ضميرها .. إن تهدئه .. كانت تقول لنفسها أنها ذاهبة لتنقذ إنسانا .. لتنقذ بطلا .. لتساهم فى عمل وطنى .. وأن هذا العمل يبرر تسللها من البيت ، ويبرر خروجها بدون إذن .. ولكن ضميرها كان يرفض أن يصدقها ، وصوت فى أعماقها كان يقول لها : « يا كذابة .. إنك ذاهبة من أجل إبراهيم .. إبراهيم بالذات .. لا لأنه بطل .. بل لأنه إبراهيم ! » .. وكانت تسمع هذا الصوت ، فتتثلج أطرافها .. ويمتقع وجهها .. إنها الحقيقة .. إنها تفعل كل ذلك من أجل إبراهيم .. ماذا يمكن أن تفعله أيضا من أجله.. أشياء كثيرة .. إن الطريق طويل وهى منقادة فيه بلا إرادة .. شىء قوى يدفعها .. تيار جارف لا تستطيع أن تقاومه .. وهى

خائفة .. خائفة من نفسها .. خائفة من ذكائها ..خائفة مما تستطيع أن تفعله بهذا الذكاء خلال اندفاعها فى هذا الطريق .. وخائفة على أمها ، وعلى أبيها .. خائفة عليهما من نفسها .. وأحست كأنها تعتذر لهما .. كأنها واقفة أمامهما منكسة الرأس تعترف بأنها تسللت من البيت بدون إذن .. وإنها خانت ثقتهما فيها .. خانت المبادىء التى نشأت عليها ..

وأحست أنها تبكى .. إنها فعلا تريد أن تبكى ، لعل دموعها تعتذر لها لدى أمها ..

وظلت سادرة فى هذه الأفكار والأحاسيس ، وهى راكبة فى الأتوبيس وبعد أن نزلت منه .

ثم وقفت فى ميدان الكوبرى ، بجانب بائع السجائر ، وهى تتعجل الوقت لتعود إلى البيت قبل أن تنتبه أمها إلى غيابها .. لم يعد يهمها أن يراها أحد .. لم تحاول أن تتلفت حولها لترى من يمر بها .. لم تر عربات الترام ولا الناس الجالسين فى العربات .. ولم تر عسكرى البوليس الذى يروح ويغدو .. ولا الطفل الذى يجمع أعقاب السجاير .. ولا الشحاذ الذى يمد لها يده .. ولا الشاب الذى يركب السيارة ويصفر إعجابا بها .. ولا عربة الكارو المحملة بالخضار .. لم تر شيئا مما تخيلته قبل أن تصل إلى الميدان .. ولم تر أن هناك فى جانب بعيد من الميدان عند ناصية شارع من الشوارع المتفرعة منه ، تقف عينان تنظران إليها من خلال نظارة .. عينان ملهوفتان ، فيهما جزع ، وفيهما تربص ، وفيهما خوف .

إنه محيى .. شقيقها .. واقف هناك .

وقد قضى محيى طول ليله ، وطول صباحه ، يحاول أن يطمئن نفسه على أخته وهى ذاهبة لملاقاة فتحى المليجى .. ويحاول أن يقنع نفسه بأن فتحى لن يدعوها إلى ركوب سيارته ليغرربها .

ولكنه لم يطمئن ، ولم يقتنع ... وجد نفسه يخرج من الجامعة ويذهب إلى الميدان قبل الموعد الذى يعرفه بفترة طويلة .. ووقف هناك منزويا عند الناصية يبحث عن أخته ، ويرقب وصولها ..

وهو لا يدرى بالضبط ما يمكن أن يفعله عندما يراها .. ولا يدرى ما يمكن أن يفعله إذا رآها تركب سيارة فتحى المليجى ، ولو رأى السيارة تختفى بها ... ماذا يفعل .. هل يصرخ ويجرى وراء السيارة .. هل يبلغ البوليس ؟! ربما لم يستطع أن يفعل شيئا من ذلك .. ربما تجمد فى مكانه ، وبكى حتى تغيم الدموع على زجاج نظارته فلا يعود يرى شيئا.

ولكنه يجب ألا يتجمد .. ويجب ألا يبكى . يجب أن يستعد لإنقاذ أخته .. إنه يستطيع على الأقل أن يأخذ رقم السيارة ويبلغ عنها البوليس ، بتهمة خطف أخته .. إن معه قلما .. ومعه مفكرة .. وتحسس القلم والمفكرة فى جيبه .. إن كل شىء معه ليلتقط رقم السيارة .. ولكن ماذا يجديه رقم السيارة .. ستكون أخته قد تلوثت قبل أن يعثر عليها البوليس .. سيكون هو قد تلوث .. شرفه .. كرامته .. لا .. ليذهب إبراهيم إلى الجحيم .. ليشنق ألف مرة .. إنه يستحق الشنق .. أما هو ـ محيى ـ فلا يستحق أن يتلوث شرفه .. سيذهب ويقف بجانب أخته ، سيحميها من الذئاب .. وسواء سلمها فتحى المليجى البدلة وهو بجانبها ، أو لم يسلمها ، فلا يهم .. المهم ألا يترك أخته للذئاب . الذئاب الذين يعرفهم جيدا !!

ورغم ذلك فلم يتحرك عندما رأى أخته .. لقد رآها وهى تنزل من الأتوبيس .. ورآها وهى تسير لتقف قريبا من بائع السجائر .. ورغم ذلك فلم يتحرك من مكانه .. إن قلبه يضطرب وعينيه جاحظتان خلف نظارته متجهتان إليها .. ومخاوفه تشتد .. ورغم ذلك فهو لا يتحرك من مكانه .

وربما لو انتبهت نوال وتلفتت فى أنحاء الميدان ، لرأته ، هناك منزويا ، ملتصقا بجدار أول بيت عند قمة الناصية .. ولكن نوال لم تتلفت .. أو تلفتت غير منتبهة .. فلم يكن فى خيالها سوى صورة واحدة .. وجه فتحى المليجى .. وأى وجه كان يصادف عينيها غير هذا الوجه ، لم تكن تراه ..

وكان إحساسها كله موجها إلى مرور الوقت .. كانت متعجلة

لا يهمها شىء إلا أن تعود سريعا قبل أن تكتشف أمها غيبتها .. والوقت يمر بطيئا .. بطيئا جدا .. والساعة قد تجاوزت الثانية عشرة .. إنها الآن الثانية عشرة وخمس دقائق .. ربما لن يجىء .. وتذكرت أنه اتفق معها إذا لم يحضر ، أن تذهب لملاقاته فى بيته فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. هل تعود إلى بيتها .. وهل تستطيع أن تتسلل من وراء أمها مرة أخرى .. و ..

وقبل أن تجيب على تساؤلها .. رأته ..

فتحى المليجى ..

تنبهت على بوق سيارة تحاذيها وتتحرك أمامها ببطء .. ورأته فيها .. وكان يقود السيارة ، ورفع ذراعه عن عجلة القيادة وأشار إليها بأن تتبعه .. ثم انحرف بسيارته إلى شارع النيل .. وتحركت من مكانها وقلبها يضطرب ، وخطواتها مرتبكة ، وهى تحاول أن توقف عقلها عن التفكير .. لا تريد أن تفكر فى شىء .. كأنها لو فكرت لعدلت عن خطتها .. ورأت السيارة قد وقفت عند أول الشارع ، فاقتربت منها ببطء .. خائفة . كأنها تقترب من قفص الأسد .. وما كادت تحاذيها حتى أطل عليها فتحى المليجى من نافذة السيارة .. ثم مد إليها ذراعيه بلفافة كبيرة ، أسقطها بين يديها ، وقال فى سرعة :

ـ العربية حتكون جاهزة بكره ..

وفى لفتة من عينيها كان قد انطلق بسيارته ..

هكذا فى ثانية واحدة ، انتهى كل شىء ..

ولم يحدث شىء ..

ما أبسط البطولة ..

إنها كالقبلة ، تخافها البنت إلى أن تكتشف بساطتها ومتعتها ..

وحملت اللفافة الكبيرة وسارت منكسة الرأس ، دون أن تلتفت وراء السيارة المنطلقة ، وعلى جانب شفتيها ابتسامة ساخرة كأنها تأسف على هذه الأوهام التى كانت تتخيلها .

وكان محيى فى الجانب الآخر من الميدان قد سقط قلبه عندما

رأى أخته تتبع السيارة وتختفي وراءها في شارع النيل .. أحس أن الذئب قد أنشب أنيابه في لحم أخته .. في شرفه .. في كرامته .. وأحس أن كل قطعة من جسده قد حملت آثار الأنياب ، وتنزف دماء.. وأحس أن شيئا في داخله يعوى كأنه أصيب بالسعار .. وتحرك من مكانه ، وكل شيء فيه يلهث ، إلا قدميه .. كان يسير ببطء .. لا يدرى لماذا .. لا يدرى إلا أنه لا يستطيع أن يجرى ، كأنه يخاف إن جرى أن يثير ثائرة الذئاب فتجرى وراءه ..

ولكنه لم يكد يعبر الشارع ، ويخطو خطوات حتى رأى أخته تعود حاملة اللفافة بين يديها ، وتسير منكسة الرأس ، متجهة إلى محطة الأتوبيس ..

وتوقف عن السير .. ولم يحس بالراحة .. إنما أحس بخيبة أمل.. أحس بإحساس كأنه النقمة .. النقمة على نفسه .. لماذا انقاد إلى كل هذه الأوهام التي أحاطت به ، ولماذا عجز عن مواجهة الأوهام عندما خطرت له !!

وهم أن يتجه إلى أخته ليصحبها إلى البيت .. ولكنه عدل .. واستدار .. وسار يائسا تعيسا ، متجها إلى الجامعة دون أن يحاول الوصول إليها .

ولم تره أخته أيضا ..

ركبت الأوتوبيس وهي تطمئن نفسها إلى أن مهمتها قد نجحت.. وأنها ستصل إلى البيت قبل أن تكتشف أمها غيبتها .. وأخذت تستعيد اللحظات التي مرت بها ، واستعادت قول فتحي : « العربية حتكون جاهزه بكره » . وفجأة انفتحت عيناها كأنها انتهت إلى شيء .. إن معنى هذا أن إبراهيم سيغادر البيت غدا .. غدا لن يكون إبراهيم في البيت .. لن تراه .. لن تنقر على بابه لتفسح له الطريق إلى الحمام .. ولن تقدم له طعام إفطاره .. ولن تحس بأنفاسه حولها .. ولن يمتلىء صدرها بهذا الإحساس المثير .. سيعود كل شيء في البيت راكدا .. مملا .. كدقات الساعة .. وسيعود الحديث تافها ، ليس فيه من موضوع إلا أنه ليس صمتا . وستعود

الهمسات بينها وبين أختها حول خطابها .. الطويل ، والسمين ، والدكتور والمهندس . وسيعود خيالها لا يمثل واقعا ، ولا يتجسد فى أحد .. وستعود تنتظر .. تنتظر دائما .. تنتظر موعد الإفطار .. وموعد السحور وتنتظر خروج أبيها ، وعودة أبيها .. وتنتظر العيد.. وتنتظر أن تتزوج أختها .. ثم تنتظر من يتقدم ليتزوجها .. ستعود كل هذه الحياة الراكدة الضحلة ...ولن يكون فيها إبراهيم .. لن تراه .. لن تراه أبدا .. إن إبراهيم لا يعيش فى الحياة الراكدة الضحلة .

وانقبض قلبها ..

أحست كأن الأوتوبيس وهو يهتز ينفض عنها الحياة ، ليتركها إنسانة هامدة .. تعيش بلا حياة .

ونزلت من الأوتوبيس وسارت إلى بيتها وهى تحمل اللفافة الكبيرة ، كأنها تحمل عمرها لتلقيه فى البحر .

وصعدت السلم على أطراف أصابعها .

ودفعت الباب برفق فانفتح .. ودخلت والبيت كله صامت .. وألقت اللفافة على الأرض فى حرص .. ونزعت الورقة الصغيرة من قفل الباب ، ثم أغلقته فى هدوء .. وخلعت حذاءها ، وحملت اللفافة والحذاء ودخلت بهما حجرة « الضيوف » .. ثم بدلت ثيابها بسرعة .. و تركت كل شىء ملقى على مقاعد الحجرة ، وخرجت منها وأغلقت بابها .. ثم اتجهت على أطراف أصابعها إلى المطبخ .

ووقفت تنظر إلى أمها وإلى أختها ، كأنها لا تصدق عينيها ..

إنهما كما تركتهما ..

سامية واقفة أمام الحوض تغسل الأوانى والصحون ، وأمها لا تزال ترتب فى الدواليب .. كأن كل شىء يتجمد فى هذا البيت حتى الزمن .. ولكن .. إنه لم يمر عليها منذ خروجها من البيت أكثر من نصف ساعة .. كل هذا حدث فى نصف ساعة ..

ولمحت أمها خيالها ، فقالت لها دون أن تلتفت إليها :

ـ خلصتى الغسيل ؟

وقالت فى صوت متهدج :
ـ أيوه يا ماما ..
واستطردت الأم فى لهجة آلية :
ـ طيب ياللا اقعدى نضفى الفاصوليا .
ونظرت سامية إلـى نوال غاضبة كأنها تهددهـا بإفشاء سرها ، ونظرت إليها نوال فى حنان كأنها تشكرها لأنها لن تفشى سرها .. ثم دخلت وحملت قـرطاسا كبيرا فـيه الفاصوليـا ، وهمت خارجة ، فاستوقفتها أمها :
ـ على فين !
قالت نوال :
ـ رايحه اقعد فى أودة القعاد .. جنب الراديو !
وقالت الأم وهى تعود بوجهها إلى الدولاب :
ـ والنبى دى مياصة .. يعنى ما تعـرفيش تنضفى الفاصوليا إلا على الراديو .. يا كبدى عليكى يا سنية .. كانت تنحط فى المطبخ ما تخرجش منه !
وخـرجت نوال قبل أن تـتم الأم كلامـهـا .. ووضعت قـرطاس الفاصوليا على المائدة الصغيـرة فى حجرة « القعاد » ثم عادت إلى حجـرة « الضيوف » وحمـلت ملابسـها واللفـافة الكبيـرة .. ومرت على حجـرتها فـألقت فيهـا بثيـابها .. ثم تسللت إلى الحـجرة التى يجلس فـيـها إبراهيم ، ونـقرت البـاب نقـرة خافـتـة ، ثم دخلت ، واللفافة بين يديها ، وبين عينيها نظرة حزينة كأنها دمعة معلقة بين جفنيها ..
وقال إبراهيم وهو يتناول اللفافة من يدها ويبتـسم لها ابتسامة كبيرة كأن قلبه يهم بأن يقفز من بين شفتيه :
ـ أنا مش عارف أشكرك ازاى ..
وقالت وهى لا تنظر إليه :
ـ فتحى بيقول لك العربية حتكون جاهزة بكره !
قال وهو حائر أمام نظرتها الحزينة :

ـ مرسى ..
وسكتت ..
قال وقد اشتدت لهفته على حزنها :
ـ حصل حاجة ؟!
قالت وإحدى يديهـا تشد فى أصابع اليد الأخـرى كأنها تريد أن نزعها :
ـ أنت حتروح فين بعد ما تسيب بيتنا ؟
قال وكأنه عرف سبب حزنها :
ـ والله ما اعرفش ..
قالت وهى تنظر إليه كأنها تطالبه بحق لها :
ـ وحنطمن عليك ازاى ؟
قال كأنه يتهكم من يأسه :
ـ لو مسكونى حتعرفوا من الجرايد !
ونظرت إليه فى عتاب جاد ..
ثم استدارت له وخرجت ، وكأنها غضبت منه ..
وعادت إلى حجرة « القعاد » وعـقلها تائه لا تستطيع أن تجمعه فى رأسها .. وفـردت قرطاس الفاصوليا .. وأخـذت تلتقط الواحدة بعـد الأخرى وتنظـفهـا .. ولا يزال فكرها تائهـا عنهـا .. ثم فجـأة حست بدمـوعهـا تنهمـر فوق خديهـا .. كان فكرها قـد عاد إليـها دموعا!!

١٠

عاد محيى إلى البيت فى موعد خروجه من الجامعة ..

ولم يقل شيئا لأخته ولا لإبراهيم .. لم يقل لهما إنه تتبع نوال وراقبها وهى فى انتظار فتحى المليجى لتتسلم منه بدلة الضابط .. دخل صامتا ذليلا منكس الرأس ، وهو يشعر بالسخافة .. سخافته لأنه كان يشك فى أخلاق فتحى المليجى .. بل وفى أخلاق كل الشبان المشتغلين بالسياسة .. وقد حمل هذا الشك طول عمره .. كان طول عمره يعتبر اشتغال الطلبة بالسياسة مجرد « شقاوة » ، ولم يكن يعتقد أن هناك فارقا بينه وبين هؤلاء الطلبة إلا أنهم يمتازون بالوقاحة ، والصفاقة .. كان يعتقد أن حماسهم لوطنهم لا يزيد عن حماسهم فى ملاحقة أية فتاة تمر بهم.. وأن الهتافات الصاخبة التى يهتفون بها لا تصل إلى قلب واحد منهم إلا بقدر ما تصل كلمات المغازلة التى يهمسون بها فى آذان الفتيات .. لم يكن يعتقد أنهم رجال ، وأن فيهم خلق الرجولة.. وصحيح أنه كان يثق فى إبراهيم .. كان يثق فيه من قبل أن يلجأ إليه .. ولكن إبراهيم كان دائما صنفا آخر من الشبان .. كان صموتا، متحفظا ، لا يقحم نفسه ، ولا يدعى زعامة ، ولا يتظاهر بوطنيته .. ولكن .. يبدو أن هناك كثيرين غير إبراهيم ، كلهم رجال.. وكلهم على خلق .. و .. وهو يشعر بأنه ظلمهم .. ظلم زملاءه المشتغلين بالسياسة .. بل يشعر أنه يراهم فى خياله كما لم يرهم من قبل .. شرفاء ، مخلصين .. ويسمع هتافاتهم كما لم

يسمعها أبدا .. صادقة قوية كأنها طلقات مدافع تقذف القلوب من الأفواه .

ودخل إلى حجرته وحيا إبراهيم دون أن يرفع إليه عينيه كأنه يخفى تحت جفونه خجله من نفسه ..

وقال له إبراهيم كأنه يبلغه خبرا سارا :

ـ البدلة جت .. نوال جابتها !!

وقال محيى وهو يتلفت حواليه حتى لا ينظر إليه :

ـ هيه فين ؟

وقال إبراهيم :

ـ فى الدولاب.

وقال محيى كأنه يبحث عن أى شىء يقوله حتى يستعيد هدوء نفسه :

ـ قستها ؟!

وقال إبراهيم :

ـ مظبوطه .. متفصله على .. بكره بإذن الله حابقى ملازم أول..

وسكت محيى .. لم يستطع حتى أن يبتسم ..

واستطرد إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة يحاول أن يطمئن بها صديقه :

ـ بكره العربيه حاتكون جاهزة والعملية حاتم !

والتفت إليه محيى وقال وهو يتكلم فى حماس وإخلاص كأنه يحاول أن يعوض إبراهيم عن الشكوك التى كان يحملها فى صدره!

ـ اسمع يا إبراهيم .. تأكد إنى مش عايزك تسيب البيت .. لا أنا ولا بابا .. إذا كنت مش متأكد من العملية بتاعة بكره .. بلاش .. خليك قاعد معانا لغاية ما تطمئن ..

وسكت إبراهيم برهة وهو ينظر إلى محيى كأنه يقيس إخلاصه..

واستطرد محيى كأنه أحس بأنه تمادى فى حماسه :

ـ يوم ولا يومين زيادة .. مش حايفرقوا !!

وقال إبراهيم :

ـ متشكر يا محيى .. إنما أحسن لى أنى أسيب البيت بكره .. وتأكد إنى مش حانسى اليومين اللى قعدتهم معاك .. اليومين دول أنقذوا حياتى .. وأنا عارف المتاعب اللى سببتها لكم .. عارفها كويس .. ومش حانسى جميلكم على أبدا ..

وقال محيى فى صوت مبحوح :

ـ ده واجب .. المهم إنك تكون مطمئن على نفسك ، ونكون مطمئنين عليك ..

وقال إبراهيم وهو يهز كتفيه كأنه يسخر من نفسه ، ومن نصيبه فى الدنيا !

ـ أنا عمرى ما حاطمئن على نفسى .. ولا حد حايطمئن على .. خليها على الله !

وقال محيى فى اسى :

ـ ما تقولش كده .. ربنا معاك !

وسكت إبراهيم ..

وبدأ محيى يبدل ثيابه .. ثم مرت بهما الساعات وكل منهم يحاول أن يرفه عن الاخر .. يتناقلان حديث الجامعة .. والحوادث السياسية ويحاولان الضحك .. ضحكا ثقيلا كأنهما يجذبانه من صدريهما بآلات رافعة .

وجاء الأب فى موعده .. وهم محيى بأن يخرج من الغرفة ليستقبله ، فقال له إبراهيم :

ـ بلاش تقول لعمى على حكاية بكره !

وسأله محيى وهو دهش كعادته :

ـ ليه ؟

قال إبراهيم :

ـ علشان كل حاجة تفضل ماشيه طبيعى وعلشان عمى يعرف ينام كويس .. اصل انتظار ساعة الإفراج أسوأ حالات السجن .. وخروجى من البيت معناه الإفراج عنكم ..

وقال محيى دون أن يقتنع :

ـ طيب ، مش حاقول له !

وقال إبراهيم :

ـ ما تقولش لحد أبدا .. لا لطنط ولا سامية .. وقول لنوال ماتقولش هيه كمان ..

وقال محيى وهو ينسحب :

ـ طيب ..

وخرج .. ثم عاد بعد قليل وفى يده جريدة الأهرام دون أن يبدو على وجهه شىء جديد ..

واختطف إبراهيم الجريدة من يده ، وأخذ يبحث عن نفسه بين السطور .. كان يقرأ أخبار نشاط البوليس فى تتبعه .. وأخبار الاعتقالات .. وكان يحاول أن يقرأ فى كل سطر اكثر مما يحمله .. وكانت تعابير الاهتمام التى تبدو على وجهه تنطفىء رويدا رويدا ، وتحل محلها تعابير الارتياح .. إن البوليس لا يزال بعيدا عنه .. بعيدا جدا !

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة مساء والأب نائم ..

وفجأة .. دق جرس الباب ..

وارتعش قلب إبراهيم فى صدره ، هذه الرعشة التى بدأ يحس بها منذ انقلب إلى بطل فار بعد أن كان بطلا مهاجما .. وخفقت جفون محيى كأنهما جناحا عصفور محبوس خلف زجاج نظارته .. ونظر كل منهما للآخر برهة .. ثم كأنهما اتفقا على الخطة .. فخرج محيى من الغرفة وأغلق بابها وراءه .. وما كاد يخرج حتى التقى بنوال خارجة من المطبخ ، ممتقعة الوجه وضفيرتها تكاد تلتف حول عنقها كأنها تحاول أن تخنقها ..

وقال لها محيى فى همس :

ـ ما تفتحيش الباب إلا لما تعرفى مين ..

قالت :

ـ حاضر ..

وسارت فى خطوات متعثرة نحو الباب .. بينما ظل محيى فى مكانه منتظرا أن تعود إليه أخته بالنبأ .

وسمع أخته تفتح « شراعة » الباب .. ثم سمعها تفتح الباب نفسه ..

ثم عادت ..

وخلفها عبد الحميد ..

وانقلبت شفتا محيى امتعاضا ، كأن شيئا بدأ ينقلب فى معدته..

وقال عبد الحميد في همس وهو يصافح ابن عمه :

ـ عمى نايم ؟

قال محيى وهو لا يتحرك من مكانه :

ـ أيوه ..

وقال عبد الحميد وهو يضحك ضحكة مكتومة :

ـ أحسن !!

ولم يضحك محيى مع ابن عمه ، إنما ظل صامتا وهو يكتم غيظه .

واستطرد عبد الحميد :

ـ أنتم قاعدين فين ؟

وتحرك محيى نحو غرفته ، وفتح بابها ، وهو يقول فى قرف :

ـ اتفضل !!

واستقبله إبراهيم وقد استرد هدوء نفسه ، وسلط عليه كل عينيه ، وصافحه وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، يحاول أن يبدو من خلالها مرحبا به .

وجلس الثلاثة يتحدثون .. وحاول عبد الحميد أن يبدو فى الشخصية الجديدة التى رسمها لنفسه .. الشخصية الوقورة المتحفظة التى تقدر خطورة الموقف .. حاول ألا يتحدث كثيرا .. وأن يجيب إجابات قصيرة فيها بعض الغموض كأنه يخفى شيئا .. وحاول ألا يسرف فى الابتسام والضحك .

ولكنه تعب من هذه الشخصية بعد فترة قصيرة .. ووجد نفسه يتحدث كثيرا ، ويجيب على كل سؤال بقصة ، ويبتسم ويضحك بلا حساب .. إنه من هذا الصنف الذى لا يستطيع أن يسكت عن استعمال مواهبه .. لسانه ، وذكائه وسرعة خاطره ، وخفة دمه ..

واعتاد أن يتباهى بهذه المواهب ويجريها مع كل من يصادفه .
وكان أحيانا يتنبه إلى أنه أسرف فى الحديث ، وإنه خرج عن الشخصية التى يريد أن يبدو بها .. فيسكت فجأة ، ويعانى الكثير من محاولته التمسك بالسكوت ، ومن إخفاء القصص والآراء والملح التى يزدحم بها رأسه وتكاد تقفز على لسانه ..
وكان إبراهيم لا يريده أن يسكت .. فإذا رآه ساكتا لاحقه بالأسئلة .. ويتحايل على سكوته بأن يفتح أمامه اكثر من موضوع يغرى بالنقاش .. حتى يضعف عبد الحميد ، فينفلت لسانه ، ويعود يتكلم .. ويتركه إبراهيم يتكلم كأنه يراه على حقيقته من خلال حديثه .
وفجأة سأله إبراهيم :
ـ ماتعرفش حد فى البوليس ؟!
وبوغت عبد الحميد بالسؤال ، وتردد قليلا ، ثم قال باهتمام وكأنه بدأ يلعب دور شطرنج :
ـ ليه ؟
وقال إبراهيم بلا اهتمام :
ـ عايز اسأل عن جماعة أصحابى .. أشوفهم اعتقلوهم ولا لأ ؟!
وقال عبد الحميد وفى عينيه نظرة ذكاء :
ـ أنا اعرف ضابط من المحافظة بيقعد معانا فى القهوة !
وقال إبراهيم وهو ينكس رأسه حتى لا يرى عبد الحميد عينيه :
ـ ما تعرفش تجيب منه أسماء المعتقلين !
وقال عبدالحميد وقد اشتد لمعان الذكاء فى عينيه :
ـ أظن الأسهل تقول لى عايز تسأل عن مين .. وانا اسأل لك عليهم !
ورفع إبراهيم عينيه إلى محيى كأنه يستشيره .. وقال محيى وعلامة استفهام كبيرة تبدو على وجهه :
ـ عبد الحميد مالوش دعوة بالحاجات دى !
وقال عبد الحميد وهو يخفى لهفته :

ـ على كل حال انا مستعد أقوم بأى حـاجة يكلفنى بيها الأستاذ إبراهيم ..

وسكت إبراهيم كأنه يفكر..

وطال سكوته ..

وقال عبد الحميد وهو يبتسم :

ـ أرجوك تـثق فيّ يا أستـاذ إبراهيم .. أنا مابطلبش إنـى أعرف حاجة .. إنما باطلب إنى أكون محل ثقتك !

وقال إبراهـيم فى صوت خافـت وكلمات بطيـئة ، كأنـه يصرّح بسر خطير :

ـ أصحـابى اللى عايز اسأل علـيهم ، واحد منهم اسـمه محـمد المرتضى ، والتانى اسمه سمير أيوب ..

وصرخ محيى منزعجا :

ـ إيه ده .. مين عرفك بالجـدع ده علشان تقول له حـاجات زى دى ؟!

ونظر إبراهيم إلى محيى ثم نكس رأسه وقال فى صوت مؤثر :

ـ أنا النهارده محتاج لكل إنسان .. وأنا واثق فى عبد الحميد !

وسكت محيى .. وفهم .. وإن كان لم يـفهم تماما ما يرمى إليه إبراهيم .

وقال عبد الحميد فى حماس :

ـ اطمئن .. بكره حا رد عليك !!

وقال إبراهيم فى صوته الخافت الهادئ :

ـ بس حاتسـأل صاحبك الظابط ازاى .. اوعى يحس إنك مـهتم اكتـر من اللازم .. اساله بالراحة ومن غـير اهتمـام .. وخد يومين تلاتة أربعة .. ماتستعجلش عليه ، أحسن يشك فيك !

وقال عبـد الحميد وهو يبتسـم كأنه يأسف لأن إبراهيم لا يقدر ذكاءه :

ـ سيب الحكاية دى على أنا .. دى حاجات بسيطة !!

واستأذن عـبد الحميـد وخرج من الغرفة ، بعـد أن شد على يد إبراهيم فى حرارة .. خرج وهو يعتقد أنه وضع إبراهيم فى جيبه ..

وكاد يرفع يده إلى رأسه ليصافح ذكاءه مهنئا .

وقال محيى لإبراهيم وهو يكاد يهمس :

ـ إيه اللى عملته ده ؟

وقال إبراهيم وقد عاد يخفى عينيه عن صديقه حتى لا يرى فيهما سره :

ـ ما هو كان لازم اكسب ثقته علشان اضمن إنه مش حيراقب البيت ويشوفنى وأنا خارج من هنا ..

وقال محيى :

ـ ما يمكن يروح يبلغ عن أصحابك اللى قلت له عليهم ؟

قال إبراهيم :

ـ ما يهمش ..

قال محيى وكأنه يتهم صديقه بالقسوة :

ـ ما يهمش إزاى ؟

وقال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ ماليش أصحاب بالاسم ده .. ويمكن مافيش حد بالاسم ده أبدا .. ولو بلغ عنهم البوليس يبقى من مصلحتنا لأنه فى الحالة دى حيساعدنى فى تضليل البوليس ..

وفغر محيى فاه كأنه يلتقط به شيئا من الهواء ، ثم ضم شفتيه وقال :

ـ أنا برضه استنتجت إنك كنت بتضحك عليه .

قالها محيى وهو يحس بمرارة .. فلم يكن يعتقد أن الأبطال يلجأون إلى الكذب والخداع .. كانت البطولة فى نظره مجرد اندفاع وتضحية وثورة صريحة .. ولم يكن يحس بهذه المرارة وهو يرى إبراهيم يخدع البوليس .. كان يرى فى خداعه للبوليس بطولة .. ولكنه يحس بالمرارة الآن ، وإبراهيم يخدع ابن عمه .. لماذا .. هل أشفق على ابن عمه .. هل كان يفضل فى قرارة نفسه ألا يرى ابن عمه مغفلا مخدوعا .. هل كان يفضل أن يراه ذكيا خطيرا ، لا يستطيع أحد أن ينتصر على ذكائه حتى لو كان المنتصر هو إبراهيم ؟

إنه لا يدرى ..

وهو حائر فى تفسير إحساسه .. لا يدرى إلا أنه يحس بمرارة ينضح بها قلبه ، وتسيل مع لعابه حتى تصل إلى شفتيه ..

ولم يخرج عبد الحميد من البيت ، إنما تلكأ فى أنحائه باحثا عن سامية .. ووجدها فى غرفتها ، جالسة فوق حافة السرير ، وقد بدلت ثيابها ، وعقصت شعرها .. وفى يدها مجلة ترفعها أمام وجهها .

ولم تكن تقرأ .. كانت تنظر فقط إلى السطور .. وكانت تعلم أن عبد الحميد فى البيت .. وكانت تنتظر خروجه من غرفة صحبى ليبحث عنها .. وكانت تعد نفسها ليجدها .. وتعد كل شىء للقائه .. تعد « تبويزتها » .. وتعد نظرتها الساخرة .. وتعد الكلمات الجارحة.. وتعد غرورها الذى يتغذى على ملاحقة عبد الحميد لها وإصراره على الزواج بها .

ولو كان عبد الحميد قد خرج من البيت دون أن يبحث عنها ، لصعقت بحسرتها .. ولكنها كانت مطمئنة .. إن الشىء الوحيد الثابت فى حياتها منذ كانت صبية هو حب عبد الحميد لها ..

ووقف عبد الحميد يسد بابها بقامته ، وقال فى صوت خفيض وابتسامة حلوة ، ليس فى حلاوتها افتعال .. ولا ذكاء :

ـ لسه زعلانه منى ؟!

وانزلت المجلة من أمام وجهها ، وبدت كأنها فوجئت به .. ثم قالت وهى تهز كتفيها :

ـ حازعل منك ليه .. وأنا أقدر ؟!

وتقدم عبد الحميد وجلس بجانبها على حافة الفراش .. وازاحت نفسها من جانبه حتى التصقت بحاجز الفراش .. وقال فى هدوء :

ـ أنا عايز اكلمك فى صراحة يا بنت عمى .. أنا عارف انتى زعلانه منى ليه . فاكره أن الظروف ما كانتش تسمح بأنى أطلبك من عمى اليومين دول .. إنما الظروف دى مالهاش دخل فى الموضوع .. تأكدى من كده .. إنما اللى خلانى اطلبك إنى أقدر أسعدك .. أقدر افتح بيت من كله ..

وقاطعته سامية :
ـ مافيش لازمه للكلام ده دلوقت .. مش بابا وافق .. خلاص !!
وقال عبد الحميد فى إصرار:
ـ لا . مش خلاص . أنا عايزك انتى تكونى مطمئنة ..
ثم استطرد فى صوت ناعم كأنه يحلم :
ـ أنا مش سافل زى ما انتى فاكره .. لو كنت سافل كان زمان فى ايدى دلوقت خمسة آلاف جنيه .. كان زمانى غنى .. بدل ما اعملك شقة ، ابنى لك فيلا .. وبدل ماخليكى تمشى على رجليكى أجيب لك عربية .. وكنت عملت لك فرح كبير .. أم كلثوم .. وتحية كاريوكا .. وزيطه .
وسكت وهو ينظر إلى عينى سامية ، كأنه يحاول أن ينقل أحلامه إلى رأسها الايحاء ..
وقالت سامية وعيناها فى عينيه ، وكأنها بهرت بأحلامه :
ـ وكنت حاتجيب الفلوس دى منين ؟
قال وهو يهز كتفيه كأن الأمر بسيط :
ـ ولا حاجه .. تليفون للنائب العام ولا للبوليس .. تليفون واحد.. واقبض خمسة آلاف جنيه ، حته واحدة .
وقالت سامية فى جزع وكأنها أفاقت على هاوية تحت قدميها :
ـ يا خبر .. أنت مجنون .. تودينا كلنا فى داهية علشان خمسة آلاف جنيه !!
وقال عبد الحميد وهو يتراجع :
ـ الكلام ده لو كنت سافل زى ما انتى فاكره .. أنا صحيح ما أعرفش إبراهيم ، ولا حد فيكم يعرفه .. وصحيح إنه حينقبض عليه حتما . إذا ما كنش النهارده حيبقى بكره .. إنما مش ممكن طبعا إنى أعمل حاجة زى دى ..
وقالت سامية فى حدة :
ـ ده يبقى إجرام ..
وقال عبد الحميد وهو لا يزال يحاول أن يؤثر عليها ، كما اعتاد أن يؤثر عليها وهى صبية :

ـ فعلا .. مع أن ممكن أن كل ده يحصل من غير ماحد من عيلتنا يجرى له حاجة .

وقالت سامية وهى تحاول أن ترى إلى أين يحاول أن يقودها :

ـ إزاى ؟!!

قال :

ـ بسيطة .. نستنى عليه لما يخرج من هنا ، ونشوفه حايروح فين .. نمشى وراه ..

وقالت سامية محتدة وقد احتدت معها عيناها وقسمات وجهها :

ـ عبد الحميد .. قصدك إيه .. فهمنى عايز تقول إيه .. إيه لزوم الكلام ده دلوقت ؟!!

وقال عبد الحميد دون أن ينظر إليها كأنه يخفى ذكاءه عنها :

ـ عايز أقول لك إنى مش سافل زى ما انتى فاكره .. إذا كان فيه واحد فى العيلة دى عنده أخلاق يبقى أنا .. وكل الفرق إنى مشيت فى سكة لوحدى .. ماخدتش شهادة لأنى كنت عارف إنى مش محتاج للشهادة ، وإنى أقدر اكسب من غير شهادة اكتر من اللي بيكسبه أى واحد فيهم ، وأحب أقول لك إن إبراهيم نفسه بيثق فيّ .. اكتر منكم كلكم .. اكتر من عمى ، واكتر من حضرتك كمان.. ولسه دلوقت اهو كلفنى بشغلانه حاتنقذ حياته .

وكان عبد الحميد يتكلم بحماس ، كأنه يحاول أن يمسح من فوق سبورة كل ما كتبه عليها .. كان يحاول أن يمسح من رأس سامية كل ما قاله لها .. لقد أراد أن يضمها إلى جانبه .. أراد أن يقنعها برأيه فى الحياة .. أراد أن يقدم لها الثراء والنعيم .. ولكنها غبية هذه الفتاة ، كأبيها وأخيها .. وهو يحب هذه الفتاة الغبية .. لماذا يحب الأذكياء أمثاله هؤلاء الفتيات الغبيات .. لماذا لا يكف عن محاولة الزواج بها .. لا .. سيتزوجها .. وسيقدم لها الثراء والنعيم رغم أنفها ، ودون أن تعلم من أين أتى به .. وهو ليس فى حاجة إليها لتنفيذ خطته .. سينفذها وحده .. وسيصل .. إنه يرى طريقه واضحا ينيره الذكاء .

ورفع عبد الحميد عينيه على صوت سامية قائلة :

ـ وكلفك بإيه إبراهيم ؟

قال وهو ينظر إليـها كأنه لا يزال يسـائل نفسه لماذا يحبـها .. وماذا يحب فيها :

ـ ماقدرش أقول لك .. سر ..

ثم قفز من فوق حافة السرير وهو يقول:

ـ أما أقوم بأه قبل ما عمى يصحى ، ويقول لى كلمتين مالهمش لازمه !

واتجه إلى البـاب .. ثم استدار إلى سـامية وقـال فى ضـعف .. ضعف يستغربه من نفسه :

ـ خليكى معايا يا سامية .. واطمنى

وودعته سامـية بعينين تختلجان بالحيرة .. الحـيرة بين العملية الحسـابية التى اقتنع بـها عقلهـا والتى ترفض قبول عـبد الحمـيد زوجا ، وبين عواطفـها التى تربطها بصـباها منذ كانت تعد نفـسها زوجة له ..

وودعته صامتة .. بلا كلام ..

وخرج عبد الحميد .

●●●

وعاد اليوم يسير مع دقات الساعـة كما تعود أن يسير منذ جاء إبراهيم .. بطيـئـا .. غـاية فى البطء .. مـرهفـا ، غـاية الارهاف .. والقلوب مثقـلة .. لم يجد عليها عذاب جـديد ، إلا عذاب قلبين يقف كل منهما على حافة هاوية تفصله عن الآخر ..

كانت نوال لا تستطيع أن تنسى أن إبراهيم سيترك البيت غدا .. ولا تطيق أن تتـصور الـبيت وليس فـيـه إبراهيم .. بل لا تطيق أن تتصور نفسـها بعـيدة عن إبراهيم .. ليس بجانبها .. ولا تراه .. ولا تنشغل به .. ولا تلتقط أنفاسه .. وحاولت كثيرا أن تنسى الغد .. أن تنسى إبراهيم وتنسى نفـسها .. كـانت تتحرك كـثيرا بين حـجرات البيـت .. وكانت تحاول أن تشـغل نفسـها بكل كـبيـرة وصغـيرة تصادفهـا .. ولكن رأسها وقلبها كانا دائمـا مع الغد .. وكانت ترى الغد يوما أسـود يفغر فاه مخـيفا كأنه باب الجـحيم .. وحاولت أن

تقنع نفسها بأن عواطفها مجرد أوهام .. وحاولت أن تتصور نفسها أكبر من سنها ، عاقلة رزينة ، لا تتعلق بالأوهام .. ولكنها فشلت .. وعشرات الأفكار تطرأ على رأسها .. أفكار مجنونة طائشة.. إنها تفكر فى أن تهرب معه من البيت .. وتفكر فى أن تمزق البدلة التى حملتها له .. إنها تكره هذه البدلة . تكرهها كأنها كفن سيلف إبراهيم .. سيلف حبها ، قبل أن يدفن .. وتفكر فى أن تصرخ .. وتفكر فى أن تنتحر .. لا تريد أن تراه يبتعد عنها .. إنه ليس حلما من أحلامها التى تصبر عليها .. إنه حقيقة لمستها بيديها.. إنه أول طارق يفض غلاف القلب البكر .. لا .. لن تتركه يذهب .. ولكن .. إن كل أفكارها تتحول إلى دموع .. دموع تنسكب فى قلبها .. ثم يفيض بها القلب فتنسكب على وسادتها .. والليل من حولها صامت ثقيل ، كأنه صحراء سوداء ، تركها الله بلا رحمة ..

وفى الحجرة الأخرى كان يرقد إبراهيم ..

إنه أيضا يتعذب .. ولا يستطيع أن يجد سر عذابه .. بل لا يريد أن يجده وأن يعترف به .. وهو يحاول يائسا أن يستجمع إرادته ليفكر فى خطة هربه .. فى الغد .. ويحاول أن يتحمس لهذا الغد .. وأن يفرح به .. لقد نجح فى أولى مراحل الهرب ، ومن حقه أن يفرح ، وأن يتفاءل ، وأن يتحمس .. ولكنه لا يستطيع .. إنه يحس بفتور وهو يستقبل غده .. ويحس بتكاسل كأنه لا يريد أن يرى الغد .. كأنه يريد أن يكون هذا اليوم هو الأبد .. لا يوم آخر بعده .. كأنه لا يريد أن يغادر هذا البيت .

وكل ما فى البيت تتوالى صوره فى رأسه .. مكتب محيى .. وحنفيه الحمام .. والسندرة التى اختبأ فيها مرة .. وحجرة القعاد.. وكوب الشاى .. و .. و .. وصور أهل البيت تتراءى أمامه كالخيالات .. صورة الأب وقد اختلطت بصورة أبيه .. ولا يستطيع أن يفرق بينهما .. وصورة الأم وقد اختلطت بصورة أمه . .وسامية.. ومحيى .. و .. لا .. إنه لا يريد أن يراها .. لا يريد أن يرى نوال حتى فى خياله .. إنها ليست من حقه .. ليست من حق خياله ولا قلبه .. ولكن قلبه وخياله يلحان عليه .. ويتغلبان على

إرادته ، فيطلقهما وراءها .. ويتجرع مزيدا من العذاب .. عذاب الحرمان حتى من الأمل .. ثم يعود مرة أخرى يحاول أن يتغلب على عذابه . يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا يحب .. ولا يمكن أن يحب .. إن حياته كلها لم يكن فيها مكان للبنات .. وهى الآن أضيق من أن تتسع لنوال .. ولكن قلبه وخياله أوسع من حياته .. وهما يتسعان .. ويتسعان .. إلى أن يفسحا مكانا كبيرا لنوال .. بل هو يستطيع أن يتصور نفسه زوجا لها .. ويستطيع أن يرى نفسه يخرج فى الصبح إلى عمله ويعود ساعة الغداء .، ونوال تودعه فى خروجه ، وتستقبله فى عودته .. ما أسعد هؤلاء الناس البسطاء الذين يذهبون إلى أعمالهم ويعودون منها .. وما اهنأهم .. وما أطيب حياتهم .

ثم يضم أصابعه فوق كفه ، ويضغط عليها بكل أعصابه كأنه يحاول أن يخنق نفسه .. يخنق قلبه وخياله وآمال ليست من حقه .

●●●

وأتى الغد ..

ودخلت نوال إلى إبراهيم ، بعد أن خرج أبوها وأخوها ، كان السهر يرسم حول عينيها هالتين من السواد ، كأنهما عشان للأرق .. وكأنها لم تنم طول عمرها .. وكانت غاضبة . غاضبة من نفسها ومن إبراهيم ومن عذابها .

وقال لها إبراهيم وهو يحتضنها بعينين يائستين :

ـ مالك ؟

قالت وهى تضع الصينية على المكتب ودون أن تستدير إليه :

ـ ماليش !!

وسكتت ..

وسكت معها ..

وترددت برهة ، ثم استدارت لتخرج فقال إبراهيم كأنه يتعلق بها حتى لا تتركه وحده :

ـ أقدر اطلب منك خدمة ؟

قالت وظهرها له وهى تبدو كالثائرة :

ـ اتفضل ..

قال بعد تردد كأنه يبحث عن الخدمة التى يطلبها منها :

ـ والله البدلة اللى جبتيها امبارح جيبها مقطوع .. ممكن تخيطيه.. أصلها بدلة ظابط ، وما يصحش يكون فيها حاجة مقطوعة .

وحاول أن يضحك ، فبدا كأنه يبكى .

وقالت نوال وهى تستدير له :

ـ هيه فين ؟

وفتح إبراهيم الدولاب واخرج سترة البدلة ، وناولها لها .. وأخذتها نوال وهى تبحلق فيها كأنها ترى الكفن الذى تخيلته فى ليلتها .. وظلت واقفة لا تتحرك ، والسترة فى يدها تبحلق فيها بعينين فزعتين .. ثم فجأة .. انهمرت دموعها .. ثم تدلى ذراعها إلى جانبها حتى سقطت السترة على الأرض .. وارتمت فوق الدولاب ، ورأسها فوق ذراعها الثانية .. وأصبحت دموعها نشيجا حادا ، تحاول أن تكتمه فلا تستطيع .

وبهت إبراهيم ..

ونضح وجهه بالعذاب ، كأنه هو الآخر يهم بالبكاء.

واقترب منها ، ورفع ذراعيه كأنه يهم بأن يحتضنها ليتلقى دموعها فوق صدره .. ولكنه عاد وخفضهما .. ووقف حائرا مرتبكا لا يدرى ما يقول ولا ما يفعل .. ثم قال وكلماته تتمزق بين شفتيه :

– ليه بس يا نوال ؟!!

والتفتت إليه وقالت من بين دموعها :

ـ طبعا أنت ما يهمكش حاجة .. حيهمك إيه يعنى ؟!!

قال فى أسى :

ـ ازاى ما يهمنيش يا نوال .. أنا ما بقاليش حاجة تهمنى فى الدنيا إلا أنت ..

قالت وهى تنظر إليه كأنها لا تصدقه :

ـ لو كان يهمك ماكنتش تسيب البيت من غير ما تقول لى رايح فين .. ولا أقدر اطمئن عليك ازاى .. زى ما تكون خايف منى .

قال وهو يطأطىء رأسه كأنه يلقيه من فوق عنقه :
ـ أنا خايف عليكى .. خايف عليكى منى .. أنا حياتى كلها خطر.. واللى بيدخل فيها بيعيش معايا فى خطر .. كفايه اللى اسـتحملتوه علشانى اليومين دول ..
قالت فى حنان وهى ترفع رأسها إليه :
ـ أنا ما يهمنيش الخطر .. إنما يهمنى إنى اطمن عليك .. يمكن تكون عايز حاجة أقدر أعملها لك .. أنا مش جبت لك البدلة !! يمكن أقدر أجيب لك حاجة تانية ..
قال وهو يهرب من عينيها :
ـ احلف لك إنى مش عارف حا اخرج من هنا اروح فين ..
قالت وقد عادت تتحدث كأنها تهم بالبكاء مرة ثانية :
ـ ماليش دعوة .. لازم فيه طريقة توصلنى لك .. قول إنك مش واثق منى .. قول إنى ماهمكش ..
وسكت .. وألقى برأسه مرة ثانية من فوق عنقه .. وقطب ما بين حاجبيه يفكر ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير الهادىء ، فيزداد تقطيب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يعصر مخه كله فى لحظة واحدة .
ونظرت إليه برهة طويلة .. ثم استدارت لتخرج وهى تنتفض كالعصفور الجريح .. ورفع رأسه وراءها ، وقال كأنه يبتهل إليها :
ـ نوال ..
وتوقفت .. والتفتت إليه وهى تكاد تنهار ..
وقال كأنه عدل عن رأيه ، واختار شيئا آخر يقوله :
ـ مش حتصلحى البدلة
وتقدمت نحوه خطوات .. وانحنت تلتقط سترة البدلة من على الأرض ، وانحنى معها فى نفس الوقت .. وتلامست أيديهما فوق السترة ، فسرت فى كل منهما رعشة كأن الحياة تتدفق فى عروقهما لأول مرة ، لتروى جسديهما بالحب .
وتباعدت الأيدى سريعا ..
وقال فى صوت مبهور كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم :

ـ اسمعى ... الطريقة الوحيدة .. إنى بعد ما اسيب البيت ، تروحى كل يوم اتنين وكل يوم اربع تستنى فى ميدان عبد المنعم الساعة حداشر الصبح .. وانا لو قدرت ، ولو كنت لسه فى مصر ، حاأقابلك هناك ، ولا حابعت لك واحد يطمنك على ويقول لك انى فين.. مافيش قدامنا إلا الطريقة دى ..

وأضاءت وجهها باتسامة .. واحمرت وجنتاها ، كأنهما اطلتا من وراء الليل مع نور الفجر .. ورفعت إليه عينيها ثم خفضتهما سريعا كأن الحب أقوى من أن تراه بعينها ..

وقال كأنه يبرر خطته :

ـ أنا اخترت ميدان عبد المنعم علشان قريب من البيت .. وما تبقيش تستنى كتير .. ربع ساعة بس .. إذا ما جيتش تعرفى انى ماقدرتش آجى .

قالت كأنها تعاتبه لأنه يشككها فى آمالها :

ـ لأ ..حاتيجى بإذن الله !!

وحملت السترة .. وخرجت تسير كأنها تسبح فى أحلامها .. وقلبها البكر ينبض بأول موعد غرام .

١١

عقرب الساعة يدور.

وقلب نوال يخفق بأول موعد غرام فى حياتها، وهى جالسة فى حجرتها فوق فراشها تصلح سترة البدلة التى سيرتديها ابراهيم فى هربه.. بدلة الضابط.. ولم تعد تتصور هذه البدلة كفنا لابراهيم، أو لحبها... إنها تضمها بأصابعها كأنها تحتضن أحلامها، وتمرر ابرتها فى نسيجها بحنان وحرص كأنها تخشى على النسيج أن تجرحه الأبرة، وتنظر إليها بعينين مبتسمتين كأنها تنظر إلى ثوب عرسها.. هل سيأتى ابراهيم للقائها وهو مرتد هذه البدلة.. كيف يبدو بها.. وابتسمت وهى ترى فى خيالها قامته الطويلة النحيفة، وعينيه الواسعتين، وشفتيه الرقيقتين فوق فكه العريض القوي، وأنفه الكبير كأنه رأس سهم موجه إلى صدر عدوه.. وكل ذلك فى بدلة ضابط.. واتسعت ابتسامتها، ثم احمرت وجنتاها وهى تسمع أجراسا رقيقة عذبة تدق فى صدرها كأن خيالها قد انتقل من أمام عينيها وسرى فى جسدها كله، وأصبحت تحس بابراهيم ملتصقا بها.. ملتصقا بها جدا.. صدره فوق صدرها.. وشفتاه قريبتان من شفتيها.. وأنفاسه تملأ أذنيها.. وانحنت فوق البدلة فى خفر كأنها تميل فوق عنق ابراهيم.. وكتمت ابتسامتها بين شفتيها حتى لا تفضح خيالها.. ولكن كل شئ يمكن أن يقلل من سعادتها.. لقد اختفت المأساة من حياتها ومن تفكيرها، لم يخطرعلى بالها أن ابراهيم قد لا يأتى إلى لقائها.. قد يقبض عليه.. وقد يستمر فى هربه حتى يتجاوزها ويتجاوز مكان اللقاء.. كانت ثقتها فيه أقوى من كل الاحتمالات، إنه

أقوى من البوليس وأقوى من أن يخلف وعده لها، ستلقاه يوم الاثنين ويوم الأربعاء.. وكل يوم اثنين وأربعاء.. ورغم ذلك فهناك فى أغوار نفسها ظل يتحرك.. وهى تخاف على سعادتها من هذا الظل.. إنه ليس خوفا من البوليس.. ولا خوفا على مصير ابراهيم.. لن يحدث له شئ.. هذا مؤكد.. ولكن السعادة عندما تفيض إلى هذا الحد يخاف المرء أن يفقدها.. كأن من طبيعة الله ألا يمنح السعادة إلا ليأخذها بعد حين.. لا يعطى إلا ليأخذ.. وكأننا نحن البشر قطع من الحديد قضى علينا أن نصهر فى الحوادث حتى نموت.. يلقى بنا القدر فى أفران الشقاء.. ثم يرفعنا ويلقى بنا فى الماء البارد العذب ليطفئ نارنا وننفث فى ارتياح ابخرة الشقاء.. ثم تتوالى علينا المطارق.. ثم نصهر من جديد فى الأفران.. ثم الماء العذب والراحة.. ثم المطارق.. ثم .. الموت.. كلنا فى هذه الحياة لا مفر لواحد منا.. لكل نصيبه من الشقاء ونصيبه من السعادة.. كل شئ بميزان.. اشتراكية إلهية توزع السعادة والشقاء بالأقة والدرهم.. لا سعادة «مشفية»، ولا شقاء «مشفى».. إنما لحم على عظم!!

ووجدت نفسها تتوجه إلى الله وأنها تتوسل إليه أن يصون سعادتها.. أن يعفيها من نصيبها من الشقاء.. وسمع صوتا من داخلها يتمتم: «اللهم أجعله خير».. ثم عادت تنعم بخيالها.. نعيما صافيا لا يعكره خوف ولا شك..

وحملت السترة بعد أن اتمت اصلاحها وذهبت إلى ابراهيم فى الحجرة المجاورة.. طرقت الباب، ودخلت وهى تسير فى خفر كأنها تزف إليه.. ومدت له يدها بالسترة، ورفعت عينيها إليه فالتقتا بعينيه تضمانها برفق ورحمة..

ولم يتكلما..

مد يده وأخذ منها السترة.. ولم يستطع حتى أن يلفظ كلمة شكر.. كأنه وضع لسانه وقلبه وذهنه فى عينيه اللتين تضمانها برفق ورحمة..

واستدارت فى بطء كأنها لا تستطيع أن تخلص نفسها من عينيه.. وخطت خطوتين نحو الباب.. ثم توقفت.. وعلت شفتيها

ابتسامة صغيرة كأنها تطلق رنين الأجراس من صدرها. وفكرت قليلا.. ثم استدارت مرة ثانية وواجهته، وقالت فى صوت خافت وفى حياء:

ـ معاك قلم؟!

قالتها واتجهت إلى مكتب أخيها وأخذت تبحث فوقه عن ورقة بيضاء..

ونظر إليها ابراهيم دهشا، وهو يبتسم، ثم بدأ يبحث معها فوق المكتب عن قلم، دون أن يسألها عما تنتويه..

ونزعت نوال ورقة بيضاء من إحدى كراسات أخيها، ثم وضعتها أمام ابراهيم والقلم فى يده، وقالت وقد اتسعت ابتسامتها كأنها ترشوه بها:

ـ اكتب هنا «لا إله إلا الله»!!

وازدادت دهشة ابراهيم وقال وقد ارتفع حاجباه:

ـ ليه؟!

قالت وهى لا تزال تبتسم:

ـ اكتب بس.. علشان خاطرى!

وانحنى ابراهيم وكتب «لا إله إلا الله»

وأخذت نوال الورقة، ثم أخذت القلم من يده، وانحنت تكمل السطر وكتبت «محمد رسول الله»..

ودون أن تتكلم، ألقت القلم فوق المكتب، ثم أمسكت الورقة وقطعتها إلى ورقتين.. ورقة تحمل «لا إله إلا الله» التى كتبها بخط يده، وورقة تحمل «محمد رسول الله» التى كتبتها بخط يدها..

ثم أعطته الورقة التى تحمل خط يدها وشهادة أن «محمد رسول الله» وقالت وهى تبتسم:

ـ خللى دى معاك دايما.. أوعى تضيعها!!

واحتفظت لنفسها بالورقة الأخرى التى تحمل شهادة «لا إله إلا الله» واستطردت قائلة فى خفر وهى تطوى الورقة بأصابعها فى حرص، دون أن تنظر إليه:

ـ أصل بابا كل مـا يسافر، بـيكتب هوه وماما ورقة زى دى.. علشان يرجعوا لبعض تاني!!

ولم ينتبه ابـراهيم إلى سذاجـة الفكرة.. بل لم يشـعـر بالفكرة نفسـها.. إنما شعـر بحب كبير. والتمعت عيناه كأنهمـا تشعان حبا.. ودون أن يتعـمد امـتدت ذراعاه، وأمـسك بكتفى نوال، وقـال كأنه يتنهد:

ـ نوال..

ولم تجبه.. ولم ترفع جفنيها عن عـينيها.. ولم تحس بكفيه وقد ألقاهمـا فوق كتـفيها.. إنما احـست بدمائها تتـسابق إلى وجنتيـها، وكأن الدماء فى سباقها فاضت عن عـروقها.. وأحست بحبها أكبر من قلبهـا حتى بل يعد يستطيع أن يسـعه.. وأحست بروحهـا أكبر من جسدها حتى يرتج جسدها من ضخامة الروح..

وصحب نشوتهـا احساس بأنها يجب أن تقـاوم حتى لا يفيض حبها عن قلـبها، ولا تفيض روحها عن جسـدها، ولا تفيض دماؤها عن عروقها..

لماذا تقاوم؟!

لماذا تقاوم نفسها؟!

لا تدرى..

ولكنها يجب أن تقاوم..

وسحبت نفسها فى رفق من بين كفيه وسارت بخطوات سريعة مرتبكة نحو الباب، كأنها تهم أن تطير فلا تستطيع.. ثم التفتت إليه قبل أن تخـرج، وقالت وهى تتزود منـه بنظرة أخيرة وفى صـوتها رنين الأجراس الصغيرة:

ـ مش عايز حاجة!

ونظر إليـهـا فى ابتـهـال، وعـيناه تسـألانهـا فى رجـاء: «لماذا تتركـينني؟» ثم ارتد السؤال إليه، وحملت عيناه شحنة كبـيرة من اليأس ووجد نفـسه يتساءل: «لماذا أتركهـا.. لماذا أغادر هذا البيت.. لماذا لا أبقى فيـه.. بجانبها.. مـتى استريح.. وأهدأ.. وأستـقر.. لماذا لا أكون واحدا من هذه الملايين الهادئة، المستريحة، المستقرة. واحدا

من سكان هذا البيت.. إنها لا تدرى.. لا تدرى انها ستفقدنى، وسافقدها»..

ونظر إليها كأنه يشفق عليها من مصيره، وقال فى صوت خافت:

ـ متشكر..

ثم كأن ماردا استيقظ فى صدره.. المارد الذى جعل منه بطلا.. فاستطرد وقد تغيرت نبرات صوته، وأصبحت أكثر قوة:

ـ بالحق.. بلاش تقولى لحد أنى حاسيب البيت النهارده إلا بعد عمى ما ييجى وينام ويصحى من النوم..

قالت مبتسمة:

ـ حاضر..

ثم استطردت وهى تشير بعينيها إلى الورقة الصغيرة التى لايزال يحملها بين أصابعه:

ـ أوعى تضيع الورقة اللى معاك؟!

قال وقد عاد صوته حنونا:

ـ مش ممكن؟!

وخرجت نوال.. وهرعت إلى غرفتها وهى لا تزال تحاول أن تطير فلا تستطيع.. ثم فتحت دولابها وأخرجت علبة صغيرة من الذهب بداخلها مصحف صغير.. وحملتها وجلست على سريرها وفردت الورقة التى كتبها ابراهيم.. وأخذت تقرأ «لا إله إلا الله» كأنها تقرأ خطاب غرام للمرة العاشرة وتقبل كل حرف فيه بعينيها.. عادت وطوت الورقة، وفتحت العلبة الذهبية الصغيرة ووضعتها فيها.. تحت المصحف الصغير.. ثم أغلقت العلبة.. وعلقتها حول رقبتها، وتركتها تتدلى فوق قلبها..

●●●

وعقرب الساعة يدور..

والحياة فى البيت تسير كما تعودت أن تسير.. الام فى المطبخ وسامية تتحرك متكاسلة كعادتها.. تقف فترة بجانب أمها فى المطبخ، ثم تتذكر انها لم تعقص شعرها، فتدخل إلى غرفتها وتقف

أمـام المرآة، وقـبل أن تتم عقـص شعـرها، تعـود ثانيـة إلى المطبخ والمشط فى يدها.. ثم تضع المشـط بين أسنانها، وترفع غطاء وعـاء فوق وابور الجاز.. وتقلب مـا فيه.. ثم تعود إلى مـرآتها وتتم عقص شعرها، ثم تتذكر انها يجب أن تبدل ثيابها فتفتح دولابها.. وبدل أن تخـرج الثـوب الذى ترتديه، تجلس على الأرض بـجـانب الدولاب وتأخذ فى ترتيب محتوياته..

وابراهيم سجين فى غرفـته، والورقة الصـغـيرة بين يده، يقرأها ويحقق فى خط نوال.. الالف طويلـة.. والحاء مضحكة.. ويبـتسم.. ثم تنتابه نـوبة من اليأس، تعقـبها نوبة من الـتصمـيم على تحدى الحكومـة، والبوليس والإنجليـز، حتى ينقـذ حياته.. من أجلـها.. ثم يتنهد كأنه يتنفس من تحت جبل..

ونوال نشوى بسعادتها. لا تكـف عن الحركة.. تطوف بحجرات البـيت، وكل ما تلمسه تحـيله نظيفـا أنيقـا مرتبـا.. وتدخل المطبخ فتنشط «وابورات الجاز» وتزداد حرارة الحلل.. والعلبة المذهبة التى تحمل ايمانها وأحلامها تتأرجح فوق صدرها وتلتصق حينا بثوبها، وتهتز حينا فتتخبط بـين نهديها كأنها تبحث عن مكان تنفذ منه إلى القلب..

وجاء محيى فى موعده.. لا جـديد.. ولكنه يبدو أكثر قلقا.. كأن دقات السـاعة تنقر فوق أعـصابه.. وهو يحاول أن يخـفى قلقه، أن يخفى تعـجله للساعـة التى يخرج فيـها ابراهيم من البـيت.. وكلما أمعن فى محاولته ازداد اضطرابا وتعثر فى تصرفاته وكلماته..

وأوصاه ابراهيم ألا يـبلغ والده خبر مـغادرته البـيت إلا بعد أن يعود الوالد وينام، ويصحـو من نومه.. ولم يكن ابراهيم يرمى من وراء ذلك إلا أن يحصر الخـبر فى أقل عدد من أفراد البـيت.. حتى لا يتسـرب إلى عبدالحـميد.. أو حـتى لا يضطرب سير الحـياة فى البيت اضطرابا قد يثير انتباه عـبدالحميد ـ إذا جاء ـ فيداخله الشك ويعود إلى مراقبة البيت..

وقال محيى كأنه يواجه مشكلة عسيرة:

ـ وإذا بابا سألنى إزاى عرفت تتصل باصحابك.. أقول له أيه؟!

وأجاب ابراهيم بعد تفكير:

ـ قول له انك قابلت واحد منهم فى الجامعة.. وانك اتفقت معاه على أنه يستنانى بعربية..

وقال محيى فى اقتضاب:

ـ معقول..

واستطرد ابراهيم:

ـ وأكد لعمى أن ما حدش من أصحابى عرف أنى مستخبى عندكم!!

وهز محيى رأسه موافقا.. ثم كأنه تذكر شيئا، فعاد يقول:

ـ ولما يشوفك خارج وأنت لابس بدلة ظابط؟!

وقال ابراهيم:

ـ قول له إنك انت اللى جبت البدلة من صاحبى!!

وسكت محيى، كأنه لا يملك إلا السكوت..

وجاء الوالد.. فى موعده أيضا.. يسير على مهل وهو يزحف بقدميه، وكأنه يخفى ابراهيم فى ثيابه ويخشى أن تسقط عنه ثيابه فيبدو ابراهيم من تحتها.. وهو أكثر من قلق.. إنه بائس.. حزين.. ممتعض من الحياة كلها.. وهو متعب من طول التفكير فى المشكلة التى يعيش فيها، ففضل أن يتخلص من التعب باليأس والاستسلام.. وأصبح كل ما يبذله من مجهود، هو مجهود لوقف تفكيره وتجاهل كل ما يدور حوله..

وحيا أولاده وأعطى جريدة الاهرام إلى محيى ليحملها إلى ابراهيم.. ودخل غرفته وأغلق بابها وراءه.

وجاء عبدالحميد كما توقع ابراهيم.. جاء يفوح ذكاؤه من حوله.. ولم يبق طويلا..

دخل وجلس مع ابراهيم ومحيى، وأكد لابراهيم أنه اتصل بصديقه ضابط البوليس الذى يعمل فى المحافظة وأنه سيعرف منه أسماء المعتقلين غدا..

وقال ابراهيم فى رزانة:

ـ إن شاء الله.. شد حيلك.. ده أنت بتعمل لى خدمة كبيرة قوى!!

ولم يكن عبدالحميد قد اتصل بضابط البوليس.. ولا حاول الاتصال به بعد.. ولكنه أراد أن يربط نفسه بابراهيم وأن يشعره باخلاصه.. ثم قام وبحث عن سامية، ونظر إليها بعينين ضاحكتين وقال:

ـ ازيك يا بنت عمي؟!

وقالت وهي تشيح عنه بدلال:

ـ الله يسلمك..

ـ قال وهو يبتسم..

ـ وحشتك!!

قالت وهي تنظر إليه بطرف عينيها؟

ـ يا سم؟!

واتسعت ابتسامته كأنه تلقى منها اعترافا بحبها.. وخرج من البيت وهو يسير على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ عمه من نومه، وحتى لا ينبهه إلى وجوده في البيت.

●●●

واستيقظ الأب في الساعة الخامسة.. وكانت يقظته بمثابة يقظة البيت كله.. عادت الحركة، وبدأ الاستعداد لطعام الافطار.

ودخل الأب إلى الحمام.. وخرج ليؤدي فريضة صلاة العصر.. ثم جلس على الأريكة في حجرة «القعاد» وهو ساهم.. لا يفكر، ولكنه يحاول أن يهرب من أفكاره..

وجاء محيي يحمل جريدة الاهرام.. وتناولها منه الأب وأسقط عينيه توا فوق صفحاتها.. وظل محيي واقفا قبالته مترددا حائرا، حتى اضطر والده أن يرفع رأسه إليه، قائلا في تساؤل عصبي:

ـ أيه.. فيه أيه.. مالك واقف كده؟

وقال محيي بسرعة كأنه يحاول أن يتخلص من حمل ثقيل:

ـ ابراهيم حايسيب البيت النهارده!

واتسعت عينا الأب حتى صغرت بينهما نظارته، وقال في شهقة كأنه ابتلع حفنة من ماء:

ـ بتقول أيه؟!

وعاد محيى قائلا:

ـ ابراهيم حايسيب البيت و..

وقاطعه الأب:

ـ أمتى.. الساعة كام؟!

وقال محيى:

ـ ساعة ما المدفع يضرب!

وأحس الأب أنه ينفس عن عذاب كبير.. وأحس بابتسامة كبيرة تملأ صدره.. ولكنه قدر أن المناسبة تقتضى منه أن يخفى ابتسامته، وأن يكبت الراحة التى يحس بها. فسيطر على تعابير وجهه حتى يظل محتفظا بإمارات الجد، وقال وهو يدعى اللهفة:

ـ إنما هو عمل حسابه كويس.. مطمئن إنه حايسيب البيت من غير ما يجرى له حاجة؟!

ولم يكن الأب يتظاهر بهذه اللهفة أمام ابنه، إنما كان يتظاهر بها أمام نفسه.. كان يريد أن يرضى بها عواطفه، وشهامته، وإحساسه الطبيعى بخلقه الكريم.. ولذلك لم يهتم كثيرا برد محيى عليه قائلاً:

ـ أيوه.. هو عامل خطة وماشى عليها!

وقال الأب وهو لا يزال يدعى اللهفة:

ـ وحايروح فين بعد ما يخرج من هنا؟

وقال محيى وهو لا يزال واقفا أمام أبيه كأنه موظف يقدم تقريره إلى رئيسه:

ـ ما أعرفش والله.. كل اللى أعرفه أن فيه جماعة أصحابه منتظرينه..

ورفع الأب عينيه إلى ابنه وقال كأنه يوجه إليها اتهاما:

ـ واتصل بأصحابه دول إزاى؟!

وقال محيى وهو يخفى عينيه عن أبيه:

ـ قابلت واحد منهم فى الجامعة.. واتفقت معاه..

ونظر الأب إليه نظرة اختلط فيها الغضب بالذعر.. وقبل أن يتكلم استطرد محيى قائلا كأنه يدافع عن نفسه:

ـ إنما ما حدش منهم عرف إنه قاعد عندنا..

وظل الأب ينظر إلى ابنه بعينيه الغاضبتين المذعورتين برهة ثم حول عينيه عنه، كأنه قدر أن الوقت ليس مناسبا لتأنيبه، أو كأن فرحته الخفية بمغادرة ابراهيم البيت قد كفرت عن تمادى محيى فى مساعدته.. وزم شفتيه وقال:

ـ هيه.. بأه كده!

وسكت..

وشجع سكوته محيي، فقال مستطردا:

ـ وجبت له منهم بدلة ظابط.. علشان يلبسها وهو خارج!

وعاد الأب ينظر إلى ابنه فى دهشة كأنه لا يصدق أنه يستطيع أن ينغمس فى المؤامرة إلى هذا الحد.. وبذل مجهودا كبيرا حتى لا يصرخ فى وجهه مؤنبا ثم قال بعد برهة صمت:

ـ ربنا يكتب له السلامة..

وأحس أنه لا ينافق وهو يدعو لابراهيم بالسلامة.. أحس أنه مخلص فعلا بالدعاء له، وأن سلامة ابراهيم متعلقة بسلامته شخصيا وبسلامة بيته.. ثم بدأ شعوره بالراحة يطغى عليه.. شعر أنه أدى واجبا وانتهى منه سالما.. ثم شعر ببصيص من الزهو والفخر يملأن نفسه.. ألم ينقذ بطلا وطنيا.. ألم يحم فى بيته رجلا التجأ إليه.. ألم يكن شهما.. اليست هذه هى الرجولة.. لقد قام بعمل سيسجل له طول عمره .. إن لم يسجل فى التاريخ فسيسجل على صفحات نفسه.. وسيكون فيه درس لابنه.. درس يعلمه ان الوطنية ليست هتافات، ولا مظاهرات، ولا منشورات، ولا اغتيالات.. ولكنها خلق، ورجولة وشهامة..

وكان محيى قد خطا خطوتين وجلس فوق مقعده المفضل.. المقعد الأسيوطى.. ولكنه ما كاد يجلس، حتى قام والده من جلسته، وقال له وهو يتحسس موضع الشبشب بأصابع قدمه:

ـ تعال معايا!!

وسار الوالد إلى غرفته وخلفه محيى.. ثم بحث عن حزمة من المفاتيح موضوعة فوق «الكومدينو» بجانب السرير واتجه إلى الشيفونيرة وفتح درجا من ادراجها واخرج محفظة صغيرة قديمة،

فتحـها فظهرت فيـها مجمـوعة صغيرة من أوراق النقـد، التقط من بينها ورقة من ذات الخمسة جنيهات أعطاها لمحيى قائلا:

ـ أدى دول لابراهيم.. يمكن يحتاج لهم؟!

ونظر محـيى إليه فى دهشة، كـأنه لا يصدق أن والده يمكن أن يتمادى فى كرمه وعطفه إلى هذا الحد، ثم ابتـسم ابتسامة صغيرة كأنة تذكر طيبة قلب أبيه، وقال:

ـ ربنا يخليك للناس كلها يا بابا..

وأدار الأب وجهه عنه متشاغلا بإعادة وضع المحفظة فى الدرج حتى لا يرى ابنه ضعفه أمام عواطفه.. وقال:

ـ والدتك عرفت بالموضوع؟

وقال محيي:

ـ لسه.. حضرتك أول واحد يعرف!

وقال الأب:

ـ مش حاتقول لها؟!

وقال محيى :

ـ حاضر..

ودخلت الأم، آتيـة من المطبـخ وقطرات من العـرق تتناثر فـوق وجهها كحبات من النور المتبلور، وقالت وهى تتحدث فى عجلة:

ـ أيه اللى مقعدكم هنا فى اوده النوم:

ثم استطردت دون أن تنتظر جوابا:

ـ النهار ده مـا تعملوش حـسابكم على حاجـة.. احنا مهـيفين.. مـا فـيش إلا عدس وكـشـرى.. أصلى خـلاص عـدمت من المطبخ وشغل البيت.. من بكره تشوفوا لكم حل.. سامع يا زاهر

وقال الأب وهو يبتسم:

ـ قول لها يا محيى !

وتردد محيى وقـد علت شفتيه ابتسـامة هو الآخر، وعادت الأم تقول:

ـ يقول لى أيه.. يا أختى ما تتكلموا.. انتم مخبيين أيه؟!

وقال الأب وهو ينظر إليها فى حنان:

ـ ابراهيم حايسيب البيت دلوقت؟
وردت الأم فى عجلة:
ـ بركة..
ثم تنبهت إلى انها تسرعت فى الافصاح عن عواطفها، فاستدركت قائله:
ـ وماله مستعجل ليه.... اوعى يكون زعل من حاجة.. ده خلاص بأه واحد منا!!
وقال محيى:
ـ ما زعلش ولا حاجة.. هو كان عامل حسابه على كده..
وجلست الأم على الكنبة الموضوعة فى مواجهة فراشها، كأنها تريح عواطفها.. وصمتت قليلا واكتشفت خلال صمتها موجة حزينة تتجاوب فى أعماقها. شعرت بنوع من الاسف والحسرة، كأن كل شئ قد صمت من حولها فجأة بعد ضجيج كبير كان يملأ خياتها، ويثير فيها الاهتمام والنشاط.. كأن المدعوين فى فرح، أو المعزين فى مأتم، قد انصرفوا ولم يتركوا لها إلا ذكريات نشاطها فى إقامة الفرح أو تنظيم المأتم، وتمتمت فى صوت حزين:
ـ والنبى صعبان عليه ..
وهم محيى أن يغادر الغرفة فاستوقفته والدته قائلة:
ـ إلا قولى يا محيى.. هو ابراهيم مش شايل مصحف؟
وقال محيي:
ـ ما أظنش..
وقامت الأم من جلستها وفتحت درج «الكومدينو» واخرجت مصحفا صغيرا ناولته لمحيى قائلة:
ـ خذ يا بنى، أديله المصحف ده.. ربنا يحميه.. وينجيه، ويرجعه لأمه بالسلامة.. يارب..
وقال محيى وهو يتناول المصحف:
ـ قلبك فيه الخير يا ماما..
ثم خرج من الغرفة، وسار فى خطوات سريعة إلى غرفته، متلهفا لاعطاء ابراهيم الهدايا التى يحملها إليه..

وكان ابراهيم قد انتهى من ارتداء بدلة الضابط، وبدا فيها فتيا انيقا.. وكان واقفا امام المرآة ينظر إلى نفسه وبين شفتيه ابتسامة صغيرة.. لم تكن ابتسامة اعجاب بنفسه، بل كانت ابتسامة أقرب إلى السخرية من نفسه.. كأنه يأسف بها على حظه في الحياة.

واستدار إلى محيى عندما دخل الغرفة.. وقال محيى مبتسما وهو يناوله الخمسة جنيهات:

ـ بابا باعت لك دول.. يمكن تحتاج لهم!!

وتردد ابراهيم في أن يمد يده..

وقال محيى وهو يقترب منه أكثر:

ـ مؤكد انك محتاج لهم.. ده مش وقت كسوف يا ابراهيم!

وكان ابراهيم مقتنعا فعلا بأنه محتاج إلى هذه النقود.. بل إن احدى المشاكل الهامة التي كانت تصادف تفكيره وهو يضع خطة هربه هي مشكلة النقود.. كان وهو في السجن تصله النقود عن طريق والديه، أما وهو هارب فكيف يعثر على والديه والنقود.

ومد يدا مترددة وأخذ الورقة ذات الخمسة جنيهات ووضعها في جيبه دون أن ينظر إليها، وهو يقول في صوت متأثر:

ـ أنا مش عارف اشكركم إزاى.. حافضل طول عمرى حافظ جميلكم و..

وقاطعه محيى وهو يمد إليه يده بالمصحف:

ـ وده من ماما!!

وتناول ابراهيم المصحف، ورفعه إلى شفتيه، ثم وضعه في جيب سترته العلوى، وهو يقول في حنان كأنه يذكر أمه:

ـ ربنا يخليها..

وسكت قليلا كأنه لا يستطيع أن يتكلم ليشكر.. لا يستطيع إلا أن يصمت.. ثم رفع رأسه وقال وهو يتنهد:

ـ فاضل أد إيه على المدفع؟

ونظر محيى إلى الساعة في يده وقال:

ـ خمس دقايق.

واتجه ابراهيم إلى المكتب، وفتح الدرج وأخرج مسدسه

الصغير، ونظر إليه فى أسى.. كأنه يأسف لاضطراره لحمله.. بل كأنه يأسف لأنه عرف المسدسات يوما ما.. إنه لا ينظر إليه اليوم كما كان ينظر إليه قبل أن يسجن.. ليس فى نظرته حب.. ولا لهفة.. ولا احساس بالقوة.. إنه ينظر إليه كأنه زوجة لم يعد يربطه بها إلا عقد الزواج.. وجذب خزان الرصاص من المسدس، ونظر إليه كأنه طبيب اسنان ينظر فى اسنان مريضه. ثم حرك الزناد مرة ومرتين.. ثم أعاد وضع خزان الرصاص، وأخفى المسدس فى جيب سترته الخارجى.. ومحيى واقف خلفه ينظر إليه فى حذر وخوف كأنه ينظر إلى أحد الحواة يلعب بالثعابين..

والتفت إليه ابراهيم قائلا:

ـ أقدر أسلم على عمى قبل المدفع ما يضرب؟

وقال محيى، وهو واقف ينظر إليه كأنه ينتظر أن يتحرك القطار به ليلوح بيده مودعا:

ـ اتفضل..

وتحسس ابراهيم الجيب الصغير الذى يضع فيه الورقة التى تحمل خط نوال.. ويريد أن يتأكد من وجودها.. ثم خرج من الغرفة مع محيى، وفى طريقهما إلى غرفة «القعاد» التقت بهما سامية، فشهقت شهقة حادة وقد رأت بدلة الضابط قبل أن ترى فيها ابراهيم، ووضعت يدها على صدرها وهمست همسة حادة:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم..

ووقف ابراهيم قبالتها برهة ومد لها يده مبتسما، وقال وهو يصافحها وينظر إليها فى حنان وشكر:

ـ نشوف وشك بخير!

وصافحته سامية مذهولة.. ولحقت به اختها نوال وهمست فى اذنها:

ـ أصله حايخرج دلوقت..

واستردت سامية أنفاسها وهى تقول:

ـ ده أنا اتخضيت.. إنما تعرفى أن البدلة لايقة عليه.. منتهى الوجاهة!

وابتسمت نوال كأن الثناء موجه إليها.. إلى رجل تملكه.. ونظرت إلى ابراهيم وهو فى بدلة الضابط وهى مبهورة يكاد قلبها يقفز من بين شفتيها ليستقر فوق كتفه بجانب النجوم..

وسارت الأختان خلف الشابين إلى غرفة القعاد.. وصوت المقرئ فى الراديو يستقبلهم بآيات الله..

وانحنى ابراهيم يحاول أن يقبل يد الوالد، فجذبها الوالد منه، قائلا:

ـ استغفر الله.. اتفضل يا بنى!

وانحنى ابراهيم مرة ثانية يحاول أن يقبل يد الوالدة، فجذبتها منه قائلة:

ـ العفو يا بنى. ربنا يحميك ويحرسك!!

وجلس ابراهيم خجلا مرتبكا، وبدا كأنه يهم بإلقاء خطبة.. وابتلع ريقه مرة ومرتين، وقال:

ـ الواقع يا عمى انا مهما قلت مش حاقدر اشكرك.. كفايه انى اقول لحضرتك انى جيت هنا وانا خايف تطردونى.. إنما لقيت فى البيت ده وطنية وشهامة ما لقيتهاش فى أى حته تانية طول حياتى.. و..

وقاطعه الأب قائلا دون أن ينظر إليه:

ـ ما فيش لزوم يا ابنى للكلام ده.. أنا عملت الواجب، وأقل من الواجب.. المهم سلامتك.. لازم تحترس.. أنت ظروفك صعبة.. صعبة قوى!!

وقال ابراهيم فى ارتباك..

ـ ربنا يستر..

ـ وقالت الأم:

ـ ربنا معاك يا بنى.. ربنا مع كل مظلوم.. وعلى كل ظالم..

وصمت ابراهيم.. واشتد ارتباكه.. كانت عواطفه أكبر من أن يعبر عنها.. وأكبر من أن تدعه يصمت.. ورفع عينيه يتنقل بهما بين وجوه أفراد العائلة كأنه يبحث فيها عن كلمة يقولها.. ووقفت عيناه برهة على وجه نوال كأنه يستغيث بها.. فلم يجد فى عينيها سوى الحب.. حب يزيد فى عذابه.. ويستنفد كل طاقته فى الضغط على

أعصابه حتى لا ينهار أمامها.. وحول نظره عنها.. ونظر إلى سامية لعلها تقول كلمة يستطيع أن يرد عليها.. ولكنها كانت صامتة.. وفى عينيها حزن عميق كأنها تنظر بهما إلى جثة شهيد.. ومحيى.. إنه ينظر إلى الأرض.. والوالد.. إنه يجهد نفسه هو الآخر فى البحث عن كلمة.. وقد وجد كلمة هو نفسه مقتنع بعدم جدواها وقال:

ـ مش لازمك حاجة يا ابنى.. أقدر أعمل لك حاجة.. توصينى بحاجة؟!

وقال ابراهيم فى صوت مخلص:

ـ متشكر يا عمى.. حضرتك عملت لى أكثر مما أستحق..

وقال الوالد:

ـ العفو..

ودوى صوت مدفع الإفطار.. وارتفع صوت المؤذن من الراديو..

وقامت الأم قائلة:

ـ أما أقوم أغرف الشوربة.. يا للا يا جماعة!

وقام أفراد العائلة.. ووقف محيى فوق مسند المقعد وجذب سجادة الصلاة من فوق الدولاب، وفردها على الأرض.. ووقف الوالد متوجها إلى الله..

وانتظر محيى وسامية ونوال أن يتقدمهم ابراهيم إلى غرفة الطعام، ولكنه ظل واقفا، وقال:

ـ أتفضلوا أنتم.. أنا حاسلم عليكم دلوقت، وحانزل وانتم بتفطروا.

ولم يتحرك واحد منهم، ونظر كل منهم إلى الآخر يدعوه إلى الكلام.. واستطرد ابراهيم قائلا:

ـ ارجوكم.. اتفضلوا انتم.. كل حاجة لازم تمشى طبيعى.. ما حدش عارف ايه اللى يمكن يحصل فى آخر لحظة..

وقالت سامية وهى تنظر إليه فى شفقة:

ـ وأنت مش حاتاكل؟

وقال وهو يشكرها بعينيه:

ـ لا..

قالت فى لهفة:
ـ ده أنت ما كلتش من الصبح.
وقال:
ـ معلهش.. ما انا فاطر!!
وقالت نوال:
ـ طيب أعمل لك ساندويتش تاخده معاك..
قال وهو يبتسم فى حنان:
ـ مرسى.. أصل ممنوع على الضباط يأكلوا سندويتشات فى الشارع.
وعادت الأم من المطبخ وأطلت عليهم وهى تحمل سلطانية الشوربة، وقالت وقد سمعت ما يقوله ابراهيم:
ـ لا والنبى.. مش ممكن تنزل من بيتى وانت جعان.. ده حتى حرام!
وقال فى أدب:
ـ معلهش يا طنط.. انا شبعان..
ثم اتجه إليها والتقط يدها فى يده.. واحتفظ بها حتى لا تجذبها منه، وانحنى يقبلها كأنه يضع عمره فوق الكف الكريم الطاهر..
وقالت:
ـ ربنا يحميك يا ابنى.. ويكتب لك فى كل خطوة السلامة..
ثم صافح محيى فى حرارة.. ونظر كل منهما إلى الآخر.. كان فى عيونهما كل ما يريدان قوله.. ثم صافح سامية وهو يبتسم لها ابتسامة كبيرة.. وقالت له وهى أقرب إلى البكاء:
ـ ربنا معاك..
ثم وضع يده فى يد نوال.. وتمنى ألا يسحبها ابدا.. وأرخى جفنيه فوق عينيه كأنه لا يريد أن يرى أمنيته.. وسمعها تهمس:
ـ خد بالك من نفسك..
ثم بصوت أضعف:
ـ علشان خاطري..
وخرج افراد العائلة الواحد بعد الآخر إلى غرفة الطعام فى خطوات حزينة بطيئة كأنهم يشيعون فقيدا.. وجلس ابراهيم على

مقعد وهو يتنهد كأنه تحمل فى هذه اللحظة.. لحظة الوداع.. أقسى ما تحمله فى عمره.. إلى أن أنتهى الوالد من صلاته.. ولم يكن قد صلى إلا بجسده.. كان عقله وقلبه متعلقين بما يدور حوله فى الغرفة.. سمع فى صلاته صوت ابراهيم وهو يطلب من عائلته أن تذهب إلى حجرة الطعام ليسير كل شئ سيرا طبيعيا.. ولم يناقشه بعد أن انتهى من الصلاة.. مد يده مصافحا.. قائلا:

- مع السلامة.. وأعتبر البيت دايما بيتك.. وانا والدك!

وانحنى ابراهيم يقبل اليد التى تصافحه، ثم قال:

- انا حاستنى دقيقة واحدة.. وحاخرج.. متشكر يا عمى.. متشكر جدا!

وهز الوالد رأسه فى صمت..

وخرج ليلحق بعائلته حول المائدة.

ولم يبدأ أحدهم فى الأكل.. ولم يتكلم أحد.. ظلوا واجمين.. ثم سمعوا وقع قدميه.. ولمحوا خيالا يمر بهم.. ثم صوت الباب يفتح فى حرص.. ويغلق فى هدوء..

خرج ابراهيم..

والعائلة لا تزال واجمة..

وفجأة سقط رأس نوال فوق المائدة وأجهشت بالبكاء.. وانحنت سامية فوقها تربت على شعرها.. وإذا بها تبكى معها..

وازاحت نوال مقعدها بساقيها فى عصبية.. وقامت تجرى إلى غرفتها ودموعها تجرى أمامها..

وجرت سامية وراءها.

والأب، والأم، ومحيى صامتون..

ومدت الأم يدها، وأمسكت «بكبشة» الشوربة وحركتها فى السلطة.. ثم توقفت ومسحت بمعصمها دموعا بدأت تتساقط فوق خديها.. ثم قالت وهى تعود وتمسك بالكبشة:

- والنبى دى حاجة تقطع القلب!!

١٣

دخل أفراد العائلة كل إلى غرفته.. واستلقى كل منهم على سريره.. وقد ارتخت أعصابهم بعد أن ظلت متوترة طوال الأيام الأربعة التى قضاها ابراهيم فى البيت.. كان كل منهم يحس بنوع من الراحة كأنهم عادوا جميعا من رحلة شاقة متعبة، أو كأنهم اجتازوا بسلام فترة مرض خطير ألم بهم، وانتقلوا إلى دور النقاهة.. ضعف لذيذ واسترخاء واطمئنان..

كان الأب مستلقيا على ظهره فى فراشه ينظر إلى السقف، وبين شفتيه ابتسامة صغيرة طيبة، وأنفاسه منتظمة هادئة، واحساسه بالزهو لا يفارقه.. احساس رب العائلة الذى قاد السفينة بمهارة وسط الأمواج حتى وصل بها إلى شاطئ الأمان.. ثم كان يستعرض فى مخليته الأيام الأربعة الماضية، ويتبين مدى الأخطار التى كان معرضا لها هو وبيته، فتتسع ابتسامته ويهز رأسه تعجبا من نفسه.. كيف قبل أن يعرض بيته لهذه الأخطار. إنه لا يدرى.. ربما لم يتبين هذه الأخطار عنما سمح لابراهيم بالاختباء فى بيته.. لم يفكر ساعتها تفكيرا منطقيا.. ولا حسب حسابا دقيقا لكل الظروف.. إنما سمح لابراهيم بالاختباء فى بيته، نتيجة احساس.. ربما كان احساسا بالعطف، أو شهامة أو وطنية.. وقد أعماه هذا الاحساس عن كل ما يمكن أن يتعرض له من اخطار. اخطار لم يحس بها فعلا إلا بعد أن أصبح ابراهيم مختبئا فى بيته، وبعد أن سمع بيان الحكومة يذاع فى الراديو برصد مكافأة خمسة آلاف

جنيه للقبض على ابراهيم، وعقاب كل من يساعده على الهرب.. وهو لم يفعل شيئا لدرء هذه الأخطار.. كل ما فعله أنه استسلم.. ولكن الله انقذه، وانقذ بيته.. الله وحده..

ووجد نفسه يتوجه إلى الله ويتمتم فى صدره.. «الحمد لله.. لك الحمد والشكر يا رب».

ولكنه عاد وصعب عليه أن يحرم نفسه من مقومات الزهو، ألم يقبل ابراهيم فى بيته وهو يعلم أنه هارب من السجن، والحكومة تطارده.. ألم يقاوم المكافأة.. ألم يقاوم التهديد بالسجن.. ألم يتحمل سماجة عبدالحميد ويتحايل عليه.. لماذا يحرم نفسه من الاحساس بالبطولة.. لماذا لا يزهو.. لقد قضى عمره كله يطل على الحركة الوطنية دون أن يلقى بنفسه فى غمارها.. كان يحفظ خطب سعد زغلول ولا يتعدى حماسه لها دائرة نفسه، ومناقشته مع زملائه القلائل.. ويواظب على تتبع الحوادث الوطنية فى الصحف، ويحكم عليها أحكاما مختلفة دون أن يعلن حكمه أو يشترك فى تنفيذ الحكم.. وكان يحس وهو يقرأ أشعار حافظ ابراهيم وشوقى ومقالات الكتاب الوطنيين أنها كلها تعبر عن احساسه، كأنه هو الذى نظم هذه الأشعار، وهو الذى كتب هذه الآراء.. ولكنه لم يحاول ابدا أن يعبر عن احساسه بنفسه.. كان دائما فى حاجة لمن يعبر له عن احساسه.. فى حاجة لمن يكتب، ولمن يثور، ولمن يستشهد، حتى فرج عن احساسه.. ان السلبية لا توجد إلا حيث توجد الايجابية.. المتفرجون لا يوجدون إلا حيث توجد الحركة.. ورغم ذلك فهو لا يقل وطنية عن كل هؤلاء.. لا يقل وطنية عن المتظاهرين، أو عن هؤلاء الكتاب، بل لا يقل وطنية عن الشهداء.. وقد جاءته الفرصة الذى اثبت فيها لنفسه أنه ليس اقل من غيره وطنية.. فلماذا ينكرها.. لماذا لا يزهو، ويملأ صدره بعبير البطولة؟

واتسعت ابتسامته.. وأستدار فى رقدته ناحية زوجته، وهى راقدة بجانبه وظهرها له.. ونظر إلى الجسد المكتنز العالى، بعينين مبتسمتين، كأنه يهنئها بزوجها!!

وكانت الزوجة قد انتهت من تفكيرها فى يومها.. لم تعد تفكر فى ابراهيم.. إلا أنه ضيف حل وارتحل.. واختفت من ذهنها بسرعة كل المشاكل التى صحبت وجود ابراهيم، وكل الاخطار التى احاطت بالبيت بسببه.. ولم تعد تخاف شيئا.. كأنها نسيت ايضا أن تخاف المستقبل.. إنما كانت تفكر فى الغد تفكيرا عاديا طبيعيا..

فى الغد ستنظف البيت كله.. وستفتح النوافذ على سعتها.. وستبدل مفارش السرير. وستدعو عم على البواب ليساعدها فى تنفيض السجاجيد.

ثم كأنها تذكرت شيئا.. فقالت فى همس دون أن تتحرك من رقدتها:

ـ زاهر.. زاهر.. أنت نمت؟!

وقال زوجها فى صوت هادئ وهو يبادلها الهمس:

ـ لأ.. لسه!

قالت وهى لا تتحرك أيضا من رقدتها:

ـ أظن بكره نبعت باه للبت سنية.. احنا داخل علينا عيد، وما حدش يقدر يسد إلا هيه؟!

قال وهو يبتسم:

ـ ما فيش مانع..

قالت وظهرها له:

ـ بس على الله أمها ما تكونش ودتها بيت تانى.. أصلها وليه طماعة، ماتصبرش..

قال وهو لا يزال يبتسم:

ـ وهى حتلاقى بيت أحسن من بيتنا.. ولا ست أحسن من ستنا!

وابتسمت الأم فى دلال.. دلال داخلى، لم يبد منه شئ.. ثم أغمضت عينيها فى سعادة، ولم تمض لحظات حتى ارتفعت انفاسها ثقيلة، كأنها تجرها بعنف من تحت أثقال الشحم واللحم..

وغمض الأب عينيه ليهم بالنوم.. ثم فجأة فتح عينيه بسرعة وقد تذكر شيئا مزعجا.. أخافه.. محيى.. ابنه.. هل يتمادى فى

الطريق الذى دفعه إليه ابراهيم.. هل يشتغل بالسياسة كباقى الطلبة المشتغلين بالسياسة.. هل يشترك فى المؤامرات والاغتيالات.. هل يخرج فى المظاهرات ليعود إليه جريحا وربما شهيدا.. هل يسجن.. وهل يكون يوما هاربا كابراهيم، تطارده الحكومة.. لا.. مستحيل.. ولكن محيى ذهب والتقى باصدقاء ابراهيم فى الجامعة ودبر معهم خطة الهرب، وقد اخفى عليه الخبر.. إنها المرة الأولى التى يخفى عنه شيئا.. لقد كان دائما يعرف عن ابنه كل شئ.. كل حركاته وكل سكناته، وكل ما يدور برأسه.. ولكنه اخفى عليه خبر التقائه باصدقاء ابراهيم.. ماذا يخفى عنه ايضا.. وماذا يمكن أن يخفى عنه فى المستقبل.. وماذا وضع ابراهيم فى رأسه من آراء وخطط.. ومن أدراه، ربما كانت الخطة الموضوعة أن يظل محيى على اتصال بابراهيم، وفى خدمته.. لا.. مستحيل.. مستحيل قطعا.. إنه لا يمكن أن يدع أبنه يغامر بمستقبله، وينقاد إلى هؤلاء الطلبة المهرجين.. إنه هو الذى صنع هذا المستقبل لابنه.. صنعه يوما بيوم.. كأنه كان ينسج له ثوب الحياة.. ولن يدع الثوب يتمزق بعد أن كاد ينتهى من صنعه.. سيسير ابنه فى الطريق الذى رسمه له، سينال الليسانس هذا العام، ويكون ترتيبه الأول بين زملائه، ويعين معيدا فى الجامعة.. لا شئ يمكن ان يحدث.. سيقتلع من رأس ابنه كل ما يمكن أن يكون ابراهيم قد وضعه فيه.. إنه لم يؤوى ابراهيم فى بيته ليسرق منه ابنه، ما كان أغباه يوم أن آواه، ووضعه بجانب محيى.. فى حجرة واحدة وفى فراش واحد، كأنه كان يقرب زجاجة السم من ابنه.. فيم كانا يتحدثان طوال الليل، فى السياسة طبعا.. فى المؤامرات.. فى الخطط.. ولابد أن ابراهيم قد حشا صدر محيى بأوهام البطولة.. البطولة الفارغة.. شقاوة العيال.. ولكن محيى أعقل من ذلك.. انه يعرف ابنه جيدا.. إنه رصين لا ينقاد بسهولة.. والوقت لم يفت.. سيحادثه بحزم.. سيحادثه غدا صباحا.. لا، سيحادثه عقب طعام السحور.. بحزم.. وسيفتح عينيه جيدا على ابنه.. لن يضيع منه..

وحاول أن يغمض عينيه وينام.. ولكنه اغمضهما ولم ينم.. ظل قلقا فى انتظار جرس المنبه، يعلن ساعة السحور.

وفى الحجرة الأخرى ينام محيى.. إنه يحس أن سريره قد اتسع جدا بعد أن تركه ابراهيم ولم يعد ينام بجانبه فيه.. كأن السرير لم يكن ابدا بهذا الاتساع، وهو لا يستطيع أن يغمض عينيه.. انه يعيد ثم يعيد ذكريات الأيام الأربعة التى مرت به كأنه يجترها ليشبع احساسه منها.. وقد حاول عبثا أن يوقف تفكيره فى هذه الذكريات.. حاول ان يتناساها باستذكار دروسه، ولكنها كانت تطل عليه من بين سطور الكتب، فطوى الكتب ومنح نفسه اجازة من الاستذكار.. ثم استلقى على فراشه يحاول أن ينام.. ولكنه لا يستطيع.. ورغم ذلك فهو لا يشعر بالقلق، وقد زايله شعور الخوف والحنق الذى صاحبه فى الأيام الماضية.. لم يعد يفكر فى الأخطار التى كان يعيش فيها إلا على انها ذكريات.. ما أروع البطولة.. إنك لا تكاد تنتهى من العمل العظيم حتى تنسى الأخطار التى صحبته.. أنها كعملية الوضع.. لا تكاد الأم تنتهى من الولادة حتى تنسى آلامها.. وتتأهب لولادة جديدة.. إن الولادة عملية بطولة.. والأمهات بطلات وابتسم وهو يكتشف هذه الفلسفة ، ثم اتسعت ابتسامته وهو يكتشف فى نفسه الإحساس بالبطولة ترى هل يعرف زملاؤه فى الجامعة يوما أنه بطل.. هل يعرفون انه اخفى ابراهيم فى بيته بينما الحكومة كلها تطارده وتبحث عنه.

ورأى فى خياله صورة زملائه يلتفون حوله.. وهو يروى لهم ذكرياته.. ويبالغ قليلا فى رواياتها.. ورأى زملاءه يصفقون له.. ثم رأى نفسه فى خياله محمولا على الاعناق. والطلبة من تحته. طلبة يعرفهم، وطلبة لا يعرفهم، والجميع يهتفون «عاش محيى بطل الجامعة»!!

وسرحت عيناه وراء خياله.. وابتسامته تتسع.. وقلبه يخفق بشدة كأنه لا يستطيع أن يواجه كل هذه الجماهير الملتفة به.. وأحس بنفسه يرتفع من فوق فراشه فوق اكتاف زملائه..

ثم تنبه إلى نفسه..
وانكمش..
انكمش كل شئ فيه، كأنه يخاف هذا الخيال.. وهز رأسه فوق الوسادة كأنه يقول لا.. لا.. لا يجب أن يعرف زملاؤه شيئا.. لو عرفوا فستعرف الحكومة.. وسيقبض عليه، ويزج به فى السجن.. لا.. إنه لا يريد أن يسجن.. لن يسجن.. عليه أن يضع كل ارادته فوق لسانه، حتى لا يقول شيئا لزملائه.. لا يريد منهم أن يصفقوا له، ولا أن يحملوه على الأعناق ولا أن يهتفوا باسمه، لأنه لا يريد أن يسجن.
ثم كان يعود، ويستسلم لخياله..
وفى الحجرة المجاورة تنام الأختان..
كانت نوال قد انقشعت دموعها عن احلامها.. احلام مشرقة مغردة كاليوم الصحو عقب اليوم المطير.. وكانت صورة ابراهيم وهو مرتد بدلة ضابط تملأ خيالها كله.. وكان خيالها يسبق عمرها إلى يوم الاثنين القادم.. ستلقاه يوم الاثنين فى ميدان عبدالمنعم.. وارتسمت صورة الميدان امام عينيها، ورأت نفسها واقفة فى وسط تتلفت حواليها فى انتظار ابراهيم.. أى ثوب ترتديه.. البنى.. لا.. الأبيض.. والقفاز الأبيض فى يديها.. وحقيبتها البيضاء.. لا.. حقيبتها السوداء.. وحذاؤها الأسود.. إنها واقفة وسط الميدان مرتدية ثوبها الأبيض فى انتظار ابراهيم.. هو آت من ناحية شارع عبدالمنعم، مرتديا بدلة الضابط وعلى عينيه نظارة سوداء.. وهو يصافحها.. ثم يسيران جنبا إلى جنب فى الشارع الضيق الظليل المتفرع من الميدان.. لا.. إنه آت فى سيارة يقودها بنفسه.. والسيارة تقف أمامها، وهو يبتسم لها ابتسامته الضيقة القوية التى تميل قليلا على جانب شفتيه.. وهى تتردد كثيرا فى الركوب بجانبه.. وقلبها يضطرب.. هل تركب؟.. وماذا يقول عنها أن قبلت أن تركب بجانبه.. لعله يعتقد انها بنت سهلة.. لا.. أن ابراهيم ليس من هذا النوع، ولا يمكن أن يسئ الظن بها.. يجب أن تطيعه.. وتركب

بجانبـه.. والسيـارة تمرق بسرعة.. سـرعة جنونيـة.. وتأخذها إلى بعيد.. ثم تقف فـجأة فى مكان ليس فيه أحـد.. بل ليس فيه ارض.. كأنها وقفت بها فى السماء.. وهو يلتفت إليها ويحدثها.. إنه يحدثها عن الزواج.. ثم تطل عليهما صورة ابيها.. هل يوافق على الزواج؟!!

وتعـبس قليـلا وهى تتخـيل اباها يهـز رأسـه علامـة الرفض.. ولكنها تبتسم.. فهى واثقة من طيبة قلب ابيها.. سيوافق اخيرا!!

وتغرق فى خـيالهـا.. والصور تتوالى امـام عينيـها.. وتتغـير.. وأصابعـها ممسكة بالعلبـة الذهبية الصـغيرة التـى تضم المصحف وتضـم الورقـة التى كتـبهـا ابراهيم بخط يده.. العلبـة التى لا تزال معلقة فى صدرها فوق قلبها، كأنها تحمل فيها ابراهيم نفسـه..

وأفاقت من خيالها على صوت اختها سامية:

ـ نوال.. نوال.. انتى سرحانة فى ايه؟

وقالت نوال بلا وعى منها:

ـ يا ترى ابراهيم فين دلوقت؟

وقالت سامية كأنها تطيب خاطر اختها:

ـ ما تخافيش عليه.. ده من الصنف اللى ما يتخافش عليه!!

وسكتت الأخـتـان.. وقبل أن تندمج نـوال فى خيـالهـا سمـعت صوت سامية قائلة:

ـ تعرفى انا بافكر فى ايه.. بافكر فى عبدالحميد لما حايعرف أن براهيم ساب البيت.. ده حيتجنن. وحاشمت فيه شماته!

وقالت نوال وهى تعلم أن اختها لن تشمت ابدا فى عبدالحميد:

ـ ولا حيتجنن ولا حاجة.. دول بقوا أصحاب..

وقالت سامية كأنها لم تسمع كلام اختها:

ـ تفتكرى بابا حيطرده لو جه بكره؟

وقالت نوال:

ـ ماظننش.. يطرده ليه؟!

وسكتت سامـية، وعادت تفكر فى عبـدالحميد.. وهى تفكـر فيه منذ خـرج ابـراهيم من البـيت.. خـيل اليـهـا أن الـذى خـرج هو

عبدالحميد لا ابراهيم .. خرج من حياتها .. لن يعود يلاحقها ويلح في زواجها.. سيطرده ابوها من البيت.. وستعود حياتها راكده، تستعرض أسماء وأشكال رجال غرباء يتقدمون للزواج بها.. وليس بينهم من تتدلل عليه، ويشبع غرورها ويربط صباها بشبابها.. وهي ليست سعيدة.. لماذا.. اليس هذا ما تريده.. ألم تكن تريد أن يخرج عبدالحميد من حياتها!! ولكنها رغم ذلك ليست سعيدة ، أنها لا تريده أن يخرج، وقد بكت بحرقة عندما خرج ابراهيم.. بكت مع اختها.. ولكنها كانت تعلم أنها لا تبكي ابراهيم بل تبكي عبدالحميد..

وعادت تقول لأختها في صوت ضعيف كأنها تتكلم خلال سحب تحيط برأسها:

- إنما تفتكري عبدالحميد يقدر يعمل حاجة؟!

وكانت تتمنى أن تجيبها أختها بأن عبدالحميد يستطيع أن يفعل شيئا ليتم زواجه بها، ولكن نوال قالت:

- ولا يقدر يعمل جنس حاجة.. حايعمل ايه يعني؟!

وقالت سامية كأنها تتعلق بالأمل:

- يعني حانسحب كده من سكات بعد ما يعرف اننا كنا بنضحك عليه لغاية ما ابراهيم يخرج؟!

وأدارت نوال رأسها ناحية أختها، وقالت مبتسمة في حنان:

- تعرفي أنا متهيأ لي أيه يا سامية.. متهيأ لي انك لسة بتحبي عبدالحميد زي زمان؟!

وقالت سامية في حدة كأنها تدافع عن سرها:

- طب نامي أحسن لك.. باين انك حاتبتدي تخرفي؟!

وأدارت ظهرها في عصبية ناحية اختها، ودفنت رأسها في وسادتها كأنها تخفي حبها في طياتها.. تخفي نفسها..

وعادت نوال إلى خيالها، والصور المتتالية المتغايرة تمر أمام عينيها.. وابتسامة حلوة تائهة فوق شفتيها..

●●●

ودق جرس المنبة معلنا ساعة السحور.

وكانت الأم أول من تنبهت، ولكنها لم تفتح عينيها.. وقالت دون أن تتحرك من رقدتها، وهى لا تزال مغمضة العينين:

ـ زاهر.. زاهر.. يا زاهر.. السحور!!

وسكتت كأنها عادت إلى النوم.. ثم ردت بعد قليل وهى لم تتحرك بعد:

ـ زاهر.. قوم يا زاهر.. ياللا يا خويا.. السحور!!

وقال الأب وهو يفيق من نومه القلق:

ـ ما تسيبينى على بال ما تسخنى الأكل!

وتحركت الأم فى كسل، وأعتدلت جالسة فوق الفراش، وهى لا تزال مغمضة العينين، ثم فتحت عينيها ببطء، ونزلت من فوق الفراش، فى تثاقل.. وهى تقول كأنها تتألم:

ـ هيه.. مش عارفة مالى.. جسمى كله سكاكين!

ثم سارت، وهى ترفع قدميها بصعوبة، واتجهت إلى غرفة ابنتها، ونقرت فوق الباب، وسمعت صوت نوال قائلة:

ـ صاحيين يا ماما..

فلم تلح عليهما، وتركت بابهما، ثم اتجهت إلى غرفة الطعام، وجلست فى تكاسل وهى لا تزال تتألم، وأشعلت وابور السبرتو ووضعت فوقه طبق الفول..

وبعد قليل اجتمعت العائلة حولها، بعد أن تولى افرادها ايقاظ بعضهم البعض.. وبدأوا يتناولون طعام السحور فى تكاسل وهم يحشرون الأكل فى افواههم حشرا، كأنهم يؤدون واجبا ثقيلا لابد من الانتهاء منه.. ولم يتكلموا عن ابراهيم.. كأن ما حدث لم يصبح بعد ذكريات يتحدثون عنها، بل لا يزال حقيقة يعيشون فيها، ويستسلمون لها بلا كلام..

وشرب محيى كوبا من عصير قمر الدين وهم بالقيام عائدا إلى غرفته.. ونظر إليه الوالد فى تردد كأنه يشفق عليه من أن يحرمه من نومه، ثم قال كأن لسانه سبقه إلى الكلام:

ـ استنى يا محيى شوية.. عايزك!

ونظر محيى إلى ابيه وهو يرسم بعينيه علامة استفهام، ثم جلس فى مكانه، وتبادلت الأختان نظرة وتحركتا لتنسحبا إلى غرفتهما.. فقالت لهما امهما كأنها تحثهما على سرعة الانسحاب:

ـ كل واحدة منكم تشيل طبقين وتحطهم فى الحوض، وتسيب عليهم شوية ميه.. وتسيبهم لغاية النهار ما يطلع..

وخرجت الأختان..

ولحقت بهما الأم وهى تتنهد ألما..

ونظر محيى إلى ابيه كأنه يستعجله الكلام..

وقال الأب فى صوت هادئ بعد أن رشف آخر ما فى كوب عصير القمر الدين:

ـ ما قلتليش.. انت قابلت أصحاب ابراهيم إزاى؟

وأحنى محيى رأسه ينظر إلى سطح المائدة وهو يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته فى حركة عصبية كأنه يخشى أن تقع منه.. لقد كان ينتظر أن يفاتحه والده فى هذا الموضوع، ولكنه لم يكن ينتظر أن يفاتحه الآن.. فى هذه الساعة.. وقال فى صوت خافت:

ـ قابلت واحد منهم فى الجامعة، وقلت له أن ابراهيم عايز عربية تستناه وبدلة ضابط يلبسها..

وقاطعه الأب:

ـ ما سألكش ابراهيم قاعد فين؟

وقال محيى بسرعة:

ـ سألنى.. وقلت له ما أقدرش أقول لك!!

وقال الأب:

ـ ورضى بكده؟!

وقال محيى وهو يشعر بثقل التحقيق:

ـ أيوه .. سكت على طول!!

وعاد الأب يسأل:

ـ وجبت منه البدلة إزاى؟

قال:

ـ قابلته تانى يوم، وانا خارج من الجامعة وخدتها منه!!
وأبتلع محيى ريقه كأنه يبتلع كذبته.
وقال الأب وعيناه كلها فوق وجه ابنه:
ـ وأيه عرفك أن مافيش حد كان مراقبكم؟!
قال محيى:
ـ دى الحكاية ما خدتش دقيقة واحدة.
وسكت الأب كأنه يتهم ابنه بالغباء.. وقال فى امتعاض:
ـ ما قلتليش ليه قبل ما تروح؟!
وارتبك محيى قليلا، ثم قال وهو لا ينظر إلى والده:
ـ ما حبتش أزعج حضرتك!
وقال الأب فى تهكم:
ـ وما حسبتش تزعجنى فى ايه كمان؟!
قال محيى:
ـ ما فيش حاجة تانية والله يا بابا!!
قال الأب:
ـ مين عارف.. يمكن عامل خطة مع ابراهيم.. ما انت خلاص بقيت بتاع سياسة؟!
وسكت محيى..
وقال الأب فى حدة:
ـ ما تتكلم..
وقال محيى بصعوبة:
ـ مش عامل خطة ولا حاجة.. ما فيش حاجة مخبيها على حضرتك!!
وسكت الأب قليلا وهو ينظر إلى أبنه نظرات فاحصة ثم قال وهو يفتعل الهدوء:
ـ اسمع يا محيى.. انا اذا كنت سمحت لابراهيم يقعد عندنا، فمش معنى كده انى باشتغل بالسياسة.. ولا انى اسمح لك تشتغل بالسياسة .. ده راجل استجار بينا وأجرناه.. إنما إحنا مش زيه..

ولا مستعدين نعمل العمايل اللى بيعملها.. مفهوم؟!

وقال محيى:

ـ مفهوم يا بابا..

وعاد الأب يقول فى حزم:

ـ أنت فاضل عليك شهرين وتتخرج وبعد كده تبقى تعمل اللى تعمله.. إنما قبل ما تتخرج أنا المسئول عنك.. وعايزك توعدنى دلوقت انك ما تتصلش بحد من أصحاب ابراهيم.. وانك ما تخبيش عنى حاجة..

قال محيى وهو يريد أن ينتهى:

ـ أوعدك يا بابا..

وقال الأب مؤكدا:

ـ توعدنى بايه؟

ورد محيى:

ـ أوعدك انى ما خبيش عنك حاجة.. وانى ماليش دعوة بالسياسة.. ولا بأصحاب ابراهيم..

وقال الأب كأنه يحرج ابنه بثقته فيه:

ـ انت راجل.. وانا واثق بكلمتك.

ثم ازاح كرسيه، ووقف وهو يقول لابنه:

ـ تصبح على خير واتجه إلى غرفته..

وسار محيى وراءه إلى غرفته..

١٣

وجاء الصباح..

وكان أول ما فعله الوالد أن أرسل بواب البيت فى شــراء جـريدة الأهـرام، وكـانت المرة الأولى التى يشترى فيها جريدته قبل أن ينزل من البيت.. وتلقاها فى لهفة كـأنه كان ينتظر أن يقرأ على صدر الصفحـة الأولى خبر القـبض على ابراهيم.. أو خـبر مـقتله.. ولكنـه لم يجد شـيئـا فى الصحفة الأولى.. وقلب بقية الصفـحات بسرعة، ولما لم يجد شيئا.. ألقى الجريدة على الأريكة وبدأ يستعد للذهاب إلى عمله.

وتسلل أفراد العائلة الواحد بعـد الآخر ـ ما عدا الأم ـ كل منهم ينظر فى الجـريدة خفية عن الأب.. ووجدت نوال نفسـهـا بعد أن نظرت فى الصفحـة الأولى، تقلب بقية الصفحات ثم تسـتقر عيناها فوق صـفحـة الوفيـات، وتأخذ فى قـراءة الأسماء.. ثم تنبـهت إلى نفسهـا قبل أن تتـم قراءة كل الأسـماء، فـانقـبض قلبهـا، وألقت الجريدة من يدها كأنها تدفع خاطرا أسود عن رأسها..

وخرج الأب إلى عمله

وخرج محيى إلى الجامعة..

وفتحت النوافذ كلها.. وبدأت عملية تنظيف هائلة فى البيت كله.. واستدعى عم على البواب ليساعد فـى تنفيض السجاجيد.. وتركوه يتنقل فى انحـاء البيت، كان هناك تعـمد لاشهـاده على أن ليس فى البيت رجل غريب..

ودخلت نوال غرفة شقيقها محـيى.. لقد أصبحت تعتبرها غرفة ابراهيم.. وهى ترى ابراهيم فى كـل مكان فيـها.. هنا كـان يتناول

طعـام افطاره.. وهنا كـان ينام، وهـى تحس به كأنـه قريب منهـا.. قريب جدا.. وتسير فى انحاء الغرفة فى خطوات بطيئة مرتبكة كأن عينى ابراهيم تراقبها..

وفـتـحت الدولاب، ووجـدت البنطلون والقـمـيص اللذين كـان يرتديهما ابراهيم، وتركهما بعد أن خرج مرتديا بدلة الضابط..

وأمـسكت بالقمـيص بين يديهـا فى رفق وحنان كأنهـا تهم بأن تضمـه إلى صدرها.. تضـم ابراهيم.. ثم وضعت القـميص جـانبا، وأمـسكت بالبنطلون وطوته فى عناية وعلقـتـه على مشـجب داخل الدولاب.. ثم عـادت وحـملت القـمـيص وذهبت به إلى غـرفـتـهـا ووضـعـته فى دولابهـا، وقد قـررت بينها وبين نفـسها أن تغـسله بيدها، وتكويه بيدها، وتحفظه فى دولابها بين ثيابها..

وأنتهت عملية تنظيفات البـيت فى الساعة الثانية عشرة.. وذهب عم على البواب يبحث عن سنية الخادمة عند أمها..

وبدا كل شئ لامعا، مرتبا، مشرقـا.. كأن البيت يبتسم بعد طول عناء..

وكادت الساعة تقترب من الواحدة عندما دق جرس الباب..

وفتحت نوال..

ودخل عبدالحميد مسرعا، وحياها دون أن ينظر إليها:

ـ أزيك؟!

وأجابت نوال وهى تبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ الله يسلمك!

ولم ير ابتسامتـها، إنما سبقها إلى الداخل مـهرولا، كأنه يحمل نبـأ خطيرا.. وسـارت خلفـه وهى تضـحك فى سرهـا كأنهـا ترى صـورته عندما يسـمع المفـاجأة التى تنتـظره، ثم دلفت إلى المطبخ لتنضـم إلى أمها..

والتقى عـبدالحمـيد بسامـية فى طريقـه وهى لا تزال فى ثياب البيت، وقال لها دون أن يحييها:

ـ ابراهيم بيعمل ايه؟!

وهم أن يتخطاها متجها إلى الغرفة التى تعود أن يجد فيها ابراهيم ـ غرفة محيى ـ ولكنه سمع إجابتها:

ـ خرج!!

والتفت إليها كأنه لا يصدق اذنيه، وقال وهو لم يستوعب بعد المفاجأة:

ـ بتقولى أيه؟!

ونظرت إليه سامية بعينين حزينتين مشفقتين، وقالت فى صوت ضعيف كأنها تطيب خاطره:

ـ ابراهيم خرج.. ساب البيت!!

واتسعت عينا عبدالحميد وقد التقى بالمفاجأة كلها. فبدا كالمجنون.. واستطاع بلمحة من ذكائه، ومن تعوده اساءة الظن بالناس أن يكتشف الخطة التى دبرت حوله، وقال وهو يفح كأنه حيوان جريح:

ـ خرج.. خرج إزاى.. مش معقول؟!

ثم تركها، واندفع إلى غرفة محيى، والقى بنفسه على بابها، وفتحه، واجال فيها عينيه المجنونتين.. ووجنتاه ترتعشان.. وفتحتا أنفه ترتعشان.. وقال وصوته يرتعش:

ـ راح فين.. قوليلى راح فين؟!

وقالت سامية وهى مذعورة من جنونه:

ـ ما أعرفش.. والله العظيم ما أعرفش.

وأرتفع الصوت المحشرج حتى كاد يصبح صراخا:

ـ طبعا ما تعرفيش.. والمغفل الكبير اللى هو انا ما يعرفش راخر.. ضحكتم على .. مش كده.. خلاص، اتفضل يا سى عبدالحميد من غير مطرود.. ما فيش جواز.. ما فيش فلوس.. إنما ده بعدكم.. والله لوديك كلكم فى داهية.. والله لضلمها عليكم. والذنب مش حيكون ذنبى.. ذنب أبوكى اللى حب يضحك على .. إنما انا لحمى ما يتكلش حاف.. انا لحمى مر.. انا حاوديكم فى داهية.. حاهبب عيشتكم..

واندفع نحو الباب الخارجي..

وجرت وراءه سامية، وهى تصرخ:

ـ عبدالحميد.. عبدالحميد..

ولم يتوقف، وفتح الباب وخرج منه، وصفقه وراءه قبل أن تلحق به..

وعادت سامية إلى غرفتها مهرولة وفتحت دولابها.. وبدأت تبدل ثيابها فى عجلة.. دون أن تلتفت إلى نفسها فى المرآة.. وشفتاها لا تزالان ترددان بصوت خافت «عبدالحميد.. عبدالحميد» كأنهما ترددان صدى صرخة مفزعة انطلقت من صدرها.. وتفكيرها مرتبك.. لا تستطيع أن تحصره فى شىء، ولا تدرى ما ستفعله.. وكل ما فى رأسها أنها تذكرت حديث عبدالحميد لها بالأمس عندما كان يتحدث عن تبليغ البوليس عن ابراهيم..

وانتهت من ابدال ثيابها.. ووضعت قدميها فى حذائها، بلا جورب.. ثم جذبت حقيبتها فى يدها، وهرولت خارج الغرفة دون أن تساوى شعرها.. والتقت بأمها خارجة من المطبخ وهى تقول:

ـ هوه عبدالحميد ماله بيزعق كده ليه؟!

ولم ترد عليها وجرت نحو باب الشقة..

ولحقت بها نوال صارخة:

ـ سامية.. سامية.. رايحة فين؟

ولم ترد عليها سامية، وخرجت وأغلقت الباب وراءها..

وأعادت نوال فتح الباب، وأطلت من فوق حاجز السلم وهى تصرخ:

ـ طيب استنى لما اجى معاكى يا سامية!

ولم تسمعها سامية..

أصبحت فى الشارع..

وتلفتت بعينين مذعورتين تبحث عن عبدالحميد..

ومدت عينيها إلى آخر الشارع الذى يقع فيه البيت فلم تره..

وسارت فى خطى سريعة مهرولة إلى شارع الجيزة، وكل شىء

فيها مذعور.. وقلبها، وعيناها، وشفتاها، وساقاها، ويداها.. وخصلات من شعرها تتطاير فى الهواء، وتتدلى فوق وجهها كأنها تصرخ من الذعر.. وهى لا تزال تتمتم فى صدرها «عبدالحميد.. عبدالحميد.. عبدالحميد»..

وهى لا تدرى ما ستفعله عندما تجد عبدالحميد.. كل ما تدريه انها يجب أن تجده.. انه ذاهب لتبليغ البوليس عن ابراهيم.. إنها تعلم ذلك.. تحسه.. واحساسها يصل إلى حد اليقين.. ويجب أن تمنعه.. لا لتنقذ ابراهيم.. ولا لتنقذ عائلتها.. ولكن لتنقذ عبدالحميد.. تنقذه من نفسه.. تنقذ حبها الخفى له.. تنقذ صورته التى رسمتها له فى قلبها.. كأنها تخاف أن تفتضح سفالته، فيتحطم الأمل الذى يعيش فى أعماق صدرها.. ويتحطم غرورها بملاحقته لها.. ويتحطم زهوها أمام العائلة كفتاة مرغوبة.. يرغبها عبدالحميد إلى حد الالحاح الثقيل..

ووصلت إلى شارع الجيزة. وتلفتت بعينيها المذعورتين تبحث عن عبدالحميد.. ثم شهقت شهقة حادة عندما رأته على الرصيف المقابل، واقفا امام دكان بائع سجائر، يتحدث فى التليفون ..

هل ابلغ البوليس عن ابراهيم.. بالتليفون؟!

وصرخت كالمجنونة

ـ عبدالحميد.. عبدالحميد..

وكان عبدالحميد أبعد من أن يسمعها.. فقفزت من فوق الرصيف، وهمت أن تعبر الشارع إليه.. ولكن الترام قطع عليها الطريق.. فوقفت فى وسط الشارع تنتظر أن يمر بها الترام وهى تحاول أن تتبع عبدالحميد بعينيها من خلال عرباته.. وخيل إليها انه أطول ترام التقت به فى حياتها.. خيل إليها أن الثانية التى استغرقها مرور الترام من أمامها هى ساعة..

وعندما مر الترام لمحت عبدالحميد ينزع سماعة التليفون من فوق اذنه، ويعيدها مكانها.. ثم يسير فى الطريق متجها إلى ميدان الجيزة..

وجرت لتلحق به..

وصرخت عندما فاجأتها سيارة كادت تدهسها..

ووقعت حقيبتها من يدها عندما كادت تصطدم بدراجة..

والتقطت حقيبتها، وأتمت عبور الشارع وهى تلهث كأنها كانت تخوض فى النار..

وجرت وراء عبدالحميد وهى لا تزال مركزة عينيها عليه.. ورأته يتجه نحو موقف سيارات الأجرة، عند طرف الميدان.. ثم يركب فى احدى هذه السيارات..

وانطلقت به السيارة.. ومرت من أمامها.. فصرخت كأنها تلفظ قلبها من فمها:

ـ عبدالحميد!

ولكن عبدالحميد لم يسمعها ولم يلتفت إليها، ورأته فى لمحة وهو ساهم مقطب الجبين، وقد ركز عينيه الغاضبيتن فى قفا السائق..

وانطلقت سامية نحو موقف السيارات، ووضعت نفسها فى احداها وهى تقول للسائق فى صوت يكاد يكون نشيجا:

ـ حصل التاكسى اللى قدامنا ده..

وانطلقت بها السيارة.. واستطردت فى توسل:

ـ قوام ونبى يا أسطى.. قوام!

وقال السائق، وهو يتراقص بسيارته بين بقية السيارات والعابرين:

ـ عنيه يا ست هانم.. حانحصله، وحانحصل أبوه كمان.. عيب على.. ما اكونش الاسطى أبو سريع فى زمانى..

وقهقه السائق، وهو يتراقص بسيارته، مطاردا السيارة الأخرى..

وسامية جالسة داخل السيارة مبهوتة، لا تدرى ما تفعله.. كل تصرفاتها تلقائية.. تصرفات غريبة عليها.. ولو فكرت قليلا لما أقدمت عليها..

إنها المرة الأولى فى حياتها التى تنطلق من البيت وتخرج بلا أذن من والديها.. ولا تنبئ احدا بوجهتها.. لأنها لا تدرى وجهتها..

وهى المرة الأولى التى تركب فيها سيارة أجرة وحدها..

ولكنها لا تحس بأنها راكبة سيارة.. إنها تحس بانها تجرى فعلا وصدرها يلهث كأنها تجرى فعلا.. وعيناها زائغتان من نوافذ السيارة تبحثان عن السيارة الاخرى التى يركبها عبدالحميد، وكلما وجدتها تعلقت بها بعينيها، إلى أن تضيع من أمامها مرة اخري.. فتعود تبحث عنها.. وهى لا تزال تردد:

ـ قوام.. قوام والنبى يا أسطى!

ثم أصبحت تردد كلمة «قوام» بشكل آلى، دون أن تعى معناها، وكأنها محمومة تهرف من لسع نار الحمى..

والسائق لا يزال يتراقص بسيارته ويقترب من السيارة الأخرى فيصيح فى فرح:

ـ جيبتك يا أسطى حسنين!!

وانطلقت السيارتان.. احداهما تتبع الاخرى فوق كوبرى عباس.. ثم فى شارع قصر العينى.. ثم فى ميدان عابدين.. ثم فى شارع السلطان حسين.. ثم فى ميدان باب الخلق.. ثم اتجهت السيارة الأولى إلى المدخل الخلفى لبناء المحافظة ووقفت أمام الباب الكبير.. بينما السيارة الثانية لا تزال عند أول الميدان، ولكن سائقها لا يزال يتبع السيارة الأولى بعينيه.. فجرى وراءها إلى أن وقف بجانبها، وهو يقول مقهقها:

ـ برضة حصلتك يا اسطى حسنين!

وبحثت سامية بعينيها فى السيارة الثانية، وهى لا تزال مكانها، فلم تر فيها عبدالحميد، فصرخت:

ـ هوه فين... راح فين الأفندى اللى كان راكب معاك؟؟

وقال سائق السيارة الأولى وهو ينظر إليها فى دهشة:

ـ دخل جوه..

وأشار بيده إلى مبنى المحافظة..

وفتحت سامية باب السيارة بيد مرتعشة مرتبكة، وألقت نفسها منها، واتجهت تجرى داخل المحافظة، فقفز وراءها الأسطى أبو سريع، ولحق بها وامسكها من ذراعها، وهو يقول كأنه يهدد:

ـ الفلوس يا ست؟!

وقالت وهى تحاول أن تنزع ذراعها من يده:

ـ استنانى شوية.. خليك مستنى!

ونظر السائق إلى شعرها المهوش فوق رأسها، وإلى عينيها المذعورتين ، وإلى ثيابها المرتبكة فوق جسدها ، وقال بعد أن ترك ذراعها ووقف يسد طريقها:

ـ ما استناش!!

وقالت فى توسل:

ـ أعمل معروف يا أسطى.. انا راجعة حالا!

وقال الأسطى فى برود:

ـ برضه يصح تدفعى.. تمنتاشر قرش!

ونظرت إليه وهى تكاد تبكى، ولمحت فى عينيه نظرة تصميم أخافتها. فنكست رأسها فى ذل، ثم فتحت حقيبتها بأصابع مرتعشة، ودست يدها فيها، تبحث عن كيس نقودها.. ثم برقت عيناها كأنما خطرت لها فكرة.. وأعادت اغلاق حقيبتها ثم دفعتها فى وجه السائق، وقالت فى حزم، وهى تضغط الحروف بين شفتيها:

ـ خد، خلى الشنطة معاك لغاية ما أرجعلك، وتوصلنى البيت تانى!

وتغيرت نظرة السائق.. أصبح ينظر إليها فى اشفاق ورثاء.. ومد يده ليأخذ الحقيبة، ولكنه عاد وانزل يده، وقال وهو يفسح لها الطريق:

ـ ما فيش لازمة.. انا حاستناكى.. بس ما تتأخريش!

ودخلت سامية إلى مبنى المحافظة.. ووجدت نفسها فى فناء كبير مرصوف تقف فيه مجموعة من السيارات الخصوصية

وسيارات البوليس.. وسارت فى خطى مهزوزة مترددة كأنها تقتحم وكر لصوص.. وعيناها قد ازدادتا اتساعا، واشتد الذعر فى نظراتها.. كأن وجوه السائقين والناس الذين تراهم فى الفناء وجوه غريبة.. ليست وجوها آدمية..

ووجدت بابا ضخما على يسارها، يؤدى إليه سلم عريض قليل الدرجات.. فاتجهت إليه وقدماها تزحفان فى حذر.. وصعدت وهى تنظر إلى الداخل كأنها تنتظر أن تجد عبدالحميد واقفا فى انتظارها..

ولم تجده..

ووقفت حائرة..

وناس، وجنود بوليس، يمرون بها دون أن يأبه واحد منهم بها، أو يثيره منظرها المرتبك، والحيرة التى تطل من عينيها..

ومالت على جندى بوليس جالس على مقعد بجانب أحد الأبواب يتحدث مع رجل واقف قبالته، وقالت فى صوت مبحوح مرتبك:

ـ من فضلك..

وانتظرت أن يلتفت إليها..

ورفع إليها الجندى رأسه، ونظر إليها نظرة سريعة، ثم عاد يتم حديثه مع الرجل وكأنه لم ير شيئا..

واقتربت منه خطوة اخري، وقالت وصوتها أشد ارتباكا:

ـ من فضلك يا شاويش..

ونظر إليها الجندى بتعال، قائلا:

ـ خير.. فيه ايه ؟!

وقالت فى رجاء:

ـ من فضلك ما شفتش واحد طويل، ولابس بدلة بنى، دخل هنا دلوقت؟!

وقال الشاويش وهو يعتدل فى جلسته ويتخذ هيئة الحكام:

ـ واسمه ايه الافندى ده؟

قالت فى عجلة:

ـ أسمه عبدالحميد زاهر..

ورفع الجندى يده ومسح على شاربه المشعث ، وأخذ يزوم بشفتيه، ثم فكر قليلا، كأنه يحاول أن يتذكر هذا الاسم، وقال:

ـ هيه.. ويبقالك أيه عبدالحميد زاهر؟

قالت:

ـ ابن عمى..

وطاطأ الشاويش رأسه، ثم عاد ورفعها، وقال فى لهجة آمرة كأنه وكيل نيابة محقق:

ـ وجايه ورا ابن عمك فى المحافظة ليه؟!

قالت وهى تكاد تنفجر باكية:

ـ كان مدينى ميعاد هنا..

وقال الشاويش:

ـ بأه كدة.. هيه.. كويس والله!

وقالت سامية وهى تكاد تيأس:

ـ والنبى ما شفتوش، يا شاويش؟

وصمت الجندى قليلا دون أن يتحرك من مقعده أو يبدو عليه تأثر، ثم انطلق قائلا:

ـ هوه مش جدع أسمر كده، وعنده حتة شنب صغير؟

وقالت سامية فى لهفة:

ـ أيوه .. هو.. راح فين؟!

قال الجندى وهو يشير إلى الباب الجالس قبالته:

ـ دخل..

قالت فى عجلة:

ـ أقدر أشوفه؟

قال فى برود:

ـ ممنوع..

قالت فى توسل:

ـ ده عايزنى ضرورى.. حاجة مهمة خالص!

قال وهو يمسح بيده على شاربه مرة ثانية:
ـ معاكي، أمارة؟
قالت في حدة:
ـ بس قول له، وهو حايعرف!
قال وكأنه يحادث نفسه:
ـ أقول للباشا؟!
قالت:
ـ باشا ايه .. قول له هو!!
قال كأنه يتباهى بذكائه:
ـ ما هو عند الباشا.. اللوا الكبير!
قالت في حدة كأنها تأمره:
ـ طيب قول للباشا..
ونظر إليها الجندى مليا، ثم قام متكاسلا قائلا:
ـ طيب استنى عندك شوية!
ودخل الجندى إلى الحجرة، ورفعت سامية عينيها، فاصطدمتا بلوحة كتب عليها «القلم السياسى»..
وعاد الجندى بعد قليل، وقال فى لهجة أكثر أدبا:
ـ اتفضلى!!
ودخلت سامية وهى لا تزال تزحف بقدميها فى خطوات مترددة خائفة.. وقلبها ينتفض فى صدرها، ويدق دقات عنيفة متوالية كأنها دقات الطبول التى تسبق تنفيذ حكم الإعدام..
ووجدت نفسها فى حجرة متوسطة الاتساع.. هادئة.. رطبة بها مكتبان، يجلس إلى أحدهما ضابط من ضباط البوليس، ويجلس إلى الثانية رجل فى ثياب مدنية..
ووقفت حائرة فى وسط الغرفة، إلى أن سمعت صوت الرجل الذى يرتدى ثيابا مدنية يقول لها فى صوت مهذب:
ـ اتفضلى يا هانم.. أى خدمة؟!!
واتجهت إليه كالتلميذة المذنبة وقالت فى صوت كالبكاء:

ـ هو فين عبدالحميد.. انا عايزة عبدالحميد!

ونظر الرجل فى ورقة أمامه:

ـ قصدك عبدالحميد افندى زاهر؟!

قالت فى فرح:

ـ أيوه.. هوه !

قال:

ـ بس هو دخل عند سعادة الريس دلوقت!

قالت وقد عادت تتوسل:

ـ أعمل معروف خلينى أدخل له.. ضرورى أشوفه دلوقت.. دلوقت حالا!

قال وهو ينظر إليها نظرات فاحصة:

ـ حضرتك تبقى..

وقاطعته فى عجلة كأنها تقطع الزمن:

ـ أنا بنت عمه.. وخطيبته!

وعاد الرجل ينظر إليها نظرات فاحصة.. إلى حالها المرتبك، وإلى النظرات المضطربة فى عينيها.. ثم جذب طربوشه من فوق المكتب ووضعه فوق رأسه، وأماله فى عناية، وقال وهو يقوم من على مقعده متكاسلا:

ـ طيب اتفضلى استريحى شوية..

وجلست سامية على حافة المقعد الذى أشار لها عليه، وهى تتبع الرجل بعينين مبتهلتين كأنها تنظر بهما إلى السماء..

ودفع الرجل بابا جانبيا، واختفى وراءه..

وعاد بعد قليل.. وقال وهو لا يزال واقفا بجانب الباب الذى خرج منه:

ـ اتفضلى يا افندم..

وأبقى الباب مفتوحا لتمر منه..

●●●

كان عبدالحميد فى ثورة غضبه قد أحس أنه فقد كل شئ فقد

كل آماله التى علقها على وجود ابراهيم فى البيت.. فقد المكافأة السخية التى كان يمنى نفسه بقبضها، وفقد سامية.. لن يتزوجها.. وفقد احساسه بأنه سيد الموقف.. احس انه اهين فى ذكائه عندما خدعوه واقنعوه أن ابراهيم سيبقى فى البيت على الأقل أسبوعين.. وأعمته كل هذه الأحاسيس عن التفكير السليم.. أعمته عن ذكائه.. وبدأ يتصرف كالمجنون متصورا انه لا يزال يستطيع أن يستخلص شيئا من آماله، ولو على حساب خراب العائلة كلها..

وهرع إلى الشارع واتصل بالتليفون باللواء محمد بك همام رئيس القلم السياسى، وابلغه أن لديه معلومات أكيدة تؤدى إلى القبض على ابراهيم حمدى، فطلب إليه همام بك أن يأتى لمقابلته حالا..

وأستقل عبدالحميد سيارة الأجرة، وظل طول الطريق وهو لا يفكر فيما سيقوله لهمام بك.. بل كان يفكر فى خطته التى فشلت.. وكان الغضب واليأس يشعلان فى رأسه نارا يرى من خلالها وجوه عائلته التى خدعته.. عمه.. وزوجة عمه، ومحيى، ونوال.. حتى سامية اشتركت فى خداعه.. ثم يرى صورة ابراهيم بابتسامته الهادئة التى تميل إلى جانب شفتيه، فتزداد النار اشتعالا فى رأسه، ويمتلئ صدره بالحقد الأسود، ثم يقطر الحقد فى اعصابه فيرفع قبضته يدق بها على ركبته وهو جالس فى السيارة، كأنه يدق رأس ابراهيم ليخمد ابتسامته التى تغيظه!

وعندما دخل فناء المحافظة بدأ يكبت ثورة غضبه، وبدأ يشعر بالحيرة والارتباك.. وبدأ يسأل نفسه: لماذا جاء.. ؟

ولكنه أستمر فى طريقه، مدفوعا بغيظه وثورته.. ودخل إلى حجرة السكرتارية. وعندما طلب إليه السكرتير أن يجلس ريثما يسمح رئيس القلم السياسى بمقابلته، بدأ يعد فى رأسه ما سيقوله.. وفجأة اكتشف أنه لن يستطيع أن يقول شيئا..

أنه لا يدرى اين اختفى ابراهيم، فلن يستطيع أن يرشد البوليس عنه..

ريما كان محيى أو عمه يعلم أين ذهب ابراهيم.. ولكن هل يستطيع حقا أن يبلغ البوليس عن عمه أو عن ابن عمه؟! وتحرك في صدره شئ كالسكين يشق لحمه.. إنه لا يستطيع.. أنه يعلم أنه لا يستطيع.. أن هذا الشئ الذى يتحرك فى صدره طالما منعه من الأقدام على تصرفات كثيرة.. لولا هذا الشئ لكان اليوم من أغنى الأغنياء أو لكان فى السجن.. وهو يكره هذا الشئ.. يكره ضميره.. لكنه لا يستطيع أن يقاومه.. أنه تجاهله احيانا، ولكن هذا الشئ الملعون يتحرك في اللحظة الأخيرة.. دائما فى اللحظة الأخيرة، وعندما يتحرك لا يستطيع أن يقاومه..

ريما يستطيع أن يبلغ البوليس عن الصديقين اللذين طلب إليه ابراهيم أن يتحرى عنهما، وأن يبحث عما إذا كانت الحكومة قد اعتقلتهما أم لا.. وعن طريق هذين الصديقين يستطيع البوليس ان يجد ابراهيم..

ولكن..

سيسأله البوليس، من أين عرف هذين الأسمين.. فإذا قال أنه عرفهما من ابراهيم شخصيا، سيعود البوليس ويسأله، أين التقى بابراهيم.. ولن يستطيع أن يقول أنه التقى بابراهيم فى بيت عمه.. وإلا خرب بيت عمه.. وضميره - الشئ الذى يتحرك فى صدره كالسكين - يأبى عليه أن يخرب بيت عمه..

وندم لأنه جاء إلى المحافظة..

وفكر فى أن يهرب.. أن يعدل عن مقابلة همام بك!!

ولكنه لا يستطيع أن يهرب، وإلا وضع نفسه موضع الاشتباه من البوليس..

وقرر أن يلفق أى كلام يقوله، ولا يهم بعد ذلك أن يثبت كذبه.

ودعاه السكرتير إلى الدخول..

ودخل إلى حجرة متسعة خافتة الضوء فى نهايتها مكتب ضخم يجلس وراءه همام بك.. رقيقا، مهذبا، لم تستطع الرقة المفتعلة ولا التهذيب المفتعل أن يخفيا الخبث الذى يطل من عينيه الضيقتين..

وقـام همام بك ولف مـن وراء مكتبـه وجـاء إليه مـادا يده فى ترحيب كبير، كأنها اصدقاء قدماء..

وصافـحه عبد الحـميد بيـد مرتعشة، والـهيبة والحـيره تكادان تقتلعان قلبه..

وأجلسه همام بك على أريكة من الجلد وجلس بجانبه، بلا تكلف، وبدأ يحـادثه فى بساطة.. ولم يكن يحـدثه عن ابراهيم حمـدى.. بل كان يحدثه فى مواضيع عامة كأنهـما جالسان فى قهوة يتباسطان ويلعبان عـشرة طاولة.. كان يريد أن يكسب ثقـته، وأن يحرره من الرهبة.. وفعلا بدأ عبدالحميد يهدأ، وبدأ يلم أطراف تفكيره المزق.

وبعد دقـائق قليلة، وقبل أن يصل الحديث إلى ابراهيم حـمدى، دخل السكرتير، وهمس فى أذن همـام بك ببضع كلمات، فابـتسم همام بك وقال بصوت مسموع:

ـ خليها تتفضل!

ودخلت سامية..

ووقفت جـامدة فى وسط الحـجرة، وعـيناها متـحجـرتان فوق عبدالحميد..

ونظر عبدالحميد إليهـا فزعا، كأنه رأى السكين الذى يتحرك فى صدره، منتصبا أمامه.. رأى ضميره!!

وقال وهو مبهوت:

ـ ايه اللى جابك..

وقالت سامية فى صوت ضعيف وهى تحاول أن تتمالك نفسـها:

ـ جيت وراك.. حد يسيب خطيبته بالشكل ده..

وضغطت على كلمة «خطيبته» كأنها ترشوه بها..

ونقل همام بك عـينيه الخـبيثـتين بينهما ثـم قال لسامـية، وهو يقوم واقفا فى أدب مفتعل:

ـ أتفضلى يا هانم..

وجلست سـامية علـى الأريكة بجانب عـبدالحمـيد، بينمـا جلس همام بك على مقعد عريض، وهو يقول:

ـ ما شاء الله.. ومخطوبين بقالكم زمان؟!

والتفتت سامية إلى عبدالحميد، وقالت دون أن تدير رأسها إلى همام بك:

ـ بقالنا أسبوع واحد بس!

وظلت معلقة عينيها بعبد الحميد كأنها تحاول أن تذكره بنفسها.. بحبه لها.. بأمله فى الزواج بها.. بكل ذلك، أن يصون سرها، وسر عائلتها..

ورفع عبدالحميد عينيه إليها، ثم خفضهما سريعا.. وقد احتقن وجهه وأخذ يضغط احدى يديه باليد الأخرى فى عصبية كأنه يحبس الدم فى يده، حتى لا ينسكب من أطراف أصابعه.. كان ثائرا.. وكانت ثورته منصبة على سامية.. كيف تتبعه.. وكيف تدخل المحافظة وحدها. كيف سمحت لنفسها بأن تخرج إلى الشارع بهذا الشكل.. كيف واتتها الجرأة.. إنها مجنونة.. قليلة الحياء؟!!

وأحس انه أهين فى عرضه.. وفى شرفه.. لأن بنت عمه.. حبيبته.. دخلت المحافظة وحدها..

ولكن ثورته ما لبثت أن انقلبت على نفسه.. إنه هو السبب.. هو الذى دفعها إلى هذا السلوك.. هو الذى مرمطها فى الشوارع، وفى المحافظة.. ترى ماذا فعل بها رجال البوليس قبل أن يسمحوا لها بالدخول..

وأشتدت ثورته، وكلما تمادى فى محاولة كبتها، ازداد وجهه احتقانا، وازدادت عصبيته، ورعشة يديه..

وهمام بك لا يزال ينقل عينيه الخبيثتين بين الفتى والفتاة، يحاول أن يستشف سرهما، ثم قال وهو لا يزال محتفظا بلهجته المهذبة:

ـ إحنا كنا بنقول أيه؟!!

وأنطلق صوت عبدالحميد مرتفعا كأنه لم يعد يستطيع أن يكتم ثورته، ولم يعد يحتمل هذا الأسلوب المهذب الذى يحادثه به همام بك، وقال فى لهجة تكاد تكون حادة دون أن ينظر إلى سامية التى

لا تزال تعلق عينيها فوق وجهه:
- أنا يا افندم كنت جاى ابلغك معلومات عن ابراهيم حمدى اللى قتل عبدالرحيم باشا شكرى..
وقاطعته شهقة حادة صدرت من سامية، اعقبتها بتمتمة خافتة:
- عبدالحميد..
وانتبه همام بك إلى صوت الشهقة فى يقظة.. وأكمل عبدالحميد كلامة بسرعه، كأنه يريد أن يسكت سامية حتى لا تتدخل فى الموضوع:
- أنا شفته النهاردة ماشى فى الشارع.. شارع.. شارع العباسية!
وسكت كأنه انتهى مما يريد قوله، وأطمأن إلى أن سامية قد عرفت أنه لن يفشى السر..
وتنهدت سامية فى ارتياح.. تنهيدة عميقة كأنها أطلقت ابخرة كثيفة كانت تملأ صدرها.. ابخرة الخوف والجزع!
ولاحظ همام بك، علامات الارتياح التى بدت على وجه سامية، وقال وبين شفتيه ابتسامة خبيثة يحاول أن يخفيها:
- وبعدين؟
ورفع عبدالحميد حاجبيه فوق عينيه فى دهشة، كأنه فوجئ بهذا السؤلا وقال، وهو لم ينته بعد من رسم الاكذوبة فى خياله:
- وبعدين.. وبعدين مشيت وراه..
وسكت كأنه يلتقط أنفاسه، وتعجله همام بك قائلا:
- كويس خالص.. وبعدين؟
وقال عبدالحميد، وقلبه يرتعش:
- وبعدين شفته ركب عربية.. رحت ضارب لساعدتك تليفون على طول!
وقال همام بك:
- وشفت نمرة العربية؟
وقال عبدالحميد:

ـ لا والله، أصلى كنت ماشى وراه من بعيد.. ما قدرتش اشوف نمرة العربية.. حتى كانت النمرة متآكلة وأرقامها ممسوحة.. وأول ما حط رجله فيها جريت على طول..

قال همام بك وهو لا يصدقه:

ـ ما شفتش ولا رقم من النمرة؟

وقال عبدالحميد وهو يبتلع ريقه:

ـ أيوة شفت رقم تمانية.. ورقم واحد!

وابتسم همام بك كأنه يحاول أن يقنعه بأنه صدقه رغم كذبه وسأله:

ـ والعربية كان لونها ايه؟

وقال عبدالحميد فى عجلة:

ـ سودة!!

وقال همام بك:

والهانم خطيبتك كانت معاك؟

قال عبدالحميد فى حدة، كأنه مصر على أبعاد سامية من الموضوع:

ـ لا.. لا.. ماكنتش معايا!

وأدارت سامية رأسها ناحية همام بك وهزت رأسها علامة الموافقة، وفى عينيها نظرة ساذجة.. وابتسم لها همام بك وعاد يسأل عبدالحميد:

ـ وحضرتك ساكن فى العباسية؟

قال عبدالحميد:

ـ لا فى شبرا!

قال همام بك وهو يحاول أن يدفعه إلى التمادى فى الكذب:

ـ لازم خطيبتك هى اللى ساكنه فى العباسية؟

وقال عبدالحميد:

ـ لا.. أنا كنت فى العباسية، لأنى كنت رايح لواحد صاحبى أعمل له تأمين!

وقال همام بك وهو لا يزال محتفظا بهدوئه وابتسامته المهذبة:
ـ واسمه ايه صاحبك؟

وتردد عبدالحميد ريثما يبحث فى رأسه عن اسم أحد أصدقائه ثم قال:
ـ اسمه محمد نوفل!

ثم استطرد كأنه خشى أن يبحث البوليس عن صديقه فى حى العباسية فلا يجده:
ـ الحقيقة هو ساكن فى مصر الجديدة.. لكن أنا نزلت فى العباسية علشان آخذ الترماى الأبيض من هناك!

وسكت عبدالحميد..

وقام همام بك ودق جرسا صغيرا موضوعا فوق مكتبه، ثم قال وهو لا يزال واقفا:
ـ الواقع دى معلومات قيمة جدا يمكن تساعدنا فعلا..

وقبل أن يرد عبدالحميد، دخل السكرتير.. ولاقاه همام بك فى وسط الغرفة ثم انتحى به جانبا، وهمس فى أذنه ببضع كلمات.. خرج بعدها السكرتير توا.. وعاد همام بك وجلس على مقعده.. وقال له عبدالحميد..
ـ انا فى الخدمة دايما يا افندم..

وقال همام وابتسامته بين شفتيه:
ـ على كل حال احنا متشكرين قوى.. لو عرفت أى حاجة تانية لازم تيجى تقول لى .. والـلا يمكن تفتكر حاجه نسيت تقولها على طول تيجى .. احنا بنعتمد كتير على امثالك من اللى قلبهم على البلد..

وأحس عبدالحميد احساسا خفيا بأن همام بك يتعمد اهانته، وقام واقفا ووقفت معه سامية ، وقال:
ـ تسمح لى يا افندم ..
ـ متشكر .. مع السلامة .. بس سيب عنوانك عند السكرتير ، يمكن نحتاج لك علشان نكتب الكلمتين اللى قلتهم فى محضر ..

ولا مش ضـروری .. أنا الكلام اللى باسمـعـه بينكتب فى راسى .. راسى فيها بيجى مليون محضر ..

وأشـار همـام بك إلى رأسـه مـتـبـاهيـا، ثم مـد يده وصـافح عبدالحميد وسامية، وتبعهما حتى باب غرفته..

وحياهما السكرتير فى الغرفة المجـاورة باحترام كبير.. وخرجا إلى النور. والتفتت إليه سامية بعينين فرحتين، كانه كان غائبا عنها وعاد إليها.. عاد سالما.. بطلا .. ولكنها اصطدمت بعينيه غاضبتين ، وقال فى صوت غاضب مبحوح وهو يمسك بيديها ويضغط عليهما بقوة :

ـ إزاى تسـمـحى لنـفـسك تيـجى وراى بالشـكل ده .. أنتى اتجننتى، ما حدش رباك .. ده شكل تخـرجى بيه فى الشـارع .. من أمتى بنات العيلة بتدخل المحافظة؟

قالت وهى تبتسم كأنها تتباهى بغضبه :

ـ أصلى خفت لا تكون زعلان..

قال فى حدة :

ـ لا يا شـيخـة .. بأه كنت خـايفـة لاكون زعـلان .. لا والله .. ما كانش لازم أزعـل .. انتى جاية علشان كنت خايفـة على بيتكم ، وعلى سى ابراهيم بتاعكم.. مش خايفة لاكون زعلان !!

ـ لا .. والله العظيم ابدا .. انا كنت خايفة عليك !

قال فى حدة :

ـ من ايه بأه ياستى؟

قالت فى خفر :

ـ خـايفة مـا ترجعـليش تانى .. الكلام اللى قلتـه مش صحـيح يا عبدالحـميد.. إذا كانت الدنيا كلهـا تضحك عليك .. انا مش ممكن اضحك عليك ..

قال وهو يسحبها من يدها ناحية ميدان باب الخلق :

ـ طيب تعـالى .. انـا خـلاص مش ناوى أتجـوز .. ومش ناوى ادخل لكم بيت!

ونظرت إليه سامية وهى تمد فى خطاها حتى لا يسبقها :
ـ ما تقولش كده يا عبدالحميد ..
وقاطعها الأسطى أبو سريع سائق السيارة الأجرة التى جاءت فيها قائلا وهو يشير إليها بيده :
ـ أنا هنا يا ست ..
وتوقفت وقالت لعبدالحميد :
ـ ده التاكسى اللى جيت فيه.. أصل نسيت اجيب فلوس من البيت علشان ادفع له !!
وتردد عبدالحميد قليلا كأنه يعد فى عقله ما يحمله من نقود .. ثم اتجه نحو السيارة ، وهو يقول لسامية :
ـ اتفضلى !
وقالت :
ـ ما نرجع فى الاتوبيس ولا الترماى .
وقال وهو يدفعها أمامه :
ـ أركبى بس ..
وركبت سامية ، وركب عبدالحميد بجانبها .. وعادت تنظر إليه بعينين فرحتين كأنها ذاهبة معه إلى بيتهما ، عقب حفلة الزفاف .. وعبدالحميد غاضب .. يزفر أنفاسه فى قسوة .. كان يستعيد كل كلمه قالها لهمام بك ويحاول أن يعثر على الثغرات التى قد يفتضح منها كذبه .. وكان يشعر بغلطته .. ويشعر أنه كان غبيا .. ويستسخف نفسه .. وشعوره بالسخافة يمزق قلبه ..
وقالت سامية ، وهى تمد يدها فى حياء وتضعها فوق يده :
ـ ما تزعلش نفسك يا عبدالحميد.. خلاص كل حاجة حاتمشى كويس باذن الله.
وجذب يده من تحت يدها ، وهو يقول :
ـ سيبينى وحياة أبوكى .. انا مش فاضيلك دلوقت .. ولا فاضى للكلام ده !.
وسكتت سامية فى استسلام ، وهى لا تزال تنظر إليه بعينيها

الفرحتين ، وقد لمع فيهما الحب .. إنها لم تعد تجاهد لتخفى حبها .
وهى تعتقد أنه لم يكذب على البوليس إلا من أجلها .. لأنه يحبها ..
ووصلت بهما السيارة إلى البيت .. ونزلا منها .. وقر
عبدالحميد العداد ، ثم نظر إلى سامية كأنه يحملها مسؤولية هذه
المصيبة الجديدة .. ثم وضع يده فى جيبه ، ودفع ..
وأبتعد السائق بسيارته وهو يقول :
ـ متشكرين ..
وقالت سامية وهى تنظر إلى عبدالحميد كأنها تهبه نفسها :
ـ مش حتطلع معايا ؟
قال فى اختصار :
ـ لأ ..
قالت :
ـ انا مش حاقول لحد احنا كنا فين !
قال وهو لا ينظر إليها :
ـ أحسن ..
قالت كأنها تتوسل :
ـ وحاتيجى أمتى ؟
قال :
ـ ما أعرفش !
قالت :
ـ لازم تيجى .. علشان ما حدش ياخد باله ؟
قال :
ـ أما أشوف .. سعيدة!
وأدار لها ظهره وسار متجها إلى شارع الجيزة ..
ولم يشعر أن هناك رجلا يتبعه ..
لم يشعر بأنه أصبح مراقبا من البوليس!!

١٤

يوم الاثنين

ونوال حائرة أمام مرآتها ، لا تكاد تنتهى من زينتها حتى تبدأ من جديد .. تضع ضفيرتها فوق صدرها ثم تعود وتلقيها خلف ظهرها ، ثم تلفها فوق مؤخرة رأسها ، ثم تسدلها من جديد .. وتمسك بالقلم الأسود تزجج به حاجبيها ، ثم تعود وتبلل أصبعها بريقها وتمسح ما خطته فوق حاجبيها .. وتدس يديها فى قفازها الأبيض ، ثم تسحب إحدى يديها من القفاز ، وتمسك بحقيبتها .. وتبتعد قليلا عن المرآة لترى نفسها على بعد ، ثم تقترب من المرآة مرة ثانية ، وتبدأ زينتها من جديد .. زينة بسيطة بريئة ليس فيها الوان .. إلا الوان عينيها السود وبشرتها التى تختلط سمرتها بحمرة دمائها النشطة الشابة .

وظلت فى حيرتها حتى سمعت دقات الساعة فى الراديو تعلن العاشرة والنصف فارتبكت وظنت أنها تأخرت .. تأخرت كثيرا عن موعد إبراهيم .. وألقت نظرة سريعة إلى المرآة ، ولوت شفتيها كأنها غير راضية عن جمالها .. وخطفت حقيبتها وأسرعت بالخروج ، وهى تصيح :

ـ أنا نازلة يا ماما ..

وقالت أمها من الغرفة المجاورة ، دون أن ترفع رأسها :

ـ ما تتأخريش .. الساعة اتناشر تكونى هنا .. وسلمى على تفيده هانم ، وقولى لها ماتنساش الأمانة !

ولم تنتظر نوال لتسمع بقية كلام أمها .. وأغلقت الباب وراءها وقفزت الدرجات قفزا لتجد نفسها فى الشارع .

وركبت الأوتوبيس ..

ولم تعد تفكر فى نفسها ولا فى زينتها .. أصبح كل ما تفكر فيه هو إبراهيم .. هل ستراه مرتديا بدلة ضابط .. أم سيأتى إليها بالقميص والبنطلون كما رأته أول مرة ؟! هل سيأتى فى سيارة ، أم سائرا على قدميه ؟! هل سيأتى مبتسما كما كانت تراه أحيانا ، أم جادا مفكرا كما كانت تراه غالبا ؟!

وكانت تفرح وتحزن تبعا للحال الذى تتصور إبراهيم فيه .. وعندما تفرح ترتسم ابتسامة فوق شفتيها دون أن تدرى بها ، وعندما تحزن يتقطب جبينها دون أن تدرى .. كانت ملامحها تنفرد وتتقلص تبعا لإحساسها ، كأنها تحادث إنسانا آخر فى داخلها .. وكان إحساسها يستبد بها حتى يكاد يصبح همسا .. وهمسها يحتد حتى يكاد يصبح كلاما واضحا تنطق به ملامحها .

ونزلت من الأوتوبيس ..

واشتد وجيب قلبها ..

إنها تقترب ..

تقترب من إبراهيم ..

وسارت نحو ميدان عبد المنعم فى خطوات مرتبكة ، ورأسها منكس ، ووجنتاها مصهورتان بالخفر .. وجفناها يضطربان فوق عينيها .. وهى لا تنظر إلى أحد ، ولا إلى شىء كأن الناس والجدران وأسفلت الشارع ، كأن كل شىء يعلم إنها ذاهبة لملاقاة إبراهيم .. لملاقاة رجل !

ووقفت فى الميدان تحت ظل شجرة .. ورأسها لا يزال منكسا ، وعيناها تنظران من تحت جفنيها إلى بوز حذائها ، كأنها عروس فى انتظار أملها ليرفع عن وجهها النقاب .. نقاب الحياء والخفر .

واشتد وجيب قلبها عندما سمعت صوت سيارة تقترب منها .. ولم ترفع رأسها .. إنما انتابتها رعشة سرت فى أعصابها كلها .. وحاولت أن تشد قوامها ، وأن تعتدل فى وقفتها ، ثم تعمدت أن تدير رأسها الناحية الأخرى حتى لا يرى إبراهيم لهفتها ، وقفزت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها كأنها تنفس بها عن حيائها واضطرابها .

وأصبح صوت السيارة فوق أذنها تماما .. وانتظرت أن تسمع صوت وقوفها .. ثم صوت بابها يفتح .. ثم صوت إبراهيم يقول لها « صباح الخير » ..

ولكن السيارة لم تقف .

مرت بها دون أن تخفف سرعتها ..

ورفعت رأسها فى دهشة وتبعت السيارة بعينين ملهوفتين كأنها تتبع أملا ضاع منها .. ثم عادت ونكست رأسها فى حسرة .

وعادت تنتظر ..

وبدأت تنقل قدميها فى وقفتها ، كأنها فرس مشدودة إلى عربة أتعبها طول الوقوف والانتظار .

ثم تسللت بعينيها إلى الساعة الفضية الصغيرة المربوطة إلى معصمها .. نظرت إليها خفية كأنها تخشى أن يضبطها أحد وهى تنظر إلى الساعة ..

إن الساعة الحادية عشرة ، وعشر دقائق ..

ما الذى أخره ؟!

وبدأت تتلفت حولها فى حذر .. إنها ترى هناك رجلا مرتديا جلبابا .. وفى الناحية الأخرى أما تسحب طفلها .. ولكنها لا ترى إبراهيم ..

وتنهدت ..

وسارت بضع خطوات ، ووقفت تحت ظل الشجرة التالية ، وأخذت تتفلت من جديد ..

ما الذى آخره ؟!

ربما اتبع طريقا طويلا حتى يضلل البوليس !

وارتجفت عندما تذكرت البوليس .. كان قد غاب عنها منذ أن استيقظت فى الصباح .. إن إبراهيم إنسان هارب ، وأن البوليس يبحث عنه .. نسيت هذه الحقيقة فى لهفتها إلى لقائه ..

هل يكون البوليس قد قبض عليه ؟!

لا .. مستحيل .. لا يستطيع أحد أن يقبض على إبراهيم !

وسمعت صوت سيارة أخرى تقترب منها .. وفى هذه المرة استدارت بجسدها كله ناحية السيارة ، ونظرت إلى داخلها بكل عينيها .. ثم ردت عينين خائبتين .. لم تر إبراهيم داخل السيارة ..

ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى ..

إنها الحادية عشرة والثلث ..

وبدأت تحس بالضيق .. وتحركت من وقفتها ، وبدأت تسير حول الميدان الواسع فى خطوات بطيئة ضيقة ، كأنها تزفر خطواتها من صدرها .. وتتلفت فى كل شارع جانبى تمر به من الشوارع التى تصب فى الميدان كأنها تنتظر أن تجد إبراهيم مختبئا فيه أو آتيا منه .. ثم تعود وتتلفت خلفها بين كل خطوة وأخرى كأنها تخشى أن يفاجئها إبراهيم من الخلف .

وأتمت دورة الميدان ، وعادت إلى حيث كانت واقفة تحت ظل الشجرة .. عادت متعبة يائسة وقد تهدل كل شىء فيها .. تهدل ذراعها إلى جانبها فلم تعد تمسك حقيبتها برشاقة كما كانت تتعمد عندما جاءت ، إنما أصبحت تمسكها فى إهمال كأنها تكاد تقع منها.. وتهدلت نظراتها فلم يعد فيها هذا النشاط والبريق .. وتهدلت شفتاها فلم تعد بينهما هذه الابتسامة الضيقة الخجول ، إنما أصبحت تبدو كأنها « مبوزة » .. وتهدل قوامها فلم تعد تشده وتسيطر على حركاته ، إنما انحنى ظهرها وانتهت ركبتاها كأنها تكاد تنهار على الأرض .

ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى ..

إنها الثانية عشرة إلا ربعا ..

إنه لن يأتى ..

وأحست بصوت يرتفع من صدرها يؤكد لها إنه لن يأتى .. ويردد فى إلحاح « لن يأتى .. لن يأتى .. لن يأتى » كأن هذا الصوت يتعمد أغاظتها .. وتحطيم آمالها ، واظلام حياتها ..

ثم أحست برغبة فى البكاء .. كل شىء فيها أصبح يتجمع للبكاء .. أعصابها بدأت تعصر نفسها لنزف الدموع .. وعيناها بدأتا تلتهبان ..

ورفعت رأسها كأنها تقاوم دموعها .
وتلفتت حولها كأنها تستغيث من اليأس ..
وفى تلفتها التقت بوجه أسمر ينظر إليها نظرات ساخرة وبين شفتيه ابتسامة جارحة ..
إنه رجل يقف مستندا على جدار سيارة .. لعله سائق .. لعله يراقبها هكذا منذ فترة طويلة .. ولعله استنتج إنها جاءت لملاقاة رجل .. وأن الرجل تخلى عنها ولم يأت ..
وانقلب يأسها إلى غضب .. ثم إلى ثورة ..
أحست أن كرامتها أهينت .. إنها أصبحت سخرية بين الناس فى الشارع .
كيف يدفعها إبراهيم إلى هذا الموقف ؟
كيف يرضى أن يتركها للناس يسخرون منها هكذا !!
وتحركت .. وقد قررت أن تعود إلى بيتها ..
وسارت فى خطى سريعة نحو محطة الأوتوبيس .. ولكنها ما لبثت أن خففت سرعتها ، والتفتت إلى الوراء كأنها ترشف بعينيها آخر قطرة من الأمل .. ولم تر إلا الوجه الأسمر ينظر إليها النظرة الساخرة ، وبين شفتيه الابتسامة الجارحة .. فعدلت رأسها ، وعادت تخطو خطوات سريعة نحو محطة الأوتوبيس .
وركبت الأوتوبيس وثورتها تكاد تقتلع قلبها ، وقد جمعت كل إرادتها فوق عينيها حتى تحبس بها دموعها ..
إنه لن تعود مرة ثانية ..
لن تعرض نفسها لمثل ما تعرضت له اليوم .
ستقاوم نفسها ، وتقاوم حبها ، وتقاوم إبراهيم ..
وكانت لا تكاد تتصور أنها وصلت إلى قمة المقاومة ، حتى يبدو لها وجه إبراهيم جادا ، مضطربا ، وهو يهرب بعينيه منها حتى لا تكشف اضطرابه ومشاعره .. فتحس بالحنين إليه .. حنين فيه اشفاق بقدر ما فيه إعجاب .. كأنه حنين أم لابنها الذى ذهب إلى ميدان القتال .. وتبدأ فى تلمس الأعذار له .. ربما حال تهربه من البوليس دون حضوره .. ولكنه لاشك حاول أن يحضر للقائها .. ربما .. ربما ..

وأطلت من عينيها نظرة فزعة ، وهى تتصور أنه ربما استمر فى الهرب حتى ترك مصر كلها .. ابتعد عنها .. لن تراه أبدا .. ولكن .. لا .. إنه لن يتركها .. لن يخرج من مصر .. إن مكانه بجانبها ..

وتنساق فى خيالها .. وترتفع إصابعها لتحتضن العلبة الذهبية الصغيرة المعلقة فوق قلبها والتى تضم المصحف والكلمة التى كتبها إبراهيم بخط يده .. ثم لا تلبث أن تفيق من استسلامها وتتذكر الوجه الأسمر الذى ينظر إليها ساخرا ، فتعود وتقرر المقاومة .. مقاومة نفسها وحبها ..

وظلت فى هذه الحيرة بين المقاومة ، والاستسلام .. حتى وصلت البيت .. ومر بقية اليوم ، ويوم الثلاثاء .. وحيرتها تشتد .. حتى انقلبت عذابا .. عذابا يبكيها وهى تحاول أن تقاوم عواطفها ، ويبكيها وهى تستسلم لهذه العواطف .

وهى فى حيرتها مبتعدة عن كل من فى البيت .. لا تطيق أن تحادث أختها سامية .. ولا تطيق أن تناقش أمها .. ولا تطيق أن تجلس فى غرفة القعاد خلال الاجتماع العائلى الذى يعقب طعام الافطار .. ولا تطيق أن ترى أخاها محيى .. إنه يزيد من عذابها وحيرتها كلما رأته .. يزيد من عذابها لأنها تخفى عنه ما بينها وبين إبراهيم فلا تستطيع أن تسأله عنه ، ولأنه لا يعلم بعذابها فيحاول أن يخفف منه .. ولا تطيق أن ترى عبد الحميد الذى لا يزال يتردد على البيت كل يوم ، واعمتها حيرتها عن الحال الجديد الذى يبدو فيه عبد الحميد .. لم تلحظ أنه يبدو صامتا أكثر مما تعود ، ولم تلحظ أنه لم يفاتح أباها فى موضوع الزواج ، وإنه لا يتحدث عن إبراهيم إلا فى إشارات غريبة ، ولم تلحظ الهمسات الكثيرة التى تدور بينه وبين أختها سامية كأنهما يخفيان شيئا .. لم تلحظ كل شىء ..

وهى أيضا لا تطيق أن تجلس مع الضيوف الذين بدأوا يترددون على البيت بكثرة كأن أباها يتعمد أن يدعو كل العائلة

والأصدقاء ليشهدوا أن ليس فى بيته رجل غريب .. ولا تطيق أن ترى سنيه الخادمة وقد عادت إلى خدمة البيت ، فلا تكاد تراها حتى تصرخ فى وجهها كأنها تصب عذابها عليها .

كل ما كانت تفيق له وهى فى حيرتها هو أن تطلع على جريدة الأهرام ، وتسمع نشرة الأخبار فى الاذاعة ، علها تقرأ أو تسمع خبرا عن إبراهيم .

ووجدت نفسها صباح الأربعاء ، تفتح دولابها وتلبس ثوب الخروج ، وتقف أمام المرآة لتتزين ..

لم تفكر كثيرا .. إنما وجدت نفسها منساقة ، كأن هاتفا يدعوها إليه .. إلى إبراهيم !

ولم تتزين كثيرا كما تزينت أول مرة .. لم تحتر فى زينتها .. إنما وقفت أمام مرآتها كأنها تنظر فيها إلى إنسانة أخرى لا تعرفها ولا تقر تصرفاتها .

وقالت لأمها ، بعد أن بلغت الساعة العاشرة والنصف :

ـ أنا رايحة لوفاء يا ماما !

وقالت الأم فى حزم

ـ لا .. كفاية خروج !

وتنبهت نوال إلى أنها ستخوض معركة .. كأن اعتراض أمها على خروجها كان احتمالا بعيدا لم تفكر فيه ، وقالت فى تردد ، وهى تمنح أمها أجمل ابتساماتها :

ـ ده أنا لبست خلاص يا ماما ؟

قالت الأم دون أن تحتد :

ـ قلنا مافيش خروج !

وقالت نوال وهى تقترب من أمها كأنها تحاول أن تلمس قلبها :

ـ والنبى يا ماما .. الله يخليكى .. أنا مش حاتأخر .. ربع ساعة بس .. أصلى عايزة اتعلم منها قصة فستان جديد !

ونظرت إليها أمها مليا ، ثم قالت كأنها تقاوم حنانها :

ـ يا بنتى هو كل يوم خروج .. حتى أبوكى يزعل ؟

وقالت نوال :

ـ ما أنا قاعدة فى البيت ماخرجتش بقالى يومين .. ويعنى أنا رايحه فين ؟

وقالت الأم وهى تدير رأسها حتى لا يبدو ضعفها :

ـ تعرفى تتأخرى عن نص ساعة .. بقطع رقبتك ؟

وقالت نوال فرحة لانتصارها :

ـ حاضر :

وخرجت نحو الباب ..

وما كادت تصل إلى الشارع حتى زايلتها فرحتها .. وسارت مستسلمة كأنها منقادة إلى مأساة .

وعندما نزلت من الأوتوبيس ، لم تتعمد أن تخفى عينيها عن الناس .. بل كانت فى قررة نفسها تسخر من الناس الذين يعتقدون أنها فى طريقها لملاقاة رجل .. لا .. لن تلاقيه .. إنه لن يأتى .. استريحوا أيها الناس .. فلن تلتقى بإبراهيم ..

ووقفت تحت ظل الشجرة نفسها فى ميدان عبد المنعم .. وهى تحس بيأس كبير .. كأنها تؤدى مهمة واثقة من فشلها ..

ونظرت سريعا إلى ساعتها .. كأنها تريد أن تهرب من الفشل

وكانت الساعة الحادية عشرة ودقيقتين ..

وقررت بينها وبين نفسها أن تنتظر حتى الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق .

ثم مدت الأجل ـ بينها وبين نفسها أيضا ـ حتى الحادية وعشرة وعشر دقائق .

ولكنها ماكادت تنزل ذراعها الذى يحمل الساعة ، حتى بوغتت بسيارة تقف أمامها فجأة بعد أن زحفت عجلاتها على الأرض وأطلقت صوتا حادا ، كأن الأرض نفسها هى التى توقفت عن الدوران .

ونظرت داخل السيارة بعينين مبهورتين ..

لم يكن إبراهيم ..

ولكنه كان صديقه فتحى المليجى ..

وكان يبتسم يحييها ، وقالت فى عجلة قبل أن تلتقط ابتسامته :

ـ فين إبراهيم ؟
ثم كأنها ندمت على تعجلها فاستطردت فى صوت خفيض خجل :
ـ ازيك يا أستاذ فتحى ؟
وقال فتحى وابتسامته لا تزال بين شفتيه :
ـ الله يسلمك .. إبراهيم ماقدرش ييجى .. الظروف الـ ..
وقاطعته فى لهفة :
ـ إزيه ؟
قال وقد اتسعت ابتسامته :
ـ كويس الحمد لله .. بيسلم عليكى وبيقول ..
وقاطعته مرة ثانية :
ـ هوه فين .. قاعد فين ؟
قال وهو ينظر إليها فى حنان كأنه يشفق عليها من سذاجتها :
ـ فى أمان .. وبيقول لك إنه حايحاول ييجى الدور الجاى . والدور الجاى ماتستنيش هنا .. عارفه ميدان « فنى » اللى جنبنا ، تستنى هناك عند الناصية اللى فيها مستشفى عانوس ..
وقالت فى استسلام عجيب :
ـ حاضر ..
واستطرد فتحى :
ـ وقولى لعبد الحميد ياخد باله ، أحسن البوليس مراقبه . وقولى له ما يتكلمش كتير فى القهوة !
وقالت نوال فى دهشة :
ـ عبد الحميد !! ماله عبد الحميد !!
وقال فتحى ويداه فوق عجلة القيادة :
ـ ما اعرفش .. جات لنا معلومات أن البوليس بيراقبه .. حاطط له واحد ماشى وراه !
وفغرت نوال فاها ، كأنها لا تستطيع أن تبتلع دهشتها ، وقبل أن تهم بالكلام ، وقال فتحى :
ـ أنا آسف .. لازم أمشى دلوقت .. اطمنى !!

ثم انطلق بسيارته قبل أن تفيق من دهشتها ، وقبل أن تحييه ..
وظلت واقفة مكانها جامدة واجمة ، كأنها تمثال جميل من الحجر الأسمر ..
ثم بدأ وجومها يذوب .. وأحست بفرحة خفيفة تنساب إلى قلبها.. إن إبراهيم بخير .. وهو يذكرها .. وهو حريص على لقائها..
وأحست كأن كل حيرتها وعذابها قد تبخر .. وأن النور قد أشرق من جديد .. وأن حياتها قد عادت نضرة نشطة مثيرة ..
ومدت أصابعها واحتضنت بها العلبة الذهبية ، كأنها تصافح إبراهيم تهنئه بسلامة العودة .. العودة إليها !
وتذكرت ما قاله فتحى عن عبد الحميد ..
لماذا يراقب البوليس عبد الحميد ؟
لماذا عبد الحميد .. لماذا لا يكون أخوها محيى ؟!
وعادت إلى بيتها فى حركات نشطة مسرعة لتؤدى المهمة التى كلفها بها إبراهيم .. لتقول لعبد الحميد أن يحترس من البوليس الذى يراقبه ..
كيف تقول له ؟!
وبماذا تجيب إذا سألها ، كيف عرفت أن البوليس يراقبه ؟!
إنها قطعا لن تقول له إنها تذهب كل يوم اثنين واربعاء لتلقى إبراهيم .. ولن تقول له إن إبراهيم أرسل لها فتحى المليجى ليطلب منها أن تحذر ابن عمها من البوليس ...
ودخلت بيتها وذكاؤها كله محصور بالبحث عن الوسيلة التى تنبىء بها عبد الحميد ، حتى بدت كالتائهة .. تتحرك كالتائهة .. وتنظر كالتائهة .. وتتكلم كالتائهة ..
وجاء عبد الحميد فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. كعادته أن يأتى عندما يكون الأب نائما ..
وما كادت تراه يدخل البيت ، حتى أسرعت إلى الشرفة ، وأطلت منها تبحث عن رجل البوليس الذى قال لها فتحى إنه يتبعه .
وأدارت عينيها فى الرجال القلائل الذين تراهم فى الطريق .. عم عثمان بواب البيت المقابل .. والأسطى حنفى الكواء .. ومحمود بائع

السجائر والحلوى .. و .. هناك رجل يقف بعيدا عن البيت مستندا إلى عامود النور مرتديا ثيابا مدنية ، ويقرأ فى جريدة .. رجل غريب لم تره من قبل فى هذا الشارع .. غريب فى مظهره ، وغريب فى وقفته ، وغريب فى نظراته التى يطلقها بين الحين والحين ناحية البيت ..

وغادرت الشرفة ، ومرت بعبد الحميد وهو جالس مع سامية فى حجرة القعاد دون أن تقول له شيئا ..

وانتظرت إلى أن خرج عبد الحميد ، وأسرعت مرة ثانية إلى الشرفة وأطلت منها .. وراقبت عبد الحميد وهو يبتعد عن البيت .. وراقبت الرجل الآخر .. لقد طوى الجريدة بيديه ، ثم سار خلف عبد الحميد محتفظا بمسافة كبيرة تبعد عنه .. وانحرف عبد الحميد إلى اليمين عندما وصل إلى آخر الشارع ، فانحرف الرجل الآخر خلفه .

وتركت نوال الشرفة ، وقلبها يضطرب خوفا ، كأنها رأت عبد الحميد يذبحه البوليس ..

ولم تتكلم ..

وعانت كثيرا حتى تمنع نفسها من الكلام .. كانت تريد أن تقول لسامية كل شىء .. أن تطلعها على سرها الخطير .. ولكنها خافت أن تفشى سامية سرها لعبد الحميد .. إن سامية كتومة ، ولكنها تحب عبد الحميد ، ولم تعد تخفى حبها فى الأيام الأخيرة ، وقد تفزع للنبأ فينهار لسانها أمام حبها .. ولذلك فضلت نوال أن تحمل سرها وحدها ، وتعانى ضغطه على صدرها ، وعلى أعصابها ..

وجاء عبد الحميد فى اليوم التالى .. وأطلت نوال من الشرفة فرأت نفس الرجل .. يقف نفس الوقفة ، مستندا إلى عامود النور ، مرتديا نفس البدلة ، والجريدة فى يده ..

وتركت الشرفة ، ووقفت أمام عبد الحميد ، قائلة وهى تتروى فى كلماتها حتى لا يسقط منها سرها :

ـ اسمع يا عبد الحميد .. أنا ملاحظة حاجة غريبة قوى !

ورفع عبد الحميد رأسه المهموم ، الذى لم يبد همه إلا فى الأيام الأخيرة ، وقال بصوت خافت ، لم يخفت إلا أخيرا :

ـ خير انشا الله ..

وقالت نوال :

ـ أنا ملاحظة إنك كل ماتيجى هنا ، فيه راجل بيجى وراك ويفضل مستنى فى الشارع لغاية ما تخرج يبتدى يمشى وراك .. أنت تعرفه الراجل ده ؟!

واتسعت عينا عبد الحميد ، وقال فى دهشة يختلط بها الفزع :

ـ راجل .. راجل إيه ؟!

وقالت نوال وهى لا تزال تختار ألفاظها :

ـ أنا عارفه .. متهيأ لى أنه زى ما يكون عسكرى داورية بس لابس بدلة أفندى !

وقالت سامية فجأة كأنها تنفى تهمة تحرص على نفيها :

ـ عسكرى .. واحنا مالنا ومال العساكر .. احنا ما نعرفش عساكر !

وقال عبد الحميد وهو يكاد يرتجف :

ـ فين هوه ده .. هو واقف دلوقت تحت ؟!

قالت نوال :

ـ أيوه .. تعال حتى شوفه !

وقام عبد الحميد ، ووقف فى الشرفة مبتعدا عن حاجزها ، وأشارت نوال إلى الرجل الغريب الواقف مستندا إلى عامود النور..

ودخل عبد الحميد بسرعة إلى الحجرة وهو يقول لنوال :

ـ وبقى لك أدايه وانتى بتشوفى الرجل ده ؟

قالت وهى تنظر إليه فى إشفاق :

ـ من مدة أربع أيام !!

وسكت عبد الحميد ، وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة وهو يفرك إحدى يديه بالأخرى فى عنف ، وسامية تنظر إليه مبتهلة كأنها تستجديه كلمة يطمئنها بها ..

وقالت نوال وهى لا تزال تنظر إليه فى إشفاق :

ـ تفتكر إنه بوليس ؟!

وقال عبد الحميد فى حدة :

ـ ماعرفش ..
ثم خرج من الحجرة مسرعا وسامية خلفه تصيح :
ـ عبد الحميد .. رايح فين ؟!
ورد عليها عبد الحميد وهو متجه نحو باب الشقة :
ـ رايح أشوف الراجل ده ماشى ورايا ليه !
وخرج وصفق الباب وراءه ..
وشهقت سامية كأن قلبها قد اختنق بين ضلفتى الباب !

●●●

نظر عبد الحميد إلى الرجل الذى أشارت عليه نوال ، ثم سار متجها إلى شارع الجيزة .. وتلفت خلفه فإذا بالرجل يتبعه عن بعد..

ووقف عند محطة الترام ، فإذا بالرجل يلحق به ويقف على الجانب الآخر من المحطة ؟

وركب الترام نمرة « ١٥ » ، ونظر خلفه فإذا بالرجل يركب خلفه فى نفس العربة ..

ونزل من الترام فى ميدان العتبة الخضراء ، ورأى الرجل ينزل خلفه ويتبعه .

وركب الترام نمرة « ٨ » المتجه إلى شبرا ، وركب معه الرجل .. ونزل عند شارع شيكولانى ، فنزل الرجل خلفه ..

وسار إلى بيته والرجل يتبعه ..

ودخل بيته ، وأطل من النافذة ، من خلال ألواح « الشيش » فإذا بالرجل واقف قبالة البيت مستندا إلى جدار ، وقد فرد جريدته أمام وجهه ..

وترك النافذة ، وانهار على مقعد ، وأسقط رأسه بين يديه .. وأحس بمرارة حادة تقطر من قلبه ، ويكاد يذوق طعمها بلسانه ...

إنه يحس بهذه المرارة منذ ذهب إلى المحافظة وقابل الاميرالاى همام بك .. مرارة الفشل .. مرارة الإهانة المضاعفة التى لحقت بذكائه ، عندما خدعه إبراهيم وترك البيت دون أن يعلم ، ثم عندما تسرع وقابل همام بك واكتشف أنه لا يستطيع أن يقول له شيئا ، واضطر أن يكذب عليه ..

وكان يحاول أن يتغلب على هذه المرارة .. أن يبتلعها ويهضمها كما استطاع أن يهضم كثيرا من الأخطاء التى ارتكبها فى حياته ..

كان يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس إنسانا فاشلا ، ولكنه إنسان ذو ضمير .. وأن ضميره هو الذى غلبه !

وكان فى حاجة إلى سامية أكثر من حاجته إليها فى أى وقت مضى .. إنها تمثل اقتناعه بأنه لم يفشل .. وهى الوحيدة التى تمده بالثقة فى نفسه ، وتشعره بغروره .. وهى لم تعد تتدلل عليه ، ولا تصده ، ولا تتهمه بسوء الخلق ، بل منذ لحقت به فى « المحافظة » وهى تنظر إليه كإنسان كبير ، وتعتقد أنه كذب على همام بك من أجلها .. من أجل حبها .. أنقذ البيت كله إكراما لخاطرها .. ومنذ ذلك اليوم وهى تتودد إليه ، وتعطيه من اهتمامها وحنانها أكثر مما أعطته طول حياتها .. وتدفعه إلى الإصرار علي الزواج بها .. تدفعه بكلمات ملفوفة فى طيات حيائها .. ولكنه رغم ذلك لم يعد يستطيع أن يحتفظ بإصراره ، ولم يعد يشعر بالقوة والذكاء اللذين يصر بهما على مطالبه .. كان يشعر بالضعف ، ومن خلال ضعفه بدأ يعترف لنفسه بنقائصه .. بدأ يحس بالندم على حياته كلها .. الندم على عربدته .. والندم لأنه لم يتم تعليمه وينل شهادته .. ومن خلال ضعفه أيضا أصبح حبه لسامية اكثر رقة ، وبدأ يشفق عليها من نفسه ، ومن مصيرها معه .. لم يعد فى حبه هذا التحدى ، وهذا العنف ، وهذا الذكاء .. وكلما اشتد إحساسه بضعفه ، اشتد إحساسه بحاجته إلى سامية .. فيذهب إليها مستسلما ، مستكينا ، صابرا .. لا يحاول أن يقحم نفسه على قلبها ، ولا يحاول أن يفاتح عمه فى موضوع الزواج .. عمه الذى تجاهل هذا الزواج منذ خرج إبراهيم من البيت ، وكأنه لم يعط به وعدا ..

وكان يعتقد أن فشله سينتهى عند هذا الحد .. لن يكون له عواقب أخرى .. فقط سينتظر فترة ما ، إلى أن تمتص الأيام ما يحس به من مرارة ، وإلى أن يتقرر مصيره مع سامية .

ولم يكن يعتقد أن البوليس سيتعقبه ، ويراقبه .. لم يكن يعتقد أن همام قد اكتشف كذبته ، فقد كان يبدو أمامه مصدقا ، مهذبا ،

كأنهما أصدقاء .. هذا الثعلب .. هذا المجرم .. هذا السفاح ..
وشعر أن له عدوا ..
عدو قاس ظالم ..
همام ..
البوليس ..
كل رجال البوليس ..
ورفع رأسه من بين يديه ، وقام واقفا وأخذ يطوف فى أنحاء الشقة الصغيرة البسيطة الكالحة الأثاث التى يقطنها وحده .. وهو يفكر .. كيف يهرب من همام .. كيف يهرب من البوليس .. إنه هو الآن الذى يهرب من البوليس لا إبراهيم .. وخبط مقعدا صادفه فى طريقه ببوز حذائه .. ثم أسند رأسه على الحائط وأخذ يخبط عليه بقبضتيه ، كأنه إنسان وجد نفسه فى السجن ، وجدران السجن تنطبق على جسده حتى تكاد تحطم ضلوعه ..
ودخل الخادم الذى عاش معه فى عربدته منذ استقل بالسكن بعيدا عن أهله .. خادم من أولاد البلد ، كل شىء فيه نشط وتحس أنه يستطيع أن يفعل كل شىء .. يكنس ، ويطبخ ، ويغسل ، ويرتق الجوارب ، ويعد جلسات الحشيش ، ويتفاهم مع الصنف الرخيص من النساء ، وفيه نعومة وتثن ، كأنه نصف رجل .. وفيه صفاقة كأن ليس فى الحياة كلها ما يستوجب الحياء .. وفيه ذكاء مريب .. وفيه أيضا إخلاص عاطفى ، وشهامة لا ترتكز على أخلاق .. نوع من الخدم تجده دائما فى بيوت الطلبة وصغار الموظفين العزاب ..
ونظر الخادم فى جزع إلى سيده . وهو يضرب الحائط بيده ، وقال فى لهفة نسائية وبلهجته المتميعة :
ـ خير يا سى عبد الحميد .. كفى الله الشر .. حصل إيه يا سيدى !
ورفع عبد الحميد رأسه وصرخ فيه :
ـ ابعد عنى .. غور من وشى ..
وقال الخادم فى توسل :
ـ إيه بس يا سيدى .. إيه اللى جرى !

وصرخ عبد الحميد مرة ثانيـة وهو يتقدم نحوه كأنه يدفعه من أمامه :

ـ با أقولك غور من وشى .. غور ..

وطأطأ الخـادم رأسه دون أن يتـحـرك من مكانه ، ثم رفـعـهـا وقال:

ـ مش حاتفطر يا سى عبد الحميد .. المدفع قرب يضرب .. احنا ماطبخناش النهارده .. حضرتك نزلت من غير ماتدينى فلوس !

ورفع عبد الحميد كفه وهو بها على صدغ الخادم .. وفى نفسه إحساس يدفعه بأن يضـرب أى شىء .. الحائط ، الخادم ، نفسه .. أى شىء .. وصرخ :

ـ مش حاتسمم النهارده .. مافيش سم النهارده .. فاهم .. انزاح من قدامى .. انزاح باقول لك ، قبل ماشرحك !

وتلقى الخادم الصفعة ، وانسحب من الغرفة ، ذليلا كالكلب

وقرر عبد الحميد ألا يخرج من البيت ..

و ظل حائرا ..

ودوى مدفع الإفطار .. وصرخ فى خادمه يأمره بإحضار قطعة من الجبن ورغيف عيش ..

وألقى بالطعام فى جوفه دون أن يحس بطعمه ..

ثم لم يسـتطع أن يبقى فى بيـته .. وقرر أن يخـرج .. بأى ثمن ومهما حدث .. إنه سيختنق .. إن لم يتحدّ البوليس .. وهمام بك !

ودخل الحمام .. وفتح الدش فوق رأسه كأنه يستغيث بالماء من النار التى تندلع فى صـدره .. وارتدى ثيابه ، ثم نزل .. وسـار فى الشارع مـتجها إلى شـارع شبرا .. ونظر خلفه ليـجد نفس الرجل يتبعه ..

وسـار فى شارع شـبرا طويلا فـوق الرصيف .. ثم نزل فـوق الرصيف فجأة ، وجرى خلف عربة ترام وتعلق فيها ..

ونظر خلفه ..

كان رجل البوليس ، واقفا فوق الرصيف ينظر إليه ، ويبتسـم ..

وأحس أنه ضلل البوليس ، هرب من همام بك ..

ولكن لماذا كان رجل البوليس يبتسم ؟!

وهز كتفيه بلا مبالاة .. واكتفى بأن اتهم رجل البوليس بالبلاهة!

واتجه إلى المقعد الذى تعود أن يجلس فيه .. ولم يعد ينظر وراءه خلال سيره .

وصافح أحد زملائه فى المقهى ، وجلس معه ، وطلب صندوق الطاولة .

وأخذ يلعب الطاولة ، وفكره كله مشغول بالبوليس ..

ورفع رأسه فجأة ..

وشهق ..

إن رجل البوليس واقف هناك .. قريبا جدا من المقهى .. وهو ينظر إليه ، وبين شفتيه ابتسامته البلهاء ..

إذن ، لقد عرف البوليس كل الأماكن التى يتردد عليها ..

أصبح محاصرا ..

وابتلع شهقته ، واعتذر لصديقه عن الاستمرار فى اللعب .. ثم قام منكس الرأس واتجه إلى بيته ..

ولم ينظر وراءه ..

فقد كان ظل رجل البوليس يسبقه .. يرى خيالا أسود ينطلق من أفكاره المشوشة ، ويفرش أمامه الطريق .

١٥

ولم ينم عبدالحميد..

أخذ يتقلب فوق أفكاره السود .. والظلام يملأه..

ظلام فى قلبه، وظلام فى رأسه، وظلام فى عروقه..

وينتابه الفزع من هذا الظلام، وتجحظ عيناه كأنه المخنوق، ثم يغمض عينيه ليهرب من الظلام، فيجد الظلام تحت جفنيه!

وكانت كل فكرة تخطر له، تغزوه فى جنبه كالشوكة، ويكاد يصرخ منها.. يصرخ غيظا، وحقدا وخوفا..

فكر أن يذهب مرة ثانية إلى همام بك، ويروى له القصة كاملة، ويطلب منه أن يعفيه من هذه المراقبة وهذا الحصار المفروضين عليه..

ولكنه لا يستطيع.. لم يعد ضميره وحده الذى يمنعه من أن يبلغ البوليس عن ابراهيم وعن عمه وعن أولاد عمه.. أنه الحقد أيضا.. الحقد على همام.. إنه يشعر بكراهية عجيبة له.. كأنه اختزن طاقته الثورية كلها طول عمره ليصبها اليوم حقدا على همام، وعلى البوليس..

لقد أصبح همام يمثل أمامه شاهد فشله، وغبائه.. وفكر أن يقتل هذا الشاهد.. أن يقتل همام.. حتى لا يعود أحد يشهد على أنه انسان فاشل، جشع، ضعيف..

ولكنه اضعف من أن يقتل همام..

وفكر أن يهرب من القاهرة كلها.. أن يختفى فى مكان ما بعيدا عن عين همام.. ولكن لماذا يهرب؟ ولماذا يراقبه البوليس؟

أن ما يغيظه ويخنقه أنه لا يجد شيئا يقنع به نفسه أنه يستحق مراقبة البوليس.. لا يستطيع أن يقنع نفسه بأنه بطل وطنى يطارده البوليس.. إنه ليس بطلا.. وليس وطنيا.. بالعكس.. لقد كان اقرب إلى البوليس، منه إلى الأبطال الوطنيين!

وأحس بالندم لأنه لا يستطيع أن يحس بإحساس البطل.. لا يستطيع أن يجد شيئا يؤمن به ويتحمل فى سبيله مراقبة البوليس!

وقام فى الصباح مقرح الجفنين، مشتت الذهن، خائر الأعصاب.. وأطل من النافذة بعينين مضطربتين، يبحث عن الرجل الذى يراقبه، فلم يجده.. لم يجد الرجل الذى كان يراه بالأمس.. ماذا حدث؟! أين ذهب؟! هل أعفاه من اهتمامه؟ هل تأكد أنه برئ وأنه لا يستحق المراقبة؟

ولم يفرح.. ولم يطمئن.. أن قلبه لا يزال منقبضا، ولا يزال الظلام يملأه.

وأغتسل ولبس ثيابه، وهو ساهم، حتى نسى أن يحيى خادمه بالسباب كما تعود أن يحييه كل صباح..

وخرج من البيت فى طريقه إلى الشركة التى يعمل بها.. وبحركة تلقائية التفت خلفة، فلم ير انسانا معينا يتبعه.. وسار بضع خطوات والتفت خلفة مرة ثانية، فخيل إليه أن هناك من يتبعه.. انسان آخر غير الذى كان يتبعه بالأمس.. والتفت مرة ثالثة.. إنه انسان يرتدى جلبابا وفوقه معطف، وعلى رأسه طربوش طويل كطرابيش رجال البوليس.. ووقف على محطة الترام، فوقف الرجل على الناحية الأخرى من رصيف المحطة..

وتأكد أن هذا الرجل يتبعه.. إن همام بك استبدل عينه بعين أخرى..

وبدأت نوبة من الاضطراب الشديد تسرى فى اعصابه.. أخذ دمه يرتعش داخل عروقه.. ثم يبرد.. كأنه تجمد.. وكأنه يرى الموت..

وركب الترام ثم قفز منه اثناء سيره..

وقفز الرجل الآخر خلفه..

ولم يكن لعبد الحميد خبرة الشبان الثائرين الذين يوضعون تحت مراقبة البوليس.. لم يكن يعلم أن دليل الاتهام لدى البوليس هو محاولة الهرب من رقابته، وأن المتهم الذى يتظاهر بعدم شعوره بمراقبة البوليس، تعلن براءته.. لا لشئ إلا لأنه لا يشعر بأنه متهم وبالتالى لا يشعر بأنه مراقب.. فهو برئ!

لم يكن عبدالحميد يعلم ذلك، فأخذ يتهرب من الرجل الذى يتبعه.. يقفز من ترام إلى ترام.. ويركب سيارة أجرة، ثم يتركها.. ويدخل مبنى الشركة ثم يخرج منها.. ويتجه إلى الجيزة ثم يعود يتجه إلى مصر الجديدة.. فاذا غاب الرجل الآخر عن عينه، خيل إليه أن هناك غيره.. إن أى رجل فى الطريق يتبعه.. كل الرجال يتبعونه.. كلهم من رجال البوليس سلطهم عليه همام بك..

وأصبح كالمجنون..

يجرى فى الطريق.. ولا يستريح إلا حيث لا يكون..

وكل شئ فيه يلهث فى فزع، كأن النار وراءه وأمامه ومن حوله..

وجاء المساء وهو منهك.. أغبر الوجه.. وخصلات من شعره تتطاير فوق رأسه كأنها أكثر فزعا منه.. وثيابه تهدلت فوق جسده.... طار رباط عنقه فى ناحية، واتسخت ياقة قميصه ببقع من عرقه، وانكمشت سترته.. وأحس بالتعب.. تعب شديد.. أحس أن قواه كلها قد تخلت عنه.. لم يعد يستطيع أن يجر ساقيه.. ولم يعد يستطيع أن يقف.. ولم يعد يستطيع أن يفتح عينيه.. أنفاسه بدأت تتهدج فى صدره، لأنه أيضا لا يستطيع أن يتنفس.. ولم يكن قد ذهب إلى بيته طول يومه، خاف أن يذهب إليه فيجد همام بك فى انتظاره.. ولم يكن قد أكل شيئا إلا «سندوتش» بالفول التهمة وهو واقف، وعيناه تدوران حوله تبحثان عن رجال البوليس الذين يتبعونه..

وأراد أن يذهب إلى سامية.. ليستريح!

أحس انه فى حاجة لأن يضع رأسه فوق كتفها، ويبكى..

إنهـا الوحيـدة التى تفهـمه.. وتحـبه.. كل الدنيـا تكرهه وتسئ فهمـه، ما عدا ساميـة.. وهو يجد فى فهمهـا وحبها، راحتـه وثقته بنفسه ورجولتـه.. إنها الناحية الوحيدة من حيـاته التى ظلت نظيفة طاهرة هادئة، لم يلوثها بذكائه!

وقرر أن يذهب إلى بيت عمه..

وركب الترام حـتي وصل إلى ميدان الجـلاء، ثم نزل منه وسار على قدميـه.. وهو دائما يشعر بأن هناك من يتبـعه.. ودائما يتلفت خلفـه.. والنظرة المذعـورة المضطربة لا تفـارق عيـنيه.. وسـار فى شارع الجيزة طويلا، ثم جرى خلف سيارة اتوبيس وتعلق بها..

ووصل إلى بيت عمـه.. ونظر خلفه، وأعتـقد أن لا أحد يتبـعه.. ودخل البيت..

وهمست سامية فى اذنه وهى تنظر فى اشفاق إلى حالة المضطرب:

ـ مالك؟

قال وهو يحاول أن يبتسم:

ـ ما فيش..

قالت وهى لا تصدقه:

ـ حصل حاجة؟!

قال وهو يرفع إليها عينيه كأنه يستغيث بها:

ـ لا .. ما فيش حاجة!

عرفت حكاية الراجل اللى بيمشى وراك؟

قال وهو يدير عينيه عنها حتى لا يفضحه اضطرابه:

ـ يعنى حا يعمل ايه اللى يمشى ورايا.. يتـفضلوا يمشوا ورايا.. أما نشوف حيحصل ايه!!

ونظرت إليـه ساميـة وهى لا تصدقـه ثم نكست رأسـها كأنـها تكبت ألما.. وعاد عـبدالحميـد يرفع إليها عينيـه كأنه يستجـديها ألا تزيد من متـاعبه.. ويسـتجديهـا أن تدعه يضع رأسـه على كتفـها، ويبكى.. ثم هزّ رأسـه فى حسـره، كأنه يطرد حـاجتـه إلى البكاء.. ودخل إلى حـجرة القـعـاد حيث تعـودت أن تجـتمع الـعائلة عـقب الإفطار..

ونظرت إليه الأم فى دهشة، وقالت:

ـ مالك يا عبدالحميد يا ابنى.. مالك معفر كده؟!

وقال عبـدالحميد، وهو ينحنى يقبـل يدها، ويحاول أن يشد من صدره المظلم ابتسامة:

ـ اصلى مـا رحتش البـيت النهـار ده.. قـعدت طول النهـار فى الشـغل!!

وقالت الأم:

ـ وفطرت؟!

قال وهو يستدير ليصافح عمه:

ـ أيوه .. فطرت فى الشارع!!

ومد الأب يده إلـيه دون أن يرفع وجهـه عن الجريدة التـى يقرأ فيـها، فالتقطهـا عبدالحمـيد وانحنى يقبلهـا.. دون أن يتكلم.. وقام محيى من المقـعد الأسيوطى العريض الذى يـجلس عليه، وقال وهو يخرج من الغرفة:

ـ أزيك يا عبده؟

ثم استطرد وهو يدير ظهره إليه:

ـ أما اروح اذاكر لى كلمتين!!

ونظرت إليه نوال بلهفة، وهى تحاول أن تقرأ أخباره على وجهه المضطرب، ثم سكتت، كأن ما قرأته شل لسانها..

وجلس عبـدالحميـد فى المقعد الأسـيوطى العـريض الذى تركه محيى..

وأحس بالراحة..

راحة كبيـرة، كأن روحه المصهورة بالنار تنفث ابخـرتها، لتعود باردة هادئة..

وشعر بالاطمـئنان.. والأمان.. كأن هذه العائلة البسـيطة الطيبة تستطيع أن تحميه من أخطائه..

وأحس أنه يريد أن ينام.. نوما طويلا عميقا، لا يزعجه فيه شبح همام بك..

ومال بظهره إلى الوراء، وأغمض عينيه برهة كأنه سينام فعلاً، ثم ما لبث أن فتحها على صوت جرس الباب الخارجى..

ولم يتحرك أحد من العائلة لسماع رنين الجرس.. ظل الأب مسقطا رأسه فى صفحات جريدته.. والأم تفرد بين يديها ثوبا قديما ثم تطويه وهى تفكر فى طريقة تحيل به هذا الثوب إلى شئ آخر جديد.. وسامية تنظر إلى عبدالحميد وتتنهد.. ونوال تطلق خيالها وراء ابراهيم، ثم تنتبه لتقلب فى صفحات مجلة، ثم تعود وتجرى وراء خيالها.. ثم تتعب من الجرى، فتمد يدها وتلتقط بعض حبات البندق من الطبق الموضوع بجانب أكواب الشاى الفارغة، وتبدأ فى تكسيرها بأسنانها..

وسمعوا صوت اقدام سنية الخادمة، وهى تتجه نحو الباب.. ثم سمعوا صوت الباب يفتح.. وسمعوا صوتا غليظا يتحدث، وإن لم يتبينوا كلامه.. ثم عادت واجتازت غرفة القعاد فى طريقها إلى غرفة محيى، ولكن الأم أوقفتها صارخة دون أن ترفع رأسها عن الثوب القديم:

ـ مين يا بت؟!

وأطلت سنية برأسها الصغير عليهم قائلة:

ـ دول جماعة بيسألوا على سيدى محيى!

وأزاح الأب الجريدة من أمام وجهه وقال فى دهشة:

ـ جماعة أيه؟!

وقالت سنية:

ـ ما أعرفش يا سيدى.. تلاتة رجالة كبار.. شكلهم كدة ما أعرفش إزاى!!

وقفز عبدالحميد إلى مقدمة المقعد الذى يجلس عليه وقد فتح عينيه على سعتهما ورفعت الأم رأسها عن الثوب القديم، وتبادلت العائلة نظرات حائرة مضطربه ثم اتجهت الانظار كلها إلى الأب..

وصمت الأب فترة وقد قطب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يخترق الجدران بعينيه.. من يا ترى بالباب.. ليس من عادة اصدقاء محيى أن يزوروه فى البيت.. وسنية الخادمة تصفهم بأنهم رجال

كبـار .. وليس لمحيى أصـدقاء كبـار؟!!
وتحركت سنيه الخـادمة لتكمل طريقها إلى غرفـة محيى، ولكن الأب أوقفها قائلا فى صوت عميق يجذبه من بين افكاره المضطربه:
ـ ادخلى انتى المطبخ..
ثم استطردت مخاطبا نوال:
ـ قومى انتى يا نوال شوفى مين.. واستفهمى كويس!
وقامت نوال.. وما كادت تجتاز باب الغرفة، حتى فوجئت برجل طويل يرتدى جـبلابا وفـوقه مـعطف أسود، وعلى رأسـه طربوش، يقف فى عـرض الباب الذى يفـصل بين الصالة الخـارجيـة، والممر الذى يؤدى إلى باقى غرف البيت.. وينظر إلى الداخل نظرات وقحة جريئة..
وشـهقت نوال..
وارتدت خطوة..
ثم كتمت شـهـقتها، وتقدمت فى خطوات مهتـزة، وقلبها ينتفض بعنف فى صدرها، وتنتفض معه رموش عينيها..
وقالت وهى تحاول أن تسيطر على انتفاضة صوتها:
ـ حضرتك عايز مين؟!
ولم يتكلم الرجل.. ظل واقفا ينظر إليـها من عل.. ثم رفع ذراعه وأشار لهـا بأصبـعه إلى رجل آخـر يقف فى وسط الصالة مـرتديا بذلة مدنية أنيقة ويضع يده فى جيب سترته كأنه يقبض على شئ..
وتقـدمت نحو الرجل الآخـر بعينين مـتسـائلتين، فـابتسم لـها ابتسامة لزجة مفتعلة، وقال فى لهجة حاول أن يجعلها مهذبة:
ـ الاستاذ محيى زاهر موجود؟!
وقالت نوال وهى تضغط بكل أعصابها فى رعشتها:
ـ نقول له مين؟
ونظر إليها الرجل مليا، كأنـه يشفق عليها، ثم قال ويده لا تزال فى جيب سترته:
ـ البوليس!!
وشـهقت نوال شـهقة حادة لم تسـتطع أن تحبسها، ورفعت يدها

ووضعتها فوق شفتيها، كأنها تكتم انفاسها، ثم قالت بصوت لاهث:

- بوليس.. بوليس.. ليه؟!!

وقال الرجل وابتسامته اللزجة تسيح فوق شفتيه:

- ما فيش حاجة.. بس أديله خبر!

وجرت نوال إلى الداخل كأن النار أمسكت بثيابها، ودخلت غرفه القعاد، وهى تصيح كأنها تنعى ميتا:

- البوليس!!

وهب الأب واقفا وهو يمسك بنظارته الذهبية بكلتا يديه حتى لا تسقط فوق انفه، وقال وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه:

- بتقولى أيه.. بوليس؟!

وخبطت الأم على صدرها وهى تصيح كأنها تعدد وراء نعش:

- يا مصيبتى.. بوليس.. يامصيبتى.. يا مصيبتى.. آدى أخرتها يا زاهر.. قلت لك من الأول يا زاهر.. و..

ونهرها الأب فى صوت خافت:

- بس يا تحية.. أمسكى نفسك أعملى معروف، أحسن نروح كلنا فى داهية.. ما فيش حاجة حاتحصل.. احنا خايفين ليه؟!!

وشد قامته وساوى فتحة جلبابه حول عنقه، ومد يده يصلح من وضع الطاقية فوق رأسه، كأنه يحاول أن يعطى مثلا بشجاعته لباقى أفراد العائلة..

وظل عبدالحميد جالسا.. وأنكمش فى مقعده، وقال بصوت خافت كأنه يحادث نفسه:

- دول عايزينى انا.. انا عارف.. عايزينى انا!!

وقالت نوال فى حسرة وقد سمعته :

- لا.. دول بيسألوا على محيى!!

وأخذت سامية تدير عينيها بين افراد العائلة، وتلتقط كلماتهم، ثم اسقطت رأسها فوق صدرها، واخذت تنشج بالبكاء، وقالت فى كلمات ممزقه:

- انا قلبى كان حاسس بكده.. كنت عارفة أن كل ده حيحصل لنا!!

ونهرها الأب وهو يهمس فى صوت خافت محتد:
ـ بس بلاش عياط.. ما تودناش فى داهية.. أعملو نفسكم ما تعرفوش حاجة!!
ثم وضع قدميه فى الشبشب، وقال لنوال:
ـ روحى أندهى لأخوكى وخليه يحصلنى!!
ثم خرج من الغرفة، والتقى بالرجل الطويل الذى يقف على عرض الباب بين الصالة والممر الداخلى.. فتوقف قليلا.. وشعر كأن هذا الرجل قد صفعه.. كأنه أهين.. كأن شرفه وكرامته قد سلبا منه.. كيف يسمح هذا الرجل لنفسه بأن ينظر إلى داخل البيت بهذه الوقاحة.. بأى حق يعتدى على حرمة البيت؟!!
ودارى احساسه بالصفعة التى لطمت كرامته، وتقدم بضع خطوات وهو يبحث بعينيه عن الآخرين..
وأجتاز الرجل دون أن يحييه، كأنه يرد له الإهانة، ووجد نفسه فى الصالة أمام الرجل الآخر الذى يرتدى البدلة المدنية الأنيقة، والتفت فرأى رجلا ثالثا يقف بجوار باب الشقة يرتدى جلبابا بلديا..
وقال الرجل الأنيق، وابتسامته اللزجة لا تزال فوق شفتيه، ويده لا تزال فى جيب سترته:
ـ حضرتك والد الاستاذ محيى زاهر؟
وقال الأب، وهو يحاول أن يبدو هادئا:
ـ أيوه.. فيه خدمة؟!
وقال الرجل:
ـ أمال فين محيى؟!
ونطق اسم محيى بلا تكليف كأنه صديقه..
وقال الأب:
ـ بيذاكر.. جاى حالا!
وجاء محيى.. ممتقع الوجه، يسير فى خطوات مترددة مرتعشة، ونظراته حائرة خلف نظارته كأنها حبيسة فى قفص من زجاج، ووقف ملتصقا بوالده كأنه يحتمى به.. ونظر إلى الرجل دون أن يتكلم..

وقال الرجل الأنيق، وهو يحاول أن يكون انيقا فى كلماته:
ـ أزيك يا محيى؟!
وقال محيى وهو يبدو كالأبله:
ـ الله يسلمك!
وقال الرجل ملتفتا إلى الأب، فى لهجة أكثر جدية:
ـ تسمحوا لنا نفتش البيت؟!
وتنهد الأب كأن هما ثقيلا انزاح من فوق صدره.. إنه واثق انهم لن يجدوا أحدا فى بيته.. وقال متعجلا:
ـ اتفضلوا..
ثم اكتشف تعجله، فاستطرد قائلا:
ـ ليه؟!
وقال الرجل وهو يبتسم:
ـ مجرد اجراء.. روتين!!
وقال الأب ، كأنه يدافع عن بيته:
ـ حضرتك تبقى..
وقاطعه الرجل فى زهو:
ـ انا اليوزباشى محمود الدباغ، من القلم السياسى..
وأرتعش محيى رعشة خفيفة ، ونكس الأب رأسه .. فقد كان اسم محمود الدباغ ، اسما خطيرا مخيفا يقترن دائما باسم همام بك، ويتردد دائما فى كل حركة وطنية كعدو للطلبة وعدو للناس.
وقال الأب وهو لا يزال منكس الرأس :
ـ تسمحوا تبتدو بأودة الضيوف لغاية ما أدى خبر للستات ؟
وقال الضابط فى أدب سمج :
ـ أتفضل يا أفندم !!
واتجه الضابط إلى غرفة الضيوف التى أشار إليها الأب، وفتح بابها، ونظر فيها بلا مبالاة دون أن يدخلها.. بينما كان محيى قد أسترد بعض شجاعته وأخذ ينظر إليه كأنه يرى أسطورة مجسمة.. هذا هو محمود الدباغ.. الرجل الذى يطالب زملاؤه الطلبة برأسه فى كل مظاهرة.. إنه أقصر مما كان يعتقد.. وأعرض قليلا مما كان

يرسمــه فى خياله.. وهو يبـتسـم، ولـم يكن يعـتقد أنه يبـتسـم وهو يتحدث فى هدوء، وقد كان يعتقد أنه لا يتكلم إلا سبابا وصفعا.

وأحس برغبة خفية فى أن يتحدى هذا الضـابط.. محمود الدباغ.. انه مطمئن إلى أن هذا الدباغ لن يجـد شيئا ولا أحـدا فى البيت. لن يجد ابراهيم حمدى.. ورغم ذلك فالشعور بالاطمئنان لا يكفيه.. إنما هناك شعور آخر يدفعه إلى التحدى.. كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه لا يخاف.. كأنه يحاول أن يمثل قصة يرويها لزملائه يوما ما.

كيف يتحداه؟

وأستغـرق فى حديث بينه وبين نفسه : «لماذا لا يـسأله عن أمر التفتـيش.. إن البوليس لا يستطيع أن يقتـحم بيتا ويفتـشه إلا بأمر النيابة.. فهل اسـتصدر محمود الدباغ أمرا من النـيابة.. إن من حقه أن يطلع على هذا الأمر قـبل أن يسمح له بالتفتـيش.. ومن حقه أن يمنعـه من التـفتـيش إذا لم يكن مـعـه هذا الأمر.. فليـســأله عنه، وليطالبه بأن يبرزه له.. مكتوبا، مختوما بختم النيابة»..

وأحس مـحيى بالزهـو ـ بينه وبين نفســه ـ وهو يكتـشف هذا الاستـشكال القـانونى. وتصور نفـسه اسـتاذا كـبيرا من أسـاتذة القانون.. يحتمى بالقانون ولا يستطيع أحد أن يخدعه فيه.

ورفع عينيه إلى اليوزبـاشـى محمود الدباغ، فواجهتـه الابتسامة اللزجة، تطل من تحت نـظرة ساحرة مسـتهتـرة كأنه يستـهين به، ويحتقره!!

وأرتعـشت عينا مـحيى، ورفع أصـبـعه يضـغط به على قنطرة نظارته، ولم يتكلم.. شئ يمنعه من الكلام.. كـأنه يخاف إن تكلم أن يغضب اليوزباشى الدباغ، فيصفعه، أو يطلق عليه الرصاص.. يجب أن يتكلم.. يتحرر من الخوف.. ويتكلم!!

وكـان لا يزال يحـاول الكلام، عندمـا عاد الأب، وقـال لضـابط البوليس :

ـ تفضلوا..

وتقدم الرجال الثلاثة إلى الداخـل.. ومحيى خلفهم، وهو لا يزال يمنى نفسه بالكلام، ويحاول أن يتحين فرصة يتكلم فيها.

ودخل اليوزباشى الدباغ حجرة الأب وهو يسأل :
ـ دى أودة سعادتك؟
وأجاب الأب فى استسلام، وقد اكتسى وجهه المتقع حمرة حقيقية، كأن دماءه ثارت لدخول رجل غريب إلى غرفته.. الغرفة التى ينام فيها هو وزوجته:
ـ أيوه ..
وأجال الدباغ عينيه فى انحاء الغرفة فى استهتار ثم خرج منها سريعا دون أن يعلق بشئ..
ومر الجميع بالمطبخ ـ وهو على الناحية المقابلة من باقى الغرف ـ فأشار الدباغ إلى أحد الرجلين، فدخل ليفتشه وحده.. وأستمر هو فى طريقه، ووصل إلى غرفة القعاد ووقف على بابها ينظر إلى الأم وبنتيها وإلى عبدالحميد نظرات وقحة، وهو يقول:
ـ لا مؤاخذة..
وأشاحت عنه الأم برأسها. ونظرت إليه سامية نظرة واحدة ثم خفضت عينيها، وهى تبذل جهدا كبيرا فى حبس دموعها.. وكانت نوال واقفة مستندة إلى باب الشرفة، فأدارت رأسها ناحية السماء، وهى تحاول أن تحتفظ بعينيها ناحية الرجال.. ووقف عبدالحميد، ورفع يدا مترددة بتحية مرتجفة صامتة، وهو يبدو شاحبا كأن اضطرابه قد امتص روحه..
وأتسعت الابتسامة اللزجة، وقال اليوزباشى الدباغ فى سخرية:
ـ أزيك يا سى عبدالحميد؟!
والتفت الأب فى حدة ناحية الضابط كأنه يسأله كيف عرف أسم عبدالحميد؟!
ولم يجبه الضابط على نظرته المتسائلة إنما ظل محتفظا بابتسامته اللزجة كأنه يتلذذ بهذه الدهشة التى أصابت الأب ثم التفت إلى الرجل الآخر الذى يصحبه وقال له هامسا :
ـ شوفه !!
وخطى الرجل داخل الغرفة، ومد كلتا يديه إلى عبدالحميد، فابتعد عنه عبدالحميد، وقال فى فزع:

ـ ايه .. عايز ايه ؟!
وقال الدباغ وهو لا يزال واقفا عند الباب:
ـ سيبه يفتشك يا سى عبدالحميد.. دى حاجات بسيطة!!
وتحسس الرجل ثياب عبدالحميد من تحت ابطيه حتى ركبتيه والعائلة تنظر إليه فى فزع مشوب بالدهشة، ولما أطمأن إلى أن عبدالحميد لا يحمل سلاحا تركه وعاد يقف خلف ضابطه، بينما سقط عبدالحميد على المقعد كأنه لم يعد يستطيع الوقوف.
وانتقل الجمع إلى غرفة البنتين، ووقف الضابط على بابها دون أن يدخلها أيضا، وسأل:
ـ ودى أودة مين؟!
وأجاب الأب مستسلما :
ـ أودة البنات!!
وتحرك الجميع، ومحيى لا يزال يسير فى الخلف، يشجع نفسه على اثارة الاستشكال القانونى الذى خطر له.. ولم يعد يمنى نفسه بمنع التفتيش، بل كان كل ما يتمناه أن يتباهى أمام اليوزباشى الدباغ بمعلومته القانونية، ويتحداه بها.. وكان فى نفس الوقت يتعجب من البساطة واللامبالاة التى يجرى بها تفتيش البيت.. لقد كان يتصور عندما يقرأ عن بيت هاجمه البوليس ليفتشه، أن كل شئ فى البيت قد قلب رأسا على عقب . لم يكن يتصور أن التفتيش هو مجرد هذه النظرات التى يطلقها الدباغ من بعيد.
ووقف اليوزباشى الدباغ، أمام غرفة محيى قائلا:
ـ أظن دى تبقى أودة محيى؟!
وأجاب الوالد، وهو يزفر:
ـ أيوة..
وقال الدباغ:
ـ طيب نقعد هنا شوية!!
وقبل أن يدخل إلى الغرفة، لحق به معاونه الذى أمره بتفتيش المطبخ والحمام ونظر إلى قائده نظرة ذات معنى، كأنه يقول له أن التفتيش لم يسفر عن شئ.

ودخل الدباغ إلى الغرفة..

وترك الرجلين اللذين يصحبانه يعبثان فيها فى اهمال، وجلس هو إلى مكتب محيى يفتش فيه بنفسه..

ولم يكن الدباغ ينتظر أن يجد شيئا.. ولم يكن يبحث عن شخص ابراهيم حمدى.. فقد كانت تحرياته خلال اليومين السابقين قد دلته على أن ليس فى هذا البيت رجل غريب.. إنما كان يفتش عن أى شئ يفسر الدوافع التى دفعت عبدالحميد إلى تقديم بلاغ كاذب إلى همام بك عن ابراهيم حمدى.. وهو بلاغ اثار ريبة همام.. اثارها إلى حد كبير.. إلى حد لم يقره عليه معاونه محمود الدباغ.. ورغم ذلك فقد راقب عبدالحميد، ثم بدأ يرتاب فيه حين بدأ عبدالحميد يحاول الهروب من المراقبة.. وانتهى من مراقبته بأن هاجم بيته فى شبرا - اثناء غيبته عنه - ثم جاء إلى هذا البيت.. وقرر أن يفتشه أيضا، دون أن يكون على ثقة بأنه سيجد شيئا.. إنما مجرد اجراء لا ضرر منه.. قد ينفع، ولا يضر..

وأخذ يفتح ادراج المكتب واحدا بعد واحد، ويفتح الكتب والكراسات بأصابع خبير فى فنون التفتيش.. قد يعثر على منشور مما يحتفظ به الطلبة فى ادراجهم.. قد يعثر على مذكرات.. قد يعثر على أى شئ يدل على وجود صله بين محيى واحدى الجمعيات السياسية..

وتقدم منه محيى مترددا، واستجمع شجاعته، ثم انطلق مرة واحدة قائلا:

- حضرتك معاك أمر من النيابة بالتفتيش؟

وقال الدباغ، وقد انتهى من تفتيش الادراج، وبدأ يعبث فى الأوراق الموضوعة فوق الكتب:

- ياسيدى ما تدقش!

وقال محيى وقد بدأ يتعود الكلام:

- إنما القانون بيحتم أن ..

وقاطعه الدباغ قائلا فى سخرية :

- هوه فيه قانون؟!

وقال محيى وقد تشجع:

ـ أيوه فيه قانون..

وقال الدباغ وهو ينظر فى الأوراق التى يعبث بها:

ـ عندكم بس.. فى الكلية.. فى كراسة المحاضرات.. إنما البلد ما فيهاش قانون.. على كل حال أطمن.. ما فيش حاجة!!

وأحس محيى أنه لا يستطيع أن يقول أكثر مما قال، فسكت وهو مغتاظ.

ومرت فترة قصيرة والدباغ يعبث فى الأوراق الموضوعة فوق المكتب..

وفجأة، التفت فى حدة إلى محيى، وهو ممسك بورقة فى يده، وقال فى صوت قوى كطلقة مدفع الإفطار:

ـ انت تعرف جميل عزت منين؟

وارتبك محيى، وقد فوجئ بلهجة الضابط، والنظرة الخطيرة التى تطل من عينيه، وقال:

ـ جميل عزت مين.. ما اعرفوش!!

ونظر إليه الدباغ مليا.. نظرة فاحصة، قاسية، كأنه يحاول أن يشج رأسه بعينيه ليرى ما فيها، ثم أشاح عنه، وأخذ يقرأ الورقة التى فى يده الثانية.. وقرأ فى همس:

« عزيزى الملازم أول جميل عزت..

«بعدالتحية.. كان يجب أن أكتب إليك لأبرر ما فعلته و...»..

وأستدار اليوزباشى الدباغ ناحية المكتب، وفتح كراسة من كراسات محيى وأخذ يقارن بين خطه ، والخط المكتوب به فى الورقة.. ثم التفت إلى محيى وفى احدى يديه الكراسة، وفى اليد الأخرى الورقة التى عثر عليها، وقال وهو يقرب الكراسة من وجه محيى:

ـ مش خطك ده؟!

وأجاب محيى وهو يرفع أصبعه ويضغط على قنطرة نظارته:

ـ أيوه ..

وأزاح الدباغ الكراسة من أمام وجهه وقرب إليه الورقة التى يحملها فى يده الأخرى وقال :

ـ وده يبقى خط مين؟!
وامتقع وجه محيى، وقال وهو يرتعد:
ـ ما أعرفش. ما أعرفش.. مش خطى!!
وقال الدباغ وهو يركز عينيه فوق وجهه:
ـ عارف انه مش خطك.. إنما خط مين؟!
وقال محيى وهو يبتعد عنه كأنه يهم بالفرار؟
ـ ما أعرفش.. ما شفتش الخط ده قبل كده!
واقترب الأب منهما وفى عينيه دهشة مرتجفة، وقال:
ـ ايه الحكاية؟!
ونظر إليه الدباغ نظرة اتهام:
ـ لسة ما نعرفش ايه الحكاية.. إنما حانعرف!
وعاد ينظر إلى محيى، نظرة مليئة بالاحتقار وقال وهو يهز رأسه فى تعجب:
ـ عجيبة.. مين كان يصدق؟!!
ثم وضع الورقة التى عثر عليها فى جيب سترته، والتفت إلى معاونيه قائلا فى لهجة أمر:
ـ فتش كويس يا أومباشى!!
وفى لحظة واحدة انفض الرجلان على اثاث الغرفة، واخذا يقلبانه رأسا على عقب.. فتحا الدولاب.. وكل الادراج.. ورفعا السجادة عن الأرض.. وازاحا السرير من مكانه.. ونقرا بأيديهما على الجدران لعل فيها مكانا أجوف سريا. ثم اخرج احدهما مطواة جيب وشق مرتبة السرير ومد يده وبعثر ما فيها من قطن مندوف.. ثم شق بالمطواة كسوة المقاعد ثم بدأ الرجلان يدبان على الأرض باقدامهما ليختبرا صلابتها..
وكل ذلك يجرى بسرعة عجيبة، وبقسوة، وبلا رحمة.. بلا حساب لأى شئ!
والأب واقف مشدوه وقد اذهلته المفاجأة..
ومحيى واقف يرتعش، ويتمتم تمتمات مبهمة، كأنه يرى حلما مخيفا يحاول أن يفيق منه..

والدباغ يشرف على عملية التفتيش بيقظة خبيثة كأن فى وجهه الف عين..
وجاء بقية أفراد العائلة على صوت الضجيج الذى تثيره عملية التفتيش.. وما كادت الأم تلمح الرجل يشق مرتبة السرير بمطواه حتى هجمت عليه بكل ثقلها وهى تصرخ:
ـ يا خرابى.. بيتى.. عفشى.. أبعد يا راجل يا ابن الكلب.
وترنح الرجل تحت ثقلها، ثم ازاحها عنه بذراعه فى قسوة.. وظل قابضا على كتفها بكفه، فهجم عليه الأب واختطف زوجته إلى صدره، وهو يصيح فى صوت مرتعش..
ـ نزل أيدك يا قليل الأدب..
ونظر إليه الرجل فى تحد ثم عاد يشق مرتبة السرير بمطواه..
وابتعدت الأم عن صدر زوجها واخذت تلطم خديها لطمات متتالية، وهى واقفة فى وسط الغرفة ترتعش، وتدق الأرض بقدميها كطفلة عنيدة، وهى لا تزال تصيح:
ـ يا خرابى.. بيتى .. يا خراب بيتى.. يا اخوانى..
وتقدمت منها نوال واحتضنتها بين ذراعيها، وقالت وهى تحاول أن تسحبها خارج الغرفة:
ـ بس يا ماما.. بس يا حبيبتى.. كله يتعوض.. ربنا معانا
واسندت سامية رأسها إلى الجدار فوق ذراعها، واجهشت بالبكاء.. بكاء حاد، ونشيجا مذعورا..
وكفت الأم عن الصراخ، وأجهشت هى الأخرى بالبكاء، وهى تشنج نشيجا ممزقا تقتطعه من لحمها..
ولم تستطع نوال أن تقاوم اكثر من ذلك، فألقت برأسها فوق صدر أمها وشاركتها دموعها، وهى لا تزال تردد:
ـ بس يا ماما.. بس يا حبيبتى!
كأنها تحاول أن تهدئ نفسها لا أمها.
وعبدالحميد واقف ممتقع الوجه.. حائر.. وعيناه جاحظتان..
واليوزباشى الدباغ يشرف على التفتيش فى يقظة صامتة.. كأن كل هذا الصراخ لا يصل إلى اذنيه.. وكل هذه الدموع لا تبلل قلبه..

كأنه يستمع إلى الحان تعود سماعها وهو يؤدى مهمته.. وكأنه لا يستطيع أن يؤدى مهمته إلا وسط ألحان العذاب.. لم ينهر احدا.. ولم يطالب بالهدوء.. ظلت ابتسامته اللزجة لاصقة بشفتيه.. وربما أحس بنقص كبير لو لم يفلح فى اثارة هذا البكاء وكل هذا الصراخ، وكل هذا العذاب..

ومد يده إلى الدولاب المفتوح، والتقط بأصابع الخبير، بنطلونا معلقا وحده على مشجب ـ لاحظ بسرعةأن مقاسه أطول من قامة محيى ـ وتقدم به إلى محيى وسأله :

ـ البنطلون ده بتاعك؟

ونظر محيى إلى البنطلون فى ذعر وقال مترددا:

ـ ايوه .. لأ.. ايوه .. أصل..

وقاطعه الدباغ قائلا:

أيوه ولا لأ..

وقال محيى فى ضعف:

ـ لأ..

وقال الدباغ:

ـ أمال بتاع مين؟

ـ وقال محيى كأنه يصرخ:

ـ ما أعرفش.. ما أعرفش!

ونظر إليه الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة:

ـ ده بنطلون رمادى، ما تفتكرش كده واحد صاحبك. واحد مهم قوى.. كان لابس بنطلون رمادى!

وقال محيى فى ذعر:

ـ لأ..ما افتكرش.. انا ما ليش أصحاب!

وقال الدباغ وهو ينظر إليه ساخرا:

ـ كده.. بأة مالكش أصحاب.. والله كويس!

وطوى البنطلون فى حرص واحتفظ به تحت ابطه.. نظر إلى الرجلين، وسحبهما بعينيه خارج الغرفة.. ودخل بهما إلى غرفة البنتين، ثم أشار لهما بعينيه، فبدأت عملية تفتيش كالعملية الأولى..

وانقلب كل شئ فى الغرفة، كأن محراثا يمر فيها ويشق كل ما عليها.. ورفع أحد الرجلين «سوتيان» من دولاب سامية وأخذ ينظر إليه فى وقاحة مستهترة، فهجم عليه عبدالحميد، كأن ريحا عاصفة هبت فى صدره ودفعه إليه، واختطف «السوتيان» من يده والقى به فى الدولاب وقال وهو يتحدى الرجل بعينيه:

ـ خليك مؤدب!

وقال الدباغ يرد عليه:

ـ ماتزعلش نفسك كده يا سى عبدالحميد.. أمسك نفسك!

وركزت نوال عينيها على قميص ابراهيم الذى تحتفظ به فى دولابها.. وقلبها واجف.. وكلما اقتربت منه يد ، اشتد وجيب قلبها، وأغمضت عينيها ، واخذت تهمس فى صدرها « يارب .. يا رب.. يا رب » ..

ولم تمتد يد إلى القميص.. ولم يجد الدباغ شيئا يهمه فى هذه الغرفة، فانتقل إلى غرفة اخرى.. وسرت عملية التفتيش العنيف فى البيت كله.. والدموع، وأصوات النشيج، والوجوه الممتقعة، تصاحبها..

ومال الدباغ على اذن محيى، وقد كادت عملية التفتيش تنتهى، وقال هامسا كأنه يتودد إليه:

ـ روح البس هدومك، علشان تيجى معانا..

ورفع محيى عينيه المذعورتين خلف نظارته، وقال فى صوت مرتجف:

ـ آجى معاك فين؟

وقال الدباغ من خلال ابتسامته اللزجة:

ـ حناخد منك كلمتين.. اطمن.. مجرد روتين، وانت راجل قانون وفاهم!

ونكس محيى عينيه..

ولم يشعر بالخوف..

كأنه خاف ما فيه الكفاية، حتى لم يعد فيه شئ يحتمل مزيدا من الخوف..

شعر باستسلام تام، كأنه أصبح جثة هامدة يحملها الدباغ فوق ذراعيه..

ونظر إلى والده، وقبل أن يتلقى جواب نظرته، انسحب من بين الجميع إلى غرفته.. وأخذ يرتدى ثيابه، وهو ساهم، لا يستطيع أن يفكر فى شئ، ولا يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يحدث له، إنما امتلأ رأسه بأفكار مشوشة لا يستطيع أن يفهمها، وصور مهزوزة لا يسطيع أن يتبينها..

وأكمل ارتداء ثيابه، وهو لا يدرى ماذا ارتدى..

وعاد ينضم إلى الجميع..

ونظر إليه والده فى دهشة مذعورة، وقال:

ـ لبست هدومك ليه؟!

ولم يجبه، إنما أشار بعينيه إلى الدباغ، فالتفت الأب إلى الضابط وقال كأنه بدأ يبرز أظافره ويكشر عن انيابه:

ـ انتم واخدين محيى معاكم ليه؟

وقال الدباغ فى هدوء:

ـ كلمتين. حانعمل محضر!

وقال الأب وهو يهم بالتحرك إلى الداخل:

ـ طيب استنى لما آجى معاكم!

وقال الدباغ فى صوت حازم:

ـ لأ.. خليك انت.. الحكاية ما تستهلش!

ورفع الأب صوته:

ـ ما تستهلش إزاى.. تاخدوا ابنى البوليس، وتقوللى حكاية ما تستاهلش!

وقال الدباغ فى لهجة أكثر حزما:

ـ خليك.. ما تبهدلش نفسك!

وقبض أحد الرجلين على ذراع محيى، وبدأ يجره نحو الباب.. ولاحظت الأم ما يجرى حولها، فاندفعت بجسدها المكتنز تحتضن ابنها وهى تصرخ:

ـ ابنى.. حياخدوا ابنى.. مش ممكن.. الحقونى.. الحقونى يا ناس.. حياخدوا ابنى منى!

وقال محيى، وهو يبتعد عن صدر امه:

ـ ماتخافيش يا ماما.. انا راجع تانى!

ولم يأبه الدباغ بصراخ الأم ، ونظر إلى عبدالحميد قائلا:

ـ اتفضل معانا يا سى عبدالحميد.

وقا عبدالحميد وقد انقلب كمده إلى تحد:

ـ ليه.. انا مش ساكن هنا؟!

وقال الدباغ:

ـ ما انا عارف.. كنت عندك من قيمة شوية!

وقال عبدالحميد فى دهشة:

ـ عندى.. عندى فين؟!

قال الدباغ مبتسما:

ـ فى شبرا.. زرتك زى الزيارة دى كدة.. بس للاسف ما كنتش موجود.. الزيارة الجاية حابقى آخد منك ميعاد!

ونظر إلى معاونه، فتقدم، وقبض على ذراع عبدالحميد، وأخذ يجره نحو الباب..

ونزع عبدالحميد ذراعه من الرجل، وهو يقول فى حقد:

ـ سيبنى.. ما تحطش ايدك على.. انا جاى لوحدى!

وصرخت سامية:

ـ عبدالحميد..

ثم كتمت صرختها كانها تخاف أن يفتضح حبها، أكثر مما تخاف على عبدالحميد نفسه..

ونظر إليها عبدالحميد صامتا، ثم حوّل عينيه عنها فى يأس..

وتقدم الدباغ، وخرج من باب الشقة وهو يقول دون أن يسمعه أحد:

ـ لا مؤاخذة.. السلام عليكم!

وتبعه محيى ثم أحد الرجلين، ثم عبدالحميد، ثم الرجل الآخر..

وتقدم الأب فى لهفة إلى الرجل الذى يسير خلف عبدالحميد، وقال فى توسل وهو يكاد يبكى:
ـ أعمل معروف يا ابنى.. قول لى رايحين فين!
ونظر إليه الرجل فى اشفاق وأجابه هامسا كأنه يخاف أن يسمعه ضابطه :
ـ المحافظة..
وخرجوا..
وأطلقت الأم صرخة حادة كأنها لفظت قلبها، ثم سقطت على الأرض وهى تنتفض وتتقلب كأن النار أشتعلت فيها.
وهرع الأب إلى غرفته ليرتدى ثيابه..
وأرتفع نشيج سامية، ثم اسقطت نفسها بجانب أمها وأخذت تربت عليها دون أن تنطق حرفا، كأن لسانها سجن وراء قضبان من دموعها..
وانهمرت الدموع على خدى نوال ثم مالت على أمها كأنها تطفئ نارها بدموعها واخذت تردد:
ـ مت تعمليش كده يا ماما.. ياحبيبتى ياماما..
ثم سكتت فجأة.. وانبثق فى ذهنها اسم ابراهيم..
ابراهيم.. انه وحده الذى يستطيع أن ينقذ اخاها..
كيف.. إنها لا تدرى.. ولكنه يستطيع.. يستطيع كل شئ.. إنه بطل.. إنه يعرف هذه الأشياء.. إنه أقوى من البوليس.. وأقوى من هذا الضابط المجرم..
ولكن أين ابراهيم؟!
كيف تستطيع أن تجده؟!
أين هو؟
وأرخت عينيها، كأنها لا تجد ابراهيم إلا عندما تنظر إلى قلبها.

١٦

وركب محيى وعبد الحميد فى المقاعد الخلفية من سيارة البوليس « البوكس » وركب معهما الجنديان .

وركب اليوزباشى محمود الدباغ بجانب السائق ..

وكان محيى يرتعش .. كل شىء فيه يرتعش .. قلبه ، وركبتاه وعيناه ، وشفتاه ، ولكنه لم يكن يحس برعشته .. كأن هذه الرعشة صاحبته طول عمره ، حتى أصبحت من طبيعته ، وحتى أصبح لا يحس بها .

وكانت أفكاره ترتعش أيضا ، وقد ركز كل إرادته ليسيطر عليها، محاولا أن يتبين مصيره .

إن البوليس سيسأله عن إبراهيم حمدى ..

وقد يتهمه بإخفائه فى بيته ..

وفى يد الدباغ دليل قاطع على أن إبراهيم كان فى البيت .. فى يده بنطلون إبراهيم الذى تركه وراءه فى الدولاب .. وفى يده هذه الورقة المكتوبة بخط إبراهيم .. وهو يذكر أن إبراهيم طلب منه ورقة وقلما فى ثانى يوم وصوله إلى البيت .. وجلس يكتب .. ولكنه لم يعرف ماذا كان يكتب .. لم يقل له إبراهيم شيئا .. ولم يذكر له شيئا عن هذا الاسم الذى واجهه به الدباغ .. اسم الملازم أول جميل عزت .. من يكون جميل عزت هذا .. وكيف يترك إبراهيم وراءه ورقة مكتوبة بخط يده .. كيف اختفت هذه الورقة عن كل من فى البيت حتى وقعت فى يد الدباغ ؟!

وماذا يقول للبوليس ؟

هل يعترف ؟

إنه لا يدرى أين ذهب إبراهيم .. ولن يؤدى اعترافه إلى القبض عليه !

ولكنه يستطيع أن يبلغ البوليس عن فتحى المليجى .. صديق إبراهيم الذى أعدّ له بدلة الضابط ، وأعد له السيارة التى هرب فيها.. وعن طريق فتحى المليجى يستطيع البوليس أن يعثر على إبراهيم ، ويقبض عليه ..

ولكن لماذا يعترف ؟

لماذا يضع نفسه فى خدمة البوليس ؟

وكيف يستطيع أن يواجه زملاءه الطلبة بعد ذلك .. كيف يستطيع أن يواجه نفسه ؟!

وأحس بقشعريرة تسرى فى بدنه ، كأنه يتقزز من نفسه لمجرد فكرة طرأت على ذهنه بأن يعترف للبوليس ؟!

ولكنهم سيسجنونه ..

ولن يدخل الامتحان .

لأن يكون أول دفعته ، ولن يعين معيدا فى الجامعة ؟!

سيضيع مستقبله ..

هل ينقذ مستقبله ، لو اعترف ؟!

من أدراه ؟

ربما كان اعترافه سببا أقوى فى استمرار سجنه ؟!

إنه حائر .. مرتبك .. لا يستطيع أن يصمم على شىء .. وحيرته تمزق فى نفسه ، اكثر مما يمزق فيها الخوف .

ربما كان الأجدى عليه أن يترك نفسه لله ، يفعل به ما يشاء !!

وأحس ببعض الراحة عندما تذكر الله والتجأ إليه ، كأنه ألقى بهمومه كلها على كتف قوى .. ولكن مالبثت هذه الراحة أن تبخرت، عندما أمعن فى مناقشة الله .. لماذا يتركه الله لهذا المصير .. ماذنبه إذا كان إنسانا شهما أجار إنسانا هاربا .. لقد حرص طول عمره على أن يبتعد عن السياسة حتى يتجنب مصير المشتغلين بها من زملائه الطلبة .. فلماذا يلقى الله فى وجهه بإبراهيم ، ثم يعرضه للسجن ، ويعرض مستقبله للدمار .. وهل كان الله يعفيه من هذا

المصير لو أنه رد إبراهيم خائبا ، ورفض أن يؤويه فى بيته .. هل يعاقب الله الوطنيين ؟! وهل هذا الضابط الدباغ رسول من الله لمعاقبة الوطنيين وتشريدهم ؟ إذن لماذا يترك الله رجال البوليس أحرارا يسلطون العذاب على الناس ؟! ولماذا لاينقذه الله الآن .. حالا .. قبل أن يبدأ البوليس فى سؤاله ؟!

وخاف من أفكاره .. واشتدت قشعريرته .. وأحس بنفسه يستغفر ربه ، ويتلو فى سره آية الكرسى ، كأنه يخشى أن يتخلى عنه أمله الوحيد .. الله !

ثم اتجهت أفكاره إلى عبد الحميد ..

هل يعترف عبد الحميد ؟

ورفع عينيه الحائرتين إليه .

وأحس بالاطمئنان .. أحس أنه ليس وحده .. وأحس ـ لأول مرة ـ أنه قريب جدا من عبد الحميد ، وإنه يحبه .. لم يحس به كابن عم كما يحس به الآن... وخيل إليه أن عبد الحميد إنسان قوى يستطيع أن يحميه .. إن عبد الحميد لن يعترف .. وهو ذكى وجرىء .. ويعرف كيف يتصرف مع البوليس .

وتبدد بعض الخوف الذى يشعر به .. وقال فى صوت ضعيف متوسل :

ـ عبد الحميد !

وكان عبد الحميد جالسا فى السيارة ورأسه منكس ، وهو يقضم فى أصابعه بأسنانه ، كأنه يمزق نفسه .. وسمع نداء محيى، فرفع رأسه ، ونظر إليه نظرة قوية وقال فورا كأنه يعرف ما يعانيه :

ـ ما تخافش ..

وقال أحد الجنديين بصوت آمر :

ـ ممنوع يا أفندى !

ورد عبد الحميد فى تحد :

ـ إيه هوه اللى ممنوع ؟!

وقال الجندى باستهتار :

ـ الكلام ..
وعاد عبد الحميد يتحدى :
ـ لأ .. مش ممنوع !!
ونظر إليه الجندى فى تعجب ثم قال :
ـ بلاش لماضه أحسن لك ..
وقال عبد الحميد وهو يشد وسطه :
ـ أتكلم بأدب ..
وقال الجندى وهو يزفر كأنه يرفض أن يدخل معركة :
ـ حاضر .. حقك على يا سيدنا الأفندى .. بس اعمل معروف اسكت .. الأوامر اللى عندنا إنه ممنوع الكلام ..
وظل عبد الحميد ينظر إلى الجندى فى تحد . فأدار الجندى رأسه عنه كأنه يبتعد عن شر ..
ثم عاد عبد الحميد ونكس رأسه وأخذ يقضم أظافره ..
كأن تعبه ، وخوفه ، قد انقلب إلى نوع من التحدى الصارخ بعد أن وجد نفسه فى أيدى البوليس .. وكان يحس فى قرارة نفسه أنه هو الذى تسبب فى كل هذا ، عندما تسرع وذهب لمقابلة همام بك.. وكان يحاول أن يتخلص من إحساسه هذا .. أن يغطيه .. فاندفع فى تصميمه على تحدى البوليس .. لعل تحديه يكفر عن خطيئته .
ورفع عبد الحميد عينيه ، ونظر من خلال الباب الخلفى للسيارة فوجد أنهم يسرعون فى شارع الملكة نازلى ، فى اتجاه ميدان المحطة .. طريق آخر غير الطريق الذى يؤدى إلى المحافظة .
قال كأنه يسأل نفسه :
ـ احنا رايحين فين ؟!
وأجاب الجندى الاخر :
ـ دلوقت تعرف !!
وقال محيى :
ـ بيقولوا حياخدونا المحافظة .
وقال عبد الحميد وهو يحاول أن يتبين الطريق :
ـ دى مش سكة المحافظة ..

وظلت السيارة مسرعة فى اتجاه ميدان محطة مصر ، ثم انحرفت إلى اليسار فى شارع ضيق قبل أن تصل إلى الميدان ، ووقفت أمام سور من الحديد لبناء معتم ..

ورفع عبد الحميد عينيه ثم قال وقد امتقع وجهه :

ـ دول واخدينا سجن الأجانب ..

ونظر محيى من خلال باب السيارة وعيناه يا رزتان تكادان تحطمان زجاج نظارته :

ـ السجن .. مش يسألونا الأول !

ولم يجبه عبد الحميد ..

وقفز الرجلان من السيارة .. وأشارا إلى عبد الحميد ومحيى بالنزول ..

وتقدم اليوزباشى الدباغ الجميع ، واجتاز السور الحديدى ، ثم وقف أمام باب ضخم من الخشب المصفح ، ومد ذراعه وضغط على جرس كهربائى مثبت فى الحائط ، ففتحت كرة صغيرة فى الباب أطل منها وجه غليظ جامد ينتشر فوقه شارب مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين ..

وما كاد الوجه الغليظ يرى اليوزباشى الدباغ ، حتى أغلق الكوة بسرعة ، وشد مزلاج الباب الحديدى ، فارتفع صوت حاد كأن الحديد يصرخ .. ثم فتح باب صغير فى الباب الكبير ، ووقف الحارس منتصبا كالتمثال رافعا ذراعه بالتحية العسكرية ..

واجتاز اليوزباشى الدباغ الباب الصغير وخلفه صيده الثمين ومعاوناه ، وقفل الباب خلفه بسرعة وارتفع صوت صراخ الحديد عندما تحرك المزلاج مرة ثانية .. والتفت محيى وعبد الحميد خلفهما بحركة تلقائية .. وفى عيونهما نظرات فزعة كأنهما يودعان الدنيا ..

واتجه الدباغ إلى غرفة على اليمين بعد الباب مباشرة .. غرفة فيها مكتب يجلس خلفه كونستابل » وبضعة مقاعد وأريكة « استامبوللى » وخزينة ملتصقة بالحائط ، ومجموعة من الكلبشات والبنادق .

ووقف الكونستابل رافعا ذراعه بالتحية العسكرية .. ورد الدباغ تحيه بطرف أصبعه . ثم أشار إلى محيى وعبد الحميد بأن يجلسا متباعدين وقال لمعاونيه بلهجة آمرة :

ـ خليهم بعيد عن بعض !

ثم ترك الغرفة ، واتجه إلى غرفة أخرى فى الناحية المقابلة علقت على بابها لوحة كتب عليها : « المأمور » .. ودخلها وهو يتحرك بسرعة .. غرفة اكثر هدوءا ونظاما وفخامة من الغرفة الأولى .. وكان يجلس وراء المكتب العريض الذى يتوسطها ضابط شاب ، قفز واقفا بمجرد أن رأى الدباغ ..

وقال الدباغ ، وهو يتجه ليجلس مكان الضابط الذى بدأ يخرج من وراء المكتب :

ـ البيه المأمور هنا ؟

وقال الضابط كأنه يهم بالدفاع عن المأمور:

ـ لا ياأفندم .. راح البيت من مدة خمس دقايق بس .. نندهله يا افندم ؟

وقال الدباغ ساخرا وهو يضع البنطلون الذى يحمله فوق المكتب:

ـ لا يا سيدى .. خليه مستريح .. كفاية احنا صاحيين !

ثم جلس على المقعد خلف المكتب ، وامسك بسماعة التليفون ، وأدار رقما ، ثم قال وقد تغيرت لهجته ، وأصبحت لهجة مهذبة رقيقة :

ـ أيوه يا أفندم .. أظن احنا محتاجين لسعادتك هنا .. رأى سعادتك كان فى محله .. عمر نظرتك ما تخيب ..

وقال بعد أن سمع رد الطرف الآخر :

ـ لأ .. إنما لقيت إثباتات مهمة جدا .. حنوصل بإذن الله !

وأعاد سماعة التليفون مكانها ..

ثم مال بظهره على المقعد ، واخرج من جيبه الورقة التى عثر عليها بين أوراق محيى وأخذ يعيد قراءتها ، وهو يدلك جبهته بيده كأنه يحاول أن يفتح طاقة جديدة فى ذهنه .. ثم رفع رأسه ، وقال

للضابط الذى كان لا يزال واقفا منتصبا أمامه :
ـ أطلب لنا قهوة .. يظهر حانقعد الليلة للصبح !
ونادى الضابط على أحد الجنود وأمره أن يحضر قدحا من القهوة ..
وقبل أن تأتى القهوة ، ارتفع صوت صراخ الحديد .. وفتح باب السجن .. ودخل إلى الغرفة همام بك .. وهو يخطو فى خطوات سريعة نشطة .. ورفع الضابط الشاب يده بالتحية .. وقفز اليوزباشى الدباغ واقفا ، وانسحب من وراء المكتب ، ليترك مكانه للقادم الجديد ..
ولم يرد همام بك التحية ، وقال على عجل :
ـ خير .. لقيت إيه ؟!!
وقبل أن يتكلم الدباغ ، التفت همام بك إلى الضابط الشاب ونظر إليه نظرة ذات معنى ، فتحرك الضابط ، وهو يقول :
ـ عن اذنك يا أفندم !
ثم خرج من الغرفة !
وجلس همام خلف المكتب ، وبدأ الدباغ يروى له تفاصيل مهاجمة بيت عبد الحميد وبيت محيى .. ثم عرض عليه الورقة والبنطلون اللذين عثر عليهما .. وقال همام :
ـ وما تكلموش ؟
وقال الدباغ وهو يبتسم ابتسامة لزجة :
ـ لا .. إنما حيتكلموا .. باين عليهم ناس طيبين !!
وقال همام وهو يرد ابتسامة الدباغ بابتسامة ابرد منها :
ـ طيب خد انت محيى .. وابعت لى عبد الحميد .. ده صاحبى !
وقهقه همام .. كأنه يتثاءب !
وخرج الدباغ إلى الغرفة المقابلة ، واستدعى عبد الحميد ومحيى فقاما إليه وخلفهما الجنديان ، وقال لعبد الحميد :
ـ خش أنت هنا .. همام بك مستنيك .. عايزك فى كلمتين ، وأنتم طبعا أصحاب ..
ثم التفت إلى محيى قائلا :

ـ تعال أنت معايا يا محيى !

وسار الدباغ متجها إلى داخل السجن ومحيى خلفه يسير مبهور الأنفاس ، قلبه يدق دقات تضج فى أذنيه ضجيجا يغطى على صوت وقع خطاه ..

ووقفا أمام حاجز من قضبان حديدية رفيعة ، يصل من الأرض حتى السقف المرتفع ، ويفصل بين القسم الخارجى من السجن ، والقسم الداخلى ..

وفتح باب من بين القضبان الحديد ..

ووجد محيى نفسه يسير فى ممر يدور حول فناء صغير ، وعلى جانب الممر أبواب كثيرة من الحديد ، كلها مغلقة ..

وفتح أول باب من هذه الأبواب ..

ودخل الدباغ ، وخلفه محيى ، والجندى الذى يصحبهما ..

ووجد محيى نفسه فى حجرة ضيقة .. ضيقة جدا .. أرضها من الأسفلت .. وجدرانها نصفها الأسفل مطلى باللون الأسود ، ونصفها الأعلى مطلى بالجير الأبيض .. ولها نافذة واحدة .. مرتفعة جدا ، مثبت فيها أسياخ من الحديد .. وبها مكتب صغير، وثلاثة مقاعد ..

وعرف محيى أنه .. فى زنزانة !

وكان القلم السياسى منذ هرب إبراهيم حمدى ، قد اتخذ من سجن الأجانب مكانا للتحقيق فى حادث هربه .. يجمع فيه كل الشبان المشتبه فيهم ، ويحقق معهم .. ويواجههم بعضهم ببعض .. وكان التحقيق يجرى فى غرفة المأمور ، وعندما احتاج الأمر إلى التحقيق مع اكثر من شاب فى وقت واحد ، خصصوا إحدى زنزانات السجن ، كغرفة أخرى للتحقيق .

وجلس الدباغ وراء المكتب الصغير ، وأشار لمحيى ليجلس على مقعد مواجه ، وشد الجندى الذى يصحبهما مقعدا وجلس مستندا على أحد جوانب المكتب .

وأخرج الدباغ بضعة أوراق بيضاء وضعها أمام الجندى ، ثم قال لمحيى فى لهجة حاول أن تكون رقيقة :

ـ احنا نتكلم بصراحة بأه يا محيى .. وأنا عايزك تكون مطمئن.. ساعدنى وأنا ساعدك !

وانطلق محيى كأنه يقول كلاما أعده من قبل :

ـ أنا ما أتكلمش إلا قدام النيابة !

وابتسم الدباغ ابتسامته اللزجة وقال :

ـ النيابة ما لهاش لازمة .. اعتبر اننا حانتكلم كلام خاص .. حتى بلاش كتابة محضر ..

ثم التفت إلى الجندى قائلا :

ـ بلاش تكتب يا امباشى ..

وعاد بعينيه قائلا وهو ينظر إليه نظرات نافذة :

– قوللى بأه .. انت تعرف جميل عزت منين ؟!

وقال محيى صادقا :

ـ جميل عزت مين .. ما اعرفوش دى أول مرة اسمع بالاسم ده!

وركز الدباغ عينيه على وجه محيى ، وقال :

ـ خلينا أصحاب آمال .. ده اسمه مكتوب فى ورقة لاقيتها على مكتبك !

وقال محيى فى إصرار :

ـ ما اعرفوش ..

وقال الدباغ كأنه يصدقه :

ـ تحب تعرفه ..جميل عزت ياسيدى يبقى الضابط اللى هرب منه إبراهيم حمدى !

واتسعت عينا محيى كأنه فوجىء ، ثم قال كأنه يردد كلمة لا يحس لها معنى :

ـ ما اعرفوش .. ما اعرفوش ..

وقال الدباغ وهو لا يزال مركزا عينيه عليه :

ـ طيب تعرف إبراهيم حمدى ؟

وصرخ محيى فورا :

ـ ما اعرفوش .. عمرى ماشفته !

وقال الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة :

ـ ومالك بتزعق كده ليه ؟
ثم استطرد وهو يلوح بالورقة المكتوبة بخط إبراهيم أمام عينيه:
ـ والورقة دى تبقى إيه ؟
وقال محيى وقد بدأت قطرات من العرق تنتفض فوق جبينه :
ـ ماشفتهاش .. ما اعرفش حاجة عنها !
وقال الدباغ كأنه تعود على الصبر الطويل :
ـ امال إزاى لاقيتها على مكتبك !
وقال محيى وهو يتنفس بصعوبة :
ـ ما كانتش على مكتبى .. يمكن أنت اللى حطتها بايدك !
ولأول مرة يفقد الدباغ أعصابه ، وصرخ فى وجه محيى :
ـ أنت حاتعمل زيهم .. ما هى أصل المودة بين الطلبة اليومين دول ان كل حاجة نلاقيها عندهم ، نبقى احنا اللى جايبينها معانا .. قديمة يا سى محيى .. شوف لك حكاية تانية .. ده أنا كنت فاكرك ولد طيب .. اتاريك منهم !
ولم يرد محيى .. إنما اشتدت رعشته ..
وكتم الدباغ ثورته ، ثم قال بصوت اكثر هدوءا :
ـ وطبعا البنطلون أنا اللى جايبه من بيتنا برضه .. مش كده .. تعرف البنطلون ده يبقى بنطلون مين .. يبقى بنطلون إبراهيم حمدى .. إبراهيم لما هرب كان لابس بنطلون رمادى ، والمقاس مقاسه !
ولم يرد محيى .. ظل يرتعش !
واشعل الدباغ سيجارة ، وشد منها نفسا عميقا ، وقذف الدخان فى الهواء كأنه يقذف ثورته فى وجه محيى ، ثم قال وقد سيطر على أعصابه :
ـ اسمع يا محيى .. احنا مش عايزين منك حاجة .. قوللى إبراهيم حمدى يبقى فين ، ولا راح فين .. واقسم لك بشرفى إنك تنام فى بيتكم الليلة دى !
وقال محيى وقد احتقن لون وجهه من كثرة ما احتبس فى عروقه من دم :

ـ ما أعرفش .. ما اعرفش حاجة !
قال الدباغ وهو يتنهد كأنه بدأ يفقد صبره :
ـ أنت صعبان على يامحيى .. اتكلم أحسن .. أنت مالكش دعوة بالحاجات دى .. لغاية دلوقت مالكش دوسيه عندنا .. والمعلومات اللى عندى إنك عمرك ما اشتغلت بالسياسة .. ماتخليش شوية العيال دول يضحكوا عليك ، ويودوك فى داهية .. ارحم أبوك وأمك.. واسمع كلامى !!
واهتز محيى عندما تذكر أباه وأمه ، كأن قطرات من الندى وقعت على عود الحطب الجاف .. ووجد نفسه يتساءل : هل يريده أبوه أن يعترف .. هل لو كان أبوه بجانبه الآن يأمره بالاعتراف ؟ وتحركت شفتاه ، وردد وهو ساهم كأنه يتلقى أمرا من بعيد .. أمرا من أبيه :
ـ ما اعرفش .. ما اعرفش .. ماعنديش حاجة أقولها !
وسمع وقع أقدام فى الممر الخارجى ، ثم برز همام بك فى باب الزنزانة ، وأشار إلى الدباغ ، فقام إليه ، وأخذ الاثنان يتهامسان طويلا ، ثم اختفى همام بك ، وعاد الدباغ يجلس وراء المكتب الصغير ، وقال وهو يبتسم ابتسامته التى تسيل فوق شفتيه كبقعة الزيت :
ـ خلاص ياسيدى .. أهو عبد الحميد اعترف !
وقفز رأس محيى من فوق عنقه ، وقال والمفاجأة تمزق كلماته :
ـ اعترف .. اعترف .. قال إيه ؟!
وقال الدباغ وهو يتلذذ بوقع المفاجأة على محيى :
ـ اعترف بكل حاجة .. وزمانه دلوقت راجع بيتهم !
وألقى محيى برأسه فوق صدره ..
هل صحيح اعترف عبد الحميد ؟
أم إن هذا الرجل يخدعه ؟
وإذاكان قد اعترف ، فلماذا يصر البوليس على أن يعترف هو الآخر .. لماذا لا يكتفى باعتراف عبد الحميد ؟!
واستطرد الدباغ كأنه يشجع محيى :

ـ ياللا اتكلم انـت راخر علـشان تروح مـعـاه . سـاكت ليـه .. مستنى إيه ؟

وقال محيى فى ضعف :

ـ أنا ماعنديش حاجة اعترف بيها !

قالهـا وفى نفسـه نازع يراوده على الاعتـراف .. ونازع أقوى يمسك لسانه عن الاعتـراف .. كأنه يقاوم فى نفسـه جريمة يخاف كما يخـاف المؤمن من النار .. ولم يكن يفكر فى إبراهيم .. ولا فى موقـفه الوطنى .. لم يكن مـا يمنعه من الاعـتراف هو خـوفه على إبراهيم ، ولا تشـبـثـه بموقف وطنى .. ولكن كـان مـا يمنعـه هو إحساسه بأن الاعتراف جـريمة لا يستطيع أن يقدم عليها .. جريمة لا تقرها مبادئه الخلقية ، ولا ضميره النظيف .. كان كالطالب الذى يأبى أن يقـفز من فـوق سور المدرسة ، لا حـرصا على الـدراسة ، ولكن لأن أباه وضع فى نفسه أن الهرب من المدرسة عيب !

وبدأ الدباغ يفقد أعصابه مرة ثانية وقال فى حدة :

ـ يعنى أنت حـاتكون أحسن من ابن عـمك .. ما تتكلم .. قـوللى إبراهيم حمدى راح فين ؟!

وفجأة ارتفع ضجيج كبير منبعث من القسم الخارجى للسجن ، وتبين محـيى وسط هذا الضجيج صوت عـبد الحميـد وهو يصرخ صراخا حادا : « آىْ .. ياأولاد الكلب .. ماتضربونيش .. الحقونى .. يا مجرمين يا أولاد الكلب .. آى .. » ..

وابتسم محيى ..

ابتسامة انبعثت رغما عنه ..

إنهم يضربون عبد الحميد ..

إنه لم يعترف ..

ورفع محـيى رأسه وواجه الدبـاغ بابتسامـته .. واشتـدت حدة الدباغ وقال للجندى الجالس بجانبه :

ـ قوم اقفل الباب ده يا أومباشى !

وقام الاومـباشى ، وقبل أن يصل إلى البـاب ، استوقـفه الدباغ قائلا كأنه غير رأيه :

ـ استنى ..

ثم قـام من وراء المكتب الصـغـيـر ، وخرج من الغـرفة بعـد أن همس فى أذن الاومباشى :

ـ جرب معاه !!

وأغلق الاومبـاشى الباب وراء الدباغ ثم عاد إلى مـحيى ووقف قبالته ، وقال وهو يبتسم من بين أسنانه :

ـ أنت ما تعرفش تشوف من غير النضارة دى ؟!

ورفع إليه محـيى رأسه وهو جالس على مقعـده ، كأنه لا يفهم معنى السؤال . واستطرد الاومباشى قائلا :

ـ ورينى كده ؟!

ومـد يده يحـاول أن يخلع النظارة من فـوق عـينى مـحـيى .. فتـراجع مـحيى برأسـه إلى الخلف ،. وقد بدأ يرتجف ، واسـتطرد الاومباشى ويداه ممدودتان إلى وجه محيى :

ـ ورينى كده امال ؟!

ولم ينزع مـحيى نظارته .. فـنزعهـا الرجل فى حركـة سريعـة خفيفة ، ثم قال وهو يصر على أسنانه كأنه يحاول أن يثير نفسه :

ـ أنا أصلى ما تعجـبنيش الطريقة بتاعة الضـباط بتوعنا دول .. أنتم أصلكم مـاتجوش بالذوق .. مـا تتكلموش إلا بالـعافيـة .. أنت حاتتكلم ولا لأ ؟!

ونظر إليه محـيى وشفتاه ترتعشـان ، وفى عينيه نظرة توسل ، كأنه يصد بها شرا لا يدريه ..

وصرخ فيه الرجل :

ـ ما تتكلم باقولك ؟

ثم رفع كفه الثقيل الجاف وهوى به على صدغ محيى .. وارتفع صوت الصفعة كأن أما مكلومة تصرخ !!

وفغر محيى فاه .. وبدا مذهولا ..

ورفع يدا مـرتعشة تهـتز أصـابعهـا كأوراق الشـجر الجـافة ، ووضعها مكان الصفعة .. وهو لا يزال مذهولا .

ولم يكن يحس بألم فى مـكان الصـفـعة ولـكنه أحس بلسعـات

كلسع النار تسرى فى بدنه كله ، ثم تتجمع اللسعات فى مكان ما من صدره .. وأحس بشىء فى صدره ينزف .. كرامته .. آدميته.. كبرياؤه ..

وضاق صدره ..

ضاق حتى بدأ يحس بالاختناق ..

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ..

وبدأ يبكى ..

وقال الاومباشى وهو يرفع يده الثانية :

ـ الله .. احنا حانعيط .. ماتخليك راجل .. طب خد !.

وهوى بكفه على الصدغ الثانى .. كأنه يهوى فوقه بمطرقة من حديد !

وانحرفت الصفعة فوق صدغ محيى ، فشقت شفته السفلى وانبثق منها الدم .

وعالجه الرجل بصفعة ثالثة أشد ، فمال المقعد الذى يجلس عليه محيى ، ووقع به على الأرض .

وهو يبكى ..

يبكى فى استسلام دون أن يتأوه ..

وركله الاومباشى بقدمه وهو ملقى على الأرض ، وصرخ فيه :

ـ مالك خرع كده .. ما تقف على حيالك زى الرجالة .. رجالة إيه دول ياخويا ..

ثم جذبه من قميصه وأوقفه على قدميه ، ورفع محيى ذراعيه فوق وجهه يحمى بهما نفسه من الصفع ، وهو لا يزال يبكى .. وقد أصبح بكاؤه نشيجا .

وصرخ الاومباشى :

ـ ما تتكلم .. انطق .. ده ماله عامل زى البرغوت كده ..أنت مابتاكلش فى بيتكم ؟

ثم لكمه فى جنبه بقبضة يده لكمة قوية ، فصرخ محيى صرخة حادة :

ـ آه ..

ثم سقط صدره فوق ساقيه .. ومـال فى وقفته حتى سقط على الأرض .. وبدا ممتقع الوجه .. كأنه نزف دماءه كلها .. كأنه مات !!

وفى هذه اللحظة دخل اليوزباشى الدباغ مندفـعا ، وهو يصرخ فى وجه الاومباشى صراخا مسرحيا :

ـ إيه ده يا أومبـاشى .. مين اداك أوامر بالضـرب .. أنتم إيه .. متوحشين .. بهايم .. والله لاخرب بيتك !!

وانحنى الدباغ فـوق محـيى .. وأحـاطه بذراعه ، وعـاونه على الوقوف ، ثم اجلسه على المقعد ، وهو يقول للاومباشى :

ـ روح هات قطنة بمركـركروم قـوام .. الله يخـيبك .. بشـرفى لادخلك السجن !

وخرج الجندى من الغرفة ..

واستدار الدباغ لمحيى قائلا :

ـ أنا آسف يا محيى .. جـايبين لنا بهايم بيشتغلوا مـعانا .. كان فـاكـرك زى البـاقـيـين .. إنما برضـه الحق عليك لو كنـت اتكلمت ماكانش حصل ده كله !

ورفع محيى وجهه الأصفر المذهول وأخذ يردد من بين دموعه :

ـ ما اعرفش .. ما اعرفش .. ما اعرفش ..

ثم ارتفع صوته حتى أصبح صراخا كأنه جن ، وعاد يردد :

ـ مـا اعرفش .. مـا اعرفش .. مـا اعـرفش !ودخل الاومبـاشى يحـمل قطنة ملوثة بسائـل أحمـر ، أخذها منه الدباغ وبدأ يمر بهـا على الشفة المشقوقة التى تنزفُ دما ، وهو يقول :

ـ بلاش كلمـة ما اعرفش دى .. خلينـا ننتهى على خـير .. انت مش قد ما اعرفش !

ونزع محيى وجهـه من بين يدى الدباغ ، وصرخ صرخة طويلة حادة كأنه يطلق روحه فى صدر عدوه :

ـ ما .. عر .. فشى !

ثم وضـع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء ..

ونظر إليه الدباغ فى احتقار ، وقال :

ـ ده انت باين عليك تعبان قوى .. قوم استريح لك شوية !

ولم يتحرك محيى من مقعده ، ولم يرفع رأسه .. فجذبه الدباغ من تحت إبطه وحاول أن يوقفه ، ولكن محيى لم يستطع الوقوف . كان منهارا ، ولا يزال يبكى ، وكل شىء يسيل منه مع دموعه حتى لم يعد فيه شىء صلبا .

وقال الدباغ :

ـ تعال يا اومباشى أسند معايا ..

ووقف الاومباشى على الجانب الثانى من محيى ، ووضع يده تحت إبطه .. ثم تعاون مع الدباغ ، فى رفعه ، وأخذا يشدانه وقدماه تزحفان على الأرض ، كأنهما يجران جثة قتيل ،. وخرجا من الغرفة.. واستقبلهما عند الباب أحد السجانين ، فصاح فيه الدباغ :

ـ افتح نمرة تمانية ..

وسارا فى الممر الطويل الذى يحاذى الأبواب المغلقة ، وهما يجران محيى .

ولم يكن محيى يرى شيئا ما أمامه .. كان غارقا فى ظلام دامس .. وكان منهارا ، متخاذلا ، يحس كأن معدته تنقلب .. ولكنه كان واعيا .. كان عقله هو كل ما بقى فيه صاحيا ..

وسمع صوتا ينبعث من وراء أحد الأبواب المغلقة :

ـ شد حيلك .. خليك جامد !

وسمع صوتا ينبعث من وراء باب مغلق ثان :

ـ أنت مين يا أخينا .. قول اسمك ؟!

وسمع صوت ثالث يصيح :

ـ سيبوه يا مجرمين .. ياانذال .. يا جبناء ..

وسمع من وراء الباب الرابع أنينا .. خيل إليه أنه أنين عبد الحميد !!

وسمع من وراء الباب الخامس صوتا ثائرا غليظا يهتف بأبيات من الشعر :

« حطموا الأقلام ، هل تحطيمها يمنع الأيدى أن تنقش صخرا؟»

« قطعوا الأيدى ، هل تقطيعها .. يمنع الأعين أن تنظر شزرا ! »

وأحس بكل هذه الأصوات ، كأنها أصوات أصدقاء يرحبون به بينهم .. كأنه داخل إلى الجنة والملائكة ينشدون له ويزفونه إلى عرشه .. ومست هذه الأصوات أعصابه فشدتها ، وأحس كأن الروح ترتد إلى صدره .. وكأن طيفا حانيا يمسح على شفته المجروحة ، ويربت على مكان الصفعات فوق وجنتيه .. ويجفف دموعه .. أحس أنه مع كثيرين .. ينظرون إليه فى إعجاب . ويهتفون له .. ويشدون أزره ..

وبدأ يحاول التملص من الأيدى التى تمسك به ..

وشد ظهره .. وثبت قدميه على الأرض .. وسار معتمدا على نفسه.

ووقفوا به أمام باب مغلق ..

وفتح السجان الباب ..

وفجأة ارتفع ضجيج صاخب اهتزت له جنبات السجن .. طرقات عنيفة فوق الأبواب الحديدية المغلقة .. كأنهم يطرقونها بأيد من حديد .

كانت هذه هى تحية الشبان المسجونين لزميل جديد لا يعرفونه.. يطرقون أبواب الزنازين بالأطباق والملاعق والأكواب المصنوعة من الصاج .

وأسرع الدباغ ودفع محيى داخل الزنزانة .. ثم هرول خارج السجن يفر مرتعدا من هذا الضجيج المخيف . .

وأدار السجان مفتاحه فى القفل ..

ومد محيى ذراعيه يتحسس فى الظلام .. وتقدم بضع خطوات.. فاصطدم بسرير صغير ، ألقى نفسه عليه وهو لا يرى شيئا .. ثم تحسس وجهه وهمس :

ـ نضارتى !!

وقام وتحسس الأرض بخطاه ، حتى وصل إلى الباب المغلق ، وأخذ يطرقه بكلتا يديه ، وهو يصرخ :

ـ نضارتى .. نضارتى !!

وضاع صراخه وسط الضجيج الذى كان لا يزال ينبعث من وراء الأبواب الأخرى ..

ثم سكت الضجيج شيئا فشيئا ..

ومحيى لا يزال ملتصقا بالباب ، وبدأ يعيد الطرق ويصرخ بأعلى صوته :

ـ نضارتى .. نضارتى ؟!

ولم يجبه أحد ..

وساد الصمت ..

صمت ثقيل رهيب ..

فعاد يتحسس الأرض بأقدامه ، وألقى بنفسه على السرير الصغير الجاف .

وبدأ يحس بآلام ..

آلام لم يحس بها من قبل ..

أحس كأن سكينا يشق شفته الجريحة .. وكأن نارا تلهب خديه المصفوعين .. وكأن شيئا يتلوى ويتقلص فى جنبه مكان اللكمة التى أصابته ..

وتأوه ..

وشعر أنه لا يستطيع الحراك .. كأن جسده شد فوق السرير بسلاسل ثقيلة من الحديد ..

وهو يريد أن ينام .. ليستريح !

اغمض عينيه ..

وما كاد يغمضهما حتى سمع صوت المفتاح يدور فى قفل الباب، فرفع رأسه متحفزا .. ولكن الباب لم يفتح .. وظل رافعا رأسه مدة طويلة ..

ولكن الباب لم يفتح ..

وأعاد رأسه مكانه ..

واغمض عينيه .. إنه متعب .. إنه قطعة من التعب .. ويريد أن ينام ..

وفجأة .. سمع صوت المفتاح يدور فى القفل من جديد .. ورفع رأسه فى إعياء .. بلا تحفز .. وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب لم يفتح .. انتظر مدة طويلة ، ولم يفتح الباب ..

وسقطت رأسه فوق السرير إعياء .

وشعر بالخوف .. وكان أضعف من أن يقاوم خوفه فبدأ يرتعش ، كأنه أصيب فجأة بالحمى ..

وحاول أن يغمض عينيه .. إنه يتعذب .. يكاد يموت من العذاب..

وفجأة أضاء النور داخل الزنزانة .. وارتجفت جفناه فوق عينيه، كأنهما جناحا عصفورة مذعورة .

وأدار بصره حوله .. ورأى زنزانته لأول مرة .. قاتمة ، موحشة، ورأى سريره .. وجردلين أحدهما مليء بالماء والآخر فارغ.. والباب لا يزال مقفلا ..

وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب لم يفتح ..

وفجأة انطفأ النور، كما أضاء فجأة ..

إنهم يعذبونه ..

إنهم لا يريدونه أن ينام ..

إنهم يتلفون أعصابهم ..

وأحس بنفسه يتجمع للبكاء .. ولكنه لم يبك .. لم تعد فيه قوة تكفى لقذف الدموع من عينيه .

ولا يدرى كم مضى عليه من الوقت .. ولكن الدنيا لا تزال ظلاما ..

إلى أن بوغت بالباب يفتح ، والنور يضاء داخل الزنزانة .. ورأى من بين رموشه المرتعشة اليوزباشى الدباغ واقفا أمامه وفوق شفتيه ابتسامته اللزجة .. وسمعه يقول فى لهجة مفتعلة الرقة :

ـ أنت لسه صاحى يا محيى .. حبيت اطمن عليك قبل ما أروح.. مش عايز حاجة ؟!

ونظر إليه محيى فى ضعف كأنه يتوسل إليه أن يرحمه ، وقال فى صوت متهدج خفيض ، وهو لا يزال راقدا :

ـ نضارتى !!

وقال الدباغ وهو يدعى الحنان :

ـ بس كده .. ؟

ثم التفت إلى خارج الزنزانة وصاح :

ـ روح يا عسكرى هات النضارة من فوق المكتب إلى محيى فى أودة التحقيق !

ثم عاد ينظر إلى محيى قائلا :

ـ تحب أسيب لك الباب مفتوح ؟

وقال محيى فى ضعف :

ـ متشكر ..

وقال الدباغ :

ـ وتحب أسيب لك النور مولع .. يمكن تكون بتخاف من الضلمة؟!

وردد محيى :

ـ متشكرا !

وجلس الدباغ على حافة السرير بجانب الجسد المعذب ، وقال :

ـ تعرف .. أنا مش هاين على أروح وأسيبك هنا .. نفسى إنك ترجع البيت الليلة دى .. دلوقت ..

ولم يرد محيى ..

وعاد الدباغ يقول :

ـ أنا كل اللى عايز اعرفه .. إبراهيم حمدى راح فين بعد ما كتب الورقة دى وقلع البنطلون اللى لقيته عندك .. مش عايزك تقوللى اكتر من كده .. مش عايز اعرف كان بينك وبينه إيه ، ولا قابلته فين .. بس قوللى راح فين ؟

وقال محيى كأنه يتأوه :

ـ أنا تعبان .. اعمل معروف سيبنى ..

وقال الدباغ :

ـ ما أنا عايز أريحك .. بس اتكلم .. كلمة واحدة ؟!

وقال محيى وهو يدير رأسه فوق الوسادة القذرة :

ـ ما أعرفش .. ما أعرفش حاجة !

وصرخ الدباغ :

ـ ما تقولش ما أعرفش .. مش عايز اسمع منك الكلمة دى تانى.. فاهم !

ثم سكت قليلا ، واستطرد بعد أن ضبط أعصابه :

ـ خلينا أصحاب يا محيى .. طيب أنا حاقولك حكاية .. أنت عارف مين دلنا عليك .. عبد الحميد ابن عمك ؟

ورفع محيى رأسه فى فزع من فوق الوسادة ، ثم عاد وألقى به مكانه ، كأنه تذكر أن الدباغ لا يمكن أن يكون إلا كاذبا ..

واستطرد الدباغ قائلا :

ـ مش مصدقنى .. طيب بص .. مش دى نوتة عبد الحميد .. بص مكتوب فيها إيه .. نمرة تليفون همام بك رئيس البوليس السياسى ، ونمرة تليفون النائب العام كمان ... مش تعرف خط عبد الحميد .. بص كده ؟!

وقرب الدباغ المفكرة الصغيرة التى كان يحملها عبد الحميد فى جيبه ، والتى عثر عليها عندما فتشت ثيابه بعد دخوله السجن .. قربها من أنف محيى ، فرأى فيها نمرة تليفون همام والنائب العام مكتوبة بخط عبد الحميد .. ففغر فاه .. ورفع عينيه إلى وجه الدباغ كأنه يحاول أن يكذبه .. ثم سكت !!

واستطرد الدباغ قائلا :

ـ حضرته يا سيدى ضرب تليفون لهام بك وراح قابله ، علشان يبلغ عن إبراهيم ويقبض المكافأة .. خمسة آلاف جنيه .. مش أنت أحق بيهم فى ذمتك .. ثم إذا كان ابن عمك ناوى يوديك فى داهية ، ما تنفد بجلدك ، وتتكلم ، قبل ما يلبسك المصيبة كلها ؟!

وشعر محيى بقلبه ينقبض .. كل شىء فيه ينقبض إلا ذهنه ..

هل صحيح أن عبد الحميد هو الذى أبلغ البوليس ؟

وماذا أبلغهم ؟

ولماذا لم يقبضوا عليه منذ أبلغهم .

ولماذا يضربون عبد الحميد .. كما يضربونه ؟

ولكن هذه نوتة عبد الحميد .. وهذا الخط خطه ، وهذه نمرة همام بك !

وأحس بحيرة تمزق عقله ..

أحس أنه يريد أن يكون وحيدا ..

يريد أن ينام ..
وقال فى صوت أشد ضعفا :
ـ أنا ما عرفش حاجة .. أرجوك ارحمنى .. أنا تعبان .. عايز أنام.
وأدار رأسه فوق الوسادة !
وقال الدباغ منتفضا من فوق حافة السرير ، ومد يده وقبض على محيى من قميصه ثم رفعه من فوق الفراش ، وجذبه إلى الأرض وهو يصرخ :
ـ أنت باين عليك غبى .. حمار .. مابتفهمش .. الحمير اللى زيك لهم طريقة نعاملهم بيها .
ثم تركه وصرخ مناديا الجنود الذين يقفون عند الباب ، قائلا :
ـ خش يا عسكرى أنت وهوه .. شيلو السرير ده بره .. ماتخلوش حاجة فى الزنزانة .. وادلقوا له جر دلين ميه !!
ودخل جنديان وحملا السرير خارج الزنزانة ، وحملا الجردلين.. لم يعد شىء فى الزنزانة إلا أرضها السوداء .. ثم عادا بصفيحة مملوءة بالماء وسكباها على الأرض الأسفلت .. وخرجا وعادا بصفيحة أخرى .. وسكباها .. وصفيحة ثالثة .. حتى أصبحت أرض الزنزانة كمستنقع صغير رطب .
وقال الدباغ وهو واقف عند باب الزنزانة :
ـ أما أشوف حتتكلم ولا لأ .. اقفل الباب يا عسكرى !
وقفل باب الزنزانة ..
وعاد الظلام يغمرها ..
ومحيى واقف مستند على الجدار ، وقدماه فى الماء ..
إنه لا يحس بالماء ..
ولكنه يحس بالتعب ..
ويريد أن ينام ..
وأغمض عينيه ..
ووقع فوق الأرض .. فى المستنقع الرطب .. مغشيا عليه !! ..

١٧

كانت الساعة الخامسة والنصف صباحا عندما بدأت الحركة من جديد فى سجن الأجانب..

وكانت التعليمات المشددة التى وضعها القلم السياسى لتطبق فى السجن طوال فترة التحقيق فى حادث هرب ابراهيم حمدى، تقضى بألا يجتمع المسجونون تحت التحقيق، بعضهم ببعض، وألا يرى أحدهم الآخر.. وأن يظل كل منهم حبيسا داخل الزنزانة طوال الليل والنهار.. حبسا انفراديا.. إلى أن يجن أو ينهار فيعترف ويدلى بمعلومات تؤدى إلى القبض على ابراهيم حمدى..

وكانت هذه التعليمات المشددة تقضى بأن تفتح كل زنزانة فى الصباح لمدة عشر دقائق، ليخرج منها السجين ويذهب إلى دورة المياه، يصحبه عسكرى.. على ألا تفتح زنزانتان فى وقت واحد، وألا تفتح الزنزانة الثانية إلا بعد أن تغلق الزنزانة الأولى على سجينها..

وبدأت الأبواب المصفحة تفتح، ويخرج المساجين إلى دورة المياه، الواحد بعد أن يعود الآخر..

وبدأ المساجين يلتقطون أخبار الأمس من أفواه العساكر. والأخبار تتناقل داخل السجون أسرع من تناقلها خارج السجن. وتتسرب إلى الزنازين من تحت الأبواب المغلقة، ومن بين الثقوب الضيقة.. كل الأخبار.. سواء كانت خبرا عن زوجة مأمور السجن أو خبرا عن اعتراف متهم.. إنه عالم صغير لا يخفى فيه شئ!

وكان الخبر الذى التقطه المساجين هذا الصباح، خبرا مثيرا..

مذهلا.. لقد قبض البوليس على شـاب.. لا أحد يعرف اسمه.. وجاء به اليوزباشى الدباغ إلى السـجن.. ثم عذبوه ليعتـرف.. ومات اثناء تعذيبه.. وجثته لا تزال ملقاة فى الزنزانة رقم «٨»..

وصاح صوت قوى من خلف باب الزنزانة رقم «١٦»، ولم يكن صاحبها قد جاء دوره ليفتح بابه ويخرج إلى دورة المياه:

ـ يا نمرة تسعة.. يا نمرة تسعة.. سمعت اللى حصل؟

وأجاب صوت من خلف باب الزنزانة نمرة «٩»:

ـ خير على الصبح؟!

وعادت الزنزانة رقم «١٦» تتكلم بصوت عال:

ـ دول مـوتوا واحـد فى نمرة تمانيـة.. مش سامع حـاجـة فى الزنزانة اللى جنبك؟!

وبعد برهة ارتفع صوت الزنزانة رقم «٩»:

ـ لأ.. مش سامع حاجة.. زى ما يكون فيها قتيل!!

وصرخت الزنزانة رقم «١٦»:

ـ عـملوها ولاد الكلب.. الدور علـينا.. مش حنخـرج من هنا إلا على التربة.. ما تعرفش من اللى جابوه ليلة امبارح؟

وقالت الزنزانة رقم «٩»

ـ لأ.. استنى لما اسأل نمرة حداشر..

وارتفع صوت الباشسجـان وهو واقف فى الفناء الصغير الذى يتوسط الزنازين:

ـ بس يا مسجون أنت وهوه.. يا فتاح يا عليم..

ولم تابه به الزنزانة رقم «٩» واستطردت تصرخ:

ـ يا نمرة حداشر.. يا نمرة حداشر.. ما تعرفش مين اللى جابوه فى نمرة ثمانية؟

وارتفع صوت من وراء باب الزنزانة نمرة «١١».. صـوت قوى غليظ:

ـ لأ.. ما اعرفوش.. بيقولوا قتلوه!!

وقالت الزنزانة نمرة «٩»:

ـ سمعتم امبارح فى الليل بيفتحوا عليه..

وفجأة ارتفع صوت مرتعش مذعور من خلف باب الزنزانة رقم «١٢»، وصرخ :

ـ قتلوه.. قتلوا محيى؟!

ثم ارتفع صـوت ضربات عـنيفـة فوق نـفس الباب، والصـوت المرتعش يصرخ:

ـ افتـحوا يا مـجرميـن.. افتح يا عسكـرى.. انا لازم اشرب من دمكم.. حاوديكم فى داهية..

وقاطعة صوت حاد من الزنزانة رقم «١٦»:

ـ محيى مين يا اخينا.. اسمه الكامل اية؟

وصرخ الصوت المرتعش من خلف باب الزنزانة:

ـ محيى ابن عمى.. قتلوه.. قتله الدباغ.. قتلوه .. قتلوه..

ثم ارتفع صوت نشيج حاد من خلف الباب المصفح..

وصرخ صوت الزنزانة رقم «١١» :

ـ الموت للقتلة..

ورددت باقى الزنازين:

ـ الموت للقتلة..

وعادت زنزانة اخرى تهتف:

ـ نموت وتحيا مصر..

وردت باقى الزنازين:

ـ نموت وتحيا مصر..

وهتفت زنزانة ثالثة:

ـ إلى الجحيم يا همام.. نريد رأس الدباغ..

ورددت الزنازين:

ـ إلى الجحيم يا همام.. نريد رأس الدباغ..

وهتفت زنزانة رابعة:

ـ يسقط المجرمون..

ورددت الزنازين:

ـ يسقط المجرمون..

وارتفـعت دقات عنيـفة صـاخبـة فوق أحد الأبـواب المصفـحة..

وكانت هذه اشارة متفق عليها، فأمسك كل سجين بالجردل الموضوع داخل الزنزانة.. وأخذ يطرق به بابه المصفح طرقات منتظمة عنيفة كأنه يحاول تحطيمه.. وترددت هذه الطرقات فى جنبات السجن.. فهزته هزات قوية، وعلا ضجيج صاخب مخيف، كأن السماء تزمجر غامضة..

ودخل الضابط النوبتجى فى فناء السجن مهرولا، وهو لا يزال يضم اطراف سترته، وصرخ فى وجه الباشسجان:

- ايه اللى حصل يا شاويش.. فيه ايه؟!

وأقترب منه الباشسجان، وقال فى صوت هامس:

- بيقولوا فيه واحد مات فى نمرة تمانية..

وارتسم الاهتمام فى عينى الضابط.. ثم قال:

- اقفل الزنازين كلها.. ما حدش يروح الدورة.. وأخر توزيع الأكل لغاية ما أقولك..

ثم خطا داخل السجن، والتفت إلى الباشسجان كأنه يقاوم خوفا بدأ يتسرب قلبه، وقال:

- تعالى معايا..

ثم اتجه نحو الزنزانة رقم «٨»..

وكان المتهمون قد أعتلى كل منهم حافة سريره داخل زنزانته، وأخذ ينظر من خلال الفتحة الرفيعة الضيقة جدا التى تفصل بين ضلفة الباب والحائط المثبت فيه.. ورأوا الضابط متجها إلى الزنزانة رقم «٨»، فكفوا عن الضجيج ولصق كل منهم عينيه بالفتحة الضيقة يحاول أن يتتبع الضابط، وقد بدأ التطلع يغلب غضبه..

وفتح الضابط الزنزانة ..

ورأى محيى ..

رآه جثة مكومة على الأرض السوداء.. وسط مستنقع الماء الذى صنعه له اليوزباشى الدباغ..

وانحنى الضابط فوق الجثة فى فزع.. وتسمع دقات القلب.. إن القلب لا يزال يدق..

إنه لم يمت..

وأمسك الضابط بيده الجثة.. انها باردة.. قطعة من الثلج.. والنبض ضعيف.. ضعيف جدا..

وقام الضابط وهرول خارج الزنزانة.. وأغلق بابها على الجثة التى تلفظ الروح.. واتجة فى خطوات سريعة نحو مكتبه فى البناء الخارجى للسجن.

وصرخت احدى الزنازين :

ـ قتلوه.. قتلوه..

وبدأت الطرقات العنيفة فوق الأبواب المصفحة تتوالى من جديد..

ونظر أحد جنود السجن إلى زميله.. وبصق على الأرض.. دون أن يتكلم !

ووصل الضابط إلى مكتبه، ووضع طربوشه فوق رأسه، ثم أمسك بسماعة التليفون فى لهفة، وأدار رقما ثم قال فى صوت مرتبك :

ـ سعادة اللواء همام بك موجود؟!

ثم استطرد :

ـ ارجوك تصحيه.. هنا سجن الأجانب..

وقال بعد أن سمع صوت همام بك :

ـ أيوه يا أفندم.. المتهم فى نمرة تمانية اللى وصل امبارح.. حالتة.. خطرة جدا.. بيموت.. لسة.ما ماتش..

وأخذ يستمع إلى تعليمات همام بك وهو يردد:

ـ حاضر.. حاضر يا أفندم.. حاضر.. أيوه افندم!

وألقى سماعة التليفون، وعاد مسرعا إلى داخل السجن، ثم فتح الزنزانة رقم «٨» ، وصرخ فى الباشسجان الذى كان يقف بجانبه:

ـ هات سرير قوام يا شاويش.. وهات اتنين عساكر ينشفوا الميه دى..

وفى دقائق، حمل جنود السجن سريرا إلى داخل الزنزانة، ثم حملوا محيى ووضعوه فوق السرير.. وبدأ اثنان من الجنود يجففان المياه الراكدة على الأرض بمناشف من الخيش.. نفس الجندين اللذين سكبا المياه على الأرض فى الليل.. وانحنى الضابط

مرة ثانية يتسمع دقات قلب محيى.. انه لا يزال يدق.. لم يمت بعد.. وأمسك بيده.. انها باردة.. قطعة من الثلج.. والنبض ضعيف.. ضعيف جدا.. وقرب من أنفه قطعة معبأةِ بمحلول النشادر.. فلم يتحرك محيى.. وقرب منه قطعة القطن مرة ثانية حتى كاد يدسها فى فتحة انفه، فاهتز رأس محيى هزة خفيفة، ثم عاد وتصلب.. وخاف الضابط أن يقرب قطعة القطن مرة ثالثة من انف محيى، فقام من جانبه وهو حائر مرتبك..

ووقف أحد جنود السجن ملتصقا بباب الزنزانة رقم «٩»، وقال فى صوت يكاد يكفى ليخترق الباب المصفح وسط هذا الضجيج :

ـ ما متش.. لسه فيه الروح!

وصرخت الزنزانة لتبلغ باقى الزنازين:

ـ ما متش.. له ما متش!!

وسكت الضجيج.. وكفت الطرقات فوق الأبواب، احتراما للزميل المعذب المريض..

ومرت ربع ساعة..

وفتح باب السجن الخارجى.. الباب الكبير.. ودخل اليوزباشى الدباغ مهرولا، واتجه إلى غرفة المأمور التى كان يجلس فيها الضابط، وقال وهو يرفع اصبعه بتحية باردة:

ـ إزاى الحال.. جرى له أيه!!

وقال الضابط وهو ينتصب واقفا:

ـ قلبه بيدق.. إنما مغمى عليه!

وهز الدباغ رأسه، ثم رفع عينيه إلى الضابط، فرآه مضطربا ممتقع الوجه، فقال وهو يبتسم:

ـ ماتخافش.. مش حايموت!!

وجلس على مقعد مريح، وهو يقول:

ـ البيه المأمور لسه ما جاش؟!

وقال الضابط:

ـ زمانه جاى يا افندم!

وقال الدباغ ساخرا:

ـ على مهله.. كفاية احنا شايلين الهم كله!

وفتح الباب الكبير مـرة ثانية، ودخل همام بك.. وصافح الدباغ، وحـيا الضـابط بطرف أصبـعه.. ثـم انسحب الضـابط إلى الغرفـة الأخرى.. غرفة المعاون.. وقال الدباغ :

ـ تبقى مصيبة.. لو مات قبل ما يتكلم!!

وقال همام بك فى صوت مفتعل الرقة.. كأنه يتهكم:

ـ والله الجمـاعة دول بيصعـبوا على.. انا عارف ما بيـتكلموش ليه!!

وفتح الباب الكبير.. ودخل طبيب السجن.. ساخطا متبرما تخينا.. ويجب أن يقول لك أحد أنه طبيب، حتى لا تعامله على انه جزار.

وقام همـام بك واليوزباشى الدباغ يرحبـان به.. ثم خرج الدباغ لينادى الضابط.. فـجاء وصحب الطبيب إلى داخل السـجن، وهمام بك يقول من ورائهما:

ـ أنا آسف يا دكـتور من ازعـاجك.. إنما نعـمل اية فى الروتين والاجراءات!

ودخل الطبيب إلى فناء السـجن، واستقبلته عـيون لا يراها تطل عليه من خـلال الفتـحات الضيـقة التى تفـصل بين أبواب الزنازين والحائط المثبتة فـيه.. وسار إلى الزنزانة رقم «٨» ودخلها.. ووقف فوق جسـد محيى دون أن يلمسه.. وقف ينظر إليـه من بعيد ورأى الوجه الأصـفر صفرة الموت.. والجـثة الضعـيفة المكومة.. والشـفة المشـقوقـة من اثر الضرب.. والخـدين المتـورمين من اثر الصـفع.. ورأى المياه التى تبلل الأرض.. وسمع الأنفاس الضعيفة التى تنطلق فى مشقة كأنها تلفظ آخر ما فيها.. ثم خرج مسرعا كأنه يهرب من رائحـة كريهـة.. وعاد إلى غـرفة المأمـور حـيث كان ينتظره همـام والدباغ.. وقال وهو يفرد أمامه ورقة ويخط فيها تقريره:

ـ التـهاب حـاد فى المصـران الأعور.. اظن من الأفـضل ينتـقل للمستشفى.. علشان تخلوا نفسكم من المسؤولية!

وقال الدباغ:

ـ ضرورى يعنى يا دكتور يروح المستشفى؟!

وقال الطبيب وهو يفتح فمه عن أسنان صفراء:

ـ على كل حال أطمن.. أنا حاكتب انه مصران أعور.. وحاباشره بنفسى هناك!

وابتسم همام قائلا:

ـ فيك الخير يا دكتور.. والله دول ما يستهلوا المعاملة الطيبة دى.

وبعد فترة وقفت سيارة من سيارات الأسعاف، أمام باب السجن، وعاد الضابط إلى الزنزانة رقم «٨» يصحبه جنديان حملا جسد محيى بين ايديهما، وخرجا به إلى القسم الخارجى من السجن حيث وضعاه فوق «نقالة» حملها رجلان آخران ووضعاها داخل السيارة..

وتحركت السيارة..

وسارت فى محاذاة سور السجن، وقبل أن تصل إلى شارع الملكة نازلى، مرت برجل عجوز متعب، يحمل فى يده حقيبة صغيرة، تبدو ثقيلة عليه، ويسير فى خطوات بطيئة مرتجفة نحو الباب الكبير.. رجل لم يعلم أن هذه السيارة التى مرت به، تحمل جسداً بين الحياة والموت..

جسد ابنه..

١٨

كـان الأب قد ارتدى ثـيابه على عـجل بعـد أن تم القبض على ابنه وعلى ابن اخيـه، وترك زوجته ملقاه على الأرض تعـانى نوبة عـصـبيـة تهـز بدنهـا كله، وبجوارها ابنتاها.. وخـرج يشق الليل بخطواط فزعة متجـها إلى دار المحافظة، بعد أن قال لـه الجندى الذى اشترك فى القبض على ابنه انهم متجهون إليها..

ووجد بناء المحافظة غارقا فى الليل، يبدو كشبح يتوسط ميدان باب الخلق، وليس فـيه سوى بصـيص ضئيل من النـور ينبعث من حجرتين كأنهما عينا شيطان لا ينام..

ودخل واجف القلب.. مـهتديا ببـصيص النور.. بعيـنى الشيطان الذى يسكن الدار.. واسـتطاع أن يقابل أحـد الضبـاط وعلم منه أن ابنه ليس فى المحـافظة.. ولم يستـطع أن يعلم منه أكثـر من ذلك.. لم يستطع أن يعلم اين اخذوا ابنه..

وخرج مـن مكتب الضابط، ولم يعـد إلى بيتـه.. انما جلس على مقعـد خشبى فى ممر طويل مظلم داخل بناء المحافـظة بجانب أحد الجنود.. منتظرا ابنه.. لعلهم يأتون به إلى هنا..

ولكنهم لم يأتوا به..

أين اخذوه.. أين ذهبوا به..

ولأول مرة يرى القاهرة فى مخـيلته بلدا كبيرا غامضا مـخيفا.. إن القاهرة ليسـت هذه الشوارع التى يعرفها.. وليـست هذه الابنية والدور التى تحمل أرقاما وأسماء.. انها شئ أكبر من ذلك وأخطر.. إن فيـها سـراديب لا يعرفـها، وأماكن خـفيـة لم يسمع بهـا أحد.. سراديب تحت الأرض، وأماكن خلف أسوار عالية..

وبدأ يتخيل تحت كل شارع يعرفه سردابا يخفون فيه ابنه..

لعل تحت بناء المحافظة سردابا رطبا مظلما القوا فيه بابنه وتركوه بين الثعابين والعقارب..

لعل ابنه وراء هذا السور العالى الذى يطل على فناء المحافظة، وتعلوه اسلاك شائكة، وابراج يقف فيها جنود مسلحون..

وكان خلال هذه التخيلات يتنازعه الخوف واللوعة حتى يكاد يبكى، ثم يطغى عليه احساس عنيف بالسخط فيحس كأن يديه تمتدان رغما عنه لتقبضا على عنق اليوزباشى الدباغ وتخنقه.. ثم لا يكتفى بخنق الدباغ، وتمتد يداه لتخنقا وزير الداخلية.. ثم رئيس الوزراء.. ثم الملك نفسه.. يخنقهم بلا رحمه، ويضغط على أعناقهم، وهو يصرخ: «أين ابنى.. أعيدوه إلى.. أين محيى»؟!!

ويفيق من هذه التخيلات ليجد نفسه صغيرا تافها.. وهو لم يكن ابدا صغيرا إلى هذا الحد.. ولا تافها إلى هذا الحد.. كان دائما يحس بشخصيته كاملة.. شخصية محددة واضحة، قضى حياته كلها يرسم فيها.. شخصيته فى بيته، وسط عائلته.. وشخصيته فى عمله بين زملائه.. ولكنه الآن يحس بأن ليس له شخصية.. ليس له كيان.. وبأنه لم تكن له هذه الشخصية وهذا الكيان ابدا.. لم تكن له شخصية فى بيته ولا فى عمله.. إنما كانت مجرد مظهر من مظاهر الشخصية، لا شخصية حقيقة ثابتة يستطيع أن يطمئن إليها.. ليس لأحد من أهل هذا البلد شخصية.. ليس لأحد حقوق أو واجبات.. إنما الناس فى مصر مجرد بهائم، تعلق فى سواق.. وتحدد لها الدوائر التى تدور فيها.. وتلهب ظهورها بالسياط..

ليس لأحد فى هذا البلد شخصية ما دام البوليس يستطيع أن يختطف أولاد الناس، ويخفيهم فى سراديب تحت الأرض، وخلف أسوار عالية.. دون أن يكون من حق الناس أن يعرفوا أين اختفى أولادهم.

وأزداد احساسا بالتفاهة، والضعف.. وانكمش على نفسه، وانكمشت قسمات وجهه، فبدا كالفأر المذعور.. واشفق الجندى الجالس بجانبه على حاله.. فقال وهو ينظر إليه فى رثاء:

- يا سيدنا الافندى ما فيش فايدة من القعدة دى.. روح بيتكم

أحسن.. انت مش بيان عليك وش بهدلة!

وقال زاهر افندى كأنه يتشبث بجلسته:

ـ بس عايز اعرف ابنى خدوه فين.. ما أقدرش اروح قبل ما اعرف هوه فين.. وادينى قاعد، انشا الله للصبح.

وقال جندى البوليس وهو يتنهد:

ـ ويعنى حاتعمل أيه لما تعرف.. مافيش فايدة.. قوم روح أحسن لك.. وقول يا رب..

وقال الأب الملتاع:

ـ بس عايز اطمئن.. اطمئن راح فين!!

ونظر إليه الجندى مليا، ثم قال فى لهجة العليم ببواطن الأمور:

ـ هوه متهم فى اية؟

قال زاهر افندى بسرعة:

ـ ما اعرفش.. دول لسه قايضين عليه دلوقت، من مدة ساعة واحدة!

وعاد العسكرى يقول فى لهجة الفيلسوف:

ـ ما هو دايما كده .. الوالدين يشيلو الهم من غير ذنب.. من غير ما يعرفوا حاجة.. انما انت متأكد أن البوليس السياسى هوه اللى قبض عليه.. ما يمكن مسكوه فى مخدرات ولا فى سرقة.. مين عارف!

ـ لأ.. مش ممكن.. اللى قبض عليه ضابط اسمه اليوزباشى محمود الدباغ..

ورفع الجندى حاجبيه كأنه يرفعهما رهبة أمام الاسم الخطير، وقال:

ـ بنفسه!!

وتلفت الجندى حوله، ثم همس فى اذن زاهر افندى:

ـ تلاقى ابنك دلوقت فى سجن الأجانب.. هناك جنب المحطة.. حضرة اليوزباشى بيعمل كل شغله هناك.. وبياخد المتهمين بتوعه طوالى على السجن من بره بره..

وغاص قلب الأب فى صدره، وانطلق كأنه يتأوه:

ـ سجن !! قبل ما يحققوا معاه!!

وهمس الجندى:

ـ بس وطى صوتك. ما هو التحقيق برضه هناك!

وقال الأب كأنه تائه:

ـ انت متأكد؟

وقال الجندى متباهيا بنفسه:

ـ إلا متأكد.. ما هو احنا يا سيدنا الافندى اللى نعرفه كل حاجة.. احنا الأساس!

وقام الأب وهو يهمهم بكلمات لا معنى لها.. وزحف فى الظلام إلى أن وضع نفسه فى سيارة أجرة.. وذهب إلى سجن الأجانب.. ونزل من السيارة، وما كاد يقترب من سور السجن حتى صرخ فى وجهه أحد الحراس وهو يرفع بندقيته من فوق كتفه:

ـ عندك:.

وكانت الصرخة كافية لتقذف به بعيدا عن السور. ووقف ينظر إلى السجن من بعيد.. وهو يتصور ابنه فى كل مكان منه، ويكاد يطل عليه من كل حجرة فيه..

وعدل عن محاولة طرق باب السجن..

ووضع نفسه فى سيارة الأجرة مرة ثانية، وعاد إلى بيته.. كان يائسا.. مهدما.. يعذبه احساسه بصغر شأنه، وفشله فى العثور على ابنه..

وكان يأسه يصور له انه هو الذى جنى على ابنه والقى به بين انياب البوليس.. هو الذى سمح لابراهيم حمدى بأن يختبئ فى البيت.. هو الذى جر على ابنه كل هذه المصائب..

لماذا لا يقبض عليه البوليس بدلا من ابنه؟!

لماذا لا يقدم نفسه للبوليس ويعترف بأنه هو الذى سمح لابراهيم حمدى بالاختباءعنده؟!

ما أغبى البوليس.. انهم يعتقدون ان الشبان وحدهم هم الذين يتهورون فى وطنيتهم.. انهم لا يتصورون أن رجلا عجوزا مثله يستطيع أن يشارك ابنه فى تهوره..

وواجبه كأب يلزمه بأن يفتدى ابنه!

يجب أن يحمى ابنه من الضياع!

إن ابنه هو المستقبل الذى يعـيش لـه.. أما هو فهو الماضـى.. وهو يستطيع أن يضحى بالماضى، ولا يستطيع أن يتنازل عن المستقبل!

ولكن هل يقبل البوليس هذا الفداء؟!

هل يطلقون سراح محيى، لو تقدم معترفا على نفسه؟!

يجب أن يفكر..

وأن يفكر طويلا..

وسار داخل بيته بين قطع الأثاث المتناثرة المحطمة من اثر عملية التفـتيش التى أجـراها البوليس.. ثم وقف على باب غـرفتـه، وشد ظهره، وحاول أن يريح قسمات وجهه من تعابير العذاب، وان يجمع ارادته حتى يبدو هادئا.. ثم دخل على اطراف اصابعه!

وكانت زوجتـه راقدة فى الفراش، وعيناها مـفتوحتان مـعلقتان فى السقف وخيوط من الدمع تجمدت فـوق وجنتيها.. وقد عصبت رأسـها بمنديل شـدته حول جبينها شـدا قاسيا كأنها تحـمى رأسـها من الانفجـار.. وكانت سامـية جالسة علـى طرف السرير تدلك فى قـدمى أمـهـا.. ونوال واقـفـة عند الطـرف الآخـر تدلك فى يديهـا وذراعيها.. والـثلاثة فى صمت ثقيل حزين.. وقد فـاحت فى الغرفة رائحـة عطر عنيف تغلب عليه رائحة «السبـرتو» كأنـها فى غـرفة مستشفى..

ورفعـت البنتان رأسـيهـما إلى أبيـهمـا وفى عينيـهمـا نظرات متسائلة ملتاعة..

وأحست الأم بأنفاس زوجها، فاهتز جـسدها الثقيل هزة عنيفة، وتأوه السرير فى صـرير حاد، وقامت جالسـة وسط الفراش وهى تنظر إلى زوجها نظرات مبهورة، ولما لم تسمعه يتكلم صرخت:

ـ هو فين.. ما جاش معاك ليه..عملوا فيه ايه؟!

وشد الأب ابتسامة باهتة علقها على شفتيه، وقال فى حنان:

ـ يا ستى اطمنى.. كل حاجة ماشية كويس..

وقالت وهى لا تزال تصرخ:

ـ شفته.. شفته بعينك؟

وقال الأب وهو يرخى عينيه حتى لا تفضح كذبه:

ـ شفته، وقعدت معاه.. واطمنت عليه؟!

وعادت الأم تصرخ:
ـ ما جبتوش معاك ليه.. ما تكدبش على يا زاهر.
قبلى بيقوللى إنك بتكدب على!!
وقال وهو يحاول ألا يتلعثم:
ـ حاكدب علـيكى ليه يا تحيه.. صـدقينى وأطمنى.. دلوقت هوه قاعد فى أودة الظابط مستنيين النيابة علشان ياخدوا منه كلمتين..
وقالت الأم وهى تنظر فى وجه زوجها:
ـ وسبته لوحده يا زاهر.. يهون عليك تسيب ابنك لوحده. ابنى.. يا حبيبى يا ابنى.. يا ترى عاملين فيك ايه دلوقت؟!!
وبدأت تجهش فى البكاء..
وانحنت البنتان تربتان على ظهرها.. وقالت نوال:
ـ بس يا ماما.. ريحى نفسك من العياط بأه.. كفاية!
وشدتها سامية تحاول أن ترقدها على ظهرها، وهى تقول:
ـ ارقدى يا ماما.. كفاية اللى عـملتيه فى نفسك.. أهو بابا بيقول أن محيى بخير!
وقال الأب وهو يدير وجهه:
ـ ويعدين بأة يا تحية.. ما تعمليش زى العيال.. انت طول عمرك عاقلة وبتـستحـملى.. انا محتـاج لك اليومين دول، بدل مـا تعيطى خلينا نفكر سـوا فى حالنا.. وصدقـينى.. محيـى كويس.. كل اللى حصل أن وكيل النيابة ضرب تليفون وقال انه مش حيقدر يجى إلا الصـبح.. واضطر محـيى انه يستناه.. واطمنـى، ما حـدش عارف حاجة، ولا حيقدروا يعرفوا حاجة..
وأستمرت الأم فى البكاء والنشيج..
واستطرد الأب يقول:
ـ انا حاروح انام فى اودة محيى.. ومن بدرى حاكون عنده!
وخـرج من الغرفـة.. ومـا كاد يتـعدى البـاب، حـتى تخلت عنه ارادته، وعادت قسمات العذاب إلى وجهه..
وقالت الأم من بين دموعها:
ـ قوموا يا بنات شـوفوا أبوكم.. قوموا معـاه.. انا خلاص بقيت كويسة.. خدى له الجلابية معاكى يا نوال.. وانتى يا سامية، شوفى

إذا كان عايز يتسحر حطى له السحور.
ونظرت البنتان إلى امهما فى تردد، ثم كانهما قدرتا أن أمهما لن تستريح إلا إذا اطمأنت على راحة الأب، فقامتا من جانبها، وحملت نوال جلباب والدها وخرجت مع اختها إلى الغرفة الأخرى.. غرفة محيى!
وكان الأب قد ألقى بنفسه فوق مقعد بين قطع الأثاث المبعثرة.. وجلس صامتا يدير عينيه حوله كأنه يبحث عن محيى فى كل ما يراه.. وبين رموشه حبات من الدمع عجزت ارادته عن حملها، فتركها تسقط على وجنتيه..
وقالت نوال فى لوعة وهى ترى دموع أبيها:
- جرى ايه يا بابا.. انت حاتعمل زى ماما؟!
وقال الأب كأنه يرجوها:
- وطى صوتك.. أحسن مامتك تسمعك!
ومدت سامية يديها إلى سترته قائلة:
- قوم اخلع يا بابا، واستريح شوية!
وقال الأب هامسا وهو يزيح يد سامية عن كتفه، وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد:
- اسمعوا.. انا حاقولكم على حاجة مش عايز أمكم تعرفها.. محيى فى السجن..
وشهقت كل من البنتين..
وظلت شهقتهما معلقة بين شفاهما برهة..
وقالت سامية كأنها تعرض صدرها لطعنة أخرى:
- وعبدالحميد؟
قال الأب وهو ينكس رأسه:
- معاه..
وقالت نوال:
- وعرفوا حاجة؟!
وقال الأب وهو لا يزال منكس الرأس:
- ما اعرفش.. ما قدرتش اشوفه.. إنما عرفت انهم اخدوه السجن.. سجن الأجانب!

وخيم على الثلاثة صمت حزين.. كل منهم يرى السجن فى مخيلته ويرى محيى خلف قضبانه..

ثم قالت سامية:

- انا اعرف أن ابن خالة خديجة صاحبتى يبقى ظابط فى البوليس.. ما نكلمه.. يمكن يقدر يعملنا حاجة؟!

ولم يجبها أحد.. ظل الأب صامتا غارقا فى حيرته.. وظلت نوال سادرة فى تفكيرها.. انها تفكر فى ابراهيم.. يجب أن تجده.. إنه وحده الذى يستطيع أن ينقذ أخاها.. إنه كيف يعرف ينقذه.. يعرف كل شئ!

وقال الأب وهو يتنهد:

- خدوا بيجامة محيى وغيار جوانى وفوطة وصابونة.. وحطوهم فى شنطة صغيرة.. يمكن أقدر أوصلهم له بكره الصبح..

وبدأت البنتان تتحركان..

والبيت كله غارق فى الصمت والخوف.. كأنهم يرتقبون الموت..

●●●

وخرج الأب من الساعة السادسة صباحا حاملا الحقيبة الصغيرة التى تضم ملابس محيى، ومر فى طريقه على بائع فاكهة واشترى ثلاث أقات من الموز.. ثم ركب الترام إلى شارع الملكة نازلى، ونزل قبل ميدان المحطة، وسار نحو سور السجن، ومرت به سيارة الإسعاف وهو لا يدرى انها تحمل جسدا معذبا.. فقد النطق من كثرة ما تحمله من عذاب.. جسد ابنه!

ووقف أمام الباب الكبير حائرا، ثم مد ذراعا هزيلا وضغط على الجرس المثبت فى الحائط..

وفتحت طاقة صغيرة فى الباب وأطل عليه وجه غليظ جامد ينتثر فوق شاربه مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوقه شفتان ملوثتان.. وقال فى غلظة:

- نعم.. أنت مين؟!

وقال الأب فى تخاذل:

- صباح الخير.. انا والد محيى الدين مصطفى زاهر.. وجايب له شوية هدوم!

وقرب الجندى وجهه من الطاقة، ونظر إلى الحقيبة التى يحملها زاهر، وإلى اللفافة التى تضم صوابع الموز.. ثم مط شفتيه، كأن ما رآه لا يكفى لأن يفتح الباب، ثم قال فى حدة:

ـ خليك عندك..

ثم اغلق الطاقة فى وجهه..

وظل زاهر افندى واقف.. وطال وقوفه.. فوضع الحقيبة الصغيرة على الأرض وجلس عليها.. وانتظر .. انتظر طويلا.. نصف ساعة.. ساعة.. ثم فتح الباب الصغير، وقال له الجندى:

ـ اتفضل!!

وهب زاهر افندى واقف، وجمع الحقيبة ولفافة الموز بين يديه فى ارتباك.. ثم دخل، وعلى وجهه فرحة كأنه سيلتقى بابنه بمجرد أن يتعدى الباب.

وقاده الجندى إلى غرفة المأمور.

ودخلها وهو يدير عينيه بحثا عن محيى..

ولكنه لم يجده.. وجد ثلاثة ضباط بينهم اليوزباشى الدباغ..

ونظر إلى الدباغ فى توصل، كأنه يستجديه ابنه.. واقترب منه الدباغ مادا يده وهو يصيح فى ترحيب، وابتسامته اللزجة تسيل على شفتيه:

ـ أهلا.. صباح الخير.. ازيك يا زاهر افندى!

واصطدمت يده بالحقيبة الصغيرة ولفافة الموز، فقال من خلال ابتسامته:

ـ كل ده علشان محيى.. طيب اتفضل استريح!

وأخذه إلى ركن من الحجرة وأجلسه على مقعد كبير من الجلد، وجلس بجانبه على مقعد من الخيزران.. والضابطان الآخران لا يلتفتان إليهما..

وقال الدباغ:

ـ يا سيدى اطمن.. محيى بخير!!

وقال الأب فى لهفة، وهو يقفز إلى مقدمة مقعده:

ـ أقدر أشوفه؟!

وقال الدباغ:

ـ حلمك على .. أصل الحقيقة أن محيى مزعلنى.. يظهر أن فيه شوية عيال ضاحكين عليه مفهمينه أنه ما يتكلمش.. وانا عاوزه يتكلم علشان يرجع البيت، ويلتفت لدروسه..

وعاد الأب إلى مؤخرة المقعد وقد بدا عليه اليأس وقال فى حزن:

ـ يتكلم يقول ايه يا سعادة البيه ؟

وقال الدباغ:

ـ يقول كل حاجة يعرفها عن ابراهيم حمدى.. احنا لاقينا فى اودته حاجات تخص ابراهيم حمدى، وكل اللى عايزين نعرفه ابراهيم راح فين.. إلا قوللى.. انت ما لاحظتش على محيى حاجة فى اليومين اللى فاتوا.. بيتأخر برة.. بيجتمع بصحابه كتير.. حاجة زى كده.

وقال الأب وهو يتنهد:

ـ ابدا يا سعادة البيه.. محيى مش بتاع حاجات زى دى.. ده عمره ما كان له دعوة بالسياسة، ولا يعرف ابراهيم حمدى ولا غيره..

وقال الدباغ كأنه يأسف:

ـ ما هو ده اللى محيرنى.. الحقيقة اننا عمرنا ما سمعنا عن محيى، ولا كان له دوسية عندنا.. إنما مين عارف.. يمكن كان أشطر مننا..

وقال الأب:

ـ ابدا يا سعادة البية.. هوه ما لوش دعوة بالسياسة ابدا.. ده انا اللى مربيه!

وقال الدباغ بعد فترة صمت:

ـ اسمع.. انا حاخليك تقابله علشان تقنعه بأنه يتكلم.. وحط فى بالك أن التهمة الموجهة له خطيرة.. عقوبتها ثلاث سنين سجن على الأقل.. ولو اتكلم ياخذ مكافأة خمسة آلاف جنيه..

وقال الأب فى لهفة:

ـ حاقبله دلوقت؟!

وتذكر الدباغ آثار التعذيب التى قد تكون بادية على محيى، فقال:

ـ لا.. دلوقت مش ممكن.. لازم نجيب اذن من الحاكم العسكرى.. وانا حاسعى لك فى الاذن ده.. ابقى فوت على فى المحافظة بعد بكره..

وقال الأب:

ـ بس اشوفه.. أطمئن عليه!!

وقال الدباغ وابتسامته لا تزال بين شفتيه:

ـ أطمن.. ده فى عهدتى.. ما تخافش.. فوق على بعد بكره..

وقال الأب يائسا:

ـ أقدر أسيب له الحاجات دى؟!

وفكر الدباغ قليلا، ثم عدل عن أن يقول للأب إن ابنه ذهبوا به إلى المستشفى، وقال:

ـ أمال.. انا حاوصلهم بنفسى!

وقال الأب فى ضعف:

ـ متشكر!

وقام وصافح الدباغ بيد مرتعشة، وخرج من الباب الكبير وسار كأنه يكاد يقع على وجهه فى كل خطوة.. وركب الترام إلى الوزارة..

ووقف يوقع على الساعة التى يوقع عليها الموظفون عند وصولهم وانصرافهم.

ورفع عينيه فوجدها الساعة العاشرة والنصف..

لقد تأخر نصف ساعة..

لأول مرة فى حياته..

وأحس أن حياته كلها قد اختفت!!

١٩

كـــانت نوال وهـــى تفكـر فى ابراهيـم، لا تدرى بالضبط ماذا يمكن أن يفعله لانقاذ اخـيها محيى من السـجن.. ربما اسـتطاع أن يسـاعـده على الهـرب.. وربما استطاع أن يزوده بدليل يثـبت به براءته.. أنها لا تدرى.. ولكنها تحس احساسا عمـيقا بأن ابراهيم يستطيع تحمل مسئولية محيى، وأن ينقذه..

وهى تحمله هذه المسـئولية بلا حقد، وبلا لوم.. انمـا تحملها له كبطل.. وزعيم.. وكأخ.. وكرجل يخفق قلبها بحبه..

وقد فكرت أن تبحث عنه بدل أن تنتظر موعده. فكرت أن تذهب إلى صديقــه فتحي المـليجى، وتبلغه نبـأ القبض على مـحيى وعلى عبـدالحميـد، وتطلب إليه أن يأخـذها إلى رجلها.. ولكنهـا خافت أن تذهب.. خافت أن يفـسد ذهابها خطة مـن خطط ابراهيم.. ربما كان البـوليس يراقب فتـحى المليجى.. ربما كـان البوليس يـراقبهـا هى شخصـيا.. انها حائرة.. لا تدرى شيـئا.. لا تدرى كيف يفكر هؤلاء الشبان ولا كيف تصل إليهم.. ولكنهـا تحاول بينها وبين نفسـها أن تفكر بعقليتهم على قدر ما فهمت من عقلية ابراهيم..

وفضلت الانتظار إلى الغد..

كان الغد هو يوم الاثنين..

ولم تقف طويلا أمــام المرآة.. لم تحس هذه المرة انها ذاهبــة إلى موعد غرام.. كانت لهفتها على أخيها وابن عمها، قد استحوذت على تفكيرها كله، وعلى عـواطفها كلها.. حـتى لم يبق منها لابراهيم، إلا دوره فى انقاذهما من السجن..

ولم تتعب نفسها كثيرا فى استئذان أمها.. كانت الأم قد هدتها لوعتها على ابنها فلم تعد تستطيع أن تغادر فراشها إلا لبضع خطوات تخطوها مستندة على ذراع احدى ابنتيها.. وقد تركت البيت للبنتين يقومان بالاشراف عليه، وبين عينيها نظرة ضعيفة تتبعهما بها، كأنها تشفق عليهما من هذا العبء الثقيل الذى لا يستطيع أن يقوم به أحد إلا هى..

وسارت فى خطوات جريئة سريعة نحو محطة الأوتوبيس، وهى تتلفت خلفها بين كل بضع خطوات لتتأكد أن البوليس لا يراقبها كما كان يراقب عبدالحميد..

ولم تكن تفكر خلال الطريق إلا فيما يمكن أن يفعله ابراهيم من أجل اخيها.. قد يصمم على أن يقتل الضابط الذى اعتقله.. لا.. لن تتركه يقتل مرة ثانية.. انها تخاف عليه.. ورغم ذلك فهى فى اعماقها تتمنى لو قتل هذا الضابط.. لو قتل كل الضباط.. وكل رجال البوليس، إذا كان هذا هو الطريق لانقاذ اخيها.. ولكن على شرط ألا يتولى ابراهيم قتلهم.. انها تريده سالما.. تريده هو واخاها..

وكانت متأكده أن ابراهيم سيأتى للقائها..

شئ فى صدرها يكذب كل شك يساورها فى حضوره..

إنه لا يستطيع أن يتخلى عنها اليوم.

لا يسطيع أن يترك محيى فى السجن.. ولا يأتى ليطمئنها على ما سيفعله من أجله..

ونزلت من الأوتوبيس، وسارت إلى ميدان «فنى»، وهى لا تحس بالحرج من عيون الناس التى تتبعها.. لم يعد شئ يهمها إلا أن تلتقى بابراهيم لتنقذ اخاها.. إنها ليست ذاهبة إلى موعد غرام أيها الناس، إنها ذاهبة لانقاذ أخيها..

ووقفت فى ميدان «فنى» بجوار مستشفى عانوس، وهى تتلفت حولها، وفى عينيها نظرات قوية، جريئة..

ومضت الدقائق.

مضت ربع ساعة..

وبدأ الشك يراودها.. وخفتت نظراتها القوية الجريئة..
ومضت الدقائق..
مضت نصف ساعة..
وبدأ الشك يقـترب من اليقـين.. وبدأ الأمل يقتـرب من اليأس..
وبدأت ثورة عارمة تتجمع فى صدرها..
ومضت الدقائق..
ثلاثة ارباع الساعة..
انه لن يأتى.. هرب من المسـئولية.. مـاذا يهـمه لو قـبض على أخيها، وسجن، أو شنق.. ماذا يهمه لو قبض عليهم جميعا،
ولو احتـرق البيت بمن فـيه.. كل ما يهـمه أن يهـرب.. أن ينقذ نفسه..
وانفجرت الثورة فى صدرها..
لماذا تحبه.. هذا الأنانى؟!
وماذا تحب فيه؟!
ربما كانت تحب فـيه وهما.. وهماً صـوره لها بطلا.. ولكن اين البطل؟ إنه هرب.. إنه ترك أخـاها وابن عمـها فى السـجن وهرب.. لم تكن تتصـور أن الأبطال يهربـون.. يضـحون بالناس فى سـبيل سلامتهم!
لماذا لا تذهب للبـوليس وتنقـذ أخـاها بنفـسهـا.. لماذا لا تقـول للبوليس كل شئ.. ستدلهم على فتحى المليجى. وفتحى يستطيع أن يدلهم على ابراهيم، إن ابراهـيم أحق بالسجن من اخـيهـا ومن ابن عمها.. انه بطل.. والسجون أقيمت من أجل الأبطال.. أما أخوها وابن عمها فليسا بطلين؟!!
وأحست بغصة تقبض قلبها..
لا.. إنها لا تحب وهمـاً.. إنها تحب رجلا عاش فى بيـتها. تحب حقيقة عاشت فى عينيها، وفى رأسها، وفى قلبها..
وأحست بثورتها تلين وهى تستعيـد صورته.. عينيه الواسعتين وأنفه الكبـير، وشفتـيه الرقيـقتين، وذقنه القوى.. وحـديث الهادئ الخجول.. وسماء النبل والشهامة والرجولة تكسو وجهه..

وأحست بعواطفها تتمزق.. كان ابراهيم يشدها من ناحية وأخاها يشدها من الناحية الأخرى.. إنها حائرة.. حائرة بين حبيبها وأخيها.. لا تستطيع أن تضحى بأحدهما.. ولا تكاد تجمعهما فى قلبها حتى يشدهما عن بعضهما لهفتها على أخيها السجين، ولهفتها على حبيبها الهارب..

وأحست باليأس.. كان باب الأمل الوحيد قد أغلق فى وجهها.. الباب الذى كان يقف فيه ابراهيم ويمد منه يده لانقاذ أخيها..

ودفعها اليأس إلى الاحساس بالاستسلام..الاستسلام للقدر.. لله ووجدت نفسها تتنهد من أعماقها وهى تسير عائدة إلى بيتها، وتردد:

- يا رب.. يا سيدة زينب.. يا سيدنا الحسين!!

ووصلت إلى البيت لتنضم إلى العائلة الحزينة.. حزنا مستسلما، صامتا إلا من أصوات النشيج الخافت كلما خلت الأم أو إحدى البنتين بنفسها..

وقضى الأب يومه يحاول أن يعثر على «واسطة تتوسط فى انقاذ ابنه.. ذهب إلى رئيسه فى عمله.. ووعده رئيسه خيرا.. وذهب إلى صديق له من موظفى وزارة الداخلية.. ووعده خيرا.. وذهب إلى نسيب يمت بصلة قرابة بعيدة لنائب فى البرلمان.. ووعده خيرا.. واستمع إلى زملائه، وكل منهم يدلى بنصيحة، ويوصيه بطريق..

وقال له محمد افندى العنتيل زميله فى المكتب:

- بصراحة.. معاك قرشين.. إذا كان معاك اد خمسين جنيه، استغنى عنهم، وحطهم فى أيد عبدالله بيه عبدالله.. ده عضو مجلس نواب وكلمته تفتح كل باب حتى باب السجن.

وأحصى الأب فى ذهنه كل ما يملكه، وقرر أن يضحى بالخمسين جنيها فى سبيل ابنه.. ولكن ما لبث أن يئس عندما أكد له زميل آخر، إن عبدالله بيه عبدالله، لن يفعل له شيئا إلا أن يتنازل ويقبل الخمسين جنيها ليضعها فى جيبه..

وعاد آخر النهار لتقابله مشكلة أخرى..

كيف يكذب على زوجته كذبة اخرى، ليخدعها فى مصير ابنه، وقال لها قبل أن يركز تفكيره:

ـ يا ستى التحقيق اتأخر، حيضطروا يبيتوه الليلة دى كمان!

وقالت الأم وهى تتأوه:

ـ انت بتكدب على يا زاهر.. ما تكدبش على يا اخويا..

قوللى الحقيقة.. عملوا فى ابنى ايه. سجنوه.. شنقوه..

وقال وهو يدير وجهه عنها:

ـ هوه السجن بالساهل.. ده لسه تحقيق طويل!

قالت وهى تحرك رأسها فى عصبية فوق الوسادة:

ـ بالساهل يا اخويا.. كل حاجة عندهم بالساهل.. دول مجرمين.. يارب يشحططهم على ولادهم، زى ما شحططونى على ابنى.. ربنا ينزل عليهم مصيبة تاخد أجلهم، زى ما بيصيبوا ولاد الناس..

وتركها الأب، وهرب إلى غرفة القعاد، حتى لا ترى يأسه على وجهه..

وازدحم البيت بعد الإفطار..

جاء الجيران الذين سمعوا الخبر.. جاءوا وعلى وجوههم دهشة.. لم يكن أحد منهم يعتقد أن محيى له دخل فى السياسة.. وبعضهم لا يتصور أنه قبض عليه فى قضية سياسية.. من يدرى.. ماذا يستطيع هذا الشاب الضعيف الخجول أن يفعله.. ربما اشترك هو وابن عمه فى جريمة سرقة.. ربما ضبطا فى حادث حشيش.. إن ابن عمه حشاش وبايظ، ولم يتم تعليمه..

وكلهم تغلبهم الرغبة فى الاستطلاع وسماع القصة، على رثائهم للعائلة وعطفهم عليها..

والأم فى فراشها، تستقبل جاراتها والبنتان بجانبها يرويان لهن قصة القبض على اخيهما، ويعيدان روايتها فى كلمات مبتورة وصوت حزين..

وكلما سألت إحدى الجارات عن سر القبض، اجابت احدى البنتين:

ـ ما نعرفش.. ما حدش عارف حاجة لغاية دلوقت!

وتستطرد الأخت الأخرى:

ـ دول الأيام دى بيقبضوا على الناس عميانى.. اللى يلاقوه فى وشهم يقبضوا عليه!

وتمصمص الجارات شفاههن حسرة.. وتتنهد الأم قائلة:

ـ افرجها يا رب!!

والأب فى غرفة «الضيوف» يستقبل جيرانه برأس منكسة، ويروى هو الأخر القصة المرة بعد المرة، وفى كل مرة يضع لها تفاصيل جديدة، ويحذف منها تفاصيل سبق أن قالها..

وجاء أخوه.. والد عبد الحميد.. انه اضعف منه، وأقل حزما.. وحياته كانت دائما مهزوزة، مائعة، وو من هذا الصنف من الرجال الذى يستسلم لزوجته، إذا لم يجد انسانا آخر يستسلم له.. وقد كان أشد حيرة من أخيه منذ سمع بخبر القبض على ابنه.. ولم يستطع أن يفعل شيئا، لم يستطع حتى أن يذهب إلى المحافظة ويسأل هناك.. إنما خرج من البيت مرضاة لزوجته، وجلس فى المقهى.. ثم جاء إلى أخيه ليستمع منه إلى بعض تفاصيل يعود بها إلى بيته ويرويها لزوجته، كأنها تفاصيل وقف عليها بنفسه..

وقال الأخ لأخيه بعد أن استمع إلى القصة تروى على مسامع الجيران المرة بعد المرة:

ـ طيب قولنا إن عبدالحميد ابنى ولد شقى.. مين عارف كان بيعمل ايه.. إنما محيى.. ده طول عمره عاقل ومقتصر فى حاله.. ذنبه ايه كمان؟!

وقال الأب:

ـ مالوش ذنب.. ولا عبدالحميد له ذنب.. قسمتنا كده؟

وقال صديقه السيد عبد الفتاح:

ـ قسمتنا ده ايه.. بأة دى عيشة ترضى ربنا.. ده ظلم.. دى حكومة سفاحين..

وقال خليل افندى ابو العز:

ـ الحقيقة حالة البلد بقت ما تنطقش.. وما حدش عارف آخرتها

ايه .. ما فيش طريقة تودى الناس دول فى داهية؟!
ورد السيد عبدالفتاح:
ـ قبل ما يودونا فى داهية!
وقال عباس افندى مرتضى:
ـ والله الواحد ابتدا يعذر الشبان بتوع السياسة.. لو كنت لسه فى شبابى كنت عملت زيهم واكتر شوية..
واستمع الأب إلى تعليقات جيرانه واصدقائه فى دهشة صامتة.. انها المرة الاولى التى تتردد فيها مثل هذه الأقوال فى بيته، والمرة الأول الى يسمعها تتردد من اصدقائه.. ولكنه يحس أن هذه الأقوال كانت حبيسة فى صدره منذ زمن طويل.. كان دائما يرددها فى نفسه ولا ينطقها..
وأحس برغبة جامحة فى ان يشارك اصدقاءه تعليقاتهم.. أن يثور. وأن يسب ويشتم فى الحكومة، وفى الملك، وفى الأنجليز. ولكنه كبت رغبته بكل ارادته.. كان خوفه على ابنه يحول دون ثورته، وكان يعتقد أن من الأفضل له أن ينافق الحكومة ـ حتى فى حديثه مع اصدقائه، وحتى بينه وبين نفسه ـ لعلها ترحم ابنه..
وبدأ الجيران ينصرفون.. وانصرف معهم لخوه، ومال على اذنه وهو يصافحه قائلا:
ـ تفتكر حيحصل ايه؟
وقال زاهر افندى وهو يطأطئ رأسه:
ـ والله ما انا عارف يا خويا.. أنا مسلم أمرى لله..

●●●

ونامت العائلة مفتحة العينين..
وخرج زاهر افندى فى الصباح الباكر يعاود محاولة الاتصال بابنه، وقد قرر أن يذهب إلى رئيسه، ويستأذنه فى غياب يوم حتى يستطيع أن يذهب لمقابلة اليوزباشى الدباغ ليسهل له مقابلة ابنه، كما وعده..
وبقيت الأم وبنتاها فى البيت.. يتحركون كأنهم يتأوهون من الألم..

ودق جرس الباب فى الساعة الحادية عشرة.. وفتحت سامية، ثم تراجعت عن الباب وهى تضع يدها فوق صدرها، وقالت فى حدة يشوبها الذعر :

ـ عايز ايه؟!

وظلت تنظر إلى الطارق بعينين واسعتين، كأنها تخشى أن يمد يده إلى عنقها ويخنقها..

ولم يكن الطارق سوى جندى من جنود البوليس فى ثيابه الرسمية.. وكان يبتسم فى تواضع، ويغض نظره فى أدب.. وقال فى صوت هامس:

ـ أنا جاى من طرف سى عبدالحميد افندى!

وقالت سامية وهى لا تزال تنظر إليه بعينين واسعتين:

ـ عبدالحميد!! عبدالحميد مين؟!

وقال الجندى:

ـ مش ده منزل مصطفى افندى زاهر؟

وقالت سامية، وقد بدأت تحاول أن تفهم:

ـ أيوه..

وقال الجندى وهو يهمس:

ـ أنا جاى من سجن الأجانب.. وسى عبدالحميد مسلمنى رسالة أوصلها لكم!

ثم اخرج من جيبه ورقة مطوية، ومد بها يده إلى سامية..

وتناولتها سامية بيد مرتعشة.. ونظرت إلى الجندى صامتة.. ثم فردت الورقة امام وجهها ونظرت فيها..

إنه خط عبدالحميد..

إنها تعرف خط يده من بين آلاف الخطوط.. تعرفه طول حياتها:

وقرأت:

«عمى العزيز..

بعد تقبيل اياديكم الكريمة، أبلغكم اننا بخير، ولم يحدث شئ يمكن أن يزعكم، ويسئ إلى موقفنا.. وقد نقلوا محيى إلى المستشفى هذا الصباح، وقد علمت انه بصحة جيدة، ولكن أصابه

بعض التعب من اثر الرطوبة.. والمستشفى خير له، على كل حال من السجن.. فلا تنزعجوا.. ارجوك يا عمى ان تثق بنا، وكل ما نحتاج إليه هو الصبر.. صبركم وصبرنا.. أرجو أن تطمئن والدى ووالدتى.. وأن تطمئنى على أخباركم عن طريق حامله.. تحياتى إلى الجميع».

والخطاب بلا توقيع..

ورفعت سامية رأسها وقالت فى لهفة:

ـ محيى فى المستشفى ليه.. حصل له ايه؟!

وتلفت الجندى حوله ليشعرها بأنه لا يزال واقفا على الباب، وقال:

ـ ما حصلش حاجة.. بس كان تعبان شوية!

وقالت سامية وهى تكاد تصرخ:

ـ تعبان.. تعبان من اية؟

وعاد الجندى يتلفت حوله، ولاحظت سامية تلفته، فافسحت له الباب قائلة:

ـ اتفضل!

ثم اغلقت الباب وراءه، وهى تقول:

ـ أعمل معروف طمنى!

وقال الجندى، وهو ينظر إلى المقعد لتدعوه إلى الجلوس:

ـ اطمئنى يا ست هانم.. ما حدش بيروح المستشفى إلا بواسطة..

وقالت سامية وهى تشير إلى المقعد:

ـ اتفضل!

وتركته واتجهت إلى داخل البيت، ونادت اختها هامسة، خفية عن أمها، وانزوت بها فى ركن من الممر الذى يصل بين الحجرات، وأطلعتها على رسالة عبدالحميد، ونقلت لها حديث الجندى.. ثم خرجتا إليه سويا، وقالت نوال وفى عينيها لهفة:

ـ ما تعرفش من فضلك، نقلوه أى مستشفى؟!

وقال الجندى، وهو جالس:

ـ والله مش متأكد إنما اللى اعرفه إن كلهم بيروحوا القصر العينى!

وارتفع صوت الأم من الداخل:

ـ مين يا بنات؟!

وتبادلت البنتان النظرات، ثم دخلت إليها نوال قائلة:

ـ ده واحد جاى من عند محيى وعبدالحميد بيطمنا عليهم!

وقفزت الأم جالسة فوق سريرها، ثم نزلت من فوق السرير فى خفية، كأن شبابها رد إليها، وقالت:

ـ جاى من عندهم.. لازم اشوفه!

وقالت نوال فى ارتباك:

ـ بس ساوى شعرك يا ماما.. ما يصحش.. و..

وقالت الأم مقاطعة:

ـ ناولينى منديل رأسى.. والشال بتاعى..

وناولتها نوال منديل الرأس والشال ثم تركتها مسرعة، وخرجت إلى الجندى وقالت له هامسة:

ـ أعمل معروف ما تقولش لها حاجة.. قول لهم أنهم بيحققوا معاهم بس.. ما تجبش لها سيرة السجن ولا المستشفى.. أصلها عيانة شوية واحنا مخبيين عليها..

ودخلت الأم وهى تسير فى خطوات سريعة كأنها تركت وراءها آلامها، وجسمها المكتنز، وتوقفت قليلا عندما رأت الجندى بزيه الرسمى، ثم قالت :

ـ أنت شفتهم يا ابنى.. شفتهم بنفسك؟!

وقال الجندى وهو يقوم واقفا:

ـ أيوه.. كويسين ومستريحين وصحتهم عال..

وقالت الأم:

ـ وحيرجعوا امتى.. قول لى يا ابنى طمنى؟!

وقال الجندى:

ـ تهون ياست هانم!

وقالت الأم فزعة:

ـ تهون.. ودى تهون ابدا.. ما تقول.. ما تخبيش.. حترجعهم امتى؟!

وأرتبك الجندى ونظر إلى البنتين، كأنه يستغيث بهما، ثم قال:

ـ كلها يوم ولا اتنين، ويخلص التحقيق..

وقالت الأم كأنها تعتبر هذا الجندى هو المسئول الأول أمامها:

ـ والنبى يا ابنى دول مظلومين.. صدقنى.. دول مظلومين.. واللى بيجى على المظلومين ربنا ما يرحموش.. خافو من ربنا يا ابنى..

ثم جلست كأنها سقطت فوق المقعد.

وأحس الجندى بحرج، ومط شفتيه كأنه يشفق على هذه العائلة الساذجة، ثم ردد وهو يبحث عن أى كلام يقوله:

ـ اطمئنى يا ست.. الفرج قريب بإذن الله.. على كل حال لو حبيتوا توصلوا لهم أى حاجة، أنا فى الخدمة.

وقالت الأم وكأنها لا تسمعه:

ـ وبتحققوا معاهم فى اية بأه .. ايه اللى عملوه؟!

وعاد الجندى ينظر إلى البنتين، ثم قال:

ـ على كل حال.. اطمنى يا ست..

وقالت الأم:

ـ ويا ترى بيناموا ازاى..

وقال الجندى:

ـ على سراير.. زى حضرة الضابط تمام!

وعادت الأم تقول وهى تمصمص شفتيها وترفع عينيها إلى السماء:

ـ ويا ترى بياكلوا ايه؟

وقال الجندى:

ـ الفطار.. لحمة.. ورز.. وخضار.. والله حضرة الضابط بيسيب الأكل اللى جاى من بيتهم.. ويأكل من أكل السجن!

وخبطت الأم على صدرها، وصاحت:

ـ سجن.. هم خلاص دخلوا السجن.

وبوغت الجندى، ثم قال بلهجة العليم:

ـ لأ يا ست هانم، دول أسمهم.. تحت التحقيق!

ثم قام واقفا، كأنه يريد أن يفر من هذا الحرج، وقال:
- تحبوا أوصل لهم حاجة؟
وقالت الأم:
- أيوه والنبى يا ابنى نفسى أبعت له شوية من حاجات رمضان، أصل محيى طول عمره بيحب البندق واللوز.. ولازم كمان أبعت له شوية هدوم، زمانة مش طايق الهدوم اللى عليه يا حبة عينى.. وكمان شوية فاكهة يغذى بيهم نفسه.. وكتبه.. ما هو لازم يذاكر.. الامتحان فاضل عليه يدويك كام يوم..
والتفت الجندى إلى البنتين وقال لهما، كأنه يئس من التفاهم مع الأم:
- الحاجات دى مش ممكن تدخل إلا بإذن.. إنما إذا كان فيه حاجات صغيرة ممكن الواحد يدخلها له..
قالت سامية:
- زى اية؟
وقال الجندى وقد عاد يتعجب لهذه العائلة السانجة:
- فلوس مثلا.. ما هم برضه هناك محتاجين لفلوس!
وقالت نوال وهى تضع ذراعها فى ذراع أمها:
- تعالى يا ماما.. عايزاكى فى كلمة جوه!
وقامت الأم وهى تتأوة، وقد عادت إليها كل آلامها، واتجهت مع ابنتها إلى غرفتها. ثم صعدت إلى سريرها وارتمت عليه يائسة كأنها عادت من رحلة خائبة، وأشارت إلى ابنتها، وقد فهمت ما قاله الجندى، وقالت:
- افتحى الدرج اللى عندك ده، تلاقى منديل معقود على جنيه.. خدى الجنيه وادية للجدع ده يوصله لمحيى.. يمكن يكون صحيح محتاج له..
وفتحت نوال الدرج، وفكت عقدة المنديل، ثم حملت الورقة ذات الجنية وعادت بها إلى الجندى قائلة وهى تناولها له فى ارتباك:
- إذا كان محتاج لحاجة تانية، ابقى فوت علينا.. يكون بابا جه!!
ونظر الجندى إلى الورقة المالية وقال:

ـ ده بأه أديه لسى عبدالحميد؟
وقالت نوال:
ـ أيوه..
وعاد الجندى ينظر إلى الورقة المالية دون أن يتحرك فى وقفته، وقال:
ـ والله الواحد بيجازف بمستقبله علشان خاطره.. أى عمله زى دى يمكن تودينى فى داهية، ولا انسجن فيها..
وقالت سامية:
ـ فيك الخير..
وعاد الجندى يقول وهو ينظر إلى نوال ثم يعود وينظر إلى الورقة المالية:
ـ إنما الحقيقة دول رجالة يستأهلوا..
ولم يتحرك من وقفته، ولم يبد عليه نية الانصراف!
وبرقت عينا نوال كأنها فهمت شيئا.. ثم التفتت إلى أختها، قائلة:
ـ سامية.. اسمعى ؟
ثم اخذتها من ذراعها ودخلت إلى البيت وهى تقول للجندى:
ـ دقيقة واحدة من فضلك!
ثم همست فى اذن سامية، وقد اصبحتا على باب غرفتهما:
ـ هاتى الخمسة وعشرين قرش اللى معاكى، على الخمسة وعشرين قرش اللى معايا.. ونديهم له..
وقالت سامية:
ـ يمكن يرفضهم.. ويزعل!
وقالت نوال:
ـ مش باين.. كل الناس بتعمل كده.. وأصلنا محتاجين له!
وهزت سامية رأسها كأنها غير مقتنعة.. ثم اخرجت كل من الأختين حقيبتها وتناولت ما فيها من نقود، ثم جمعت نوال المبلغ فى يدها، وعادت به إلى الجندى، ووضعته فى يده وقلبها يدق بعنف كأنها ترتكب جريمة!

ولم ينظر الجندى إلى المبلغ، إنما تحسسه بيده كأنه أعمى يعد نقوده، ثم قال:

ـ ودول علشان مين بأه؟

وقالت نوال وهى تتلعثم:

ـ دول علشانك.. علشان المواصلات!

وقال الجندى وهو لا يزال قابضا على النقود فى يده:

ـ مفيش لازمة.. لا والله.. ماتجيش!

واتسعت عينا سامية كأنها تصدقه.

وتردد بين شفتى نوال كلمات لا معنى لها..

ووضع الجندى النقود فى جيبه، قائلا:

ـ متشكرين!

ثم تحرك نحو الباب، ونوال تقول له:

ـ ابأه طمنا دايما.. كل يوم..

وقال الجندى:

ـ حاضر.. خليتكم بعافية!

وخرج..

ودخلت نوال إلى المطبخ، وهى تسير مقطبة الجبين كأنها تخنق أفكارها.

وفتحت سامية خطاب عبدالحميد، وأخذت تعيد قراءته كأنها تلتقى به بين السطور. ثم غطت عينيها بالخطاب.. وبكت.. كأنها تبكى على صدره!

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر عندما عاد الأب.. عاد أكثر يأسا.. وأشد ضعفا.. وأصغر شأنا.. لقد ذهب إلى مكتب اليوزباشى الدباغ فى المحافظة، فلم يجده.. وانتظر على بابه ثلاث ساعات جالسا بين السعاة، إلى أن جاء الدباغ.. وعندما جاء أبقاه على الباب ثلاث ساعات اخرى، ثم رفض أن يقابله.. رفض حتى أن يطمئنه على ابنه.. وعاد إلى بيته وهو يسحب قدميه ويسير فى ظلام لا يرى خلاله شيئا.. ولا يرى فى داخل نفسه إلا الحقد.. والثورة المكبوتة فى عنف.

وأستقبله ابنتاه واطلعتاه على نبأ الجندى الذى جاء.. وقرأ خطاب عبدالحميد.. وشعر ببصيص ضئيل من النور يتسلل إلى صدره.. إنه على الأقل يعرف أين ابنه الآن.. ويحس كأنه سمع صرخة حادة.. صرخة محيى وهو راقد فى المستشفى يناديه ويستغيث به..

وأستدار فى عجل.. وخرج من البيت قبل أن يطمئن على زوجته.. واستقل سيارة من سيارات الأجرة، وأمر السائق أن يتجه به إلى مستشفى القصر العينى.. بسرعة.. بسرعة وحياة أبوك يا أسطى..

ولكنه لم يستطع أن يرى ابنه..

لقد تخبط بين جنبات المستشفى ساعات طويلة، وكل ما استطاع أن يراه غرفة يقف على بابها جنديان مسلحان.. عرف أن فيها ابنه.. وكل ما استطاع أن يقف عليه كلمة قالها له طبيب شاب.. طمأنه بها على صحة ابنه.. إنه مصاب بضعف.. ضعف شديد.. هذا كل ما فى الأمر..

وعاد إلى البيت فى الساعة السادسة مساء.. يحمل همه..

عاد ليستقبل ـ هو وعائلته ـ ليلا طويلا..

●●●

صباح الاربعاء..

وأستعدت نوال لتذهب إلى موعدها.. الموعد الذى لم تلتق فيه ابدا بابراهيم.. وهى لا تدرى لماذا تذهب.. ولماذا لا تيأس..ولكنها كانت يائسة فعلا.. لم يكن فى قلبها قطرة من الامل.. كانت تحس كأنها ذاهبة لزيارة قبر.. قبر آمالها.. قبر نذرت نفسها لزيارته صباح كل يوم اثنين، وصباح كل يوم اربعاء..

وخرجت من البيت وهى غارقة فى الحداد.. حداد قلبها..

ووقفت فى ميدان «فنى» دون أن تتلفت حولها.. وقفت منكسة الرأس كأنها تتلو الفاتحة لتستنزل رحمة الله على أملها الشهيد..

ووقفت بجانبها سيارة..

ورفعت رأسها فى بطء، ورأت فى السيارة فتحى المليجى،

فاندفعت إليه فى لهفة، وقالت دون أن تحييه:
- عرفت ايه اللى حصل؟!
ونظر إليها فتحى فى حنو، كأنه يربت على قلبها بعينيه، وقال بصوت هادئ:
- عرفت.. عرفنا كل حاجة.. وابراهيم باعتنى مخصوص علشان اطمئنك.. بيقولك تأكدى ان مش حيصلهم حاجة!
وقالت نوال فى صوت ضعيف وهى تنكس رأسها حتى لا يرى فتحى عينيها:
- وازاى ابراهيم!
وقال فتحى وبين شفتيه ابتسامة حلوة كأنه يحيى بها حبا عظيما..
- كويس.. بخير..
وسادت فترة صمت.. ثم عادت نوال تقول:
- إنما حايطلعوا من السجن ازاى؟
وقال فتحى:
- السجن مش مهم.. المهم انهم ما يعترفوش.. ولغاية دلوقت ما حدش منهم اعترف.. ما كانش ممكن حد يصدق أن محيى وعبد الحميد يستحملوا ده كله.. دول استحملوا كتير.. دول ابطال..
وقالت نوال مذعورة:
- استحملوا ايه؟
وتراجع فتحى قائلا وقد استنتج انها لا تدرى ما تحمله اخوها وابن عمها من عذاب:
- المهم ان ابراهيم بيطمنك.. بس المسألة عايزة وقت!
وقالت نوال وهى لا تفهم:
- مسألة ايه؟
قال:
- مسألة الافراج عنهم..
قالت:
- عايزة وقت كتير؟!

قال:
ـ لا.. مش كتير.. بس المهم ما يعترفوش!
قالت ساخرة:
ـ كل اللى يهمكم انهم ما يعترفوش.. مش كده؟!
قال فى هدوء:
ـ لو اعترفوا حيروحوا المحكمة ويتحكم عليهم، أقله بتلات سنين.. ولو ما اعترفوش حيفضلوا معتقلين شهر ولا شهرين، ويخرجوا..
ونكست رأسها كأنها خجلت من نفسها..
وقال فتحى :
ـ انا مضطر اسيبك دلوقت.. شدى حيلك.. وخذى بالك أوعى حد يتكلم!
قالت كأنها لم تعد تستطيع أن تقاوم:
ـ ما اقدرش اشوف ابراهيم!
قال وبين شفتيه ابتسامته الطيبة:
ـ ده كان حيودى نفسه فى داهية مرتين علشان ييجى يشوفك.. وانتى عارفة ظروفه.. إنما ضرورى حاتشوفيه.. بإذن الله!
ونكست نوال رأسها، وقد التمع وجهها، وكست وجنتيها حسرة خفيفة.. كأنها تواجه حبها لأول مرة.. إنه لم ينسها.. حاول أن يراها.. خاطر بنفسك فى سبيلها.. إنه يحبها..
وتركها فتحى المليجى هائمة.. وانطلق بسيارته..

●●●

قاد فتحى سيارته حتى وصل إلى ميدان جامع الأزهر.. ثم أوقف السيارة بين مجموعة من سيارات التجار التى تعودت أن تقف هناك فى انتظار أصحابها.. وسار على قدميه، ثم انحرف إلى اليمين محاذيا الجامع الأزهر.. وأستمر فى سيره حتى وصل إلى شارع «الباطنية».
ووقف أمام بيت مكون من ثلاثة أدوار.. يبدو أكثر متانة من البيوت التى حوله.. وأطلق صفيرا خاصا عدة مرات.

وفتحت نافذة فى الدور الأول، وأطل عليه شاب يرتدى جلبابا، وقال بمجرد أن رآه:

- أهلا.. ازيك يا فتحى.. جبت كراسة المحاضرات؟

وقال فتحى، وهو ثابت لا يتلفت حوله:

- طبعا.. عايزين نذاكر شوية.. مش فاضى دلوقت!!

وتردد الشاب برهة، ثم قال:

- فاضى.. اتفضل!

ودخل فتحى من باب البيت.. وحيا امرأة لا يعرفها جالسة فى الحوش الضيق الذى يستقبل الداخل، ثم ارتقى السلالم الحجرية القليلة، حتى وصل إلى الدور الأول، فانفتح الباب، وبرز له الشاب الذى أطل عليه.. عريض قصير تبدو رقبته الغليظة وفوقها رأسه الكبير كسنديانة حداد..

وتبادلا نظرات صامتة..

ثم تقدم الشاب بضع خطوات وأغلق الباب الذى خرج منه.. ثم أخذ يصعد السلم الحجرى فى خطوات بطيئة هادئة ومن خلفه فتحى..

ووصلا إلى الدور الثالث..

وأخرج الشاب مفتاحا من جيب جلبابه وفتح الباب.. ودخل ومن خلفه فتحى صامتين..

كانت شقة مظلمة.. كل نوافذها الخشبية مغلقة.. ليس فيها من ضوء إلا ما يتسلل من بين خشب النافذة المغلقة..

واتجها إلى إحدى الغرف..

وفتح الشاب الباب، وترك فتحى يمر قبله..

وأنبعث صوت من جانب الغرفة.. صوت متعب كأن صاحبه يتنهد:

- شفتها؟!

وقال فتحى باسما:

- طب استنى يا ابراهيم لما اقول لك السلام عليكم..

وأعتدل ابراهيم فى جلسته على الأريكة.. إنه يبدو نحيلا هزيلا..

ووجه ممتقع.. وعيناه تبرقان ببـريق لامع عصبى، كأن روحه كلها تجمعت فى عـينيه.. وقد أطلق شاربه.. فبـدا اكبر من سنه.. وذقنه غير حليق.. فبدا كالمريض..

وقال ابراهيم فى عصبية:

ـ وعليكم السلام.. قالت لك ايه!

وقال فتحى وهو يجلس بجانبه:

ـ كانت خـايفة على اخوها.. إنما قـدرت اطمنها.. وطبعـا عايزة تشوفك!

وسكت ابراهيم..

سكت فترة طـويلة.. وفتحى ينظر إليه مـبتسما كـأنه تعود منه هذا الحال..

ثم نكس ابراهيم رأسه، وقال:

ـ انا بافكر اسلم نفسى.. ما فيش طريقة انقذ بيها محيى إلا انى أسلم نفسى!

وقال فتحى وهو لا يزال هادئا:

ـ ما تبقاش مجنون!

وقال ابراهيم وهو يسند جبينه فوق رأسه:

ـ يظهر انى لازم اتجنن!!

٣٠

كانت الخطة التى وضعها إبراهيم مع أصدقائه قبل أن يهرب من السجن تقضى بأن يدبروا له وسيلة يستطيع أن يخرج بها من مصر كلها .. وكانت الوسيلة التى اتفقوا عليها هى أن يتصلوا بصديق لهم فى الاسكندرية ، ابن أحد مقاولى شحن السفن ، ليساعد إبراهيم على التسلل إلى إحدى السفن الراسية فى الميناء ، والاختباء فيها ، حتى يصل إلى مرسيليا .. وهناك يبدأ فى وضع خطة جديدة ..

وخرج إبراهيم من بيت محيى مرتديا بدلة الضابط .. ساعة الإفطار .. ولم يلمحه بواب البيت فقد كان مشغولا فى تناول إفطاره .. وسار فى خطوات سريعة نحو شارع النيل .. والطريق خال من الناس .. وارتبكت خطواته قليلا عندما لمح عسكرى داورية، جالسا على حافة « السور » المقام على ضفة النهر وهو يتناول طعام الافطار .. رغيف عيش ، وقطعة جبن ، وحزمة فجل.. واستطاع إبراهيم أن يسيطر على خطواته بسرعة ، واستمر فى سيره .. ولمحه عسكرى الداورية ، فوقف منتصبا يؤدى التحية العسكرية لحضرة الضابط .. وسقطت حزمة الفجل على الأرض .. ولم ينتبه إبراهيم إلى تحية العسكرى إلا بعد أن تعداه ، فرفع يده يرد له التحية دون أن يلتفت إليه بوجهه .

ورأى من بعيد السيارة التى تنتظره .. إنها سيارة فتحى المليجى.. إنه يعرفها .. وكثيرا ما استعملها فى عمليات الاغتيال التى كان يقوم بها .. وأسرع الخطى .. وحاذى بطرف عينه فرأى

صديقه فتحى وبجانبه محمود عرفه .. صديق آخر من طلبة كلية التجارة .. وانحرف فجأة ناحية السيارة وفتح بابها الخلفى وألقى بنفسه فيها .

وكان محرك السيارة دائرا .. فانطلقت مرة واحدة .. دون أن يلتفت فتحى أو محمود إلى إبراهيم .. ودون أن يتفوه أحدهم بكلمة.. وظل إبراهيم جالسا منحنيا إلى الإمام حتى يبعد وجهه عن نافذه السيارة .

وتعدت السيارة ميدان الجيزة فى دقائق ، وانطلقت كالصاروخ فى شارع الهرم .. ثم انحرفت فى حدة إلى طريق الاسكندرية ..

وقال فتحى كأنه يتم حديثا لم ينقطع :

ـ احنا لازم نكون فى اسكندرية الساعة حداشر إلا ربع .. عبدالعزيز مستنينا فى التريانون الساعة حداشر تمام ..

وقال إبراهيم فى صوت هادىء :

ـ الساعة كام دلوقت ؟

ورد محمود عرفه دون أن يلتفت إلى إبراهيم :

ـ سبعة إلا ربع ..

وقال إبراهيم :

ـ حانلحق بالراحة .. هدى شوية يا فتحى أحسن يوقفونا عند نقطة الحدود !

وهدأ فتحى من سرعة السيارة قليلا ، دون مناقشة .. ثم بدأ الثلاثة يتحدثون عن تفاصيل الخطة التى وضعوها .. وعن زملائهم الذين فى السجن ، والذين فى المعتقل ، والذين لم يقبض عليهم بعد.. وعن أخبار السياسة .. وأخبار همام بك واليوزباشى الدباغ .. ولم يتكلم إبراهيم عن البيت الذى كان مختبئا فيه ، ولم يسأله أحد عنه .. وكان إبراهيم فى حديثه لا يبدو متحمسا كعادته ، ولا يبدو واعيا .. لم يكن يوجه هذه الأسئلة الحاسمة الدقيقة التى تمس صلب كل موضوع وتكشف عنه .. كان يبدو كأنه يائس .. حزين .. كأن روحه تنسحب منه رويدا رويدا ، كلما تقدمت به السيارة نحو الاسكندرية .. ولم يكن بينه وبين نفسه يفكر فى تفاصيل خطة

الهرب ، ولم يكن يحس بأصدقائه الذين يتحدث عنهم ، ولا بأخبار السياسة التى يستمع إليها .. إنما يملؤه الإحساس بأنه على وشك أن يترك مصر كلها .. إحساس رهيب مخيف يتجاوب فى صدره كالهواء البارد الثقيل .. ماذا يفعل بعيدا عن مصر .. ما قيمته هناك، فى فرنسا .. سيكون إنسانا حيا .. يأكل ويشرب ويسير على قدميه . ولكن ما قيمته .. ما قيمة هذه الحياة التى يحياها فى بلد ليس وطنه .. لن يكون له هناك هدف ، ولا مستقبل ، ولا شيء يحبه .. لن يرى هذه الأرض التى ولد عليها ووقف فوقها طول عمره .. ولن يرى أباه وأمه ولن يرى أصدقاءه .. ولن يشترك فى جهادهم .. ونوال .. نوال .. الخفقة التى خفق بها قلبه .. الأمل الجديد الهادىء الذى تفتح فى حياته لن يراها أبدا .. لن يعود إلا بعد عشرين عاما حين تسقط جريمته بمضى المدة القانونية .. عشرون عاما يقضيها إنسانا مشلولا لا فائدة منه ، بلا حب ، وبلا وطن ، وبلا هدف .. وليس له إلا ذكريات تعيش فى صدره ، وبينها وبينه البحر الأبيض المتوسط .

وابتسم كأنه يتحسر .. لقد كان فى صباه يتمنى أن يذهب إلى فرنسا .. كان يحلم بأن يطوف الدنيا كلها .. بل كانت أحلامه تصل أحيانا إلى حد الهجرة من مصر .. ولكنه الآن وقد بدأت أحلام الصبا تتحقق ، يستطيع أن يرى بشاعتها .. وقسوتها .. ويحس بها كالكابوس لا كالأحلام .

ونظر من خلال النافذة إلى الرمال التى تحيط بالطريق .. ما أجملها ، كأنها تنبض بالحنان .. وتمنى لو ملأ عينيه منها حتى لو أصبحت آخر شيء يراه .. حتى لو أصيب بالعمى .. ورأى فى كل بقعة من هذه الرمال قبرا له .. وأحس بالحنين إلى قبره .. إنه يريد أن يدفن هنا .. فى أى مكان من مصر !

وهدأت السيارة من سرعتها أكثر عندما اقتربت من نقطة الحدود عند الكيلو (١٠) .. وأشار لها الجنود لتقف .. ولكنها لم تقف وسارت بينهم فى بطء ، ولمح الجنود بدلة الضابط التى يرتديها إبراهيم ، فرفعوا أيديهم بالتحية العسكرية ، وتركوا

السيارة تمر بينهم بعد أن سجلوا رقمها فى دفاترهم .. ورد إبراهيم تحيتهم وهو منحن إلى الإمام حتى لا يروا وجهه .

وعادت السيارة تنطلق بسرعة بعد أن اجتازت نقطة الحدود وعاد إبراهيم إلى أفكاره الحزينة التى تملأ صدره كالهواء البارد الثقيل .. مصر .. نوال .. أهدافه .. أبوه وأمه .. وكلما انقاد لى أفكاره أحس بضعفه .. وكلما أحس بضعفه كره نفسه .. إنه يكره نفسه هاربا .. يكره هذا التسلل والاختباء الذى لا هدف له إلا إنقاذ حياته .. ويكره هذه الرعشة التى تصيب قلبه كلما صادفته عقبة فى الطريق .. إنه يريد أن يكون له هدف أكبر من مجرد إنقاذ حياته . يريد أن يكون دائما مهاجما .. يطلق الرصاص على أعدائه ، وأعداء وطنه .. ويدبر خطط الهجوم لزملائه هكذا كان دائما .. وهكذا أحب نفسه .. تمنى أن تفشل خطة هربه إلا يترك مصر أبدا.. وحاول أن ينزع هذه الأمنية من نفسه .. ولكنه لم يستطع ..إنها تدوى فى صدره ، كصوت طبل ضخم يأتى إليه من بعيد .. وأحس أنه أصبح منساقا إلى الهرب خارج مصر ، أكثر منه مقتنعا به ..

ووصلت السيارة إلى الاسكندرية ..

ودارت فى شوارعها ، ثم وقفت فى شارع سعد زغلول قبل التقائه بميدان محطة الرمل ..

ونزل منها محمود عرفه .. شاب طويل رفيع فى عنيه سذاجة تخفى وراءها خطورة أفكاره .. وسار على قدميه إلى مقهى التريانون .. وحيى شابا جالسا على إحدى الموائد .. وجلس بجانبه، وتهامسا لفترة قصيرة ، ثم قام وعاد إلى السيارة ، وجلس فى مكانه بجانب فتحى المليجى ، وهو يقول :

ـ سيدى بشر .. بعد تلت ساعة !

وتحركت السيارة .. واتجهت إلى شارع الكورنيش ، وهى تسير على مهل كأنها تحمل جماعة يشمون الهواء ..

وأطل محمود عرفه من نافذة السيارة وراء فتاة تسير فى الطريق وأطلق صفيرا حادا ..

وقال فتحى المليجى بسرعة :

ـ أيوه بصبص يا أخويا .. علشان ننفد من الدباغ ، ويمسكنا بوليس الآداب !

وقال محمود عرفه وهو يقهقه :

ـ دى حركة للتعمية !!

والتفت الاثنان إلى إبراهيم ليشاركهم ضحكهم .. ولكنه كان واجما ..حزينا .. هائما وراء أفكاره .. فكفوا عن ضحكهم احتراما لصمته ، وتبادلا نظرات تساؤل .. فكل منهما يعرف أن ليست هذه هى عادة إبراهيم عندما يقوم بتنفيذ خططه !!

ووصلت السيارة إلى سيدى بشر ..

واتجهت إلى طريق معسكر الإنجليز .. وعلى جانب الطريق الهادىء المظلم لمحوا سيارة واقفة .. فأطفأ فتحى المليجى مصباحى سيارته ثم أضاءهما .. ثلاث مرات .. وردت السيارة الأخرى .. فأضاءت مصباحيها واطفأتهما ثلاث مرات ..

وقاد فتحى السيارة فى هدوء ، وأوقفها فى محاذاة السيارة الأخرى .. ومضت برهة صمت كان خلالها كل من فى السيارة يضع يده على مسدسه .. إلى أن تحقق محمود عرفة من شخصية قائد السيارة الأخرى .. فنزل وصافحه :

ـ أهلا عبد العزيز .. اتأخرنا عليك !

وقال عبد العزيز :

ـ يدوبك .. اتفضلوا !

وبدأ محمود يقدم عبد العزيز إلى كل من فتحى وإبراهيم .. إنه مجاهد من الإسكندرية لم يكن إبراهيم يعرفه من قبل ..

وسار الجميع فى الرمال التى يشقها الطريق ، إلى أن وصلوا إلى « كابين » خشبى ، أقيم بعيدا عن الكبائن الأخرى ، وأوقد مصباحا غازيا صغيرا .

وجلس الأربعة يتحدثون عن تفاصيل الخطة ..

لقد اتفق عبد العزيز مع أحد بحارة سفينة يونانية ستبحر غدا إلى بيروت ومنها إلى مرسيليا .. وسيتنكر إبراهيم فى زى أحد عمال نقل الفحم .. وقد أعد له عبد العزيز بطاقة شخصية مزورة

تتيح له دخول الميناء .. وسينتظره عند رصيف الفحم ليسلمه إلى بحار الباخرة .

وتركهم عبد العزيز ..

وذهب فتحى ليملأ خزان السيارة بالبنزين .. ثم عاد .. ولم ينم ثلاثتهم .. وفى الساعة الخامسة صباحا .. جاء إليهم عبد العزيز .. يحمل بعض الثياب الرثة ، وقطعة فحم .. وارتدى إبراهيم الثياب على اللحم .. بنطلون قذر أسود لا يصل إلى قدميه ومشدود إلى وسطه بحبل .. وقميص ممزق متسخ .. ثم بدأ عبد العزيز يطلى وجه إبراهيم ويديه وصدره وقدميه ، بلون الفحم .. ثم نظر إليه من بعيد ، كأنه فنان يتأمل صورة انتهى من رسمها .. وقال بلهجته الاسكندرانية :

ـ أيوه .. و .. ه .. يارتنا نشتغلو الشغلة دى على طول .. كنا نكسبو دهب ؟!

وسبقهم عبد العزيز بسيارته ..

وركب إبراهيم فى سيارة فتحى ومحمود ، ورقد فى أرضها حتى لا تثير رؤيته دهشة أحد ..

كان حافى القدمين .. ليس على لحمه سوى هذه الخرق البالية.. وليس فى جيب بنطلونه الكالح الممزق ، سوى البطاقة الشخصية المزورة ، وخمسون جنيها زوده بها فتحى بالإضافة إلى الخمسة جنيهات التى أعطاها له زاهر أفندى .. ومصحف صغير يضم بين صفحاته ورقة صغيرة مكتوب عليها «محمد رسول الله» بخط نوال .

وقال إبراهيم وقد اقتربوا من منطقة الميناء ، وهو لا يزال راقدا على أرض السيارة .

ـ فتحى .. فاكر البنت اللى بعتها لك البيت ؟

وقال فتحى دون أن يلتفت إليه :

واستطرد إبراهيم فى صوت حزين كأنه ينتهد :

ـ تروح ميدان عبد المنعم يوم الاثنين الساعة حداشر .. تلاقيها واقفة هناك .. طمنها على .. ماتقولش لها أنا رحت فين .. بس طمنها !

وقال فتحى وهو ينظر أمامه ، وقد ارتفع حاجباه دهشة :

ـ حاضر ..

وقال ابراهيم كأنه يكاد يبكى :

ـ ما تنساش !

ورد فتحى وقد ازدادت دهشته :

ـ حاضر !

وقال إبراهيم :

ـ ما تتصلش بالبيت عندنا ، إلا بعد ما تهدأ الحكاية !

وكرر فتحى قائلا :

ـ حاضر ..

ثم استطرد فتحى :

ـ احنا حانفضل جنب باب نمرة (٦) لغاية المركب ماتقوم !

وقال إبراهيم كأن الزعامة لا تستطيع أن تتخلى عنه :

ـ اعملوا نوباتشية ، مـا تفضلوش مع بعض ، وما تستنوش فى العربية .. دوروا على قهوة تقعدوا فيها !

ووقفت السيارة بجانب سور البناء ، بعيدا عن الباب نمرة (٦).. وقال محمود عرفه بعد أن تلفت حواليه :

ـ أمان ..

قالها فى صوت حازم خافت ، كأنه يصدر حكما بالإعدام .

واعتدل إبراهيم ،وفتح باب السيـارة ونزل منها بسرعة ، وسار فوق قدميه الحافيتين .. دون أن يلتـفت خلفه .. وفتحى ومـحمود يتبعـانه بنظراتهـما .. وقلب كل منهـما فى حلقه .. وفـى عينى كل منهما دموع لا تنهمر ..

واجتـاز إبراهيم باب الميناء دون أن يعترضـه أحد من الجنود .. كأن ثيابـه الرثة والبقع السوداء التى تغطى وجهـه وصدره ، تكفى كجـواز للمرور .. وسار داخل الميناء وقـد استعاد ذهنه ، والتـمعت عـيناه بكل ذكائه .. ولكن قلـبه لا يزال يرتعش فى صـدره .. قلب الهارب .

وتلفت حوله ، ورأى عبد العزيز واقفا بعيدا .. وتبادلا إشارة خفية .. ثم سار عبدالعزيز يتبعه إبراهيم عن بعد .. سارا طويلا .. حتى وصلا إلى رصيف الفحم ، ودخل عبدالعزيز فى « كشك » صغير ، اتخذه والده مكتبا له لإدارة أعماله الخاصة بتموين السفن.. ثم خرج عبد العزيز من الكشك ، وصرخ فى وجه إبراهيم الذى كان قد اقترب منه :

ـ جرى إيه يا وله .. نجيبو لك بسكليت تركبها .. ما تتلحلح وتروح تشيلك مقطف .

واحنى ابراهيم رأسه ، واتجه إلى مجموعة من « المقاطف » ملقاة على الرصيف ، وحمل واحدا منها ..

واتجه عبد العزيز إلى سلم الباخرة الراسية ، وأخذ يتحادث مع أحد البحارة ..

ثم صعد البحار سلم الباخرة ، وتبعه إبراهيم ..

ونزل البحار إلى قاع الباخرة .. وإبراهيم خلفه .. وفى مكان رطب مظلم كأنه قفص من الحديد ، بجانب مخزن الفحم فى الباخرة ، قريبا من عنبر الآلات ، استدار البحار إلى إبراهيم وقال له بانجليزية ركيكة :

ـ ستبقى هنا إلى أن نصل .. وسأحضر لك بعض الطعام .

وهز إبراهيم رأسه صامتا .. وألقى « المقطف » الذى يحمله على الأرض وجلس فوقه مستندا إلى الحائط الحديدى ..

وخرج البحار .. ثم عاد بعد قليل يحمل أرغفة من الخبز « الافرنجى » وبعض علب الطعام المحفوظ . وناولها لإبراهيم ، وهو يبلغه موعد قيام الباخرة ويلقى إليه بتعليماته .. وقطع حديثه صوت أقدام تقترب .. ثم ظهر بحار آخر ، وماكاد يرى إبراهيم جالسا على الأرض ، حتى بدأ نقاشا طويلا مع زميله باللغة اليونانية . نقاشا لم يفهم منه إبراهيم شيئاً .. إنما ظل صامتا ، وفى عينيه اضطراب وجزع ..

والتفت البحار الأول إلى إبراهيم قائلا :

ـ إن هذا الرجل يريد مبلغا من المال ..

ودون أن يتكلم ، وضع إبراهيم يده فى جيبه ، اخرج ورقة من ذات الخمسة جنيهات ، ناولها للبحار ..

ونظر البحار الثانى إلى الخمسة جنيهات فى امتعاض ، ثم دسها فى جيبه وخرج ..

وقال البحار الأول ، وهو يخرج خلف زميله :

ـ هل تعرف أن الباخرة ستعود من بيروت إلى الاسكندرية ، قبل أن تبحر إلى مرسيليا .

وبهت إبراهيم ، وقال فى فزع :

ـ كيف ؟!!

وقال البحار باللغة الانجليزية :

ـ هذا ما سمعته الآن من زميلى !

وخرج البحار ..

وجلس إبراهيم هائما ، وهو يحس بكل عضلاته تتقلص .. إنه لا يستطيع أن يبقى فى هذا القفص الحديدى ثلاثة أسابيع إلى أن تصل الباخرة إلى بيروت .. ثم تعود إلى الاسكندرية ، ثم تبحر إلى مرسيليا .. وقد يكتشفون أمره خلال هذه المدة ، أو قد يعود البحار الثانى إلى التهديد بطلب نقود .. ثم قد يسلمونه للبوليس فى الاسكندرية عندما تعود إليها الباخرة .

إنه لا يستطيع أن يبقى ..

يجب أن يغادر هذه الباخرة حالا ..

وأحس بالراحة وهو يتخذ هذا القرار .. أحس كأنه أفرج عنه .. إنه سيعود إلى مصر .. إلى وطنه ..

وحمل المقطف الذى يجلس عليه ، وتسلل من الطريق الذى أتى منه ..

ونزل إلى الميناء .. وبحث بعينيه عن عبدالعزيز . .واقترب منه .. وماكاد عبد العزيز يراه حتى صرخ صرخة مكتومة وقال :

ـ جرى إيه ؟!

قال إبراهيم هامسا :

ـ المركب راجعه اسكندرية تانى .. لازم اخرج من هنا حالا .

اسـبقنى وادى خـبر لفتحى ومحمـود ..

وخرج إبراهيم من منطقة الميناء ..

وركب فى سيارة فتحى .. تقرر أن يبحث عبد العزيز عن باخرة أخرى متجهة إلى مرسيليا رأسا .. ولكن إبراهيم رفض أن يبقى فى الاسكندرية .. إنهـم هنا لا يعـرفـون أحـدا ، وليس لديهم صـديق يبلغهم تحركات البـوليس .. وأصر على أن يعود إلى القاهرة .. إنه هناك يستطيع أن يختبىء !

وارتدى إبراهيم بدلة الضـابط مرة ثانيـة .. وعادت به السـيارة إلى القاهرة . . كأنها تعود به إلى بيته ..

وتقرر أن يقيم مع محمود عرفه فى حجرة يسكنها فوق سطوح إحدى العمارات بـشارع البورصة القديمة المتفـرع من شارع قصر النيل ..

وكان المفروض أن يبقى إبراهيم فـى هذه الغرفة ، إلى أن يبلغه عبدالعـزيز خبر اتفاقـه مع باخرة أخرى يهرب عليـها .. ولكنه كان فى قـرارة نفسـه ينوى ألا يتـرك مـصـر .. كـان قـد اقـتنع أنه لا يستطيع أن يعيش هناك .. فى فرنسا .. أو فى مكان غير مصر.. لا يستطيع أن يعيش مشلولا بلا هدف وبلا حب ، وبلا وطن ..

ولكنه لا يستطيع أن يبقى فى القاهرة بلا عمل .. مجرد هارب.. وفى نفسه طاقة من الحـقد الثورى يريد أن ينفس عنها .. يريد أن ينتقم من الذين حرموه حريته .. وحرموه حبه ..

وكان يفكر فى حبه كثـيرا . كان كلما اندمج فى تفكيره الوطنى شـغله طيف نوال فيـهـيم فى حلم جمـيل .. بيت هادىء .. وعـائلة بسـيطة .. ونوال بجانبه .

وقـد حـاول أن يرى نوال .. قرر مـرة ومـرتين أن يخـرج من مـخبئـه ويذهب إليها فى موعدها ، ليرى شعـاعا من حلمه .. ولكنه كـان يعدل فى اللـحظة الأخيـرة .. كـان يخاف عليـهـا من حلم لن يتحـقق أبدا .. وكان يتمنى لهـا اليأس .. اليأس منه ، ومن حـبه .. ويتـمنى أن يحـمل عنهـا العـذاب كله .. ألا يجرح هـذا القلب البكر الكريم .. وأن يمزق قلبه قربانا لها.

ويقى فى الحجرة أياما . .وقد أطلق شاربه ، وترك ذقنه غير حليق .. وقد اقضه الحرمان والقلق والتوتر ، فبدا نحيلا ، اصفر الوجه ، كأنه مريض .. وكان يرتدى دائما جلبابا ، ويضع فى جيبه دائما النقود التى يملكها ، والمصحف الذى يضم الورقة الصغيرة التى كتبتها نوال بخط يدها .. وحذاؤه معه دائما بجانبه .. فالها رب يجب أن يكون دائما على استعداد للمفاجآت .

ولم يكن قد قرر بعد أن يعمل شيئاً .. وكان يكتفى بأن يجلس مع زميله محمود عرفه ويضعان سويا خططا وطنية لا يشترك فى تنفيذها .. قنبلة تلقى على المعهد البريطانى . اغتيال جنود إنجليز فى منطقة القنال .. ولم تكن كل هذه الخطط تنفذ .. كان ينقصها اليد التى تستطيع التنفيذ .. يده هو .

إلى أن كان يوم ..

وكان جالسا فى الحجرة مع محمود عرفه ذات صباح .. عندما اقتحم عليهما الباب « كونستابل » من قوة البوليس السياسى ، يصحبه اثنان من البوليس السرى .

وفهم إبراهيم توا أن البوليس جاء فى طلب محمود عرفه ، لا فى طلبه ..

ووقف بعيدا عن صديقه . ونظر إليه الكونستابل نظرة عابرة دون اهتمام .. ودون أن يخطر بباله أن هذا الشاب الآخر ، هو ابراهيم حمدى .. وقال :

ـ مين فيكم محمود عرفه ؟!

وأجاب محمود فى تحد :

ـ عايز إيه ؟!!

وازاحه الكونستابل من طريقه ، ودخل يفتش مكتبه ، بينما بقى الجنديان واقفين يسدان الباب ..

وبسرعة .. وبحركة مباغتة .. مرق إبراهيم من بين الجنديين ، وأخذ يعدو فى فناء السطوح ، ثم أخذ ينزل السلم قفزا ..

وصرخ الكونستابل :

ـ حصله يا عسكرى أنت وهو ..

ومد يده وقبض على محمود عرفه حتى لا يهرب هو الآخر ..

وكان إبراهيم يضع شبشبا فى قدميه طارت إحدى فردتيه وهو يجرى ، فتخلص من الفردة الأخرى .. وظل يقفز فوق السلالم حافى القدمين .. والجنديان وراءه .. ووصل إلى الشارع .. وظل يجرى .. وسمع الجنديين يصيحان من ورائه : « حرامى .. حرامى» .. ووقف الناس فى الطريق .. وهم بائع جرائد بأن يعترض طريق إبراهيم ، فصاح بأعلى صوته : « أنا مش حرامى .. دول بوليس سياسى » .. فتنحى بائع الجرائد بسرعة ..

وخرج كواء من باب دكانه .. رجل عريض ضخم .. واعترض طريق أحد الجنديين .. وتصدى له .. ثم امسكه من يده فى قوة ، وقال فى هدوء :

ـ إيه الحكاية يا سيدنا لفندى ؟!

وقال الجندى وهو يلهث :

ـ يا جدع سيبنى .. اوعى من سكتى !

وقال الكواء وهو يضع يده فى شق جلبابه ، كأنه يستعد لحديث طويل :

ـ بس مش تقول لنا إيه الحكاية . . علشان نساعدك ؟!

وقال الجندى فى حدة :

ـ حرامى .. مش سامعنى باقول حرامى ..

وقال الكواء وهو لا يزال قابضا على يد العسكرى :

ـ عجيبه .. وسرق إيه بأه الحرامى ؟

وقال الجندى :

ـ ياجدع سيبنى .. أحسن أوديك فى داهية !

وقال الكواء :

ـ هو حضرتك مخبر .. طيب ما تقول كده من الصبح : اتفضل!

وانطلق الجندى يجرى وقد غاب إبراهيم عن عينيه ..

وعاد الكواء إلى دكانه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ..

وأسرع بائع الجرائد يجرى ،. وسبق الجندى الآخر ، وألقى نفسه فى طريقه مدعيا أن ما يحمله من الصحف سقط منه ..

ووقع الجندى فوقه .. ثم قام وهو يسب ويلعن ، وتلفت حوله فلم يري إبراهيم ..

وكان إبراهيم قد مرق من شارع قصر النيل .. واتجه إلى ميدان الأزهار .. وهو لا يزال يجرى .. ولم يعد يسمع وقع الأقدام التى تجرى خلفه .. ولكنه ظل يجرى .. وأخذ يصيح :

ـ اسمع يا جدع .. يا اخينا استنا !

وكان يصيح ليقنع الناس أنه يجرى ليلحق بشخص آخر . ثم كف عن الجرى .. وأخذ يسير بخطا واسعة ، ثم دخل إلى مخبز ، واشترى عشرة أرغفة من الخبز حملها بين يديه بحيث تخفى نصف وجهه .. وبدا وهو يسير حافى القدمين ، يرتدى جلبابا ، ويحمل أرغفة العيش ، كأنه خادم عائد من السوق .

وسار فى اتجاه ميدان العتبة الخضراء .. وهو يفكر .. يفكر بسرعة .. أين يذهب .. أين يختبىء .. وانحرف فى شارع الأزهر .. ووقف عند بائع فاكهة ، واشترى برتقالا واقتين موزا ، وترك البائع مشغولا بوضع ماشتراه فى « كيس » كبير من الورق .. واتصل بصديقه فتحى الليجى بالتليفون .. ولكنه لم يجده . فحمل « كيس » الفاكهة ، وسار فى شارع الأزهر حتى آخره .. واتجه إلى شارع « الباطنية » .. لقد تذكر صديقه عبد الله السحرتي .. طالب معه فى كلية الحقوق ، من الوطنيين المتحمسين .. ولكنه لم يشترك فى جميعة سرية .. وكان بعيدا عن مراقبة البوليس .. هل يجد عبد الله فى بيته ؟!

ووجده فى البيت ..

ولم يتردد عبد الله في معاونته على الاختباء . وكان يسكن فى بيت يمتلكه أبوه ، مكون من ثلاثة أدوار .. والدور الثالث يقيم فيه طالبان من الأزهر ، وقد سافرا إلى بلدتهما ، وتركا مفتاح الشقة مع عبدالله.

وصعد إبراهيم إلى الدور الثالث ..

وأقام فى شقة الطالبين المسافرين .. يقضى ليه ونهاره فى مكان واحد منها دون أن يبدى أى حركة حتى لا يشعر أحد من

السكان بأن هناك من يحتل الشقة .
وظلت النوافذ مغلقة ليل نهار .. وعبد الله يتسلل إليه فى أوقات متفاوتة ليزوده بالطعام والشراب .
ومرت أيام ..
ولم يعد يستطيع أن يهدأ ..
إن أعصابه التى كان يستمد قوته من قوتها .. أعصابه الهادئة الباردة .. بدأت تخونه .. بدأت تهتز .. إنه يحس أحيانا أنه سيجن .. يحس أنه يريد أن يصرخ .. أن يحطم .. أن يدمر .. أن يقتل !
يقتل من ؟
همام بك واليوزباشى الدباغ ، اللذان يتبعانه ويسلطانه عليه رجالهما ؟
لا ..
إنهما يمثلان طبقة الخدم .. خدم لسياسة مرسومة ، يرسمها الاستعمار !
يقتل الانجليز كما كان يفعل قبل أن يقبض عليه ؟
لم لا ؟
يجب ألا يرتاح الانجليز فى مصر .. يجب أن يقلقوا دائما على حياتهم ماداموا فى مصر !
وقرر أن يعمل ..
أن يعمل بنفسه ..
واستطاع أن يتصل بفتحى المليجى .. وبدأ الثلاثة يعقدون اجتماعات سرية فى الشقة الخالية .. إبراهيم ، وفتحى ، وعبدالله .. ولكن فتحى كان يعارض بشدة فى أن يقوم إبراهيم بتنفيذ إحدى الخطط بنفسه .. إنه إنسان هارب .. وتصرفات الإنسان الهارب تختلف عن تصرفات الإنسان المهاجم .. ولو قام إبراهيم بالعمل فسيحتاج إلى خطتين فى وقت واحد .. خطة لتغطية هربه ، وخطة لتنفيذ عملية الاغتيال .. وقد تعرقل إحدى الخطتين الأخرى .
وكان إبراهيم مقتنعا بمنطق فتحى !
ولكنه يريد أن يعمل ..

إنه لا يستطيع أن يعيش مختبئا كالفأر طول عمره !!

وطال تردد الثلاثة فى القيام بعمل ما ..

إلى أن بلغهم خبر القبض على محيى وعبد الحميد ، وتعذيبهما.. وبلغهم أنهما تحملا السجن والعذاب ولم يعترفا .

وفقد إبراهيم أعصابه ..

جن غضبا ..

لقد رأى كثيرا من زملائه يعتقلون ويعذبون .. ولكنهم كانوا جميعا من الطلبة المشتغلين بالسياسة .. كانوا كلهم يعدون أنفسهم للقبض والتعذيب . ولكن محيى .. أنه لم يكن مشتغلا بالسياسة .. إنه واحد من الناس البسطاء السلبيين الذين يحتلون مقاعد المتفرجين .. إنه الشعب .. الشعب كله .. وقد وقف الشعب بجانبه .. تحمل الشعب العذاب من أجله ، دون أن يتخلى عنه ..

وازداد إحساسا بالشعب ، وهو يفكر فى محيى .

يجب أن يرد الثمن للشعب .. يجب أن يثبت لمحيى .. ونوال وزاهر أفندى .. والست تحية .. إنه يستحق ثقتهم .. يستحق العذاب الذى تحملوه من أجله .

وتخلص من إحساسه بأنه إنسان هارب ..

ورفض أن يستمع إلى اعتراضات فتحى المليجى ، وهدد أن يعمل وحده إن رفض فتحى أن يعمل معه .

ولم يرفض فتحى .

وفى نفس الليلة تمت عملية أحد الجنود الانجليز قرب معسكر العباسية .

ولم يعد إبراهيم من العملية راضيا ، لم يهدأ ، ولم يحس أنه قام بعمل كبير .

وكان يعلم أن الحكومة ستمنع نشر الخبر فى الصحف ، حتى لا ينعكس على الناس ويؤلبهم على الانجليز . ويعلم أن البوليس سيدعى فى تقاريره الرسمية أن القتل حصل بقصد السرقة ، رغم أنه ـ أى البوليس ـ يعلم أنها عملية اغتيال سياسى ، وربما علم أن إبراهيم هو الذى قام بها ، فقد تمت بنفس الأسلوب ونفس الخطة التى كان إبراهيم يتبعها فى الاغتيالات السابقة .

واقتنع إبراهيم كما اقتنع من قبل ـ أن عملية الاغتيال الفردى لجنود الانجليز ، لا طائل من ورائها ، وأخذ يجهد نفسه فى التفكير .

يجب أن يقوم بعمل كبير ..

عمل أكبر من اغتيال جندى انجليزى ، وأكبر أيضا من اغتيال وزير من عملاء الانجليز .

ومن خلال تفكيره بدأ وعيه يتطور .

إن الانجليز فى احتلالهم لمصر لا يعتمدون على جنودهم ، ولا على واحد أو اثنين أو عشرة من عملائهم ؛ إنما يعتمدون على نظام كامل ، نظام للحكم ، نظام يبدأ بالملك ، ويرتكز على طبقة الاقطاعيين التى تحتكر مقاعد الوزراء ومقاعد البرلمان .

يجب قلب هذا النظام إذا أردنا تخليص مصر من الإنجليز، ومن العملاء ، ومن الظلم ، ومن الفقر ، ومن همام والدباغ .. إذا أردنا إنقاذ محيى ، وزاهر أفندى ، والست تحية ، وبقية الناس الطيبين البسطاء ، وإذا أراد أن يحقق لنفسه حلمه البعيد ، البيت الهادىء الذى يضمه هو ونوال !

وتعجب من نفسه عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ، كأنه اكتشف حقيقة بسيطة غابت عنه العمر كله .

ولكن كيف ؟

كيف يقلب نظام الحكم ؟

واتسعت عيناه .. وانطلق منهما بريق لامع .. كأنه يحاول بهما أن يخترق سحب الغيب .. وأحس بذكائه يشتغل فى رأسه حتى يكاد يحرقها ..

لو استطاع أن يجمع حوله مائتى شاب مسلح .. مائتين فقط من الشباب الفدائى .. لاستطاع بهم أن يستولى على الحكم .. سيحتل بهم أولا محطة الاذاعة .. ثم يحاصر رئيس الوزراء فى بيته .. ويقبض على رؤساء البوليس السياسى .. و .. وحتى لو فشل فى الاستيلاء على الحكم ، فستكون ثورة مسلحة تهز مصر وتوقظ شعبها .

كيف يجمع مائتى شاب مسلح ؟!

سيطبق نظام الخلايا .. سيجمع خمسة يثق بهم .. وكل واحد من الخمسة يجمع خمسة يثق بهم .. وهكذا إلى أن يتم جمع المائتين !

وأخذ يستعرض وجوه المائتين الذين سيجمعهم .. ورأى من بينهم كثيرا من زملائه طلبة الجامعة .. ورأى وجه عبد العزيز المجاهد السكندرى .. ورأى وجه سائق التاكسي الذى رفض أن يأخذ منه النقود عندما قرر أن يقوم بأول عملية اغتيال .. ورأى وجه الطبيب الذى تستر على هربه من مستشفى قصر العينى .. ورأى كل الوجوه التى مرت فى حياته .. وكأنها اصطفت أمامه فى طابور عسكرى ينتظر أمره ، ليقلبوا نظام الحكم ..

كيف يسلحهم ؟

إنه فى حاجة إلى أموال كثيرة ليشترى بها السلاح .. أموال يتبرع بها أصدقاؤه الأغنياء .. ولن يقول لهم خطته وفقط سيجعلهم يتبرعون ..

ولم يضع وقتا ..

وبدأ فى صباح اليوم التالى يسوق الخطة إلى فتحى وعبد الله بطريقته الخاصة .. يدفعهم إليها دفعا ، حتى ينطلقوا بها قبله ..

ومرت أيام أخرى ..

وبدأ فتحى المليجى يجمع الخمسة الذين يكونون الخلية الأولى .

وإبراهيم مختبىء فى الشقة لا يغادرها .. ولكنه لم يعد يشعر بالضيق .. إنه مشغول دائما بالتفكير فى خطته ، ويشتعل حماسا لها .

ولكن مجهودات فتحى المليجى فى تكوين الخلايا تسير ببطء .. بل تتعثر ولا تكاد تسير ..

وإبراهيم يتمادى فى التفكير ، وكلما تمادى فى تفكيره داخله الشك فى خطته .. ومن خلال الشك اكتشف حقيقة أخرى غابت عن تفكيره ..

إنه لا يمكن جمع مائتى شاب فدائى مسلح مخلص ، إلا إذا كانت وراءهم قاعدة شعبية عريضة متحركة .. قاعدة ثائرة ، تغلى بالثورة ..

إن مـائتى شاب لا يـستطيعـون أن يقومـوا بثـورة .. ولكنهم يستطيعون أن يقوموا بدور فى الثورة .

إن مـائتى ثائر مـسلح ، لا ينبتـون فى أرض باردة جـامـدة ، ولكنهم ينبتون فى أرض ثائرة ملتهبة ..

يجب أن تثور الأرض أولا ..

يجب أن يلتـهب الشعب .. أن يـعم السخط ، أن يحس العـامل ، والتاجر ، والموظف ، والطالب .. بروح الثورة .. أن تتـحرك الهيئات كلها .. والجمعـيات كلها .. ومن خلال هذه الحركة .. يتـجمع مائتا شاب مسلح لقلب نظام الحكم !

إذن ..

عليـه أن يبدأ أولا بإشـاعة روح الثـورة .. بتحـريك الهيـئات .. بإثارة قضايا وطنية .. إلغاء المـعاهدة .. الجلاء .. الفساد .. الظلم .. نفوذ غير المسئولين .. عملاء الاستعمار .. كل هذه القضايا يجب أن تثار مرة واحدة .. أن تصبح حديث الشعب وغذاء العقول ..

ولكنه لا يتسطيع أن يفعل كل ذلك وحده ..

وبدأ خـلال الأيام التاليـة يتتـبع أخبـار الهيـئات والجـمعـيات الثـورية، وكـان يعلم أن هناك أكـثر من جـمـعيـة ثورية سـرية .. جمـعيـات داخل الجيش .. وجـمعـيات فى أوسـاط الشعب .. فـبدأ يرسل فتحى وعـبد الله لمحاولة الاتصال بهذه الجمعـيات .. والعمل على توحيدها وإشراكها فى عمل واحد ..

وبدأ يؤمن بأهمـيـة المشنورات السـرية .. وأهميـة الصـحافـة المتطرفـة .. وأهميـة الأزمات السـيـاسـة .. كل ذلك وهوجـالس فى الشقـة المظلمة .. وقد بدأ إحسـاسه بأنه إنسان هارب يعـاوده أشد مما كان .. وبدأ يضيق بنفسه .. وبحياته ..

ما دوره فى كل ذلك ..

إنه لا يستطيع أن ينتقل بين الجمعيات السرية ، ولا يستطيع أن يشـتـرك فـى المظاهرات .. ولا يسـتطيع أن يكتب المنشـورات ويوزعهـا.. ولا يستطيع أن يتصل بالطلبـة والناس ليثيرهم ويثـير سـخطهم ..

كيف يستطيع أن يقوم بدور تنفيذى ..يخدم به وطنه ؟!
ومن خلال ضيقه ، قرر أنه إنسان منته .. إنسان لا أمل له ، فهو لا يستطيع أن يعيش هاربا ، ولا يستطيع ألا يكون هاربا .. فهو منته .. إن الطريق الوحيد أمامه إذا أراد ألا يسلم نفسه للمشنقة ، هو أن ينتحر .. ولكنه لن ينتحر كما ينتحر الضعفاء بل سيقوم بعملية وطنية انتحارية .. عملية يضرب بها مثلا لمن يأتى بعده .. للشباب كلهم .
لم يعد يعنيه أن يعيش ..
كل ما يعنيه هو أن تقوم ثورة ..
فليكن الطلقة الأولى فى الثورة .. التى تعقبها كل الطلقات .. ليكن الطلقة التى توقظ الناس .. وتفتح أعينهم .. وتثير حماسهم .. وليعرفوا إلى أى حد يمكن أن يضحى فرد فى سبيل وطنه ..
لا ..
لن يقوم بعملية انتحارية واحدة .. عدة عمليات .. إما أن تلحقه الثورة .. أو يموت لتحيا الثورة ..
هذا هو دوره .. دوره أن يكون ضحية يبكى الناس فوقها ، شهيدا يتخذ الناس من دمه علما للثورة ..
وكان هذا هو آخر ما قرره بينه وبين نفسه ، عندما عاد فتحى المليجى إليه بعد أن قابل نوال ..
وعندما قال إبراهيم لفتحى إنه يفكر فى تسليم نفسه للبوليس ، كان يمهد للعملية الانتحارية التى يوشك أن يشرك فيها زميله ..

●●●

وقال فتحى كأنه يعاتبه :
– حكاية تسليم نفسك دى ، لازم تشيلها من دماغك .. احنا ما عملناش ده كله علشان تيجى فى الآخر تسلم نفسك !
وقال إبراهيم وهو يخفى عينيه عن زميله حتى لا يفتضح ما فى رأسه :
– يعنى حافضل مستخبى زى الفار كده طول عمرى ؟
وقال عبد الله :

ـ بأه أنت مستخبى .. أمال لو ما كنتش مستخبى كنت عملت إيه .. الراجل الانجليزى لسه مابردش دمه ؟
وقال إبراهيم :
ـ طيب وبعدين .. ضربنا واحد انجليزى ..ضربنا عشرة انجليز إيه اللى حايحصل ؟!
وقال فتحى :
ـ والله اللى يستحق الضرب أكثر من الانجليز .. هم همام وشلته .. هم دول اللى حاكمين البلد !
ورد إبراهيم دون أن يرفع رأسه :
ـ لو خلصنا على همام ، حيطلع اللى ألعن منه .. سيبك .. المسدسات ما بقتش نافعة !
وقال عبد الله فى غباء :
ـ امال حتضربوهم بشومة ؟!
وسأل فتحى :
ـ امال إيه اللى ينفع؟
ـ أنا عارف .. الواحد لازم يعمل عمل كبير عمل يفرقع !
وقال فتحى وقد تعوّد على أسلوب إبراهيم حتى فهمه :
ـ قنابل مثلا .. ديناميت ؟!!
وقال إبراهيم وقد رفع عينيه إلى فتحى كأنه يهنئه على ذكائه :
ـ وحانجيب القنابل والديناميت منين ؟
وقال فتحى وقد اكتسى وجهه بعلامات الخطورة :
ـ بسيطة .. بس حانستعملها فى إيه ؟
وقال إبراهيم :
ـ بس اتشطر وهاتهم الأول ..
وقام فتحى وقال وقد تعود ألا يلح على إبراهيم فى حديث :
ـ لما حاجيبهم حابقى اتصل بيك !
وخرج فتحى .. ومعه عبد الله .
وتركا إبراهيم فى الظلام ..

٢١

ومضى يومان ..

وكان إبراهيم خلال هذين اليومين ، هادئا .. لم يعد شىء يثيره .. ولم يعد شىء يحيره .. ولم يعد يحس بإحساس الهارب .. لقد عرف مصيره .. انتهى من تحديد دوره فى المعركة الطويلة العنيفة التى خاضها .. ودوره الذى اختاره لنفسه هو أن يكون الطلقة الأولى فى الثورة ، وأن يظل يعمل حتى تلحقه الثورة .. وأن يموت وتحيا الثورة .. ثورة مصر كلها .. وثورة الشعب كله ..

وكان كل ما يبدو عليه من آثار الأيام العنيفة التى مرت به ، هو هذا الشارب الذى أطلقه فبدا أكبر من سنه .. وذقنه التى تركها بلا حلاقة فوق وجهه المتقع ، فبدا كأنه مريض ..

وكان يفكر تفكيرا هادئا فى خطة الثورة .. وفى اختيار المكان الذى يبدأ منه العمل .. ولم يكن خلال تفكيره يحس بإحساس المنتحر .. لم يكن يائسا .. ولا ساخطا .. كان كأنه مقبل على اختراع جديد يحاول تجربته .. اختراع لإشعال الثورة فى مصر .. وكان يدرس اختراعه بعقلية العالم المدقق ، الواثق من النجاح .. يحدوه الأمل .. والبشر .. ويرى النور ينبثق من بعيد .. من أعماق روحه ، ومن أعماق تفكيره .

وكانت صور من حياته تنكس فى خياله ، فينظر إليها فى حنان، وبين شفتيه ابتسامة راضية .

صورة بيته الذى نشأ فيه بحى المنيرة .. وصورة أمه .. كم أحبها ، وكم أحبته .. وساءل نفسه : هل أغضبها .. هل سبب لها

عذابا .. لا .. إنهـا تفهمه .. لقـد عودته دائما أن تفهـمه .. وقد ورث عنها كل أخلاقها .. هذا العناد ، وهذا الهدوء الذى يغلف به ثورته .. كل ذلك ورثه عنهـا .. وربما لو كانت رجـلا لكانت زعيـما .. لأتت نفس الأعمال البطولية التى يقوم بها .. إنها فى قرارة نفسـها تفخر به .. مهما حـاولت أن تخفى هذا الفخر ، ومهـما حاولت أن تحذره من اندفـاعه ، فـقد كـان يرى فى عـينيهـا دائمـا نظرة الزهو به ، والاعتـزاز ببطولته .. ويوم قـبض عليه ودخل السـجن ، رأى فوق وجنتيهـا آثار دموع ، ولكنه رأى خلف آثار الدموع ظل ابتـسامة .. ابتسامتها القوية المتكبرة التى تضن بها دائما ، ولا تكشف عنها إلا بما يكفى ليضىء وجهها النور .. نور السماحة الطيبة .

وأبوه .. وابتسم ابتـسامة كبـيرة ، وهو يرى فى خيـاله صورة أبيه .. إنه رجـل يؤمن بالنظام .. والنظام الذى يطبقـه فى وظيفـته الحكومـية ، وهو نفس الـنظام الذى يطبقـه فى البـيت .. ولم يكن يغضب لتصرفات ابنه إلا لأنها خروج على النظام .. ولم يكن يعتقد أن هناك سببا للـقبض على ابنه إلا لأنه خروج على النظام .. ورغم ذلك فقد كان يزهو دائما بابنه .. لم يكن مـقتنعا بتصرفاته ، ولكنه كان يزهو بها .. شىء أقوى منه ، وأقوى من منطقه كان يدفعه إلى الزهو .. وكان إبراهيم يحس بهذا الزهو حـتى فى أعنف المناقشات التى دارت بينهما .

واتسـعت ابتـسـامـة إبراهيم .. لـقـد كـان أبوه يريده أن ينال ليسانس الحقوق .. وكان يتصوره قـاضيا .. وكان أحيانا يتصوره وزيرا .. إنه لن يكون قاضـيا ولا وزيرا .. ولكنه سيكون أكـثر من ذلك .. إن القـضاة والوزراء يموتون كـما يموت عامـة الناس .. ثم ينساهم الناس .. وينسـون آباءهم .. ولكنه سيموت شـهيدا .. ولن ينسـاه الناس .. سـيـمنح أبـاه ذكـرى لا تنسـى .. وهذا هو كل ما يستطيع أن يعوض به أباه .. ذكرى يزهو بها أمام الناس .

وتوالت الصور فى خياله .. صور زملائه فى المدرسة الثانوية.. وصـور زملائـه فى الجامـعـة .. كم أحـبهم .. وكم أحـبـوه .. إنه يستطيع الآن أن يرى هذا الحب .. يكاد يلمسه بيده .. أن هذا الحب

هو الذى زوده بالقوة التى اقتحم بها كل يوم من أيام حياته .. لقد كان يحس بينهم أنه أقوى من البوليس ، ومن الحكومة ، ومن الانجليز .. أقوى بهم من نفسه .. من الخوف ومن الطمع ، ومن الضعف .. ورأى أصدقاءه فى مخليته واحدا واحدا .. رأى حتى الوجوه التى خيل إليه أنه نسيها .. وكان يذكر مع كل منهم واقعة ، أو نادرة .. فيضحك بينه وبين نفسه لواحد منهم ، ويبتسم للآخر ، ويعاقب الثالث .. وتعابير وجهه تنفرج وتنكمش كأن وجهه شاشة سينمائية ترتسم عليها عواطفه .

واستعرض كل مغامراته الوطنية .. كل المظاهرات التى اشترك فيها .. وكل العمليات التى قام بها .. وأيامه فى السجن .. والتحقيق الذى أجرى معه .. ومر أمامه وجه همام بك ، ووجه اليوزباشى الدباغ ، ووجوه وكلاء النيابة .. ثم أيامه فى مستشفى القصر العينى .. واليوم الذى هرب فيه .. وأحس بعواطفه كلها تتجمع وهو يقترب بخياله من بيت محيى .. ورآه بوجهه المستدير.. ونظارته .. وقامته القصيرة .. وزاهر أفندى .. والست تحية .. وسامية .. وعبد الحميد .. وابتعد بخياله عن نوال .. إنه يخافها .. إنه يستطيع أن يعوض كل الناس باستشهاده فى سبيل الثورة ، إنه يحس وهو مقدم على خطته الجديدة ، انه يدفع الثمن للناس كلهم .. إنه يضحى بحياته من أجل الناس كلهم .. ماعدا نوال .. إنه يريد أن يعيش من أجلها .. إن موته ليس تضحية من أجلها ، إنه تضحية بها .. وهو لا يريد أن يتشبث بالحياة ، إنه محتاج الآن لكل جرأته ، وكل استهتاره ، وكل زهده ، حتى ينفذ الخطة التى قررها .

وكلما حاول أن يبتعد بتفكيره عن نوال ، لحقت نوال بخياله ، إلى أن استسلم لها .. ورآها بعين خياله ، وهى تفتح له الباب .. رأى عينيها المرحتين النشطتين .. ورأى وجنتيها العاليتين .. ورأى بشرتها السمراء المشربة بالحمرة ، كأنها فتاة من الهنود الحمر .. ورآها وهى تفسح له الطريق كل صباح ليدخل الحمام .. ثم وهى تقدم له إفطاره .. وأحس بعينيه تلتقيان بعينيها ، وأحس بخفقة قلبه

التى تعودها كلما واجهته بابتسامتها .. وأمعن فى استسلامه .. دون أن يراوده حلمه الذى يعاوده .. حلم البيت الصغير الذى يضمه هو ونوال .. لقد اختفى هذا الحلم من قلبه .. لم يعد فى قلبه أحلام ، إنما امتلأ بالحقيقة .. حقيقة تعوضه عن أحلامه .. حقيقة أقوى من حلمه .. حقيقة الحب .. إنه يحب وهذا يكفيه .. وهو سعيد بحبه .. بلا حاجة إلى الأمل ، ولا إلى الأحلام .

هل يمكن أن يصل الحب إلى هذا الحد .. الحد الذى يصبح فيه أقوى من الأمل .. لا يدرى .. ولكنه ـ فى هذه الساعة ـ لا يتعذب بحبه ، ولا يحس بحاجته إلى المزيد .

وانتبه من عواطفه ، وهو جالس فى الشقة المظلمة المغلقة النوافذ الخشبية ، على صوت المفتاح يدور فى قفل الباب .

ودخل فتحى الميجى ، ومن ورائه عبد الله .

وقال فتحى ، وصوته يكاد يزغرد :

ـ هات يا عم .. عبد العزيز جه من الاسكندرية امبارح ، واتصل بيه ، وقال لى إنه اتفق مع مركب حاتقوم على مرسيليا بعد بكره .. طوالى .. ولازم نكون فى اسكندرية بكره الساعة حداشر بالليل .

وابتسم إبراهيم دون أن يترك ابتسامته تصل إلى شفتيه .. إنه لن يسافر .. لن يترك مصر .. هذا قرار نهائى .. ولكنه لم يبلغ فتحى قراره .. وقال فى صوت حاول أن يضمنه بعض الحماس :

ـ عال .. كويس .. نقوم من هنا بكره الساعة سابعة . جبت الحاجات ؟

وقال فتحى :

ـ حاجات إيه بأه .. ما بلاش شغل اليومين دول ، لغاية ما تسافر بالسلامة !

واحتد إبراهيم على غير عادته وقال :

ـ أنت وعدت إنك تجيب قنابل وديناميت .. وأنا كنت معتمد على وعدك .. ولسه قدامنا وقت كبير نقدر نشتغل فيه !

وقال فتحى ، وهو دهش لاحتداد إبراهيم .

ـ أنا جيبتهم .. تلات قنابل يدوية .. وشوية صوابع جلجنايت .. إنما أنا شايف ان ..

وقاطعه إبراهيم فى عجلة :
ـ حاططهم فين ؟
وقال فتحى فى استسلام :
ـ فى العربية !!
وقال إبراهيم :
ـ يا خبر ، حاططهم ازاى فى العربية .. دول يمكن ينفجروا وانت ماشى .. هاتهم هنا حالا ..
وقال فتحى وهو ينظر إلى إبراهيم مدققا كأنه لا يصدق أن هذا هو إبراهيم. الإنسان الهادىء ، الذى لا يأمر ، إنما يسوق خططه فى لباقة :
ـ يعنى انزل أجيبهم وآجى .. افضل طالع نازل قدام الناس ..
وقال إبراهيم فى حزم :
ـ أيوه ..
وعاد فتحى يقول فى تردد :
ـ طيب مش نتفق الأول حانعمل بيهم إيه ؟
وقال إبراهيم فى حدة :
ـ لما اشوفهم الأول بين أيديه ، ابقى اقول لك ..
وسكت فتحى ، وتنبه إبراهيم إلى أنه فقد أعصابه ، فعاد يقول فى صوت معتذر :
ـ أرجوك يا فتحى تستحملنى النهارده كمان .. أنا عارف إنى باتعبك .. إنما كلها كام ساعة ، وأسيب مصركلها ، بإذن الله ..
ورق قلب فتحى ، وقال وهو ينظر إلى إبراهيم فى تقدير وإيمان:
ـ مش قصدى يا إبراهيم .. بس أناكنت عايز اليومين دول يفوتوا على خير . وبكره زى ما أنت عارف الوقفه .. وحقنا نبطل شغل زى بقية الناس !
وابتسم فتحى كأنه يرشو إبراهيم بابتسامته ..
وقال إبراهيم ، وهو يرد ابتسامة صديقه :

ـ كل سنة وأنت طيب ..
ثم سكت ، ليقنعه بأنه لا يزال مصمما على رأيه ..
وقال عبد الله :
ـ أوصل أنا أجيب الحاجات من العربية .. أهو اسمى داخل وخارج من بيتنا ..
ونظر فتحى إلى إبراهيم يسأله رأيه ..
وقال إبراهيم :
ـ فكره صح !
وقال فتحى ، وهو يخرج مفاتيح سيارته من جيبه ، ويناولها لعبد الله :
ـ العربية مركونة فى ميدان الأزهر .. تلاقى فى الدواسة اللى ورا جرابندية فيها الحاجات .. وما تنساش تقفل العربية ، أحسن فيها مسدس !
وقال عبد الله وهو يتناول المفاتيح :
ـ حاضر ..
ثم خرج على أطراف أصابعه ..
وبقى إبراهيم وفتحى لا يتحادثان فترة ، كان كلا منهما يخشى أن تكلم ان يعود إلى الاحتداد ..
إلى أن قال إبراهيم بلا مقدمات :
ـ أنا حادخل معسكر العباسية الليلة !
وفوجيء فتحى .. واتسعت عيناه .. وقال وهو يلتقط أنفاسه من الهواء :
ـ يا خبر .. ندخل معسكر انجليزى ازاى .. ده بعد خطوتين نكون رحنا فى داهية !
وقال إبراهيم دون أن يرفع عينيه :
ـ ده أسهل حاجة .. ولا حد حايحس ..
وقال فتحى وهو يبتلع ريقه بصعوبة :
ـ وحاندخل نعمل إيه ؟
قال إبراهيم فى هدوء :

ـ أنا حادخل لوحدى !!

وارتفع صوت فتحى كأنه لم يعد يطيق ، وقال :

ـ تدخل معسكر بحاله لوحدك ؟ ده انتحار !

وقال إبراهيم :

ـ بالعكس .. لما يكون واحد بس يبقى أسهل .. اتنين يلخموا بعض ، وينكشفوا !

وسكت فتحى برهة ، ثم عاد يقول :

ـ ما بلاش ياإبراهيم .. كفاية نضرب واحد .. ولا اتنين ..زى كل مرة .. اللى حاتعمله فى المعسكر . نقدر نعمله بره المعسكر ..

وقال إبراهيم فى صوت عميق كأنه يلقى وصيته :

ـ كل اللى بتعمله مش حايطلّع الانجليز من البلد .. مافيش حاجة حاتطلّع الانجليز إلا أن البلد كلها تثور .. تتحرك .. وعلشان تتحرك لازم نعمل حاجة تصحيها . لازم نعمل حاجة تفرقع .. لازم تكون المقدمة للثورة .. وده اللى حاعمله .. يوم ماحادخل المعسكر، البلد كلها حاتدخل كل معسكرات الانجليز ورايا .. وبكره تشوف !

وسكت فتحى برهة ، ثم عاد يقول :

ـ أنت متأكد ؟

وقال فتحى :

ـ طيب ما تسيب غيرك يعمل الحكاية دى .. أنت عملت اللى عليك واكتر ومن يوم ماضربت عبد الرحيم شكرى ، وأهى البلد هايجه!

وقال إبراهيم :

ـ مش كفاية .. لازم اعمل حاجة كمان .. ولازم كل يوم يحصل حاجة !

ثم سكت قليلا ، واستطرد :

ـ أنا عارف معسكر العباسية كويس .. زمان قبل ما يتقبض على قدرت أجيب خارطة للمعسكر كله ، ودرستها حته حته .. ولسه فاكرها لغاية دلوقت !

وهز فتحى رأسه ، وسكت .. كأنه يعلم أنه لا يستطيع أن يثنى إبراهيم عن قرار اتخذه ..

وارتفع صوت المفتاح يدور فى القفل ..

ودخل عبد الله وفى يده حقيبة من القماش السميك الأصفر ، كالتى يعلقها الجنود فوق ظهورهم .. ووجهه ممتقع ، ويداه ترتعشان كأنه يحمل الموت بينهما .

ووضع الحقيبة بحرص على مائدة صغيرة ، وما كاد يتركها من يده ، حتى تنهد فى ارتياح . .وقال وهو يمسح بذراعه قطرات العرق المعلقة فوق جبينه :

ـ مش هى دى ؟

وقال فتحى دون أن يتحرك من جلسته :

ـ أيوه ..

وهب إبراهيم واقفا ، وقفز نحو المائدة فى خطوة واحدة ، وأخذ يفتح الحقيبة ، بأصابع متلهفة ، وقد زم شفتيه وارتسمت فى عينيه أمارات الاهتمام العميق ، كأنه عالم أمام أنبوبة اختبار .

وأخرج من الحقيبة أصابع الجلجنايت .. قطع طرية ذات لون أسمر ، كأنها قطع من الملبن ..

وقال عبد الله وعيناه متسعتان فى سذاجة :

ـ هو ده اللى بيقولوا عليه جلجنايت .. ده مش باين عليه حاجة.. زى ما يكون ملبن ..

وقال فتحى ضاحكا فى مرارة :

ـتحب تدوق !!

وبدأ إبراهيم يخرج القنابل اليدوية ويضعها فوق المائدة .. وعاد عبد الله يقول فى سذاجة :

ـ ودى بيستعملوها إزاى ؟!

والتفت إليه إبراهيم وفى يده إحدى القنابل ، وقال كأنه يلقى عليه درسا :

ـ زى ما بتشوف فى السينما تمام . تشد الدراع ده ، وتنزع المفتاح ده بأسنانك .. وترمى !!

وقال عبد الله :

ـ يا حفيظ يا رب ؟

واتجه إبراهيم إلى الفراش الذى يحتل جانبا من الحجرة .. ونزع الملاءة التى تغطيه ، ثم مزق منها جزءا صغيرا ، وأخذ يمزق هذا الجزء إلى عدة شرائط طويلة .

وقال عبد الله ، كأنه يحاول أن يوقف إبراهيم :

ـ يا اخينا مش كده .. دى مش حاجتنا ..

وقال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة :

ـ ما هو لازم أصحاب الشقة يشتغلوا معانا !!

واستمر يصنع الشرائط الطويلة .. ثم بدأ يأخذ كل خمسة أصابع من أصابع الجلجنايت ، ويربطها إلى بعضها بشريط .. وثبت بينها فتيلا قصيرا ، قابلا للاشتعال ..

وقال فتحى :

ـ ما تطول الفتيل شوية .. أحسن ينفجر فى أيدك قبل ما ترميه!

وقال إبراهيم فى حزم :

ـ مافيش وقت .. لازم الانفجار يحصل بسرعة !

واستمر فى عمله .. وبدأ يلقى بتعليماته وأصابعه مشغولة بين قطع الجلجنايت .. دون أن ينظر إلى فتحى أو إلى عبد الله ..

إنه سيدخل المعسكر من ناحية دار السينما المخصصة للجنود الانجليز والتى تقع على ناصية شارع مدرسة البوليس ، وشارع السرايات .

ويتولى عبد الله مهمة تعمية جندى البوليس ، إن وجد ..

وفتحى يساعده على القفز من على سور دار السينما ..

وبعد ذلك ، يعود فتحى بالسيارة إلى بيته ، ويظل منتظرا هناك..

وقال فتحى محتجا :

ـ مش استناك لغاية ما تخرج ..

وقال إبراهيم ، والجلجنايت بين يديه :

ـ لأ .. انا حاخرج من ناحية الجبل .. والعربية لازم ترجع ، لانها لو اتمسكت ، ولاّ اتعرفت نمرتها .. حانتقفش كلنا ..

وسكت فتحى ، وهو ينظر إلى إبراهيم فى تعجب ..

ثم أخذ الثلاثة يتداولون الخطة ويعدون أسلحتهم .. حتى كان منتصف الليل ..

●●●

وخرج الثلاثة من البيت ..

عبد الله يحمل بين يديه الحقيبة القماش التى تضم الموت .. وفتحى يحمل حقيبة مدرسية أشبه بحقائب المحامين .. وإبراهيم يرتدى قميصا أزرق وبنطلونا أخذهما من عبد الله .. ويحمل فى يده كتابين من كتب القانون التى تدرس فى كلية الحقوق ، وليس به من آثار التنكر إلا شاربه وذقنه غير الحليق .. وساروا فى حى الباطنية ، كأنهم طلبة عائدون من استذكار دروسهم .. والمقاهى على الجانبين مزدحمة بروادها ، وقد زينت بالمصابيح الكهربائية احتفالا بوداع رمضان .. والشوارع مزدحمة بعربات الفاكهة .. والحلوى .. والكبد والكلاوى .. والأطفال يصرخون فى مرح .. ومجذوب يصيح : يا رب .. وعسكرى ينظر بعينين سارحتين إلى رجل يشد أنفاسه من الجوزة .. وخادم المقهى يصيح : تلاته احضر .. واتنين عجمى !

والثلاثة يحاولون تبادل حديث أثناء سيرهم ، فيأتى حديثا مبتورا لا تتصل كلماته ..

ويحاولون الضحك ليظهروا فى هيئة طبيعية ، فتقع ضحكاتهم تحت أقدامهم كقطع الطوب ..

وخرجوا إلى ميدا الأزهر ..

ووصلوا إلى السيارة ..

وتلفت فتحى حوله بحركة تلقائية ، وهو يفتح السيارة .. ثم جلس فى مقعد القيادة ، وجلس عبد الله بجانبه ، وجلس إبراهيم فى المقعد الخلفى .

وقال إبراهيم وقد قاربت السيارة ميدان العتبة الخضراء :

ـ اطلع بينا على الدقى ..

وتقلص وجه فتحى كأنه يكاد يبكى تأثرا ، واته بالسيارة إلى

حى الدقى دون أن يسأل شيئاً .. وكأنه يعلم كل شيء .. وعندما وصل إلى الدقى اتجه إلى ميدان « فنى » .. وأوقف السيارة بجانب مستشفى عانوس ، دون أن يوقف الموتور .. وظل ساكتا لا يتكلم.. وعبد الله لا يدرى شيئا .

وأطل إبراهيم من نافذة السيارة ، وفى عينيه نظرة حانية مبتسمة ، كأنه يرى فى الليل الذى أمامه .. نوال .

وقال فى صوت هامس وهو لا يزال ينظر فى الليل :

ـ هيه كانت لابسة فستان لونه إيه ؟

وقال فتحى دون أن يتلفت إليه :

ـ أبيض ..

وتنهد إبراهيم ثم قست تعابير وجهه .. وسحب عينيه من الليل.. واعتدل داخل السيارة ، وقال فى صوت أجش :

ـ ياللا بينا يا فتحى ..

وانطلقت السيارة وإبراهيم صامت .. وعضلات وجهه متقلصة.. كأنه فى معركة مع نفسه .. إنه يقاوم ضعفا يحس به .. ضعفا يسرس فى عواطفه ، ويغلف أعصابه ، فيجعله يميل إلى الاسترخاء ويدفعه إلى الاستسلام .. إنه يريد أن يغمض عينيه ويحلم .. ويريد أن يبكى فى حلمه .. ويبتسم ويضع يده فى يد نوال .. ثم يضمها إلى صدره .. ويضغطها إليه بقوة حتى يحس بها بين خفقات قلبه.. ولكنه يقاوم هذا الضعف ويقاوم بقسوة .. لقد جاء إليها فى مكان لقائهما .. لأنه وعدها .. إنه ليس ضعيفا .. ولكنه فقط أراد أن يبر بوعده .. أن يأتى للقائها .. وقد جاء متأخرا .. ولكنه جاء ..

وانتبه إلى السيارة ، وهى تمر أمام المعرض الزراعى ، وقال :

ـ الساعة كام ؟

وقال عبد الله بعد أن نظر فى الساعة :

ـ واحدة وربع ..

وقال إبراهيم :

ـ لسه بدرى ..

ثم استطرد بلا وعى وكأن شخصا آخر يتحدث فى نفسه :

ـ اطلع بينا على المنيرة .. نفسى أشوف بيتنا !!

وقال فتحى فى جزع :

ـ يمكن يكون البيت مراقب ..

وقال إبراهيم :

ـ احنا حانمر من قدامه بس .. يمكن تكون أودة أمى منوّره !

وسكت فتحى ، وهو يحس بقلبه ينشق ثائرا . وقاد السيارة إلى حى المنيرة .. ومر من أمام بيت إبراهيم بسرعة .. وأطل إبراهيم غارق فى الظلام .. وحجرة والدته ليست مضاءة .. وهو لا يزال يحس بالضعف .. الضعف الذى يسرى فى عواطفه .. ويغلف أعصابه .. وعاد يقاوم ضعفه من جديد .. يقاومه بقسوة .

وقال كأنه يستعين بأى شىء على عواطفه :

ـ سوق على مهلك .. مش عايزين نوصل قبل الساعة اتنين ..

وخفف فتحى من سرعة السيارة ..

وعاد إبراهيم يقول :

ـ فين المسدس ؟

ومد فتحى يده ، وفتح درج السيارة المثبت فى « التابلوه » وأخرج مسدسا كبيرا « برابللوم » .

وانكمش عبد الله فى مقعده ، وقال :

ـ ياجدع ابعد البتاع ده عن وشى !!

وضحك إبراهيم ، وقال وهو يمد ذراعه ويتناول المسدس من يد فتحى :

ـ ده مسدس ما يضربش إلا فى وش الانجليز ..

ثم إنه أراد أن يستمر فى الضحك ليتغلب على ضعفه ويستعيد طبيعته ، فاستطرد ، وهو يوجه المسدس إلى رأس عبدالله:

ـ استنى أما اشوف إذا كنت انجليزى ولا لأ !!

وغطس عبد الله فى مقعده ، وصرخ وقد امتقع وجهه :

ـ وحياة أبوك ببلاش الهزار التقيل ده ..

وقال إبراهيم وهو لا يزال يضحك :

ـ من بكره حاديك دروس فى ضرب النار ..

وقال عبد الله :

ـ لا .. أنا ماليش فى المسدسات .. طبيعتى كده !

وقال فتحى :

ـ ده أنت لو رحت الهند تبقى زعيم زى غاندى .. اهو زيك كده مايحبش المسدسات .. أصلك هندى !!

واستمر الثلاثة فى هذا الحديث .. وهم يلحون فيه .. ويشدون الضحكات من أفواههم شدا .. حتى يتغلبوا بها على وجيب قلوبهم الواجفة ، ويستشعروا الاستهتار والجرأة .

وكان إبراهيم يضحك ويتحدث ، وهو يعبث بالمسدس ، ويشد خزان الرصاص منه ، ويتأكد من كل قطعة فيه بأصابع خبيرة متمرسة .. تحتضن المسدس فى رقة وحنو كأنها أصابع عاشق تحتضن حبيب العمر .

ثم فتح زرارين من قميصه ، وأسقط المسدس فى عبه ، وتوقفت عضلات وجهه . وسرحت عيناه فى الظلام .. وبدأ يستعيد خطته .. ويستعيد فى مخيلته رسم المعسكر .. ويقدر جميع الاحتمالات التى يمكن أن يصادفها .. وهو يحس الآن بأنه فى حالته الطبيعية .. الحالة التى يكون فيهاعادة وهو مقبل على تنفيذ خطة من خططه .. وقلبه ملىء بشعور التحدى .. والجرأة .. والاستهتار .. وشعور أشبه بشعور « الشقاوة » .. شقاوة الشبان .. وذهنه واع ، تجمّع فيه ذكاؤه كله .. ولكن هناك شىء آخر يحس به .. شىء لم يتعوده.. إنه متشائم .. وهذا التشاؤم يضايقه .. ويثير فى قلبه نوعا آخر من الخوف .. غير الخوف الطبيعى الذى كان يراوده دائما وهو يطلق الرصاص .. وأخذ يمنى نفسه بالتغلب على هذا التشاؤم، وعلى هذا الخوف الغريب .. سيتغلب عليه حتما ، عندما يبدأ فى العمل .. عندما يندمج فى المعركة .

وسارت السيارة فى شارع العباسية . حتى وصلت إلى ناصية « شارع مدرسة البوليس » .

وسأل إبراهيم ، وقد بدأت لهجته تحمل رنة حازمة خطيرة :

ـ الساعة كام ؟

وقال عبد الله وفى صوته رعشة :

ـ اتنين وعشرة !!

وقال إبراهيم :

ـ استنى هنا يا فتحى .. انزل انت يا عبد الله ، وامشى فى الشارع ده وإذا لقيت عسكرى واقف كلمه .. قول له أى حاجة .. اسأله عن بيت .. عن شارع .. عن أى حاجة ..ما تخلهش ياخد باله من العربية وهى داخلة ..

ونظر عبد الله إليه فى مسكنة كأنه يرجوه أن يعفيه من هذه المهمة .. ثم فتح الباب ، وقبل أن ينزل من السيارة .. استطرد إبراهيم قائلا :

ـ بعد ما تشوف العربية مشيت .. خد بعضك وامشى لغاية ميدان فاروق .. فتحى حيستناك هناك ..

وقال عبد الله فى ضعف :

ـ حاضر ..

ونزل من السيارة ..

وقال إبراهيم لفتحى :

ـ لف لفه صغيره .. وارجع ادخل من الشارع ده !

واتجه فتحى فى شارع العباسية حتى آخر محطة الترام ، ثم عاد ودخل فى شارع مدرسة البوليس .. وقاد السيارة فى سرعة عادية حتى لا يلفت الأنظار .. ومرا فى طريقهما على عبد الله وهو واقف يحادث عسكرى الداورية ..

ووقفت السيارة فى آخر الشارع ، بجوار جدار « سينما الانجليز » ونزل إبراهيم وقد علق الحقيبة القماش فى عنقه .. ونزل فتحى بعد أن ترك موتور السيارة دائرا ..

واقترب الاثنان من جدار السينما .. وشبك فتحى أصابع يديه فى بعضهما ، وجعل من كفيه سلمة ، ووضع إبراهيم إحدى قدميه فوقها . وتعلق بإحدى يديه ، فى أعلى الجدار .. ويده الأخرى تضم الحقيبة إلى صدره حتى لا ترتطم بالجدار ..

ثم وضع إبراهيم قدمه الأخرى فوق كتف فتحى .. وفى قفزة

واحدة كان فوق السور ..

تم كل ذلك دون أن يتبادلا كلمة واحدة ..

وتدلى إبراهيم فوق الناحية الأخرى من الجدار . وقفز قفزة خفيفة .. وأصبح داخل دار السينما .. داخل معسكر الانجليز ..

وسمع صوت سيارة فتحى تبتعد ..

وأحس أنه أصبح وحيدا .. وحدة هائلة مخيفة .

واشتد وجيب قلبه .. حتى خشى أن يكون لقلبه صوت يسمع خارج جسده ..

وتلفت حوله بعينين جاحظتين منتبهتين ..

إنه يعلم أن دار السينما تترك بلا حراسة ، وأن مدخلها من ناحية المعسكر ليس له باب ..

وسار فى خطوات متسعة خفيفة ، بين مقاعد السينما .. ثم خرج إلى المعسكر ..

إن كل شىء هادىء . أقرب إلى الظلام .. ليس هناك إلا هذه الأضواء الباهتة الصفراء التى تنيرالشارع الرئيسى داخل المعسكر.. وصوت أقدام الحراس الذين يقفون على باب المعسكر المطل على شارع السرايات .. وهو يلمح هناك ضوء سيجارة مشتعلة ..

وسار يزحف فى الظلام .. إنه محتاج دائما إلى الظلام .. ظلام.. يارب ، مزيدا من الظلام ..

سار فى محاذاة الشارع الرئيسى . متسترا فى جدران البيوت والثكنات الصغيرة التى يتكون منها المعسكر .. إن فى نهاية هذا الشارع ، موقفا كبيرا للدبابات وسيارات اللورى .. يريد أن يصل إليه !

وسمع وقع أقدام ثقيلة فوق أسفلت الشارع .. فتوقف .. وضم الحقيبة المعلقة فى رقبته إلى صدره .. أن الأقدام تقترب .. وسقط على الأرض ونام على وجهه .. ومرت برهة خيّل إليه أنها جيل .. ومرت الأقدام من أمامه دون أن تنتبه إليه ..

وقام من رقدته .. واستمر يسير .. سار طويلا .. وقلبه واجف.. وذكاؤه كله ينبض فى رأسه ، وعيناه جاحظتان منتبهتان .

ورأى حرسا يقفون أمام بيت من بيوت المعسكر ..

لا بد أنه بيت القائد ..

هل يلقى ذخيرته فوق هذا البيت وينتهى ؟ .. إنه يريد أن ينتهى بسرعة .. يريد أن يخرج من هذا الظلام .. الظلام .. يا رب ، مزيدا من الظلام .

لا ..

يجب أن يتم خطته كما وضعها ..

ودار حول البيت الذى يقف حوله الحراس .. وهو يسير فى خطوات متسعة ، خفيفة ، وقد أحنى ظهره ، وضم الحقيبة التى تحمل الموت إلى صدره .. ثم عاد يحاذى الشارع الرئيسى .. وعاد يسير محترسا .. يقظا .. لم يكن يفكر فى شىء خارج خطته .. كل شىء اختفى من خياله .. نوال .. أمه .. أبوه .. أصدقاؤه .. نفسه .. لم يعد له خيال .. إنه يعيش فى قلب الحقيقة ، بكل أعصابه .. وقلبه واجف .. يدق دقات مثيرة يقشعر لها بدنه .. إن الحقيقة التى يعيش فيها هائلة ..

وتوقف عن السير ..

والتمعت عيناه ببريق خطير ..

إنه يرى أمامه مخزن الدبابات والسيارات اللورى .. أرض مكشوفة تحيطها أسلاك شائكة ، وحرس يقف شاهرا السلاح فى أماكن متفرقة .. وأضواء قليلة هنا وهناك ..

ورقد على بطنه .. ووضع حقيبة الموت تحت أبطه .. وشد نفسا عميقا من صدره استجمع به كل إرادته .. ثم بدأ يزحف .. ويزحف.. إلى أن وصل إلى الأسلاك الشائكة .. ورفع الحقيبة من حول عنقه ووضعها عبر الأسلاك .. ثم ازداد التصاقا بالأرض .. وزحف تحت الأسلاك .. وتعلقت شوكة حديدة بقميصه ومزقته .. وأحس بصوت التمزيق كأنه صراخ حاد .. فتوقف .. ولكنه لم يسمع حركة .. كل شىء هادىء .. وعاود الزحف .. إلى أن عبر الأسلاك .

والتقط حقيبة الموت وعلقها فى كتفه .. وأخذ يتحرك على يديه

وقدميه بسرعة متسترا فى ظلال الدبابات وعربات اللورى .. إنه يريد أن يبدأ من منتصف المعسكر .. ورفع عينيه ..وركزهما فوق دبابة صغيرة .. وقال لنفسه : هذه !

ثم أسرع إليها ..

وفتح حقيبة الموت ، وأخرج حزمة من حزم الجلجنايت ، ووضعها تحت الدبابة .. ثم اخرج من جيبه ولاعة . ومد يده تحت الدبابة وأشعل الفتيل .. ثم قام على قدميه .. وأخذ يجرى بكل سرعة .. متسترا دائما بظلال الدبابات والسيارات الواقفة ..

ولم يكد يجرى خطوات ، حتى انطلق من ورائه صوت مفزع يمزق الهواء .. صوت رهيب .. ضخم .. مخيف ..

وأحس بنفسه كأنه يكاد يطير فى الهواء .. وبذل مجهودا ليثبت قدميه على الأرض ..

وفجأة أضيئت الأنوار .. أنوار قوية كاشفة ..

وارتمى على الأرض .. وزحف تحت سيارة من سيارات اللورى.. واخرج حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. وأشعل الفتيل.. ثم زحف سريعا بعيدا عن السيارة ..

وانطلق صوت آخر .. مزعج .. مدو .. مخيف .. يمزق الهواء .. وأحس أن جسده كله يتمزق ..

وأحاطت به الأضواء ..

أضواء ساطعة تنبعث من مصابيح كاشفة ، تدر فى أنحاء المعسكر ، كأنها الكلاب المسعورة .

وأضواء نيران تنبعث من خلفه ..

اطفئوا هذه الأضواء ..

اطفئوا النور يا كلاب ..

دعونى اتم خطتى ..

يا رب اطفيء هذه الأنوار ..

وسمع صوت طلقات الرصاص .. من كل ناحية !

وجرى .. لا يدرى إلى أين .. لم يعد يستطيع أن يحدد هدفه .. وأشعل حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. وألقاها بعيدا .. بكل

قـوة ذراعه .. لا يدرى أين وقــعت .. وانطلق الصــوت المفزع مــرة ثانية .. مدويا .. مـخيفا .. وكشف عن أسنانه ، وهو يجـز عليها .. كأنه يبتسم ..

وجرى ..

والأضـواء تتعقبه ..

والرصاص ينطلق من كل اتجاه ..

وأصوات أناس يصرخون .. وهرج كبير ..

وهو يجرى وينبطح أحـيانا على وجهـه .. ويزحف على بطنه .. ويقفز على يديه وقدميه ..

لا تزال معه حزامة أخرى من الجلجنايت ..

وأشعـل الفتيـل .. وألقى الحزمـة خلال نافذة بـيت صـغيـر من الصاج ، وجـده أمامــه .. قد يكون مخـزنا .. أو ثكنة .. لا يدرى .. ألقاها والسلام..

وجرى ..

وانطلق الصوت المفزع الرهيب ..

والأضواء ..والرصاص .. والهرج ..

ونام على بطنه ، وأخرج من حقيـبته ثلاث قنابل يدوية .. وضـع قنبلة منها فى جـيب بنطلونه .. وثانية فى الجيب الآخـر .. والثالثة احتفظ بها فى يـده .. وألقى بالحقيبة الفارغة بعـيدا ثم أخذ يزحف على بطنه ..

ثم قام يجرى ليختبىء خلف دبابة ..

وأنفاسه تلهث ..

وســيل من العرق يغطى وجـهه وقـد استــحال إلى إنســان من التراب ، من طول مازحف على الأرض ..

إنه يريد أن يخرج من هنا ..

لن يدعهم يقتلونه ..

سيقتلهم جميعا ..

أين سور الأسلاك الشائكة ؟!

وعـاد يجرى . نحـو السور الـشائك .. والرصــاص يلاحقــه ..

والتصق بالأرض وزحف على بطنه تحت الأسلاك .. واشتبكت الأشواك الحديدية بلحمه . وأحس بآلام حادة .. سكاكين تشق ظهره.. ولكن لا يهم .. يجب أن يخرج من هنا ..

وشد لحم ظهره من بين أسنان الزشواك الحديدية .. وتأوه .. تأوّه كأنه يلفظ روحه .. واستمر يزحف .. حتى اجتاز السلك الشائك .. وقام يجرى .. ولم يكد يجرى خطوات حتى أحس بجسم صلب يرتطم فى كتفه ، وينغرز فى لحمه .. وأحس بسائل حار يسيل منه .. لعلها رصاصة .. لا يهم .. وظل يجرى .. باحثا عن الظلام .. ولكن الظلام يتبدد .. والأضواء تغمر كل مكان كأنها سيل ينهمر من السماء .. ورفع يده التى تحمل القنبلة اليدوية .. ولكنه مالبث أن خفضها ، وهو يتأوه إنه لا يستطيع أن يرفع ذراعه كأنه شل ..

ونقل القنبلة إلى يده اليسرى ، وشد مفتاحها بأسنانه ، وقذف بها بكل ما فيه من قوة ، ولا يدرى أين وقعت .. ثم غيّر اتجاهه بسرعة .. وأخذ يجرى فى اتجاه آخر .. ليضلل متعقبيه الذين يجرون خلفه .. أنهم سيتجهون إلى حيث وقعت القنبلة ، وهو يجرى فى اتجاه آخر ..

وأخذ يجرى مستترا فى كل ما يجده فى طريقه .. وينبطح على الأرض ريثما يلتقط أنفاسه .

وهو يحس بقواه تنزف منه .. يحس بصدره يطبق فوق رئتيه ، كأنهما سيكفان عن الحركة .

والأضواء تتعقبه .. والنيران .. وطلقات الرصاص .. سيارات تتحرك بسرعة .. وصوت صفارات تنطلق وتكاد تمزق أذنيه .. ونباح كلاب .. إنه يكره الكلاب . يارب .. لماذا خلقت الكلاب . ألا يكفى الانجليز ..وآلام .. آلام حادة فى كتفه .. وفى ظهره .. وفى ركبتيه ..

ورفع يده بالقنبلة الأخرى ، وشد مفتاحها بأسنانه ، واستدار وألقاها .. بكل ما بقى فيه من قوة .. ثم غير اتجاهه مرة أخرى .

إنه لم يعد يدرى أين هو من المعسكر ..

لقد كانت خطته تقضى بأن يخرج عن طريق الجبل ، ويصل إلى القاهر. من ناحية حى الدراسة .

ولكن أين الطريق المؤدى إلى الجبل ..

إنه لم يعد يدرى .. لم يعد يعرف أين الشمال ، وأين اليمين ، وأين الشرق ، وأين الغرب .. تاه داخل المعسكر ..

ولم تعد معه إلا قنبلة واحدة ..

والكلاب تنبح من ورائه ..

إنه يكره الكلاب .. ويخافها .. نعم إنه يخاف .. يخاف الموت .. لا يريد أن يكوت .. لن يموت ..

ورفع القنبلة وألقاها بيده اليسرى !

لعل رائحة الدخان المنبعث من القنبلة ، تضلل أنوف الكلاب ..

وغير اتجاهه ..

وأخرج المسدس الكبير من عبه ، وامسك به فى يده ..

ولكنه لم يعد يستطيع أن يجرى ..

يريد أن يقف ..

ولكنه لا يستطيع .. إنه يجرى بقوة الاندفاع .. ورأسه مدلاة على صدره .. وجسده يترنح .. وقطرات من دمه تتعقبه !

ورفع عينيه المكدودتين ، ونظر بهما أمامه كأنه ينظر من خلال غيوم كثيفة .. هذا هو سور المعسكر.. إنه يعرف هذه الناحية من السور.. إنها الناحية التى تطل على ميدان العباسية .. والسور يلف إلى أن يطل على حارة صغيرة متفرعة من شارع العباسية .. إنه يعرف كل هذا جيدا .. ولو استطاع أن يجتاز السور من ناحية الحارة . لسلم .. نجا من الموت ..

ولف من وراء أكشاش « النافى » التى تقع فى أسفل سور المعسكر .. ورأى شبحا يسير أمامه ... فأطلق رصاصتين من مسدسه .. ولا يدرى ماذا جرى للشبح .. ووصل إلى السور المطل على الحارة .. إنه عال .. ومصنوع من الصاج .. ولن يستطيع أن يجتازه .. وفكر .. إن كل شىء فيه هامد إلا عقله ، ويحث حوله بعينيه الغائمتين .. ثم التقط من على الأرض لوحا قصيرا من

الخشب ، ورفعه بصعوبة وأسنده على السور .. وأعاد وضع مسدسه فى عبه .. ثم وضع قدمه على لوح الخشب ، ورفع جسده، وتعلق بيديه فى أعلى السور .. آه .. إنه يتألم .. شىء آخر يتمزق فى جسده .. إن حافة السور ذات أسنان .. وقد انغرزت الأسنان الصلبة فى كلتا يديه .. ولكن لا يهم .. هذا آخر ما يتحمله.. وبعد ذلك سيهدأ .. سيستريح ..

وشد جسده إلى أعلى .. وهو يتأوه .. إنه لا يتأوه فحسب .. إنه يبكى .. إن يديه تتمزقان ..

ووصل إلى حافة السور .

ثم ألقى بنفسه إلى الناحية الأخرى ..

أصبح خارج المعسكر ..

وقام متعثرا ..

يجب أن يبتعد من هنا سريعا..

وبدأ يجرى فى خطوات ثقيلة ، مترنحة كأنه مخمور ..

وسمع صوت صفارة حادة تنطلق من خلفه ..

ما هذا ؟!

إنه البوليس المصرى ..

يا مغفلين . ابتعدوا عنى .. لقد فعلت كل هذا من أجلكم من أجل مصر .. لقد أثرت الرعب فى قلوب أعدائكم .. سيرحلون عنكم .. صدقونى .. سيرحلون عنكم .. ستثورون كلكم مثلى لتطردوهم ..

ولكنهم لا يبتعدون ..

والأقدام الثقيلة تقترب منه ..

وأخرج مسدسه من عبه .. سيقتلهم .. لا .. إنه لا يستطيع .. لا يستطيع أن يقتل مصريا لا ذنب له .. إنهم يؤدون ما يخيل إليهم أنه واجب .. وطول حياته لم يستطع أن يقتل واحدا منهم .. وقد قبضوا عليه مرة لأنه رفض أن يقتل الجندى الذى يتعقبه .

ولكنه لم يعد يستطيع أن يجرى ..

يريد أن يستريح ..

يريد أن ينام ..

لعله لو قتل هذ الذى يتعقبه . . لاستطاع أن ينام ..

والتفت خلفه ، وهو لا يزال يجرى متعثرا .. ومسدسه فى يده..

ورأى من خلال عينيه الغائمتين ضابط بوليس ..

يا أخى .. دعنى .. إننى ثائر لأجلك .. ولو بحثت فى قلبك ، لوجدت ثورتى .. إنها ثورتك ..

ولكن هذا الضابط لن يفهم ..

وهو يريد أن يستريح .. يريد أن ينام ..

ووجه إليه مسدسه .. ليقتله .. ولكن أصبعه تجمد فوق الزناد ..
لم يستطع أن يضغط عليه .. شىء فى نفسه يرفض أن يقتل مصريا لا ذنب له .. شىء أقوى منه .. وأقوى من سلامته .. وأقوى من حياته ..

ولمح الضابط فوهة المسدس الموجهة إليه .. فأسرع وأطلق مسدسه .. وسقط إبراهيم على الأرض ،،

منكفئا على وجهه ..

وتحسس الأرض بيديه ..

وابتسم ..

إنه الآن يستطيع أن يستريح ..

واغمض عينيه ..

كأنه نام ..

٣٢

الساعة السادسة صباحا.. واليوم يوم وقفة العيد!

واستيقظت العائلة وكل فرد فيها مقبوض الصدر.. لقد مضت أيام طويلة وصدورهم مقبوضة، وانقبضت معها الشفاه، فلم تعد تبتسم.. وانقبضت العقول، فخبا ذكاؤها.. وانقبضت النظرات بين جفونهم، فلم يعد فيها نشاط ولا مرح.

ونزلت نوال من فوق فراشها، وخرجت من غرفتها تبحث عن جريدة الأهرام تحت عقب الباب.. لقد اصبحت الجريدة تأتى إلى البيت كل صباح.. لم يعد أحد يستطيع أن ينتظر عودة الأب من عمله ليطلع على الأخبار، ولم يعد الأب نفسه يستطيع أن يخرج من البيت قبل أن يقرأ الجريدة ويطمئن!

والتقت نوال فى طريقها بأمها، وهى تسير متثاقلة نحو الحمام، كأن خطواتها تأوهات من ألم.

وقالت فى صوت حزين وهى تحاول أن تبتسم:

ـ صباح الخير يا ماما.. كل سنة وانتى طيبة!

ثم امسكت يد امها، وانحنت تقبلها ثم رفعت وجهها تحاول أن تقبل وجنتيها فأشاحت عنها أمها برأسها، وهى تقول:

ـ هوه فيه طيب يا بنتى طول ما اخوكى فى السجن!

وقالت نوال بصوتها الحزين:

ـ بكره يرجع بالسلامة يا ماما.. وكل حاجة تروح لحالها.

وقالت الأم وهى تنقل قدميها نحو الحمام كأنها تسير فوق مسامير:

ـ والله يا بنتى متهيأ لى انى حاموت قبل ما اشوفه تانى..

وقالت نوال:

ـ ما تقوليش كده يا ماما.. ربنا معانا.

ولم ترد الأم، إنما تنهدت كأنها تصعد بقلبها إلى الله.

وخرجت نوال إلى «الصالة»، وانحنت تلتقط الجريدة من تحت عقب الباب، وفجأة ارتدت عنها قبل ان تلمسها، وقد اتسعت عيناها وارتسم فيها الذعر.. واستندت إلى الحائط، وهى لا تزال تنظر إلى الجريدة كأنها تنظر إلى افعى تسعى تحت قدميها. ثم انطلق منها صرخة، صرخة حادة هالعة، وحاولت أن تكتم صرختها، ووضعت يدها فوق شفتيها، وهى لا تزال تنظر إلى الجريدة الملقاة على الأرض بعينين ازدادتا اتساعا.. ثم لم تستطع، انطلقت منها صرخة ثانية أحد من الأولى، ثم صرخة ثالثة، ثم توالى الصراخ، وأخذت تشد ضفائرها بكلتا يديها.. وتدق بقدميها، كأنها جنت..

وجاءت أختها سامية مهرولة وهى فى قميص النوم.. وجاء وراءها أبوها وهو يخب فى جلبابه، وقد سقطت طاقيته فوق رأسه حتى لامست حاجبيه وسقطت نظارته فوق ارنبه انفه حتى كادت تقع على شفتيه، وقال فى لهفة مبهور الأنفاس:

ـ ايه .. فيه ايه .. حصل ايه ؟!

واحتضنت سامية أختها نوال، وهى تقول:

ـ مالك يا نوال.. بتصرخى ليه؟!

وكفت نوال عن الصراخ.. وعيناها لا تزالان مذعورتين.. وجسدها كله يرتعش.. واشارت لهما باصابعها إلى الجريدة الملقاة على الأرض.. إلى الأفعى التى تسعى تحت قدميها..

والتفتا إلى حيث أشارت.. وقرآ حروفا كبيره حمراء كأنها ألسنة من نار:

«مصرع ابراهيم حمدى فى معركة مع البوليس»!!

ورفعت سامية رأسها.. ونظرت إلى اختها وشفتاها ترتعشان كأن كأن الكلمات اثقل منهما.. ثم ارتمت فى أحضانها.

وبكت الأختان..

وانحنى الأب والتقط الجريدة بيد مرتعشة، ثم ثبت نظارته فوق عينيه وأخذ يقرأ:

«روع سكان حى العباسية، فى سعاة متأخرة من مساء أمس بأصوات انفجارات شديدة صادرة من داخل المعسكر الانجليزى، وتبين أن بعض الشبان قد استطاعوا التسلل إلى داخل المعسكر، ولم تعرف دوافعهم بعد.. وقد اتصل مأمور قسم الوايلى بحكمدارية العاصمة، فارسلت قوات من البوليس حاصرت المعسكر، فى انتظار خروج المتسللين، ودارت معركة بين هؤلاء المتسللين وبين البوليس، وتبادل الطرفان اطلاق النار، وسقط أحد الشبان قتيلا.. وقد تبين أن هذا الشاب هو ابراهيم حمدى المتهم بقتل المغفور له عبدالرحيم باشا شكرى، والذى استطاع أن يهرب من سجنه منذ عدة أسابيع.. هذا، وقد أصدرت وزارة الداخلية البيان الرسمى التالى..»

وطوى الأب الجريدة كأنه يمزقها.. وتقلص وجهه كأنه يعانى ألما حادا.. ثم انتبه إلى نفسه، وقال لأبنتيه فى صوت محشرج مخضل بدموع تنزف فى صدره ولا تطل من عينيه:

ـ مش عايز حد يسمع صوتكم.. فاهمين.. مش عايز حد يسمع صوتكم أنا بأقول لكم أهو!!

وجاءت الأم فى خطواتها المتأوهة، وانفاسها اللاهثة.. وقالت وهى تنظر إلى الجميع نظرات متشائمة:

ـ جرى ايه عالصبح، كفى الله الشر.. ما هى أصل المصايب عرفت طريق البيت خلاص..

ولم يرد عليها أحد..

وعاد الأب إلى حجرته والجريدة فى يده، وهو يخب فى جلبابه كأنه يحاول أن يشقه بساقيه.. ويردد فى سخط:

ـ لا حول الله يارب.. لا حول الله..

وأحاطت سامية أختها نوال بذراعها، وشدتها إلى غرفتها، وكلتاهما تنشجان ودموعهما تفيض من عيونهما..

وقالت الأم كأنها غضبت:

ـ مش تقولوا لى حصل أيه.. ولا مش حاسبينى واحدة فى البيت؟!

وارتفع نشيج نوال..

وردت عليها سامية من بين دموعها:

ـ بابا حايقول لحضرتك..

وأستدارت الأم، وقد نسيت بعض آلامها، وبدت فى لهفتها على معرفة الخبر، أكثر نشاطا، ولحقت بزوجها قائلة:

أيه يا زاهر.. حصل ايه.. يا خويا طمنى..

ونزع الأب نظارته من فوق عينيه، ثم رفع طرف جلبابه واخذ يمسح به زجاج النظارة وكأنه يمسح الدموع من فوق عينيه.. وقال فى تأثر:

ـ ابراهيم..

وقالت الأم متطلعة:

ـ ماله..

وقال الأب وتأثره يمذق كلماته:

ـ ما...ت!!

وخبطت الأم على صدرها وقالت فى ألم كأن شيئا تمزق فيها:

ـ كبدى يا ابنى.. مات ازاى!

وقال الأب وهو يهم بالجلوس على الأريكة الاستامبوللى:

ـ قتلوه.. البوليس قتله!

وارتفع حاجبا الأم فوق عينيها، وقالت فى سذاجة:

ـ قتلوه.. وهم الناس بيتقتلوا كده بالساهل!

ولم يرد الأب..

وعادت الأم تقول.. وقد اشتد فزعها:

ـ ومحيى.. عملوا ايه فى محيى؟

ورفع الأب وجه إليها كأنه يستنكر هذا التفكير.. وقال:

ـ محيى مسألته حاجة تانية.. مالوش دعوة بابراهيم!

وقالت الأم وقد بدأت تنهار:

ـ هوه مش فى السجن؟!
وقال الأب متبرما:
ـ أيوه..
قالت:
ـ ما هو اللى قتل ابراهيم، يقدر يقتل محيى كمان.. بكره حايقتلوه.. حايقتلوا ابنى
ثم وقعت فوق الأريكة بجانب زوجها ، وانخرطت في البكاء .. وجسدها المكتنز يرتعش كأنه يمزق نفسه..
وقال الأب وهو يزفر كأنه لم يعد يحتمل مزيدا من الهم..
ـ يا ستى ابراهيم انقتل فى معركة مع البوليس.. كان هاجم على معسكر انجليزى.. إنما محيى لا بيعمل معارك ولا بيهاجم معسكرات..
وخفت دموع الأم.. وكف جسدها عن الارتعاش.. ثم سكتت برهة وهى تفكر.. ثم قالت فى صوت متردد كأنها تخشى أن تفصح عن أفكارها:
ـ هم مش ماسكين محيىٰ علشان خاطر يلاقوا ابراهيم؟!
وقال الأب وهو ينظر إليها كأنه يبحث وراء عينيها:
ـ أيوه..
قالت كأنها تتخلص من أفكارها:
ـ أهم خلاص.. لقوا ابراهيم!
ونظر إليها الأب فى تعجب قائلا:
ـ قصدك ايه؟
وقالت الأم وهى تدير عينيها عنه:
ـ يوه.. انا عارفة بأه .. إنما مادام لقوا ابراهيم، حيفضلوا ماسكين محيى ليه؟!
وقال الأب وهو يفتح صفحات الجريدة ويخفى وجهه فيها كأنه يخجل من أفكار زوجته:
ـ والله يا ستى لو كان خروج محيى متوقف على موت ابراهيم، كان بلاش يخرج احسن.. كان أهون يفضل طول عمره فى السجن.

وسكت الأب، وأحس بالعجب من نفسه.. أحس كأنه اكتشف انسانا جديدا فى داخله.. أحس أنه يؤمن فعلا بهذا الكلام الذى يقوله. إنه يرضى فعلا بأن يبقى ابنه فى السجن، لو كان بقاؤه ثمنا لحياة ابراهيم.. هذا عجيب، هل يعقل ان يضحى بابنه إلى هذا الحد؟! ولكنه يحس بأن تضحيته بابراهيم ليس أقل من تضحيته بابنه.. يحس أن ابراهيم ليس مجرد شاب وطنى آواه يوما فى بيته، يحس كأن له شيئا فى ابراهيم، كأنه اشترك فى صنعه، فى صنع بطولته، وفى صنع وطنيته، وفى صنع مغامراته، ويحس الآن انه فقد شيئا يملكه، يملكه مع غيره، على الشيوع!!

وهو يريد أن يبكى، يريد أن يصرخ، أن يضرب، أن يثور لدم الشهيد الذى اشترك فى صنع بطولته.

يريد أن يقف بين الناس ويحدثهم عن ابراهيم.. يروى لهم قصته.. قصة وطنيته، وقصة البوليس الذى كان يطارده.. ويقول لهم أيها الناس لقد ضحى ابن لكم بروحه فى سبيلكم.. فى سبيل تحريركم.. ليطرد الانجليز.. ويطرد الفساد.. ويعيد اليكم كرامتكم وعزتكم..

ولكنه لن يفعل..

إنه لن يصرخ، ولن يضرب، ولن يثور.. غاية ما يستطيعه هو أن يبكى فى صمت، بعيدا عن الناس.. ورغم ذلك فإن شيئا يمنعه من البكاء.. إنه يحس كأنه أصبح أقوى من البكاء.

لماذا لا يثور؟

إنه ثائر فعلا..

ولكن دوره فى الثورة يختلف عن دور الآخرين.. وعندما يدعى للقيام بدوره قد يتردد قليلا، ولكنه لا يهرب.. ولا يخون الثورة، وقد دعى للثورة يوم طرق ابراهيم بابه، فلبى.. وفتح بابه على مصراعيه..

وأحس بنفسه خلال هذا التفكير، كأنه واقف بين ناس كثيرين.. وأن حالته ليست حالة فردية، إنما هى حالة كل هؤلاء الناس.. حالة ملايين الناس يصنعون الثورات، ويصنعون الأبطال.. ويحث عن

ابنه محيى بين هذه الملايين فرآه بخياله.. رآه خلف القضبان.. وابتسم له.. انه هو الآخرى يقوم بدوره فى صناعة الثورة وصناعة الأبطال.. ولأول مرة يبتسم فى داخلية نفسه، وهو يرى ابنه خلف القضبان..

ماذا تفعل الآن هذه الملايين؟!

ماذا تفعل بعد موت ابراهيم؟!

إنها لا تيأس.. ولا تبكى.. ولا تستكين.. إنها تنشط لتصنع بطلا آخر.. إن العيون تتقد.. والهمسات تعلو لتصبح صراخا.. والأحداث تترى بسرعة، وكل حدث يصنع بطلا.. ابطال كثيرون.. يتمون رسالة الشهيد ويتقدمون صفوف الثورة..

هذا ما يجب أن يحدث..

وسيحدث..

سننتقم.. سنثور.. سنتحرر من الظلم.. ويخرج محيى من السجن..

وأحس بالدماء تتدفق فى عروقه بقوة وعنف، كأنه استعاد شبابه.. استعاد شبابا غاضبا، ساخطا، يطالب بالثورة.. وتقلصت تعابير وجهه، كأن فى صدره مظاهرة يطاردها البوليس!!

وأفاق من احساسه على صوت نشيج زوجته وقد بدأ يرتفع من جديد، فأبعد الجريدة ـ التى لم يكن يقرأ فيها شيئا ـ عن وجهه، وقال وهو ينظر إليها فى حنان:

ـ جرى اية يا تحية.. ما كنا سكتنا!

وقالت زوجته وهى تنشج:

ـ مش قادره يا زاهر.. كل ما أتصور ابراهيم مقتول، يتهيأ لى أن محيى مقتول جنبه!

وقال الأب وقد غاص قلبه فى صدره:

ـ يا شيخه بلاش الكلام ده.. فال الله ولا فالك.. قومى يالله شوفى حناخد ايه بكره لمحيى.. دى أول مرة حازوره فيها.. ولازم كمان آخد له معايا شوية كحك.. و..

وقاطعته الأم:

ـ انا حالفة الكحك ما يدخلش البيت طول ما ابنى مرمى الرمية دى..

وقال الأب وهو يحاول أن يبتسم:

ـ يا ستى ما حدش عايز ياكل كحك.. إنما لازم آخد له شوية يستبشر بيهم ويخفف بيهم عن نفسه..

وسكتت الأم.. وتركت دموعها تنهمر فوق وجنتيها..

وسكت الأب.. وحاول أن يعود إلى احساسه الثورى.. ولكنه وجد قلبه لا يزال غائصا بين رئتيه.. ووجد لهفته على ابنه تعصف به.. انه يريده سالما.. يريده أن يعود إلى جانبه.. وأن يحقق حلمه فيه.. وأن يتم الثوب الذى كان ينسجه له.. ثوب المستقبل الذى نسج كل خيط فيه بعرقه، وحرصه، وتقتيره، وتزمته..

وهب واقفا كأنه يهرب من لهفته..

وخرج متجها إلى الحمام.. وتوقف قليلا عندما مر بباب غرفة ابنتيه.. وتسمع إلى صوت نشيجهما.. وحاول أن يدخل إليهما ينهرهما.. أو.. ليخفف عنهما.. ولكنه عدل.. ودخل الحمام، وصفق الباب وراءه فى عنف، كأنه يصفقه فى وجه أعداء كثيرين يلاحقونه فى بيته..

كانت نوال قد انكفأت على وجهها فوق فراشها.. تبكى.. كأنها تقطر روحها فى دموع.. وضفيرتاها ملتفتان حول عنقها كأنها تحاول أن تخنق نفسها بهما.. وكان البكاء يعصف بها احيانا فيضيق صدرها، وتلقف انفاسها من الوراء، وتضرب بيديها وقدميها فوق الفراش كأنها تفر من الموت.. وأختها بجانبها تشاركها دموعها، وتحاول أن تخفف عنها، ثم لا تجد ما تخفف به عنها إلا أن تشاركها مزيدا من الدموع..

وسكتت نوال عن البكاء فجأة..

واستدارت على ظهرها وأخذت تتطلع إلى السقف بعينين مفتوحتين لا تريان شيئا.. وقد امتقع وجهها حتى بدت بشرتها السمراء فى لون الليمون الأخضر.. وظلت ساهمة طويلا.. وأختها بجانبها عاجزة عن أن تجد شيئا تقوله، إنما ترقبها فى نظرات حانية مشفقة..

وفجـأة أيضا ـ وفى حـركة آليـة ـ أعتـدلت نوال جالسـة فوق الفراش وقالت فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسها:

ـ لازم أروح له..

وقالت سامية فى دهشة:

ـ تروحى لمين؟

قالت نوال وهى لا تزال ساهمة تنظر بعينين لا تريان شيئا:

ـ لابراهيم.. النهـاردة الاتنين، وحايسـتنانى السـاعة حـداشر..

وقالت سامية فى لوعة على أختها:

ـ نوال.. فوقى لنفسك يا حبيبتى.. ما تعمليش فى نفسك كده!

ونظرت إليها نوال وبين شفتيها ابتسامة بلهاء كأنها مجنونة:

ـ أظن صدقتى كلام الجـرايد.. بأه يقدر يقتل ابراهيم.. ده يقتل الف.. تعرفى هو راح فين؟

ومدت ساميـة ذراعها وأحاطت خصر أختـها، وقالت وقد ازداد صوتها لوعة:

ـ فين؟!

وأتسعت عينا نوال، وانبثق منهما بريق غريب، وقالت:

ـ راح يطلع محيى من السـجن.. هوه قال لى كده.. أصلى كنت مخبـية عليكى يا عبيطـة.. وكنت باقابله من وراكى.. كل يوم اتنين، وكل يوم اربع.. واخر مرة قال لى انه حيطلع محيى من السجن..

وكـادت سامـية تعـود إلى البكاء شفـقـة على أختـها.. ولكنهـا تحاملت على نفسها وقـررت أن تتخذ موقفا حازما فزمت شـفتيها، وأمسكت أختها مـن كتفـيها بكلتـا يديها، وأخـذت تهز برفق وهى تقول:

ـ نوال.. بلاش كـلام مـجانين.. الـلى حصل خـلاص حـصل.. انتبهى لنفسك وخليكى عاقلة..

وشدت نوال نفسـها من بين يدى أختها وقالت فى حدة:

ـ سيبينى.. لازم أقوم البس.. أحسن أتأخر!

وقفزت من فوق الفراش، واتجهت إلى دولابها وفتحته، وقامت أختها، ووقفت خلفها، وقالت فى رفق:

ـ بلاش فضايح يا نوال، مش كفاية الهم اللى احنا فيه.. انتى عايزة بابا يجرا له حاجة..

وقالت نوال، وقد أشتدت حدتها:

ـ بابا مش حايقدر يمنعنى.. لو حد منعنى من الخروج، حارمى نفسى من الشباك..

وعادت سامية تقول:

ـ نوال.. ما تخلنيش أتجنن.. و..

وقاطعتها نوال وقد ارتفعت الابتسامة البلهاء مرة ثانية إلى شفتيها:

ـ انتى مش مصدقانى .. طب بصى..

وفتحت المصحف الذهبى الصغير المعلق فى رقبتها، وأخرجت الورقة الصغيرة التى كتب عليها ابراهيم بخط يده شهادة «لا إله إلا الله»، وقالت، والضوء الغريب ينبثق من العينين الواسعتين:

ـ شوفى.. دى ورقة كتبتها أنا وابراهيم قبل ما يسيب بيتنا زى الورقة اللى بيكتبها بابا مع ماما لما بيجى يسافر.. مش كده؟!

ونظرت سامية إليها فى حيرة ولوعة..

وعادت نوال تطوى الورقة وتضعها داخل المصحف الذهبى الصغير.. وعادت دموعها تنهمر هادئة فوق وجنتيها، ثم جلست على الأرض مستندة إلى الدولاب.. واسقطت رأسها بين يديها، وأخذت تبكى بكاء هادئا..

وكانت نوال تعلم أنها مدفوعة إلى هذا الكلام بقوى أقوى منها.. وكان جزء من عقلها يعى أن كلامها ما هو إلا نوبة عصبية تجتازها.. كانت تحس كأن فى داخلها فتاتين.. فتاة تعلم أن ابراهيم قد قتل.. مات.. وماتت معه احلامها.. وفتاة أخرى ترفض أن تصدق أنه مات.. وتؤكد أنه لا يزال حيا.. وفتاة أخرى ترفض أن تصدق أنه مات.. وتؤكد أنه لا يزال حيا.. وأنه ينتظرها فى موعده.. فى ميدان «فنى» بجوار مستشفى عانوس.. وكلا الفتاتين لا تستطيع أن تقاوم.. والثانية مجنونه!

وربطت الدموع من الأعصاب الثائرة.. واستطاعت الفتاة الحزينة المنهكة أن تتماسك، وقالت لأختها فى توسل:
ـ سامية.. انا لازم اخرج.. انا عارفة انه مات.. إنما ما عرفش تربته فين علشان أزوره فيها.. ونفسى أروح ازوره فى الحتة اللى كان مواعدنى فيها.
واطمأنت سامية إلى هدوء أختها، وجلست بجانبها على الأرض، والتصقت بها كأنها تحميها من نفسها، وقالت وهى تحاول أن ترفع صوتها حتى تبدد سحب الحزن التى تتجمع فوق رأسيهما:
ـ إنما مش ممكن اسيبك تخرجى لوحدك، وانتى فى الحالة دى.
وقالت نوال وهى تتنهد، دون أن تلتفت إليها:
ـ تعالى معايا..
وسكتت سامية قليلا، ثم عادت تقول:
ـ بس حانخرج إزاى.. حانقول ايه؟!
وقالت نوال وهى ساهمة:
ـ ما اعرفش.. انا تعبانة يا سامية.. فكرى انتى!
وبدا على سامية كأنها تلقت مهمة خطيرة، وقالت وقد قطبت ما بين حاجبيها:
ـ بس لو كان بابا يخرج!
ولم ترد نوال..
ظلت صامتة طويلا.. وسامية لا تزال تفكر فى حجة تخرج بها هى وأختها..
ثم قالت نوال كأنها تحادث نفسها:
ـ أنا متهيأ لى أنى مش حاقدر أعيش من غيره.. انا ماكنتش عايشة إلا علشانه.. كنا بأعد الايام لغاية ما يرجع بالسلامة.. كان قلبى بيقول لى انه مش ممكن يجرا له حاجة.. أتارى قلبى كان بيكدب على..
وقالت سامية وقد عاد قلبها يخفق لوعة على أختها:
ـ أحنا حانرجع للكلام ده تانى.. يعنى حانعمل ايه فى قسمة ربنا.. قسمتك وقسمتى..

وقالت نوال كأنها تحلم:

ـ حاقدر أعيش بعد كده، وحاعيش لمين؟

وقالت سامية كأنها تحاول أن تلهى أختها:

ـ هس.. اسكتى.. متهيأ لى أنى سامعة صوت دولاب بابا وهو بيفتح.

وقامت سامية وخرجت من الغرفة متجهة إلى غرفة أبيها..

وكان الأب يلبس ثيابه فعلا، وكان خارجا ليشترى بعض الكعك، وبعض الهدايا والثياب التى سيحملها لأبنه غدا..

وانتظرته سامية إلى أن خرج، وأطمأنت إلى انه اغلق الباب وراءه ثم عادت مسرعة، وقالت لأختها، وقد ضاع حزنها فى لهفة المغامرة:

ـ خلاص بابا نزل.. دلوقت نقول لماما ايه؟!

وسكتت قليلا، وهى تضع أصبعها فوق رأسها فى حركة مثيرة للضحك ثم قالت:

ـ فكرة.. نقول لها اننا رايحين لوفاء علشان نسمع أخبار ابن خالتها.. الضابط اللى وعدنا يطمنا على محيى وعبدالحميد..

واقتنعت الأم بسهولة.. كان يكفى أن تعلم أن ابنتيها خارجتان بحثا عن أخبار محيى وعبدالحميد، لتسمح لهما بالخروج.

وركبتا الأوتوبيس..

وسامية تتلفت حولها فى وجل كأن الناس يعلمون سرها.. وكأن العيون التى ترتفع إليها توجه إليها اتهاما..

ونوال ساهمة لا ترى شيئا.. لا ترى الناس ولا الشوارع. رأسها كله مزدحم بخيال ابراهيم.. وعيناها لا تريان إلا ابراهيم. عندما فتحت له الباب وهو مرتد القميص والبنطلون وفى عينيه قوة مهذبة يشق بها طريقه إلى قلبها.. وتراه وهو فى جلباب والدها، الذى كان ينام به.. وتراه وهو مرتد بدلة ضابط يوم خرج من البيت.. وتراه وهو يعتلى السلم الخشبى ليختبئ فى السندرة.. تراه مبتسما.. لقد كانت ابتسامته دائما ضيقة خجولة.. لم تسمعه ابدا يقهقه.. وترى عينيه وهو يحاول أن يخفيهما عنها، إلى أن

واجهها بهما وفيهما إعلان لحبه وحبها.. وترى انفه الكبير.. رأس السهم الموجه إلى اعدائه.. وابتسمت فى مرارة وهى تتذكر أنفه.. كم ليلة قضتها وهى تقيس بخيالها هذا الأنف وتبتسم له.. كيف استطاع ابراهيم أن يكون جميلا وهو بهذا الانف الكبير.. وتمادت فى خيالها حتى تجسد أمامها.. حتى أحست بابراهيم بجانبها.. أحست بأنفاسه.. وسمعت صوت دقات قلبه.. وكادت تلمسه بيده.. وبدأت الفتاة الأخرى تستيقظ فى صدرها.. الفتاة المجنونة التى لا تريد أن تصدق أن ابراهيم قد مات!!

ونزلت الأختان من الأوتوبيس..

وسامية تسير وهى تتلفت حولها، كأنها تقول برأسها «لا» «لا».. لتنفى الشبهات من عقول الناس.. وتتأخر عن أختها خطوات، ثم تسرع وتلحق بها.. ورأسها لا يزال يتلفت ويقول : «لا».. «لا»..

ونوال تسير وهى لا تزال ساهمة، غارقة فى خيالها.. وكلما اقتربت من مكان اللقاء، أحست انها مقبلة على بيت تعرفه كيدا.. بيت من نور.. بيتها هى وابراهيم.. البيت الذى عاشت فيه بخيالها طويلا.. ورأت نفسها فيه وهى تودع ابراهيم كل صباح، وتستقبله عندما يعود من عمله.. لقد حددت موعد عودته بالضبط.. الساعة الثانية والنصف.. إن والدها يعود فى الساعة الثانية، ولكن ابراهيم يعمل اكثر منه، ويتأخر عنه نصف ساعة.. وهى تقف معه ريثما يخلع ثيابه ويرتدى جلبابه.. إنه لا يرتدى «بيجاما» ابدا.. إنها تحبه مرتديا جلبابا.. وتصحبه إلى مائدة الطعام.. لقد أعدت كل شئ بيديها.. وهى تعرف كل ما يحبه.. المصقعة.. والمكرونة المقصوصة.. ولكنه يأكل وهو سرحان.. انه ينسى أن يهنئها على مهارتها.. انه مشغول دائما بشئ فى رأسه.. حتى عندما يجلسان سويا فى الشرفة ساعة العصر، ينسى أن ينهرها على قزقزة اللب.. إنها تعلم أنه لا يحب منها أن تقزقز اللب.. ولكنها تفعل ذلك لتثيره لتلفت نظره.. ولكنه ينسى.. انه سرحان دائما.. ودائما مشغول.. لقد أحبت رجلا مشغولا.. يحمل عبء البلد كله فى رأسه..

وسارت كأنها تسبح فى خيالها..

وافاقت على صوت أختها تسألها:

- احنا لسه حانمشى كتير؟!

ورفعت عينين غائمتين ، كأنها لا تفهم معنى لسؤالها.. ولم ترد عليها!

وعادت سامية تسأل بعد عدة خطوات:

- احنا حانقابل حد هناك؟!

وعادت ترفع إلى أختها العينين الغائمتين، وأجابت كأنها تائهة:

- ابراهيم..

وسكتت سامية، وقد خافت أن تثير فى أختها نوبة عصبية جديدة..

وأقتربا من ميدان «فنى»..

وأبطأت خطوات نوال، كأنها تصعد سلما.. سلم البيت الذى عاشت فيه بخيالها..

ثم وقفت بجوار جدار المستشفى..

إنها تحس فعلا انها تزور ابراهيم..

تزوره فى قبره..

وانهمرت الدموع فوق وجنتيها، ولم تحاول أن تجففها..

وحاولت أن تقرأ «الفاتحة» ترحما على حبها.. ولكن الآيات اختلطت فى ذهنها.. ووجدت نفسها تخلط بين «الفاتحة» و«التحيات».. وكلما حاولت أن تبدأ من جديد، تبخرت الآيات من ذهنها..

إنها ليست واعية.. وليست غائبة.. وهى لا تكاد تحس بموت ابراهيم حتى تحس بحياته.. ولا تكاد تتصوره فى قبره، حتى تراه فى بيتها.. ولكنها تتألم. كل شئ فيها يتألم.. كأن كل ما فيها يتمزق ويحترق.. انها تحس بآلام فى ذراعيها.. وفى رأسها.. وفى صدرها.. وفى ساقيها.. أعصابها.. أعصابها تؤلمها.. تتمزق.. تحترق..

وبدأت تقاوم الألم..

وأخرجت سامية منديلا من حقيبتها، ناولته لأختها فى صمت لتجفف به دموعها..

وتناولت نوال المنديل، وهمت أن تضعه فوق عينيها، ولكنها عادت وابعدته ونظرت إلى جندى بوليس يمر امامها، نظرات ارتسم فيها الرعب، كأنها ترى شيئا مخيفا لم تره من قبل..

ثم ركزت عينيها فوق البندقية التى يحملها البوليس.. انها لم تر هذه البندقية من قبل..

كانت ترى شيئا يحمله كل رجال البوليس.. وكانت تعلم أن هذا الشئ يسمى بندقية. وكانت تتصور البندقية شيئا كلعب الاطفال.. مجرد شئ يحمله رجال البوليس لتكملة مظهرهم الرسمى .. كهذه الأزرار الصفراء التى تحلي صدورهم..

ولكنها لم تر البندقية كما تراها الآن..

لم تر هذه الفوهة السوداء، كفم الافعى..

ولم تر هذا الزناد، كذيل العقرب.. أن «البندقية» ليست لعبة من لعب الاطفال، وليست شيئا لاستكمال المظهر الرسمى..

إنها اداة قتل..

هذه البندقية هى التى قتلت ابراهيم!!

لماذا يحمل رجال البوليس بنادق؟!

ليقتلوا بها الأبطال.. ليقتلوا بها الثورة.. ليقتلوا بها الحب.. وليحموا بها الانجليز.. والخونة.. والباشوات.. والملك.. وأعداء ابراهيم!!

والتصقت بأختها وهى تشعر بالخوف.. خوف شديد.. من البندقية.. ثم أمسكت بذراع أختها بيد باردة.. قطعة من الثلج.. وسحبتها، وسارت كأنها تتسلل بعيدا عن أعين رجل البوليس..

وسارت معها سامية دون مقاومة، ودون اعتراض أو سؤال. وقد اشتد بها اللوعة واللهفة على أختها..

واتجهتا إلى محطة الأوتوبيس، عائدتين إلى البيت..

والخوف لا يزال يستبد بنوال.. وهى تبحث فى كل خطوة تخطوها عن عسكرى بوليس يحمل بندقية وتعدهم: واحد.. اتنين .. تلاتة.. عشرة.. انهم كثيرون.. والبنادق فى ايديهم كثيرة.. وكلها

مصوبة إلى صدر ابراهيم.. وإلى صدرها.. إلى صدور كل الأبطال..

وكان خوفها يخفى تحته ثورة.. إنها تتمنى من خلال خوفها أن تهجم على كل رجل بوليس، وتخطف منه بندقيته، حتى لا يقتل بها احدا.. حتى لا يقتل ابراهيم مرة ثانية.. وهى تتصور نفسها فعلا تخطف البنادق.. وتتصور انها عملية سهلة.. لا تكلفها شيئا.. فقط تخطف البندقية وتجرى بها..

وركبت الأوتوبيس. وأطلت من النافذة.. وأستمرت تعيد رجال البوليس وتعد البنادق التى يحملونها.. وتتصور نفسها تخطفها!

وعندما وصلت إلى البيت، ألقت نفسها فوق الفراش.. وعادت تبكى..

وأختها تبكى لبكائها.. وتبكى ابراهيم.. وتبكى أخاها.. وتتذكر عبدالحميد فيشتد بكاؤها..

وعاشت العائلة ليلة ثقيلة جامدة.. كالهواء الراكد!

وأفرادها يخفون حزنهم فى صدورهم ويبالغون فى تكتمه.. فليس من حقهم أن يبدو حزنهم للناس.. ليس من حقهم أن يعرضوا دموعهم على أحد، أو يرتدوا السواد حدادا على ابراهيم، أو يترحموا عليه علانية.. إنهم لا يعرفونه. ابدا، ولم يروا وجهه. هكذا يبدون أمام الناس!

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى.. خرج الأب يصلى صلاة العيد ثم عاد وأخذ يعد الأشياء التى سيحملها لأبنه فى السجن، والتى أعدها قبل ذلك عدة مرات، واحتفظ بها تحت فراشه طول الليل..

وتحركت الأم فى فراشها.. وقالت دون أن تقرئ زوجها تحية الصباح:

- اسمع يا زاهر.. الدور الجاى يا تاخدنى معاك، يا أروح ازوره لوحدى.. انا خلاص، ما بقاش فيه.. ما عدتش أستحمل. مش قادرة استنى اكثر من كده.. لازم اشوفه.. أعمل حسابك على كده.. إلا إذا كنت عايز تموتنى..

وقال الأب من خلال ابتسامة باهتة:

ـ الدور الجاى يكون فى البيت بإذن الله..

وصرخت الأم :.

ـ ما تقوليش كده.. انا ما بقتش اصدق الكلام ده.. ما تضحكش على..

وقال الأب فى هدوء:

ـ يا ستى استبشرى.. النهارده عيد..

ـ مش عيد يا خويا.. أبدا مش عيد.. ده عيد على ولاد الكلب اللى حابسين ابنى.. انشاالله يارب ينطسوا فى عنيهم، واخدهم وكسة، يارب بحق صيامى اللى صمته تحرمهم من ولادهم زى ما حرمونى من ابنى، وتشحطط قلوبهم زى ما شحططوا قلبى.. يارب تاخدهم وتريح البلد منهم.. آه يا نارى.. بس لو كان فيه حيل.. لو كنت راجل.. ما كنتش عارفة أعمل أيه فى المجرمين دول..

وسكت الأب..

وعادت الأم تقول بعد فترة:

ـ ما تنساش توصيه ما يقلعش فانلته.. أصله يا حبة عينى ما يطقش الفانلة فى الصيف..

وقال الأب وهو لا يزال مشغولا باعداد الأشياء التى سيحملها دون أن يكون فيها شى يعده:

ـ حاضر..

وعادت الأم تقول:

ـ وتجيب منه الهدوم الوسخة، علشان تتغسل هنا..

وقال الأب:

ـ حاضر!!

وقالت الأم:

ـ أوعى تكون نسيت حاجة.. خدت جوز الفراخ؟

وقال الأب فى استسلام:

ـ أيوه!

وقالت الأم:

ـ ما تلفهمش لغاية ما سامية تحمر البطاطس..

وقال الأب:

ـ حاضر..

وظلت الأم تلقى تعليماتها، ووصاياها وتمنياتها.. حتى خرج الأب فى الساعة التاسعة، وقالت له نوال فى صوت باك، وهى تودعه:

ـ قول لهم انهم حيخرجوا قريب.. انا عارفة كده!

وقالت سامية:

ـ ما تنساش تقول لمحيى انى باعمل له بيجاما جديدة..

ثم استطردت فى صوت خافت:

ـ ولعبد الحميد كمان!!

ولم يسمع الأب كل هذا الكلام. إنما كان يهز رأسه ويقول «حاضر» دون أن يركز انتباهه إلى ما يسمعه.. وخرج مسرعا نحو السجن، وهو يحمل بين يديه الأشياء التى أعدها لأبنه وعبدالحميد..

ولم يكن يشعر بالرهبة.. لم يعد يرهب السجن.. وفى خلال الأيام التى مرت به كان قد اكتشف كل الطرق الضيقة التى تؤدى إلى الاتصال بالمسجونين.. عرف طريق رشوة الجنود. وعرف طريق وسايط ضباط البوليس.. وعرف طريق تهريب النقود.. والرسائل الصغيرة والأطعمة.. بل إنه استطاع أن يرى ابنه لعدة دقائق عندما كان فى المستشفى.. ثم بعد أن نقل محيى من المستشفى وأعادوه إلى السجن، ظل على اتصال به بواسطة الرسائل الصغيرة التى يحملها منه وإليه جنود السجن..

ولكن كانت هذه هى المرة الأولى التى يحصل فيها على اذن رسمى بزيارة ابنه..

وكان متفائلا بهذا الأذن.. كان يعتبره تحولا فى موقف البوليس من ابنه.. ولكن هذا التفاؤل، لم يكن يطغى على احساسه بالحدث الهام الذى وقع باستشهاد ابراهيم.. إن هذا الحدث جعله يحس بتفاهة مصيبة ابنه.. وجعله يحس بأنه ـ هو وابنه ـ يعيشان ضمن

مجموع كبيـر.. ضمن الأغلبية التى تصنع الثورة، وتصنع الابطال.. وهو احساس يـملأه بقـوة جـديدة.. كأنه الآن مـع هذا المجمـوع الكبيـر، يستطيع أن يتحدى البـوليس ويتحدى الحكومة.. ويقـتحم السجن..

ووقف أمام الباب الكبير..

وضغط الجرس.المثبت فى الحائط.. ضغطه بقوة!!

وفتحت كوة الباب وأطل منها الوجه الغليظ ذو الشارب المشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين.

وأبرز التـصريح بالزيارة الذى يـحمله.. فـمد الحـارس يده من خـلال الكوة وتناوله منه، ونظر فـيـه مليـا كـأنه يقـرأه.. ثم اغلق الكوة.. وغاب قليلا.. وعاد وفتح الباب الصغير ضمن الباب الكبير..

ودخل زاهر افندى..

٣٣

فوجىء المسجونون فى سجن الأجانب صباح أول يوم العيد ، بأبواب الزنانزين تفتح كلها مرة واحدة.. وتغيرت الأوامر ، فسمح لهم بالاختلاط بعضهم ببعض .. وقال لهم ضابط السجن ، أن الإدارة رأت أن تخفف عنهم بمناسبة العيد .. ثم هددهم بأن أى محاولة لإثارة الشغب داخل السجن ، ستؤدى إلى تطبيق الأوامر القديمة ، وإعادة عزلهم ، وحبسهم حبسا انفراديا .

ثم ابتسم لهم الضابط وقال كأنه ينهى خطابا بليغا :

ـ وكل عام وأنتم بخير!!

ورد المسجونون بهمهمات غريبة ..

ثم ابتسم كل منهم بينه وبين نفسه ..

ليس بينهم واحد يؤمن بإنسانية « الإدارة » وليس بينهم واحد يؤمن بأن البوليس السياسى يمكن أن يصدر أمرا بتخفيف قيود السجن ، لمجرد الا.. ال بالعيد .. إن هذه الأوامر الجديدة تعنى اتجاها جديدا .. وقد تعودوا من طول ما تحملوه من عذاب السجن أن يفسروا كل أمر ، تفسيرا يتعلق بمصيرهم .. حتى ابتسامة الضابط ، أو تكشيرة المأمور ، أو تودد العسكرى .. كل كلمة ، وكل حركة .. كل ذلك له تفسير فى أذهانهم يتعلق بمصيرهم .

مامعنى أن يفتحوا أبواب الزنازين.. ويسمحوا لهم بالاختلاط بعضهم ببعض !!

معناه أن التحقيق فى قضية هرب إبراهيم حمدى ، قد انتهى .. وحفظ !

لماذا حفظ التحقيق ؟!
لأنهم وجدوا إبراهيم ..
وجدوه شهيدا !!
وخرج كل سجين من زنزانته وهو يزحف بقدميه فى خطوات مترددة ، كأنه نسى كيف يمشى من طول ما قبع فى زنزانته الضيقة .. ثم يتلفت حوله كأنه لا يصدق أنه منح عشرين مترا من الحرية ..
وأخذوا يتجمعون فى الفناء الصغير الذى يتوسط السجن ، وهم يتبادلون التحية والتهنئة بالعيد فى أصوات رزينة هادئة .. وقد ارتدوا جميعا الثياب التى ينامون بها .. بعضهم يرتدى « البيجاما » . وبعضهم يرتدى « جلبابا » ، وبعضهم اكتفى ببنطلون البيجاما والفانلة الداخلية .. وبعضهم ينتعل « شبشبا » وبعضهم حافى القدمين .. وكانوا جميعا يكتمون فى صدورهم ثورات عنيفة .. كانت أعصابهم تالفة من شدة ماتحمله من عذاب .. ووجوههم صفراء ممتقعة من طول ما عاشوا فى ظلام الزنازين .. وكانت ترتفع فى عينى كل منهم ، بين الحين والحين ، نظرات شزراء قاسية مليئة بالسخط يوجهها إلى جندى من جنود السجن ، أو إلى الضابط عندما يمر به .. كأن كلا منهم يطلق من عينيه قبضتين قاسيتين تسعيان إلى عنق هذا الجندى أو هذا الضابط ليخنقاه ، انتقاما للعذاب الذى يعانيه كل سجين ، وللكرامة المجروحة التى أهينت خلف الأبواب المغلقة .
ولكنهم جميعا - وبلا اتفاق سابق - أخفوا السخط خلف ضلوعهم ، وأخفوا النظرات الشزراء خلف جفونهم .. وحاول كل منهم أن يفرح بنصيبه الضئيل من الحرية . وأن يمتع عينيه بالشمس التى أخفوها عنه طوال هذا الأسابيع ..وأن يملأ رئتيه بهواء ارحب من هواء زنزانته .. وأن يحس بين زملائه بصورة مصغرة للمجتمع الذى حرم منه ..
ووقف محيى أمام باب زنزانته يرقب زملاءه ، ويضغط على

قنطرة نظارته بطرف أصبعه بين الحين والحين ..

إن شيئا فيه تغير .. إن ملامح وجهه قد قويت ، ونظرات عينيه قد اشتدت . لم يعد جفناه يضطربان كجناحى عصفور حبيس خلف زجاج نظارته ، وهو يبدو هادئا .. أهدأ من زملائه ، كأنه أكبر منهم . وأعقل .. وليس فى صدره ثورة ، وإنما صدره مفعم بالاستسلام .. ومن خلال استسلامه يتعمق بتفكيره فيما جرى له ، وفيما يحيط به .. كأنه يطل بذهنه على عالم غريب .. عالم اكتشفه لأول مرة ..

وكان ينقل عينيه فى وجوه زملائه وفوق شفتيه ظل ابتسامة .. إنه لا يعرف أحدا منهم .. ولم ير وجوههم من قبل ، إلا فى لمحات خاطفة ، عندما كان يلتقى ببعضهم فى طريقه إلى دورة المياه .. ورغم ذلك فهو يشعر كأنه يعرفهم من زمان بعيد .. كأنه عاش معهم العمر كله ، فى بيت واحد .. عائلة واحدة يبدو كل فرد منها أمام الآخر مرتديا الجلباب أو البيجاما .. دون حرج !

وصاح به واحد من الزملاء :

ـ صباح الخير يا أستاذ محيى .. كل سنة وأنت طيب ؟!

أجاب فى صوت سليم ، لا يرتعش ولا يتردد :

ـ وانت بالصحة ..

إنه يعرف هذا الصوت .. إنه الصوت الذى كان ينطلق من خلف الزنزانة رقم «١١» ..

وعاد الصوت يدعوه :

ـ اتفضل ..

وخطا محيى خطوتين نحو الفناء ، وهو يتلفت حوله بحثا عن عبد الحميد .. ولمحه آتيا نحوه ، فاندفع إليه .. ووقف الاثنان ينظران أحدهما إلى الآخر مليا ، كأن كلا منهما يتعرف على الآخر من جديد .. ثم شد كل منهما على يد الآخر ، وهما يبتسمان فى تكلف ثم لم يتمالكا نفسيهما فاندفع كل منهما فى أحضان الآخر يضمه إلى قلبه .

وقال عبد الحميد وهو يربت على ظهر ابن عمه :

ـ كل سنة وأنت طيب يا ابن عمى !

وقال محيى فى حرارة :

ـ وأنت بالصحة يا عبد الحميد ..

وقال عبد الحميد وهو يبعد محيى من بين ذراعيه :

ـ باين فرجت ؟!

وقال محيى :

ـ على الله ..

ولمعت نظرات الذكاء الحاد فى عينى عبد الحميد ، ومال على أذن محيى هامسا :

ـ اوعى تقول حاجة . المسألة لسه ما انتهتش !

وابتسم محيى ابتسامة صغيرة كأنه يستخف بذكاء ابن عمه وقال :

ـ ما تخافش ..

ثم سارا جنبا إلى جنب نحو زملائهما .. ومحيى لا يزال يشعر بشعوره القديم الذى كان يشعر به كلما سار بجانب عبد الحميد .. شعوره بأن له سندا قويا ..بأنه ليس وحده .. شعوره بأنه يستطيع أن يكون هو وابن عمه على الغريب .. ورغم ذلك فقد قضى محيى ليالى كثيرة يتعذب بعبد الحميد .. فى المستشفى وفى السجن .. ليال قضاها يسائل نفسه : هل صحيح أن عبد الحميد هو الذى أبلغ البوليس ؟ هل صحيح ما قاله له اليوزباشى الدباغ ؟ وكان هذا التساؤل يقرع رأسه كالمطارق الثقيلة . .يحاول أن يتخلص منه فلا يستطيع ، ويحاول أن يقنع نفسه ببراءة عبد الحميد فيتذكر المفكرة الصغيرة التى عرضها عليه اليوزباشى الدباغ .. مفكرة عبد الحميد التى سجل فيها بخط يده نمرة تليفون همام بك ، والنائب العام .. وبعد أيام وليال كثيرة استطاع أن يخرس هذا التساؤل .. أن يخفيه فى عقله الباطن .. إن عبد الحميد سجن مثله ، وتعذب مثله ، ولم يعترف .. ألا يكفيه هذا .. حتى لو كان عبد الحميد قد حاول أن

يبلغ البوليس ، فيكفيه أنه عدل عن محاولته .

ولكن عقله الباطن لا يزال يلفظ نفس التساؤل إلى عقله الواعى بين الحين والحين .. فيقلقه ، وتعود المطارق إلى رأسه ..

ورفع عينيه إلى وجه عبد الحميد كأنه يحاول أن يكتشف الحقيقة .. ولكنه لم يكتشف شيئا ، كل ما اكتشفه أن عبد الحميد يبدو مهموما .

ترى لماذا يبدو مهموما ؟

وانضما إلى زملائهما ..

ورحب بهما زملاؤهما كبطلين .. تحملا العذاب .. ولم يعترفا .. ثم انخرطوا جميعا فى حديث واحد ..

وكانوا يتحدثون عن إبراهيم ..

وكانت الأخبار كلها قد وصلتهم . . والخطابات الصغيرة المهربة حملت إليهم كل التفاصيل التى لم تنشرها الصحف .. إنهم يعلمون أن إبراهيم هاجم معسكر العباسية .. ويعلمون مدى الخسائر التى أوقعها بالإنجليز .. ثلاثة قتلوا .. وخمسة عشر جرحوا .. وانفجرت دبابتان ، واربع سيارات لورى .. وقد طارد الانجليز ابراهيم داخل المعسكر .. طاردوه بالرصاص .. والكلاب المدربة .. وأصابوه برصاصة فى كتفه .. ورغم ذلك استطاع أن يخرج حيا .. ثم سقط شهيدا ، صريعا برصاصة ضابط بوليس مصرى . وهم يعلمون أن الانجليز ثائرون ، وأنهم قد يطلبون إسقاط الحكومة .. ويعلمون أن البوليس قد سلم الجسد الطاهر .. جسد إبراهيم .. إلى أهله وأجبرهم على أن يدفنوه ليلا .. وبلا جنازة ، وبلا احتفال .. ثم انطلق رجال البوليس كالكلاب المسعورة تفتش بيوت الطلبة والعمال ، ويقبضون عليهم .. ويضعونهم فى معتقل أقيم فى ضاحية الزيتون ، رهن التحقيق .. ولا تزال حملة الاعتقالات مستمرة ..

وكان اكثر من واحد يشترك فى رواية قصة إبراهيم .. ولم تكن فى نبرات أصواتهم رنة حزن يائس ، بل كان كل منهم يتكلم كأنه

يعيش فى القصة .. كأنه هو البطل .. وفى نبراته رنين أحلام ثائرة تدفعه لأن يبالغ فى سرد التفاصيل ، ويضيف عليها من خياله صورا جديدة من صور البطولة .

والذين لم يتكلموا كانوا يستمعون بعيون متسعة ، وأنفاس مبهورة ، كأنهم يشاهدون فيلما سينمائيا مثيرا .. ثم يتعدون بخيالهم ما يسمعون فيتصور كل منهم نفسه داخل معسكر الانجليز يلقى بالقنابل وأصابع الجلجنايت .

وكان محيى يستمع كأنهم يتحدثون عنه .. إن القصة تبدأ به .. إن اشترك فيها فعلا .. لولاه لما استطاع إبراهيم أن يدخل معسكر الإنجليز ويثير فيه الرعب ..وكان وهو يستمع يحس ببطولة إبراهيم أكثر مما يحس باستشهاده ..كان يحس به فى خياله بطلا حيا أكثر مما يحس به شهيدا مقتولا .. وكان يحس بالثورة ، أكثر مما يحس بالحزن ، كأن إبراهيم لم يمت .. ولن يموت .. إنه يعيش دائما فى صدره ..

وقال واحد من الزملاء كأنه يحلم :

ـ الواحد نفسه يشتغل شغلانه زى دى ..

وقال ثان وهو يضع يده فى فتحة جلبابه :

ـ الحكاية لازم تكبر يا جماعة .. البلد لازم تعمل حاجه !

وقال آخر وهو ينبش الأرض بأصابع قدمه :

ـ أنا بلغنى أن الجامعة حتضرب بعد أجازة العيد .. وحايخرجوا فى جنازة صامتة ..

وقال ثالث ، وقد التمعت فى عينيه نظرات ثائرة :

ـ واحنا كمان لازم نعمل حاجه .. متهيأ لى نقوم نكسر السجن وننزل ضرب فى العساكر ..

وقال رابع :

ـ حقنا نضرب عن الطعام النهارده !

وأطل آخر برأسه .. شاب اسمر .. عيناه واسعتان . وأنفه ضخم كأن رأس سهم موجه إلى أعدائه .. وشفتاه رقيقتان فوق ذقن

عريض قوى .. وقال فى صوت هادئ بطئ كأنه لم يتعود الكلام الكثير :

ـ المهم نخرج من هنا .. علشان نعرف نشتغل بره !

ووقعت هذه الكلمة فى أذن كل منهم كـأنها إيحـاء له بتـغيـير اتجاهه . واقـتنعوا فعـلا بأن مشكلتهم الأولى هى أن يخـرجوا من هنا .. أن يخرجـوا من السجن .. ليهبـوا حريتهم مرة ثانيـة للثورة التى يؤمنون بها ..

ولكى يعجلوا بـخروجهم من السـجن يجب أن ينتهزوا فـرصة التخـفيف عنهم ويمالئوا البـوليس .. ويحتفظوا بـهدوئهم ويتنكروا فى ثوب المظلومين الضعفاء .

ونظر محيى إلى زميله ذى الأنف الكبير ، وأحس أنه يرى أمامه إبراهيم .. إنـه يتكلم على طـريقـتـــه .. ويصـــرح بآرائـه فى نفس أسلوبه.. الأسلوب الذى لا يحمل لهجة الأمر ، ولا سلطة الزعامة .. أحس أنه أمام بطل جديد يتم رسالة بطل شهيد !!

وعـاد الزملاء يتـحدثون من جـديد بعـد أن نبذوا فكرة الثـورة داخل السجن .. وكان كل منهم يروى ذكرياته الوطنية .. وذكريات المظاهرات التى اشـترك فيـها .. السـجون التى دخلهـا .. وذكريات المرات التى حـقق معـه فيهـا .. وكانوا يروون هذه الذكـريات وهم يضحكون .. كأنها نكات سمعوا بها .. وليست عذابا عاشوا فيه ..

ومـحيى واقف صـامت .. إنه أيضـا يريد أن يروى ذكـرياته .. يريد أن يقول لهم إن إبـراهيم اختبـأ فى بيته .. ثم يضـحك عندما يقص عليـهم كـيف اختـبـأ إبراهيم مرة فـى السندرة بين بلاليص العسل وصـفائح السـمن .. ثم كيف ذهبت أخـته لتتـفق على خطة هربه مع فتحى المليجى .. يريد أن يـثبت لهم أنه هو الآخر مثلهم .. لا يقل عنهم بطولة .. ولكنه لا يتكلم .. إن حرصه يلجم لسانه .. إنه لن يتكلم أبدا .. لقد قرر أن يحبس ذكرياته فى صدره .. وإلى الأبد..

ورفع عـينيه إلى عـبد الحـميـد .. ربما كان هو الآخـر يريد أن يتكلم ..

يريد أن يلقي بنصيبيه في سوق الذكريات .. ولكن عبد الحميد كان صامتا ، منكس العينين .. يبدو مهموما ! ..

وتعب أحد الزملاء من وقفته ، فدخل إلى زنزانته ، وشد البطانية من فوق سريره ، وعاد بها وفرشها على الأرض وجلس فوقها مستندا ظهره الى الحائط .. ولحق به زميل آخر ، جلس بجانبه ثم انطلق يغني بصوت حالم ولحن حزين .. اغنية حب .. حب محروم :

أول ميعاد لى خلفتيه ..
تانى ميعاد برضه خلفتيه ..
تالت ميعاد شوفى رأيك فيه ..
راح تخلفيه ، ولا حتوفيه ..
يا حمام .. روح قوام لحبيبى ..
يا حمام ده البعاد زود نحيبى ..

ورفع عبد الحميد عينيه ، وتلقى النغم الحزين بأذنيه .. وأحس بقلبه يخفق .. ويطير .. يطير إلى سامية . حتى يصل إليها .

ودهش محيى وهو يلتقط كلمات الأغنية ..إنها أغنية لم يسمعها من قبل .. كأنه دخل إلى عالم كل شيء فيه جديد عليه حتى أغانيه..

وتسلل بقية الزملاء نحو الصوت الحزين ..ثم جاء أحدهم ببطانيته وفرشها بجانب البطانية الأولى .. وبطانية ثالثة .. ورابعة.. وجلس كل المسجونين على الأرض .. وبدأوا يغنون معا .. ثم ما لبث أن انقلب اللحن الحزين إلى لحن راقص ، اختلطت فيه أصوات غليظة ، وأصوات مبحوحة وأصوات رفيعة .. والأيدى كلها تصفق صفقات منتظمة .. وقهقهات عالية .. ونكات تقاطع الأغنية .. وواحد يرقص بكتفيه .. ثم قام زميل ووقف في وسط الحلقة ، وأشار إلى زملائه بالسكوت .. ثم قال فى لهجة مذيعى محطة الاذاعة :

– هنا سجن الأجانب .. افحص .. سيداتى (ونظر إلى جنود

السجن المتفرجين بجانب الزنازين ، وضج الزملاء بالضحك ، ثم استطرد وهو يلتفت إلى زملائه) وسادتى .. نبدأ برنامج العيد المبارك باغنية ياللى زرعتوا البدنجان . ويلقيها الزميل على محمود.. وأحب أن أقول لكم أن الزميل ولو أنه من أعيان سجن الأجانب ، إلا أنه ليس أجنبيا .. كما أنه تواضعا منه يقبل أى سيجارة تقدم له على سبيل إبداء الإعجاب ..

وبدأ الزميل يغنى أغنية فكهة ..

والضحكات تتعالى ..

وصرخ جندى من بعيد :

ـ بس يا أفندى أنت هو .. ممنوع الزيطة !!

ونظروا إليه بعيون ثائرة . وردوا على صراخه بصراخ أعلى :

ـ ايه عايز إيه ؟

وأدار الجندى رأسه ، كأنه يهرب من عيونهم .. وسكت ..

وصاح زميل منهم :

ـ ما تزعلش يا شاويش .. انشا الله تترقى وتبقى مسجون !!

وضج الزملاء بالضحك .

ثم قام المذيع وأعلن عن مسابقة فى النكت ، وبدأ كل واحد منهم يروى نكته .. وعقب كل نكتة ترتفع ضحكات صاخبة ، كأنها صراخ المظلومين .. وضحك محيى .. ضحك كما لم يضحك أبدا طول عمره .. إنه عالم غريب .. عالم يضحك فيه الناس من العذاب.. وضحك عبد الحميد .. وكانت ضحكاته ابتسامات خافتة تتسلل من بين همومه .. ثم اشتدت حتى أصبحت ضحكات أقوى من همومه .. وأحس أنه بين أصدقاء يحبهم .. وكأنه جالس معهم فى المقهى الذى تعودوا أن يجتمعوا فيه .. وبدأت شخصيته تتجمع لتبدو على طبيعتها .. وبدأ يستعد ليروى هو الآخر نكتة يساهم بها فى المسابقة .. إنه يحفظ نكتا كثيرة .. أكثر مما يعرفه كل أصدقائه مجتمعين .. سيثبت لهم خفة دمه ، وذكاءه .. ولكنه تردد فى اختيار النكتة التى بدأ بروايتها .. وقرر ألا تكون نكتة خارجة .. سيروى

لهم نكتة بيضاء ، ثم يتدرج حتى يصل إلى النكت الخارجة .

وتنحنح .. والتفت إليه الزملاء وبين شفاههم ضحكات معلقة تهم بالانطلاق ..

ونظر إليه محيى فى إعجاب ، ثم أدار عينيه فى وجوه زملائه كأنه يقول لهم : هذا ابن عمى ..

وقال عبد الحميد :

ـ مرة واحد مجنون شاف مجون تانى بيغسل قطة .. و..

وارتفع صوت من بين الزملاء :

ـ نو .. نو .. نو ..

وظهرت علامات الامتعاض على وجه عبد الحميد ، كأنه أيقن أن هؤلاء الجماعة ليسوا من محترفى الاستماع للنكت ورواتها ، ولكنهم من الهواة .. من طلبة المدارس لا من زبائن المقاهى .. ثم أكمل النكتة وقد فقد بعض حماسه :

ـ المجنون قال لزميله : « ماتغسلش القطة أحسن تموت » رد عليه زميله وقال له « مالكش دعوة » .. سابه المجنون ورجع بعد شويه لقى زميله بيعيط والقطة ميته بين أيديه ..

وارتفع صوت من بين المجموع :

ـ لا حول الله .. اما دى حكاية ..

وارتفع صوت آخر :

ـ أنا دمى « فار » !

وقال صوت ثالث :

ـ أمك ..

فرد الجميع :

ـ اشمعنى ..

وقال الصوت :

ـ بتخربش !!

وتحامل عبد الحميد على نفسه ، وقال كأنه يحاول أن ينقذ مركزه :

ـ لما الدبانة تخبط على باب بيتكم ، تطل الست والدتك وتقول :
ورد الجميع :
وقال عبد الحميد مقلدا مواء القطط باللهجة الانجليزية :
ـ نو ...نو .. نو ..
وضج الجميع بالضحك .. ورفع محيى رأسه ونظر إلى زملائه متباهيا بابن عمه .. وارتفع صوت يقول لعبد الحميد :
ـ أيوه كده انفرد .. قول لنا بأه حكاية المرحومة !!
وعاد عبد الحميد يقول مبتسما :
ـ لما المجنون شاف القطة ميته قال لزميله : « أنا مش قلت لك ما تغسلهاش أحسن تموت » ، رد عليه : « ما هى ما متتش من الغسيل » ، سأله : « أمال ماتت من ايه » ، قال له : « وأنا باعصرها » !!
وضج الجميع بالضحك ..
وزها عبد الحميد بنكتته ، ولكنهم ماليثوا أن صاحوا فيه :ـ قديمه .. قديمه .. انت لسه فى سنة أولى روضه يا أستاذ !
وفجأة برز الباشسجان منتصبا بقامته الطويلة العريضة ، وصاح فى صوت جهورى ، وهو واقف بعيدا عند مدخل الفناء الصغير :
ـ محيى الدين مصطفى زاهر ..
وسكت الجميع مرة واحدة كأن سكينا أشهرت فوق أعناقهم ..
والتفت محيى نحو الباشسجان وفى عينيه نظرات تتسائل فى اضطراب ..
وعاد الباشسجان يصيح وهو لا يتحرك من وقفته :
ـ عندك زيارة ..
واستراح المسجونون ، وعلت شفاههم ابتسامات .. ولكنها كانت ابتسامات حزينة .. تحمل حسرة وتشاؤما .. ان « الزيارة » قد بدأ يسمح للأهالى بزيارة المعتقلين ، فمعنى هذا أن مدة الاعتقال ستطول .. ستطول إلى شهور طويلة . إلى حد أن يضطر البوليس

إلى أن يتعب نفسه وينظم زيارات داخل السجن ..

ولم يكن محيى يعلم هذا المعنى الذى يدور فى أذهان زملائه .. ولكنه قام من مجلسه وهو متضايق ، يشعر بالخجل من زملائه .. لقد كان يعلم أن والده يحاول أن يحصل على أذن بزيارته منذ مدة.. وكان فى انتظار هذه الزيارة بين يوم وآخر ، ولكنه اليوم لا يريدها ، إنها تميزه عن زملائه .. وهو لا يريد أن يميز عنهم بشىء.. لا يريد أن يبدو بينهم كطفل صغير يدلله والده ، ويحاول أن يخفف عنه بزيارته ..

وسار بخطوات بطيئة نحو القسم الخارجى من السجن .. وزملاؤه يتعقبونه بنظرات اختلط فيها الرثاء بالحسد .. وسار عبدالحميد معه حتى الحاجز المقام من أسياخ الحديد ، الذى يفصل القسم الخارجى والقسم الداخلى للسجن وهو يهمس فى أذنه :

ـ سلم على عمى .. وخليه يطمن ماما وبابا على .. وخليهم يبعتولى فلوس .. وحد يروح يقابل مدير الشركة .. ويفهمه الحكاية قبل ما يرفدونى .. وخليه يسلم على عمتى ، وعلى نوال .. وعلى سامية ..

وتركه عند الحاجز الحديدى ..

وخطا محيى خلف الحاجز ، وسار وبجانبه الباشسجان ، حتى دخلا مكتب معاون السجن .. ووجد والده جالسا هناك على أريكة.. كأنه يراه جالسا فى غرفة « القعاد » على الأريكة الاستامبوللى ، مرتديا جلبابه .

وقام الوالد واقفا عندما رأى ابنه ..

إنها المرة الأولى التى يقف فيها له .. وكأنه ـ بلا تعمد ـ قد اعتبر أن ابنه قد أصبح رجلا .. بطلا .. يستحق الاحترام !

وانحنى محيى يقبل يد والده ..

ثم وقف كل منهما يشد على الآخر ، ويبحث عن نفسه فى عينى الآخر ..

ولم يرتم محيى فى أحضان والده ، ولم يقبله فى وجنتيه .. بل

تعمد أن يحتفظ بمسافة تبعده عن والده ، حتى لا يحاول والده أن يأخذه فى أحضانه .. ولو حدث هذا لأحس محيى بمزيد من الخجل والحرج أمام الكونستابل الجالس خلف المكتب فى الحجرة ، وأمام الجنود الذين يدخلون ويخرجون .. كان أكثر ما يخشاه أن يبدو أمام هؤلاء ولدا صغيرا يدلله أبوه ، وليس رجلا يستحق السجن !

وربما قدر أبوه فيه هذا الشعور ، فلم يحاول أن يحتضنه أو يقبله .. وجلسا بجانب بعضهما على الأريكة ، والكونستابل ينصت إلى كل كلمة يقولانها .

ولم يقولا شيئا ..

لقد اكتشفنا بعد برهة قصيرة أن ليس لدى أى منهما شىء هام يقوله للآخر .. إنما تبادلا عشرات الأسئلة والجوبة ، كلها تدور حول موضوع واحد .. بدأها محيى وهو يسأل فى لهفة يحاول أن يخفيها :

ـ إزاى ماما .. وإزاى صحتها .. وإزاى سامية ونوال ..

والأب يجيب ، ويعود يسأل بدوره عن صحة ابنه .. وعبد الحميد .. وكيف يعيشان .. وماذا يأكلان ..

ثم توقف بينهما السؤال والجواب برهة .. كأن كلا منهما قد شبع من الآخر .. وكأن كلا منهما يريد أن يعود من حيث جاء ..

وقال الأب وهو يتعمد أن يرفع صوته ، حتى يسمعه العسكرى:

ـ يا ابنى إذا كان عندك حاجة قولها . . اليوزباشى الدباغ بك راجل عايز يخدمنا .. لازم تسمع كلامه ؟!

ونظر إلى ابنه نظرة ذات معنى ، كأنه يكشف له عن خطة خطيرة ترمى إلى تضليل البوليس ..

وقال محيى :

ـ وأنا لو كان عندى حاجة ما كنت قلتها من زمان .. إنما أنت عارف يا بابا .. أناعمرى ما كان لى دعوه بحاجة !

وابتسم الأب ..

وابتسم الابن ..

إن الاثنين يشعران بتقارب بينهما لم يشعرا به من قبل .. إنهما يشعران كأنهما صديقان .. رجلان .. لم يعد الأب ينظر إلى الابن كطفل فى حاجة إلى حمايته ، إنما ينظر إليه كصديق .. كرجل بجانبه يحمل معه مسئولية العائلة ويتحمل عنها العذاب ..

وهمس محيى بسرعة :

ـ يظهر أنهم حفظوا التحقيق .. فتحوا الزنازين وسمحوا لنا نقعد مع بعض ..

واتسعت ابتسامة الأب .. ولكن ابتسامته اختفت سريعا عندما تذكر أن الفضل فى حفظ التحقيق يرجع إلى استشهاد إبراهيم .. ولكنه لم ينطق باسم إبراهيم ، ولم يتبادل ذكره مع ابنه ..

وانتهت الزيارة ..

وعاد محيى إلى داخل السجن يحمل الهدايا والثياب التى جاء بها والده .. ورأى زملاءه وقد انفضت حفلتهم الصغيرة .. وبعضهم لا يزال جالسا على الأرض فوق البطاطين المفروشة .. وبعضهم قام يتجول فى الفناء الصغير .. وبعضهم يغتسل ، أو يتناول طعام إفطاره ..

وأسرع محيى ووضع كل ما حمله له والده من مأكولات فى وسط زملائه الجالسين على الأرض .. كأنه يريد أن يتخلص من شىء يثير حوله اتهاما ، وصاح زملاؤه مهللين ونادوا على المتفرجين :

ـ قربوا يا جماعة .. الكحك وصل !!

وفى دقائق كان كل شىء قد اختفى من على الأرض ، وانتقل إلى الأيدى والأفواه ..

والجنود ينظرون بعيون جشعة .. وشفاه يسيل فوقها اللعاب .

وكان محيى قد ترك زملاءه ودخل إلى زنزانته وأخذ يبدل ثيابه الداخلية ، وبيجامته ، وعبد الحميد خلفه يسأله عن الأخبار ، وهو يجيبه فى عجلة .. ثم جمع ثيابه التى بدلها ، وبقية ثيابه التى لا يحتاج إليها .. وعاد بها إلى الحاجز الحديدى ، وناولها من وراء

القبضان لأحد الجنود ليسلمها لوالده حتى يحملها إلى البيت لتغسل هناك .. تحقيقا لوصية والدته ..

وعندما عاد إلى زملائه لم يجد شيئا قد بقى له ليأكله ..

ووقف مبتسما ..

لم يغضب .. ولم يأسف .. بل أحس أنه تخلص من عبء كبير .. وأنه استرد مكانته بين زملائه ..

وقال له واحد منهم ضاحكا ، وهو يناوله نصف كحكة :

ـ خد .. ما تزعلش !!

وأخذ نصف الكحكة قائلا :

ـ كل سنة وأنت طيب ..

وأحس أنها أحلى قطعة كحك أكلها فى حياته ..

وفجأة ارتفع صوت صرخ من جانب السجن :

ـ ابعد عنى يا عسكرى .. مالكش دعوه بيه .. أنا باقول لك أهوه!

ورد العسكرى فى صوت أجش :

ـ يا أفندى ممنوع .. اسمع الكلام بالراحة !

وعاد الصوت يصرخ :

ـ ابعد يا عسكرى .. غور من وشى !!

وصاح العسكرى :

ـ ما تزعقش .. خليك فى أدبك !

وصرخ الصوت :

ـ أدبى يا قليل الأدب .. ابعد ايدك عنى ..

وتجمع المسجونون حول زميلهم .. وتجمع حولهم جنود السجن .. وبدأت الأصوات تغضب .. ثم أصبحت الأصوات صراخا.. وارتفع صوت الباشسجان من عند الباب :

بس يا مسجون أنت وهوه .. كل واحد يدخل زنزانته .. كله يدخل الزنازين .. شده يا عسكرى دخله الزنزانة ..

وتنبه المسجونون ..

أنهم سيعودون إلى الزنازين ..
ستقفل في وجوههم الأبواب ..
سيعوون إلى العذاب الذى عاشوا فيه أسابيع ..
الشمس .. الهواء .. المجتمع الصغير ..
وتوترت الأعصاب .. لن ندخل الزنازين .. سندافع عن حريتنا .. سنتحدى هؤلاء المجرمين ..

ومد عسكرى يده يحاول أن يجذب سجينا إلى زنزانته ، فعاجله السجين بلكمة فى بطنه ، ولكمة أخرى فى وجهه .. وصرخ العسكرى .. واشتبك كل المساجين مع كل العساكر .. ومحيى واقف عند باب زنزانته يرتجف .. وعبد الحميد فى وسط المعركة ، وقد تمزقت ثيابه .. وهو أعنفهم ، وأشدهم ثورة .. وسجين سقط على الأرض ، ومن فوقه جندى يضرب رأسه بكعب حذائه ، وسجين لصق جنديا فى الحائط ، وضربه برأسه فوق أنفه فأسال منها الدم.. وسجين يجرى هناك .. وجندى يجرى فى الناحية الأخرى ..

ودخل الضابط إلى فناء السجن ، وخلفه جنود .. جنود كثيرون.. بعضهم يحمل البنادق .. وصاح الضابط :

ـ اقلع القايش يا عسكرى أنت وهو اضرب .. اضرب على طول!

وخلع كل جندى الحزام الجلدى الذى يتمنطق به حول وسطه .. وهجموا على المساجين .. وضربوا .. لا يهمهم أين تقع الضربة .. وارتفع الصراخ .. أن الأحزمة الجلدية تشق الوجوه .. وتذبح الظهور .. والدم .. دم كثير .. واستطاع سجين أن يخطف الحزام الجلدى من يدى الجندى .. وبدأ يضرب به .. وعاجله جندى آخر بضربة بمؤخرة بندقيته فوق عظمة كتفه .. فسقط على الأرض يتلوى من الألم..

إن المساجين يفرون إلى الزنازين .. ويغلقون أبوابها خلفهم بأيديهم .. وهم يصرخون .. ويتأوهون .. وبعضهم سقط على الأرض قبل أن يصل إلى الزنزانة ، فشده الجنود من شعر رأسه وألقوا به فى الزنزانة وأغلقوا الباب وراءه .. ومحيى فى زنزانته

يرتجف .. وعبد الحميد لا يزال يقاوم .. إنه أعنفهم .. إنه يجرى فى الفناء الصغير والجنود يجرون خلفه .. ثم يحاصرونه .. ويضربونه .. إنهم كثيرون . كثيرون جدا .. لم يعد يراهم .. إن دماءه تغطى عينيه .. لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه .. سقط .. وشده الجنود ، يجرجرونه على الأرض ، وألقوا به فى الزنزانة .. وأغلقوا الباب ..

الأبواب المغلقة ، تأوهات من ألم

وصوت خافت يصيح :

ـ يا مجرمين .. يا ولاد الكلب ..

ونظر الضابط حوله ..

لقد أغلقت كل الأبواب ..

وعاد إلى مكتبه

● ● ●

ومرت الأيام والأسابيع داخل السجن ..

وكل يوم يحمل كثيرا من الضحك ، وكثيرا من العذاب .. والزنازين لا تكاد تفتح مكافأة للمساجين على هدوئهم ، حتى تعود وتغلق عقابا لهم ..

وكل سجين يفتح عينيه كل صباح على أمل الافراج عنه ، ويغلقهما كل مساء على يأس مرير ..

وعبد الحميد يعنى أزمة نفسية عنيفة ، يحاول أن يتخلص منها بالضحك مع زملائه حينا ، وبإثارة الشغب داخل السجن حينا ، ولكن الأزمة النفسية ترتد دائما إلى صدره ..

وكان خلال هذه الأزمة يبحث عن أسباب فشله ..

لقد قضى فى زنزانته ليالى كثيرة مظلمة يحاول عبثا أن ينكر أنه إنسان فاشل ..

ولكنه أخيرا اعترف ..

اعترف لنفسه بأنه إنسان فاشل ..

وبقى أن يبحث عن أسباب فشله ..

لماذا فشل ؟!

وخلال الأيام والليالى الطويلة التى قضاها وليس معه إلا نفسه يحادثها ويحاورها ، بدأت تتضح له خيوط النور .. النور الذى حرم نفسه منه طول حياته .

إنه فشل ، لأنه لم يكن له إيمان ..

لم يؤمن بشىء أبدا طول حياته ..

لم يؤمن بالدين ، ولم يؤمن بالتقاليد .. ولم يؤمن بمبادىء الأخلاق ، لم يؤمن بمذهب من المذاهب ، ولا بزعيم من الزعماء ، ولم يؤمن بالشهادات الدراسية ، ولم يؤمن بالمجتمع ، ولا بعائلته، ولا بأبيه وعمه .. لم يؤمن أبدا إلا بنفسه .. وبذكائه .. ذكاء يدور فى فراغ ، لا تحده حدود من المبادىء ، ولا يرمى إلى هدف معين.. ذكاء يدور كالآلة المنطلقة التى لا تنتج شيئا ، وليس بجانبها عامل يحكمها .. فتنتهى الآلة بأن تحطم نفسها .. تنفجر .. وتحطم أيضا ما حولها ..

لو كان يؤمن بشىء ، لكان سعيدا ، مهما صادف من عذاب فى سبيل إيمانه .. ولما شقى بهذا الإحساس بالفشل .. هذا الاحساس الذى يجعله يحتقر نفسه ..

إن عمه سعيد ، رغم إنه ليس غنيا ، وسر سعادته أنه يؤمن بمجموعة مبادىء حددها له الدين ، والمجتمع ورسم على ضوئها أسلوبا معينا فى الحياة يستريح له ، ويجد شخصيته به ..

وأبوه .. سعيد أيضا ..

وهؤلاء الشبان الذين يزاملونه فى السجن ، إنهم سعداء .. إنهم لا يحسون مثل بالفشل .. وهم يتحملون السجن والعذاب بروح مخالفة لروحه .. روح أقوى وأشد إصرارا .. لأن كلا منهم يعلم أنه يتعذب فى سبيل مبدأ ومن أجل هدف .. وهذا الإيمان فى حد ذاته يخفف من وقع العذاب عليهم ..

وإبراهيم .. إنه ليس فاشلا ، رغم أنه مات .. إنه بطل .. لماذا

اعتبر بطلا .. لأنه مات فى سبيل مبدأ ، فى سبيل هدف .. ولا بد أنه سعيد بموتته .. حتى أنه ابتسم عندما وقع على الأرض صريعا..

ودون أن يشعر عبد الحميد ، بدأ يتجه بنفسه نحو الإيمان .. إنه يصلى داخل السجن بحرارة . وهو يتبع أسلوبه خلقيا جديدا فى معاملة زملائه .. وهو يشعر بحقد كبير على رجال البوليس .. لماذا .. لأنهم يعذبونه .. ويعذبون آلاف الشبان أمثاله .. لماذا يعذبونه ، لأنهم فى خدمة الانجليز .. والحكومات كلها فى خدمة الانجليز .. وبدأ يكره الانجليز يكرههم كالعمى .. إنه يريدهم أن يخرجوا من مصر ..

وبدافع تلقائى ، بدأ عبد الحميد يفكر فى نيل شهادة التوجيهية.. إن الوقت لم يفت بعد .. سينال شهادة ، مادام المجتمع يتخذ الشهادات مقياسا للاحترام .. وبدأ يسأل عن العلوم التى تدرس لطلبة التوجيهية .. وبدأ يهرب الكتب إلى داخل السجن ، ويذاكر فى الخفاء .. كأنه يخجل من أن يكتشف زملاؤه أنه آمن أخيرا بالشهادات .. ولكنه سينالها .. سينال الشهادة .. وسينال معها سامية .. ربماكان هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى سامية ..

ومحيى فى زنزانته يفكر تفكيرا آخر ..

إنه ليس نادما على عدم تقدمه إلى الامتحان ... وعلى ضياع عام دراسى من عمره .. لقد تعلم فى هذه الشهور أكثر مما تعلمه طول حياته ، وأكثر مما استطاعت كل كتب ومحاضرات كلية الحقوق أن تضعه فى رأسه .. وهو يريد أن يتعمق فيما تعلمه من هذه الشهور .. يريد أن يتعلم أكثر .. تعليما حرا لا تحده البرامج التى تضعها له الجامعة .. يريد أن يتعلم الحياة نفسها ..

وكان يتتبع الأخبار التى تتسرب إلى داخل السجن بشغف كبير.. لقد اضرب طلبة الجامعة ، وساروا فى مظاهرات ضخمة تنادى بسقوط الوزارة .. وسقوط المعاهدة .. والانتقام لإبراهيم حمدى .. واستشهد طالب . اثنان .. ثلاثة .. وألقيت قنابل على

المعهد البريطانى فى الاسكندرية .. وقتل جنديان انجليزيان .. وقتل خائن مصرى آخر .. وتكوّن اتحاد العمال والطلبة ..

إن كل الأخبار تصل إلى داخل السجن بالتفصيل .. بل وصل إليهم نشيد وضعه طالب صغير فى مدرسة ثانوية اسمه صلاح جاهين ، يقول فيه :

أيام حتجى بعد ليام دى ..
والشمس من دم إبراهيم حمدى ..
أيام حتجى ويبقى عمر جديد ..
والشمس حمرا بدم كل شهيد ..

وردد محيى هذا النشيد ، فى سره ، وهو يسائل نفسه : لماذا ؟

إنه يكرر دائما كلمة : لماذا ؟

لماذا يقبل الطلبة على الاستشهاد .. لماذا يلقون أنفسهم فى السجون .. لماذا يتحملون كل هذا العذاب .. لماذا يضعون هذه الأناشيد . . لا يمكن أن يكونوا كلهم مجانين .. ولا يمكن أن يكونوا كلهم « بايظين » .. لابد أن هناك سببا يدفعهم ... سبب أقوى من حياتهم .. سبب لم يعلمه فى بيته ووالده يحاصر أفكاره وتحركاته..

وماهى الوطنية .. وما هو الاستعمار ... وما هو الجلاء .. وما هى الخيانة .. وماهو الشعب ؟ !!

أسئلة تحيره ، ويحس وهو يتعمق فيها كأنه يغوص فى بحر لا قرار له ..

ووقع فى يده كتاب عبد الرحمن الرافعى عن التاريخ المصرى .. وجده مع أحد زملائه .. وقرأه بشغف كبير ووجد فيه بعض الضوء، فقرأ كل الكتب التى أصدرها عبد الرحمن الرافعى ثم قرأ عشرات الكتب .. كلها تتعلق بموضوع واحد .. كتب تاريخية ، وكتب سياسية ، وكتب مذاهب .. وقرأ القرآن ، كما لم يقرأه من قبل .. وقرأ بعده كتاب « رأس المال » لكارل ماركس ..

وبدأ يفهم ..

بدأ يضع معانى لهذه الكلمات الضخمة ، والشعارات المثيرة التى سمعها كثيرا .. بدأ يفهم لماذا استشهد إبراهيم ، ولماذا يثور زملاؤه..

وأحس بنفسه عنيفا ،متطرفا فى عنفه ..

لم يكن عنفا جسديا ، فهو يكره العنف الجسدى .. وطول مدة حياته فى السجن لم يشترك فى معركة واحدة أثارها زملاؤه ، ولم يعرض نفسه للاحتكاك بالجنود .. وعرف فى السجن بهدوئه .. وانزوائه .. واتزانه .. ولكن العنف كان فى رأسه .. لقد أصبح يحمل فيها آراء جديدة صائبة تصل إلى الهدف مباشرة ، وتثير أمة بأكملها .

وفى ذات صباح ..

صباح كان فيه اكثر يأسا من أى صباح آخر ، سمع صوت الباشسجان يصيح من طرف الفناء الصغير الذى يتوسط الزنازين:

ـ محيى الدين مصطفى زاهر ..

والتفت إليه صامتا .. فعاد السجان يصيح :

ـ هات هدومك ، وتعال .. افراج !

وبهت ..

لم يصدق أذنيه ..

ثم أحس بقلبه يخفق بشدة كعصفور فوجيء بباب قفصه مفتوحا .. سيخرج إلى الحرية .. إلى الحياة .. إلى بيته ..

وحاول أن يكتم فرحته وأن يخفيها عن زملائه ، حتى لا يجرحهم بها .. ووجد نفسه محرجا ، لا يستطيع أن يبدى أسفه لمفارقة زملائه ، لأنه يريد الحرية .. ولا يستطيع أن يفرح بالحرية.. لأنه نالها وحده دون زملائه ..

ومرت فترة صمت بينه وبين زملائه . ثم انطلق الزملاء مهللين: « مبروك يا عم » ، « اوعى تنسانا » ، « نشوفك قريب بإذن الله »..

وكان فى تهليلهم رنة افتعال لا تخلو من حسد ..

وتقبل تهانى زملائه .. وقبلاتهم .. وجمع هدومه ، وصافح

زملاءه واحدا واحدا ، وشد على يد عبد الحميد قائلا :

ـ الدور عليك يا أو عبده !

وخرج منطلقا ، ووقف أمام الكونستابل ، يلى البيانات التى يطلبها منه ..

وطلب منه الكونستابل أن يوقع على تعهد بعدم اشتغاله بالسياسة ..

وابتسم محيى بتسامة خافتة .. إنه لم يعد يستطيع أن يتعهد بعدم الا شتغال بالسياسة .. إن السياسة أصبحت فى رأسه وفى قلبه .. أصبحت فى دمه .. ولكنها لا تسمى « شياسة » ، إنما تسمى وطنية ..

ووقع بإمضائه على التعهد الذى قدم إليه ، وهو يعلم أنه يتعهد كاذبا ..

وهم أن يتحرك ليخرج من السجن .. ففوجىء بباب السجن يفتح، ويدخل منه اليوزباشى الدباغ وخلفه اثنان من الجنود يسوقون أمامهم طالبا شابا ..

وانحرف الدباغ إلى غرفة المأمور دون أن يلمح محيى ..

وساق الجنود الطالب المقبوض عليه إلى غرفة الكونستابل ، ورفع الكونستابل رأسه ، ثم عاد وخفضها وبدأ يسجل بيانات جديدة ، ثم صاح فى الجنود :

ـ حطوه فى نمرة « ١٨ » اللى فضيت دلوقت !!

وهز محيى رأسه دون أن يشعر بأسف على مصير السجين الجديد ..

إنه يعلم الآن الأسباب ..

ويعلم أن المعركة لن تهدأ ..

وخرج من السجن ..

الفصل بعد الأخير

ومرت السنون..

إن البيت واحد من ملايين البيوت.. يبدو من بعيد بيتا هادئا، طيبا، ساذجا، يقف الزمن على بابه، فلا يتقدم ولا يتأخر.. بيت من ملايين البيوت التى تبدو من بعيد كأنها لا يمكن أن تكون مصانع للثورة، أو مصانع للأبطال..

والأب قد عادت حياته منتظمة رتيبة.. يحكمها «المنبه» الموضوع بجانب فراشه.. ولا يزال ينسج حياته ومستقبل أولاده بحرص ودأب وكثير من الحذر.. كل ما تغير فيه أنه احتفظ بعادة قراءة الجريدة قبل أن يذهب إلى عمله.. وانه أصبح يتذوق الحديث فى السياسة والتعليق على الأنباء ويطيل فى هذا الحديث، حتى تكونت له عادة البحث عن أصدقاء يستمعون له ويستمع لهم.. وكان يدعو هؤلاء الأصدقاء إلى بيته، ثم أصبح يذهب إلى بيوتهم، ثم تشجع وأصبح يتسلل فى بعض الأمسيات إلى المقاهى بحثا عن هؤلاء الأصدقاء.. ثم تكونت له عادة الجلوس فى مقهى خاص، تعود أن يستريح إلى حديث رواده، ويستريح إلى أن يتحدث إليهم..

وكان فى حديثه ينحاز دائما إلى أحد الجانبين.. لقد اختار موقفه.. انه مع الناس وضد الحكومة.. ومع كل الناس، وضد كل حكومة.. لم يعد يكفيه أن يقف بقلبه موقف المتفرج.. لم يعد يكفيه أن يستعيض بذكريات ثورة ١٩، عن واقع الثورة التى يعيش فيها.. أن قلبه لا يتفرج الآن، إنما ينفعل.. وانفعاله لا يتعدى مجرد الحديث، ولا يصل إلى أبعد من لسانه.. ولكنه ينفعل.. ويأمل.. يأمل

أن تسـقط هذه الحكومـة. وتسقط الحكـومة التى تليـهـا.. ثم التى تليـها.. كل الحـكومات يجب أن تسـقط.. وأمله لا يتـعـدى سقـوط الحكومـات.. ثم لا شـيـئا بعـد أن تسـقط الحكومـة إلا أن تسـقط الحكومـة التى تليـها.. أو لا يدرى مـاذا يريد.. لا يدرى أين تنتـهى هذه الثورة التى تعمل فى صدره..

وقد تغـيرت النظرات فى عينيـه.. أصبحت نظرات تحـمل معنى السـخط والامـتعـاض.. وأصـبح كلمـا التـقى بشـاب أو طالب فى الجامعة نظر إليه كأمل كبـير.. أمل فى تحقيق الثورة.. كأنه يبحث وراء كل شاب عن بطل جديد أو عن مظاهرة..

وهذه النظرة الجـديدة هى التى أصـبح ينظر بهـا إلى ابنه.. انه اكتشف أن ابنه لم يعد طفلا.. ولم يعد يمثل جـيلا أقل احتمالا من الجيل الذى سـبقه.. انه أصبح يمثـل أملا.. أصبح يمثل مـسؤولية كاملة تشمل مصيـر البلد كلها.. وقد اثبت ابنه أنه رجل يستطيع أن يتحـمل المسئـولية.. تحمل المسـئوليـة عن العائلة كلهـا عندما دخل السجن.. وهو وزمـلاؤه يستطيعـون أن يتحملوا مـسئولية مـصر كلها..

وكـان أمله فى ابنه يشوبه كـثـير من الخـوف.. الخوف عليـه.. ولكن هذا الخوف لم يعد يدفعه إلى محـاصرة ابنه والتضييق عليه، إنما كان يدفـعه إلى الرجاء.. رجاء ألا يتـهور ابنه، وألا يندفع، وأن يسلم له..

موضـوع واحد كـان يمنع نفســه عن الحديث فـيه.. مـوضوع ابراهيم.. أن حـذره الطبيـعى يذكره بأن الامـر العسكـرى الخاص بعـقاب كل من يسـاعـد ابراهيم على الهـرب، لا يزال قائمـا.. وهذا الحـذر يجسم له خـطورة الموقف الوطنى الذى اتخـذه من ابراهيم، وما يمكن أن يتـرتب عليه من اضطهاد الحكومة له.. قـد يفصل من عمله، وقـد يقبض عليـه، أو قد يقـبض على محيى مـن جديد.. إنه حـذر.. متـشـدد فى حـذره.. وكلما جـاء ذكـر ابراهيم فى حـديث اصـدقائه، سكت.. لا يقـول شيـئا.. لا يحـيى حـتى بطولة ابراهيم بكلمة.. كـأن الحديث عن بطولة ابراهيم هو حديث عن بطولة بيـته..

بطولته، وبطولة ابنه، وبطولة ابنتيه..

ولم يكن حديث ابراهيم يأتى ذكره حتى فى البيت، إلا فى كلمات خاطفة، ثم يتعاون الجميع على بتر هذا الحديث كأنهم يخشون أن تكون للجدران آذان.. أو كأنهم يخشون أن يثيروا ذكرى عزيزة يحرصون عليها فى صدورهم ويضنون بها على ألسنتهم.. وربما اتصل هذا الحديث عندما يخلو الأب إلى زوجته فى غرفتهما.. ولكنه لا يتصل طويلا، فيسكت هنه الأثنان.. ويستلقى الأب على ظهره يتنهد فى ارتياح، كأنه يهنئ نفسه على قيامه بواجب كان يجب أن يقوم به.. وتتنهد الزم كأنها تترحم على روح الشهيد..

والأم الطيبة.. عادت إلى حياتها بين حجرات البيت، وفى المطبخ.. لم تترك الحوادث فيها من أثر إلا أنها أصبحت أكثر لهفة على ابنها.. لقد اكتشفت حقيقة كانت تجهلها، وهى أن فى مصر سجونا، وفى السجون تعذيب.. وأن ابنها لمكن أن يدخل السجن.. ويمكن أن يقتل كما قتل ابراهيم..

إن مصر ليست هى سكان العمارة.. وليست هى هؤلاء الجيران الطيبين.. وليست هى أولياء الله الصالحين الذين تعودت أن تزور اضرحتهم بين الحين والحين.. وليست هى عم عوض البقال والمعلم فتيحه الجزار.. وليست هى هذا الجندى البرئ الذى يقف عند ناصية الشارع.. إن فى مصر قوما آخرين.. قوم لم تكن تعرفهم.. قوم يقتحمون بيوت الناس، ويقبضون على الناس، ويسجنون الناس، ويعذبون الناس، ويقتلون الناس..

وهى تخاف على ابنها من هؤلاء القوم.. تودعه كل صباح وهى تقرأ حوله آيات من القرآن، وتستقبله بفرحة كأنه رد إليها من العالم الآخر.. فإذا تأخر بعض الوقت عن موعده أستبدت بها اللوعة، وسرحت عيناها من خلال نظرة فزعة، ترى بها الدنيا كلها ظلاما، وصراخا، ودماء.. وتكتم فزعها فى صدرها، وتترك ما فى يدها من مهام البيت، وتبحث عن ابنتيها لتجلس بينهما صامتة، كأنها تحتمى بهما من وساوسها.. إلى أن يعود محيى، فترتد إليها

الروح وتعود تطوف بين الحجرات وتستقر فى المطبخ..

وقد عاشت فى هذه اللهفة طول هذه السنين.. لم تستطع أن تقاومها أو تخفف من حدتها.. حتى بدأت اللهفة تأكل من جسدها المكتنز ومن وجهها المبتسم دائما، فأصيبت بضغط الدم، ثم أصيبت بمرض السكر.. فزوى جسدها، وتهدل جلدها، وتعبت ابتسامتها.. لم تعد ابتسامة إقبال، بل أصبحت ابتسامة استسلام.. ولكنها ظلت صابرة.. تطوف بحجرات البيت وتستقر فى المطبخ، وهى تكتم آلامها ووساوسها حتى لا تزعج بها أحدا من أحبائها..

وسامية..

لقد تزوجت..

تزوجت عبدالحميد..

وقد نال عبدالحميد شهادة التوجيهية فى نفس العام الذى خرج فيه من السجن.. ثم انتسب طالبا فى كلية التجارة.. وظل فى نفس الوقت موظفا فى الشركة.. ولم ينقطع عن التردد على بيت عمه.. لقد أصبح يربطه بهذا البيت شئ أكبر من القرابة، ويكاد يساوى حبه لسامية.. أصبح يربطه به سر مشترك وعذاب مشترك، وذكرى مشتركة.. وأصبح محيى بالنسبة له أكثر من ابن عمه.. إنه صديق.. إنه رجل بجانبه.. إنه فكرة وطنية يتبادلها معه.. لم يعد بينهما شك.. ولم تعد بينهما هذه الريبة التى كانت تثور فى صدر محيى تجاه ابن عمه.. ولا هذا الاستخفاف الذى يملأ صدر عبدالحميد تجاه محيى.. كلهما آمن بالآخر. ومناقشاتهما السياسية لا تهدأ أبدا.. والأب فرح بهما هما الاثنين.. لقد أصبح عبدالحميد قريبا إلى قلبه.. لم يعد ولدا «بايظ».. ولم يعد زواجه من سامية أمرا بعيد الاحتمال.

ولكن عبدالحميد لا يفاتح عمه فى زواجه من سامية، ولا يحاول أن يذكره بوعده.. لقد قرر بينه وبين نفسه ألا يتقدم مرة ثانية طالبا الزواج إلا بعد أن ينال بكالوريوس التجارة.. لقد آمن بالشهادات.. لم تعد ثقته فى ذكائه تكفيه ليطمئن إلى انه يصلح زوجا سامية .. وكل ما كان يرجوه هو ألا يتقدم لها أحد قبله..

ولم يكن يدرى ما يفعله لو تقدم إليها شخص آخر.. ربما ثار، وربما اختطفها، ربما حطم حياته.. ولكنه لم يكن يفكر كثيرا فى هذا الاحتمال.. كان يحس فى أعماقه أن سامية له، وأنه أصبح يستحق سامية..

وإذا كان قد سكت فترة عن موضوع الزواج، فإن حبه لم يسكت.. كان حبا ثرثارا يتكلم فى هذه النظرات التى تطوف بينه وبين سامية، وفى هذه الابتسامات التى يتبادلانها، وفى هذه المشاحنات الصغيرة التى لا تنتهى.. وكان الحب يصرخ فى هذه الأوامر الصارمة التى يصدرها لابنة عمه.. لا ترتدى هذا الثوب.. لا تكشفى عن ذراعيك.. لا تلبسى الكعب العالى.. لا تضحكى هذه الضحكة العالية.. لا تمشى هذه المشية الخليعة. أوامر لا تنتهى.. يفتعلها احيانا افتعالا.. ويصدرها باسم حقوقه كابن عم.. ولكنه لا يصدر مثلها لنوال!

وسامية تتلقى هذه الأوامر فرحة بها.. وقد يمر يوم أو يومان لايصدر إليها أمرا، ولا يثير مشاحنة، فتحس كأنه بعد عنها.. كأنه أقل حبا.. كأنه نسيها..

كانت قد عادت له بكل ما كان لها فى طفولتها وصباها من سذاجة، وثقة.. تنظر إليه كأنه انسان كبير جدا.. ذكى جدا.. يفهم من الحياة ما لا تفهمه وما لا تعرفه، حتى أنها لتخاف الحياة أن تتخلى عنها.. وعادت بنفس الشعور الذى كان لها عندما كان زواجهما أمرا متعارفا عليه بين أفراد العائلة.. تطيعه.. وتنتظره.. وتخافه.. وتعيش على أمل الزفاف..

ولم يسكت حديث الزواج طويلا.. أصبح همسا بين الأختين، ثم أصبح همسا بين الأم والأب.. ولم يعد أحد يشك فى أن سامية راغبة فى الزواج من عبدالحميد، ولم يعد أحد يعترض على زواج عبدالحميد من سامية..

إلى أن قالت الأم يوما لعبدالحميد:

ـ يا ابنى انتو حتفضلوا مخطوبين كده فى السر.. ما خلاص بأه.. انا عايزة أفرح، وورى فرحتى للناس..

وقال عبدالحميد والفرحة تملأ صدره:

ـ انا كنت مستنى يا عمتى لما آخذ الشهادة..

وقالت تقاطعه:

ـ وماله يا أخويا.. على بال الخطبة وكتب الكتاب تكون خدت الشهادة باذن الله..

وأعلنت الخطبة للناس

ومر عام، وتم عقد القران..

وعبدالحميد يقبل على دروسه ليحقق الزفاف..

وهو فى خلال ذلك لم يهمل المبادئ الوطنية التى خرج بها من السجن.. وكانت العقدة النفسية التى ترقد فى عقله الباطن تدفعه إلى التطرف فى وطنيته.. وإلى الاشتراك فى أعمال العنف.. كان يشترك فى المظاهرات.. ويطوف على دور الأحزاب يشترك فى نشاطها حينا إلى أن يكفر بهذا الحزب فيبحث عن حزب آخر.. وكان إذا سمع بقنبلة ألقيت فى مكان ما، أحس بالكمد لأنه لم يشترك فى القائها وإذا رأى منشورات توزع دار يبحث عن موزعها ليشترك معه فى توزيعها.. كان يلقى بنفسه فى كل عمل وطنى يصادفه.. لم يلهه حبه، ولا استعداده للزواج، عن المغامرة بكيانه وحياته فى سبيل المبادئ التى آمن بها.. وفى سبيل التفكير عن خطيئته الوطنية.. ولكن وظيفته فى الشركة كانت تبعده عن محيط الطلبة.. وعن محيط الفئات التى تنوى الاعمال الفدائية، وكان الملف الذى يحتفظ له به البوليس السياسى يسجل عليه ضعفه السابق، فأعفاه البوليس السياسى من مراقبته، وأبعده عن يده..

وسامية بجانبه تخاف عليه من حماسه.. وتخاف عليه من السجن مرة أخرى، وتتصوره بطلا وطنيا فتخاف عليه من مصير ابراهيم.. ولكن خوفها لم يمنعه من اندفاعه.. بل كان يتلذذ بخوفها ويزهو به، فيزداد اندفاعا..

إلى أن نال الشهادة الجامعية..

وتزوجا..

وعاشا مع العائلة فى بيت واحد.. وبدأ عبدالحميد جهادا جديدا

فى سبيل الحياة.. جهادا فى سبيل تكوين نفسه كرجل ناجح، صالح، رب عائلة، يسير على مبادئ مرسومة يحدها احساس وطنى صادق، ويدفعها ندم دفين على خطيئة سابقة..

ونوال..

لقد قضت عامين، وكل ما بقى لها من الحياة ذكرى قصيرة لحب لا يموت.. ومصحف ذهبى تعلقه فى رقبتها يضم ورقة عليها شهادة «لا إله إلا الله» مكتوبه بخط ابراهيم.. هى كل ما تركه لها حبيبها قبل أن يرحل..

وفى خلال هذين العامين كانت التجربة العنيفة قد صهرتها.. لم تعد هذه الفتاة المرحة الجريئة.. ولم تعد عينهاها تومضان بهذا النشاط الضاحك.. ولم تعد تهتم كل هذا الاهتمام بثيابها.. ولم تعد تترك ضفيرتها مسدلة فوق كتفها، ولم تعد تطيل التحديق فى الصور التى تنشرها المجلات لتقتبس منها ثوبا، أو عقصة شعر..

أصبحت فتاة كبيرة.. كبرت مع التجربة.. وأصبح طابعها طابعا حزينا.. حزينة فى نظرات عينيها، وحزينة فى ابتسامتها، وحزينة فى تصرفاتها.. ولكن حزنها كان يبدو كأنه تعقل.. كأنه تزمت.. وأشاع حولها جوا من الاحترام، أبوها يحترمها ولم يعد ينهرها، ولا يعيب عليها تصرفاتها.. فلم يعد فى تصرفاتها ما يعاب.. وأمها ومحيى، وعبدالحميد، وصديقاتها والجيران.. الكل يحترمها.. وسامية وحدها هى التى تعلم سر هذا التبدل الذى ألم بها، وتسكت عنه، وتحترمها كالآخرين، ولكنها ـ دون الآخرين تحترم حزنها، وفجيعتها، وحبها، وذكرياتها القصيرة..

هذا الاحترام جعل العائلة كلها، تقدر لنوال رأيها فيما يعرض من مشاكل.. لم تعد فى نظرة العائلة أصغر أفرادها، بل أصبحت أعقلهم.. وأحست نوال بهذا الاحترام، وهذا التقدير لرأيها، فاتخذت منه عوضا عن فجيعتها.. وأصبحت تفكر كثيرا قبل أن تقول رأيها فى هذه المشاكل الصغيرة التى تعرض العائلة... ثم تعلن رأيها فى هدوء وروية، كأنها زعيمة.. كأن البطل يعيش فى صدرها وينطق بلسانها.. كأن ابراهيم دائما معها!

إلى أن جاء يوم، كان عليها فيه أن تتخذ قرارا خطيرا..

لقد تقدم لها طبيب شاب، شقيق إحدى صديقاتها، يطلبها للزواج..

كان عليها وحدها أن تقرر..

إن اباها لن يجبرها على الزواج..

وهى لا تحب هذا الشاب..

إنها لا تزال تعيش فى ذكرى حبها لابراهيم..

ولكنها يجب أن تتزوج..

إن الزواج مصير كل فتاة.. إنه الوظيفة التى تعد لها كل فتاة والتى أعدها لها أبوها منذ ولدت..

ليس من حقها أن تعيش عاطلة بلا وظيفة!!

وكيف تعيش.. أين؟!

إن المجتمع يدفعها إلى الزواج.. لا إلى الحب.. والعائلة تنتظر لها أن تتزوج، لا أن تحب!

وقررت أن تقبل هذا الزوج الطبيب!

قررت أن تقوم بوظيفتها.. أن تقوم بها على خير وجه. وأن تكون زوجة صالحة؟!

وتزوجت.. قبل أختها سامية!

وقبل الزفاف، أخرجت قميص ابراهيم الذى كانت تحتفظ به فى دولابها.. وحملته بين يديها، ونظرت إليه طويلا، كأنه ترى بداخله صدر البطل.. ثم سارت به إلى اخيها وفى عينيها دموع لا تنهمر.. وقالت فى صوت خفيض:

ـ ده قميص المرحوم ابرا...

ولم تتم ذكر الاسم.. كأن قلبها سينطلق من فوق لسانها لو نطقت اسمه.

ثم خرجت مسرعة..

إنها لن تدخل بيت زوجها، وبين ثيابها قميص رجل آخر.

ولكن المصحف الذهبى لا يزال معلقا فوق صدرها، يضم الورقة التى تحمل خط ابراهيم.. كأنها لا تزال تنتظر لقاءه، لتضع ورقته

بجانب ورقتها، وتتم شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»!!
لعلها أن لم تلتق به في الأرض.. تلتقي به في السماء!
وعلى الأرض، عرف الناس عنها أنها خير الزوجات.. وإن زوجها أسعد الأزواج..
وفي السماء.. أمل لا يعلمه إلا الله.
ومحيي..
إن التغيير الكبير الذي ألم بتفكيره، ألم أيضا بغرفته..
أصبحت غرفته مزدحمة بالكتب.. كتب فوق المكتب، وكتب ملقاه على الأرض، وكتب في دولابه، وكتب فوق فراسه.. كتب قديمة، وكتب حديثة.. وفي هذا البحر من الكتب، تضيع كراسات المحاضرات، وملازم المواد الدراسية المقررة في كلية الحقوق.
وكان محيي يقرأ.. يقرأ دائما.. وهو جالس إلى مكتبه، ثم وهو راقد، ثم وهو يأكل.. انفتحت في نفسه طاقة هائلة للقراءة.. طاقة لا تفرغ ولا تشبع.. وكان يظن انه يقرأ في موضوع واحد.. ولكنه اكتشف أن كل المواضيع، متعلقة بهذا الموضوع الواحد.. اكتشف انه لا يمكن أن يعرف بلده ويعرف شعبه، إلا إذا قرأ في التاريخ وفي المذاهب، وفي الدين، وفي الأدب، وفي الاقتصاد.. ولم يكن يقر للتسلية.. كان يقرأ ليفهم.. كان يقرأ وفي يده قم رصاص، يسج به ملاحظاته على هوامش الكتاب، ثم لم يتعد تكفيه الهوامش، فكا يكتب ملاحظاته في أوراق صغيره يحتفظ بها بين صفحات كتاب..
وعجزت ميزانيته الصغيرة على ملاحقة نهمه للقراءة.. ف يتردد على دار الكتب، يمضي هناك ساعات طويلة يقرأ كل ش حتى مجموعات الصحف القديمة.. ثم لم يعد يكفيه أن يق بالعربية، فبدأ يقرأ بالانجليزية.. أصبح يعيش كالفأر يقرض بعيني كل كتاب وكل ورقة تقع بن يديه.. وكان يتلذذ وهو يقرض السطور بعينيه.. كان يحس أنه يكبر عاما مع كل سطر.. أن آفاقا جديدة تتفتح أمامه.. ونتائج جديدة يصل إليها.. كأنه يجد في كل كتاب حلا بسيطا لمشكلة حسابية عويصة..

وقد كبر محيى فعلا.. كبرت شخصيته فى بيته، وبين زملائه.. ولكن قراءاته الكثيرة جعلت منه انسانا نظريا يجرى بعقله وراء المثاليات، ووراء النظريات، ووراء المنطق المتحرر.. وظل بعيدا عن النشاط الوطنى العنيف.. لم يعرف عنه انه اشترك فى مظاهرة، أو اشترك فى جمعية، أو انضم لحزب.. إنما عرف بين زملائه بوعيه، وبحوثه.. ورغم ذلك فقد كان لا يتقدم برأيه إلا إذا سأله أحد فيه، ولا يعرض بحثا إلا إذا اضطر إلى عرضه.. كان لا يزال حريصا.. حذرا.. كل هدفه فى الحياة أن يعيش أكثر ليقرأ أكثر..

وهذه القراءات الكثيرة شغلته عن اصراره على أن يكون أول الخريجين فى دفعته.. لقد نجح بتفوق فى الامتحان ولكنه لم يكن الأول.. ولم يسع ليعين معيدا فى الجامعة.. بل قبل وظيفة فى احدى الإدارات القضائية.. ثم استقال واشتغل فى مكتب أحد المحامين، يدرس له القضايا، ويعدها، ويكره أن يذهب إلى دور المحاكم ليترافع أمام القضاة.. وبين الحين والحين كان يكتب بحثا وطنيا مستفيضا.. يكتبه بأسلوب هادئ، لا يحمل حماسا فى كلماته، ولكن منطقه ينبض بالعنف.. عنف الفكرة، وعنف الاتجاه الوطنى.. ثم يرسل هذا البحث إلى إحدى المجلات الوطنية.. لينشر بلا أمضاء!

●●●

وصحا محيى ذات يوم.. فإذا الثورة تحققت.. حدثت..

وأحس بقلبه يخفق فى صدره كأنه يزغرد.. وتابع الأحداث السريعة وابتسامة كبيرة تعلو شفتيه..

أحس كأنه يتباهى بنفسه..

أحس احساسا عميقا صادقا بأنه اشترك فى هذه الثورة.. اشترك فى صنعها.. هو وأبوه وأمه وسامية ونوال وعبدالحميد.. كل العائلة اشتركت فى صنع هذه الثورة.. اشتركوا فيها بالسخط الذى كان ينطلق من أعينهم. وبالأحاديث التى كانوا يثيرونها حولهم.. وباتجاه تفكيرهم وآمالهم.. وبالخلق الوطنى.. وبالارادة التى تحملت العذاب والحرمان..

هذه الثورة صنعتها عائلته..

وربما كان هذا هو سر فرحه بها.. سر قلبه الذى يزغرد، وسر ابتسامته التى تعلو شفتيه..

وعندما رأى البطل الجديد، أحس أنه يعرفه من زمان طويل .. أحس كأن له شيئا فيه.. كأنه اشترك فى صنعه إنه ليس غريبا عليه.. أنه قريب من قلبه.. قريب جدا من قلبه..

نعم.. لقد اشترك فى صنع البطل.. أو ربما كان الأصح انه اشترك فى صنع البطولة.. والبطولة ليست فردا واحدا يمكن أن يموت، ولكنها قوة تتجدد فى أفراد متتابعين.. قوة لا يصنعها فرد، ولكن تصنعها أمة وتجسدها فى فرد، فإذا أستشهد هذا الفرد أو انحرف، جسدتها فى فرد آخر.. البطولة لا تموت أبدا، ولا تنحرف ابدا.. ولم تمت بطولة ابراهيم ولا انحرفت.. ولم تمت بطولة سعد زغلول، ولا مصطفى كامل، ولا عرابى.. لم تمت يوما واحدا.. كانت بطولة حيه دائما.. حيه بحياة الشعب.. تتجسد فى الزعيم تلو الزعيم..

واتسعت ابتسامة محيى، وهو يصل بتفكيره إلى هذا الحد، كأنه اكتشف حلا بسيطا لمشكلة حسابية عويصة..

وأدار رأسه عن الموكب الذى يسير فى وسط الشارع، والتفت إلى الملايين التى تقف مهللة على الجانبين..

كل هؤلاء اشتركوا معه فى صناعة الثورة.. صنعها الفلاحون من حرمانهم، وصنعهاالعمال من كدحهم، وصنعها التجار من أحلامهم.. صناعة احتاجت إلى صبر طويل، وإلى عناد، وإلى آباء، وصهرت فى السجون والمعتقلات، وتحت ضربات السياط.. وبوركت بالدم والروح على مدى أجيال.

وسار محيى بين الملايين يقبل كل فرد فيها بعينيه.. يهنئه بثورته.. ثورة الملايين الذين يسكنون بيوتا هادئة، ساذجة، طيبة.. بيوتا لم يكن الانجليز، ولا البوليس السياسى، ولا الحكام، يعتقدون أنها تصلح لتكون مصانع للثورات.. ومصانع للأبطال

وذاب محيى بين الملايين..

رقم الايداع ١٣٢٧٠ / ٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0688 -9